أوربا والتتار

للدكتور
محمد محمد مرسي الشيخ
أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب
بجامعة الإسكندرية – ورئيس قسم التاريخ سابقاً

٢٠٠٢-١٤٢٣

رقم الايداع بدار الكتب
٢٠٠٢/١٥٩٧١

تقديم

شهدت أوربا في القرون الأخيرة للعصور الوسطي، أي منذ بداية القرن الثاني عشر حتي أوائل القرن الرابع عشر الميلادي فترة هامة في تاريخها ومرحلة خطيرة في تطورها في معظم أقطارها في فرنسا حيث لعب آل كابيه دوراً هاماً في تسطير تاريخ هذا القطر الأوربي في تلك الفترة، وكذلك في ألمانيا وإيطاليا حيث خطت كل منهما خطوة هامة في تاريخها، في ظل الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وكان الفتح النورماني للجزيرة البريطانية بداية هامة لتاريخ إنجلترا في العصور الوسطي سطر فيه ملوك النورمان في إنجلترا في تلك الفترة تاريخاً حافلاً للجزيرة البريطانية حتى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى. أما في شرق أوربا فقد شهد بروز السلاف وانتشارهم في تلك المناطق، وكذلك الشعوب التي تأثرت بالسلاف واكتسبت صفاتهم مثل البلغار والصرب والكروات والهنغاريين أو المجريين، ومثل السلاف الغربيون في تلك الملحمة المورافيون والتشك والونديون والبولنديون، أما السلاف الشرقيون فقد مثلهم الروس بعد امتزاج الفيكنج السويديين بالسلاف، كما شهدت هذه الفترة أيضاً ازدياد قوة البابوية في أوربا وتأثيرها في حياة المجتمع الأوربي في العصور الوسطى.

وفي نفس الفترة تقريباً شهد شرق آسيا ومنطقة منغوليا بصفة خاصة ظهور قوة روعت الدنيا في ذلك الوقت، هي قوة التتار أو المغول، منذ ظهور جنكيز خان في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي، بعد أن وحد القبائل المغولية والتترية والتركية، واندفع لغزو المناطق المجاورة في الصين وفي وسط آسيا، فاجتاح منذ بداية العقد الثالث من القرن الثالث



عشر الميلادى الدولة الخوارزمية في بلاد ما وراء النهر وخوارزم وخرسان وبعض مناطق إيران، واجتاح التتار شرق أوربا وروسيا، وأكمل التتار اجتياح المناطق المجاورة فاستولوا على بلاد الكرج (جورجيا) وغرب بحر قزوين واجتاحوا آسيا الصغرى وأرمينيا وديار بكر ومناطق الجزيرة وأطراف العراق .

ثم قضى هولاكو على الخلافة العباسية في العراق ودمر بغداد، قرب منتصف القرن الثالث عشر الميلادى، وتقدموا في بلاد الشام فاستولوا على حلب ودمشق ومعظم مدن الشام حتى فلسطين لولا أن ألحق بهم المماليك بقيادة السلطان قطز هزيمة ساحقة في عين جالوت سنة ١٢٦٠م وجرى طردهم من بلاد الشام وإنقاذ مصر وبقية العالم الإسلامي بل وأوربا من شرهم.

وكان المسلمون قد تعرضوا منذ السنوات الأخيرة للقرن الحادى عشر ومطلع القرن الثانى عشر الميلادى للغزو الصليبى والحملات الصليبية على الشرق، التى بلغت سبع حملات أسفرت عن إقامة أربع كيانات صليبية في أطراف العراق وبلاد الشام وفلسطين، فبرزت مملكة بيت المقدس الصليبية وثلاث إمارات لاتينية في الرها وفي أنطاكية وفي طرابلس واستمرت محاولات المسلمين لتحرير أراضيهم واسترجاعها من أيدى هؤلاء الصليبيين على مدى نحو قرنين من الزمان، حتى نجحوا في النهاية في الإجهاز على بقايا ذلك الدّيان واسترجاع أراضيهم من الصليبيين قرب أواخر القرن الثالث عشر الميلادى بعد معاناة شديدة وصفحات مضيئة من الجهاد ضد هذا المغتصب. فكللت جهودهم وجهادهم في النهاية بالتوفيق .

غير أنه مما يلفت النظر أنه بينما كان المسلمون في الشرق الأدنى يجاهدون لطرد بقايا ذلك الكيان الصليبى بعد أن أنقصوه من أطرافه باسترداد الرها بعد نحو نصف قرن من استقرار الصليبيين بها، واسترداد بيت المقدس إثر موقعة حطين تحت قيادة صلاح الدين الأيوبى، بعد نحو نصف قرن آخر من الزمان، وبدأ ذلك الكيان يترنح يوشك أن يتداعى في النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى، حين لم يكن قد بقى بأيدى الصليبيين سوى إمارة أنطاكية وكذلك إمارة طرابلس فضلاً عن مدينة عكا، إذا بالخطر الآخر يهدد منطقة الشرق الأدنى وهو الذى قدم هذه المرة من سهوب آسيا ومنطقة منغوليا وهو خطر التتار أو المغول الذين أشرنا إليهم آنفاً، وهو الخطر الذى أضاف عبئاً جديداً على كاهل المسلمين في النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى، وكان على المسلمين أن يواصلوا محاولاتهم في الإجهاز على بقايا الكيان الصليبى في الشرق، وفي نفس الوقت التصدى لهذا الخطر الجديد الذى روع الدنيا في ذلك الوقت، وأنذر بشر مستطير، لاسيما وأنه تأكد للمسلمين أن ثمة اتصالات قد جرت بين أوربا حكاماً وبابوات وبين هؤلاء التتار بهدف التقارب والتحالف لتحقيق المصالح المشتركة على حساب المسلمين خاصة مسلمى الشرق الأدنى .

وبدت خطورة هذه الاتصالات في ضوء تعاطف هؤلاء التتار مع المسيحيين بصفة عامة والصليبيين في تلك المنطقة بصفة خاصة، بعد أن دان بعض رجال التتار بالمسيحية النسطورية، أو وقعوا تحت تأثير من دان بهذه العقيدة من رجالهم و نسائهم، وأدى هذا التأثير إلى نتائج خطيرة فى تصرفات التتار تجاه المسلمين في آسيا وفي الشرق الأدنى. والمعروف أن هولاكو وقع تحت تأثير زوجته طقز خاتون التى كانت

تدين بالمسيحية النسطورية، فضلاً عن اعتناق بعض قادة ورجال التتار بهذه المسيحية ممن قادوا الجيوش المغولية ضد المسلمين في آسيا وفي الشرق الأدنى .

لذلك كله خصصت هذا المؤلف المتواضع لدراسة هذه الجوانب المختلفة وإلقاء الضوء عليها، أولاً: لدراسة أوربا في القرون الأخيرة من العصور الوسطى، أى منذ أوائل القرن الثانى عشر حتى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى، لإظهار ما شهدته القارة في تلك الفترة من صحوة هامة في أقطارها المختلفة في فرنسا وألمانيا وإيطاليا وإنجلترا وشرق أوربا وكذلك دور البابوية في حياة المجتمع الأوربى في ذلك الوقت ونشاطها في المجالات المختلفة وحرصها على تحقيق أهدافها بصفة عامة والأهداف الصليبية في الشرق بصفة خاصة، ولو اضطرت إلى معاداة الحكام والملوك والأباطرة، وتوقيع قرارات الحرمان على من لا يستجيب منهم لمطالبها وتحقيق أهدافها .

وثانياً: دراسة التتار منذ قيام دولتهم في آسيا وجهود جنكيز خان في إرساء دعائم هذه الدولة، بعد توحيده القبائل المغولية والتترية والتركية، ثم توسعاته في الصين وفي وسط آسيا وقضائه على الإمبراطورية الخوارزمية وضم أملاكها إلى دولته الناشئة، ثم توسعات المغول بعد جنكيز خان وفي عهد خلفائه في روسيا وشرق أوربا وغرب بحر قزوين وبلاد الكرج وآسيا الصغرى وأرمينيا والجزيرة وأطراف العراق ثم قضاء هولاكو على الخلافة العباسية في العراق وتدمير بغداد وغزو بلاد الشام والاستيلاء على حلب ودمشق ومعظم مدن الشام حتى فلسطين حتى إيقافهم على يد المماليك في موقعة عين جالوت سنة ١٢٦٠م .

وثالثاً: تخصيص جزء هام من هذا المؤلف لدراسة إتصالات أوربا حكاماً وبابوات بالتتار، والمحاولات التى جرت لتنصير هؤلاء التتار، والاستفادة من حماستهم واندفاعهم من ناحية ولحماية أوربا من شرورهم وغزوهم من ناحية أخرى، ثم المحاولات التى جرت للتحالف معهم للاستفادة من هذا التحالف لتدعيم الكيان الصليبى في الشرق ومحاولة حفظ بقايا هذا الكيان المترنح في النصف الثانى للقرن الثالث عشر الميلادى ومدى نجاح أوربا حكاماً وبابوات في تحقيق ما هدفوا إليه من اتصالاتهم بالتتار.

وعسى أن أكون قد وفقت فيما هدفت إليه من إبراز هذه الجوانب الثلاثة لهذا المؤلف المتواضع، الذى حرصت فيه على الاستفادة من كافة المصادر العربية وغير العربية والمؤلفات والمراجع الهامة في الشرق وفي الغرب على حد سواء وكل ما يثرى هذا الموضوع ويجلى غوامضه خاصة مقالات الموسوعات العلمية ومواد دوائر المعارف المختلفة والبحوث التى القيت فى المؤتمرات العلمية والندوات، وكافة ما يحقق الغرض.

وأرجو أن يحظى هذا العمل المتواضع بالرضى والقبول ويكون للقراء والدارسين وطلاب الدراسات العليا إسهاماً متواضعاً في دراسة هذا الموضوع وفهم حقيقة الأخطار التي تصدى لها المسلمون في منطقة الشرق الأدنى في تلك الفترة، ولا نبغى بهذا العمل سوى وجه الله سبحانه وتعالى ، كما أتمنى أن يجد السادة الزملاء في هذا المؤلف بعض ما يؤملون وأن يأخذ هذا العمل مكانه في المكتبة العربية مرجعاً من مراجع التاريخ بصفة عامة وتاريخ العصور الوسطى بصفة خاصة .

والله ولى التوفيق،،،

محمد محمد مرسى الشيخ

١ / ٨ / ٢٠٠٢م



الباب الأول

أوربا في القرون الأخيرة من العصور الوسطى

الفصل الأول : تطور التاريخ الأوربى منذ بداية العصور الوسطى حتى عصر الحروب الصليبية أى حتى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى.

الفصل الثانى : معالم تاريخ فرنسا منذ بداية الحروب الصليبية حتى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى.

الفصل الثالث : تاريخ ألمانيا وإيطاليا منذ عصر الحروب الصليبية حتى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى.

الفصل الرابع : إنجلترا منذ الفتح النورمانى حتى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى .

الفصل الخامس : شرق أوربا وروسيا في القرون الأخيرة من العصور الوسطى .

الفصل السادس : البابوية وازدياد قوتها وتأثيرها في حياة المجتمع الأوربى في العصور الوسطى .



الفصل الأول

تطور التاريخ الأوربي منذ بداية العصور الوسطى حتى عصر الحروب الصليبية أي حتى أواخر القرن الحادي عشر الميلادي

– تاريخ أوربا حتى عصر شارلمان

- غزوات الجرمان وظهور الممالك الجرمانية في الغرب.
- ازدياد أهمية البابوية في حياة المجتمع الأوربي .
- ظهور الإسلام وتأثر أوربا به سياسياً وحضارياً .
- عصر شارلمان في الغرب الأوربي .

– إمبراطورية شارلمان أو الإمبراطورية الكارولنجية

– عصر الإمبراطورية في غالة وإيطاليا وألمانيا .

– بقية أقطار أوربا الغربية التي لم تدخل في نطاق الإمبراطورية الكارولنجية.

- أسبانيا
- الجزيرة البريطانية
- روسيا

– ضعف خلفاء شارلمان منذ أواخر القرن التاسع وانقسام الإمبراطورية.

- ظهور دوقية نورمانديا في الشمال الغربي لغالة سنة ٩١١م
- ظهور الإمبراطورية الرومانية المقدسة في ألمانيا منذ سنة ٩٣٦م
- إنطواء إيطاليا تحت راية الألمان في الإمبراطورية الجديدة .

– نهاية الأسرة الكارولنجية وقيام آل كابيه في حكم غالة سنة ٩٨٧م

– الصراع بين أباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة والبابوية حتى أواخر القرن الحادي عشر الميلادي .



تمثل الألف سنة الواقعة بين القرن الخامس الميلادى والخامس عشر الميلادى — في رأى الغالبية العظمى من المؤرخين — حلقة التاريخ الأوربى الوسيط، بتقاليدها ونظمها وأحداثها، تمييزاً لها عن التاريخ القديم وعن التاريخ الحديث، مرت القرون الأولى من هذه الفترة وحتى القرن السابع الميلادى في تفاعل ذاتى بطئ، أخذ خلالها الغرب الأوربى يتعايش مع الظروف الجديدة التى شهدها والممالك الجرمانية التى انبثقت على أرضه وبين ظهرانيه[١]، على حين انغمست الإمبراطورية البيزنطية في شرق أوربا في أحداثها الخاصة وفتنها الذهبية، وتصديها لأخطار الفرس والآفار والبلغار والسلاف والقبائل الضاربة فيما وراء الدانوب[٢] .

فقد شهد الغرب الأوربى غزوات القبائل الجرمانية التى اجتاحت أقاليم الإمبراطورية الرومانية الغربية، بغية إقامة ممالك على أرض هذه الإمبراطورية، وأوطان قومية لهذه القبائل في تلك الأقاليم، للإفادة من ثراء تلك الإمبراطورية، والإقامة في أملاكها في الغرب[٣] . فقد أقام القوط الغربيون مملكة لهم في أسبانيا وجزء في جنوب غرب غالة، حتى نجح كلوفس — ملك الفرنجة— في إزاحتهم عن غالة، وقذف بهم إلى ما وراء البرانس بعد معركة ڤوييه سنة ٥٠٧م ، واستمرت هذه المملكة، قائمة في غالة حتى الفتح العربى الإسلامى للأندلس أى إلى أوائل القرن الثامن الميلادى فيما بين سنتى ٧١١ — ٧١٣م بعد أن عمرت في تلك البلاد نحو قرنين ونصف من الزمان[٤] .

(1) Painter: A Hist. Of the Middle Ages, p. 3
(2) Ostrogorski: Hist. Of the Byzantine State, p. 47, p. 51
(3) Oman: The Dark Ages, p. 4
(4) Altamira: A Hist. of Spain , p. 76

كما أقام الوندال مملكة جرمانية في شمال إفريقيا، منذ أن عبر بهم جيزريك إلى شمال إفريقية سنة ٤٢٩م لينساب الوندال فوق شمال إفريقية من طنجة إلى طرابلس والاستيلاء على قرطاجة سنة ٤٣٩م، لتصبح مملكة الوندال إحدى ممالك الجرمان وأكثرها شراسة وقسوة في حكم هذا الإقليم من الأقاليم التابعة للإمبراطورية الرومانية(٥) ، واستمر حكم الوندال لشمال إفريقية نحو قرن من الزمان حتى نجح الإمبراطور جستنيان- إمبراطور الإمبراطورية الشرقية — في إنهاء عهد هذه المملكة في شمال إفريقية والقضاء عليها، حين أرسل قائده بلزاريوس ليصفي ملك الوندال في شمال إفريقية، فانتهى هذا الحكم سنة ٥٣٤م، وعادت شمال إفريقية إلى حظيرة الحكم البيزنطي في الشرق .

واستطاع البرجنديون الاندفاع من شمال غالة إلى جنوبها الشرقي لإقامة مملكة أريوسية المذهب في المنطقة الواقعة بين نهر الرون وسلسلة جبال الألب، وتوسعت حتى كادت تبتلع المنطقة حتى ساحل البحر المتوسط(٧)، ثم كافحت هذه المملكة، لتتصدى لمحاولات الفرنجة، حين تطلع هؤلاء تحت حكم كلوفس لتصفية هذه المملكة الأريوسية بحكم اعتناق الفرنجة المسيحية على مذهبها الكاثوليكي ورغبتهم في تطهير غالة من تلك العناصر الأريوسية(٨) . وإذا كانت مملكة البرجنديين قد نجت هذه المرة من بطش الفرنجة بعد أن أعلن ملكها جندوباد تحوله

(5) Oman: op. cit. p. 8
(6) Hussey: The Byzantine World, p. 18
Keen : A Hist. Of Medieval Europe, p. 5
(7) Pirenne: Mohammed and Charlemagne, p. 32
(8) Camb. Med. Hist. Vol. 1. p. 285
Hodgkin: The moulding of the Nations, B. H. VII, p. 3371

وقومه إلى المذهب الكاثوليكى، فقد نجح خلفاء كلوفس في تصفية هذه المملكة في بداية العقد الرابع من القرن السادس الميلادى، بعد أن عمرت هذه المملكة في غالة نحو ثلاثة أرباع القرن، وطابت غالة للفرنجة وخلفاء كلوفس من البيت الميروفنجى(٩) .

وكان غزو الفرنجة لغالة حلقة هامة من حلقات الغزو الجرمانى لإقليم من أقاليم الإمبراطورية الغربية، حين عبر الفرنجة البحريون نهر الراين سنة ٤٨٦م بقيادة كلوفس لينسابوا فوق رقعة غالة مشكلين مملكة جرمانية، ربما كانت أهم وأبرز الممالك الجرمانية في الغرب(١٠) ، نظراً لأن الفرنجة حين عبروا الراين إلى غالة لم يتخلوا عن موطنهم الأصلى فيما وراء الراين وينزحوا إلى موطن جديد، وإنما احتفظوا بذلك الموطن فيما وراء الراين يمدهم ويدعمهم تباعاً في كل عام، فكأن الأمر اقتصر على توسع الفرنجة في غالة مع الاحتفاظ بالموطن الأصلى ليحفظ عليهم أصولهم وتقاليدهم ويدفع في كيانهم في كل عام بدماء جديدة(١١) ، فضلاً عن أنهم حين انسابوا فوق غالة كانوا لايزالون وثنيين لم يعتنقوا المسيحية بعد، ولهذا حين تحولوا إلى المسيحية اعتنقوها على مذهبها الكاثوليكى الغربى، فصاروا في حلف مع البابوية واقتربوا كثيراً من السكان الأصليين في غالة، ولم تعد هناك هوة سحيقة تفصلهم عن السكان الغاليين الرومان(١٢) ، وإذا أضفنا إلى ذلك معاملتهم للسكان معاملة طيبة لينة وعزوفهم عن إنزال السكان إلى رتب العبودية أو الاستيلاء على أراضيهم أو إجبارهم على دفع ضرائب باهظة أو التعسف في جمعها،

(9) Cantor: Med. Hist. P. 135, p. 147
(10) Lot : The end of the Ancient world, p. 316
(11) Heyck: "The rising tide of Teuten power" B. H. VII, pp. 34 38 –9
(12) Oman: op. cit. p. 58

كل ذلك قربهم من السكان(١٣) ، وجعل مملكتهم أعظم الممالك الجرمانية، والمملكة الوحيدة التى بقيت ولم يقض عليها واتصل تاريخها الوسيط بالتاريخ الحديث(١٤) ، وعدت مملكة الفرنجة أعظم وأهم الممالك الجرمانية والمملكة التى حالفت البابوية وزادت عنها والمملكة التى انجبت شارلمان باعث النهضة الأوربية ومجدد عصر الإمبراطورية في الغرب.

كما نجح القوط الشرقيون وهم الشق الآخر من قبيلة القوط في الوصول إلى إيطاليا وإقامة مملكة جرمانية فيها اعتباراً من سنة ٤٩٣م، حين نجح ثيودريك – الذى لقب بعد ذلك بثيودريك العظيم – في الانتصار على أودوآكر الذى كان قد أزال الإمبراطورية الرومانية الغربية في إيطاليا ونفي آخر أباطرتها إلى الجنوب. وأقام مملكة جرمانية هناك سنة ٤٧٦م(١٥) ، فاستطاع القوط الشرقيون الانتصار على هذا الملك وعصبته من أحلاف الجرمان والانسياب فوق إيطاليا ليخط القوط الشرقيون صفحة من أبرز وأهم صفحات الغزو الجرماني في الغرب(١٦)، لأن ثيودريك ملك القوط الشرقيين في إيطاليا مالبث أن أظهر روحاً طيبة تجاه الحضارة الرومانية، وحافظ على مقوماتها، ولم يتعصب بحكم أريوسيته ضد رجال الدين الكاثوليكى، وإنما أظهر كثيراً من التسامح في إيطاليا(١٧) ، ولم يشأ أن يغير في ذلك، بل انه شجع العلوم والفنون

(13) Pirenne \: op. cit. pp. 54 – 6
(14) Cantor: op. cit. p. 145
(15) Katz: The Decline of Rome and the Rise of Medieval Europe , p.73
(16) Ostrogorski : op. cit. p. 58
Vasiliev : The Byzantine Empire , p. 107
(١٧) فشر : تاريخ أوربا في العصور الوسطى ق١ ص ٣٣

والآداب وأظهر احتراماً شديداً لمظاهر الحضارة الرومانية هناك، وغدا بلاطه قبلة الشعراء والأدباء والعلماء والمفكرين حتى استحق اللقب الذى لقب به وهو ثيودريك العظيم(١٨)، وظلت هذه المملكة الجرمانية قائمة في إيطاليا بعد وفاة ثيودريك العظيم بنحو ربع قرن من الزمان حتى نجحت جيوش جستنيان والإمبراطورية البيزنطية في القضاء عليها قرب منتصف القرن السادس الميلادى سنة ٥٥٢م بعد أن عمرت نحو ستين سنة لتبدأ صفحة جديدة في تاريخ تلك البلاد(١٩) .

أما الجزيرة البريطانية فكانت مقصد ثلاث قبائل جرمانية بدأت تتوافد عليها منذ منتصف القرن الخامس الميلادى، وعلى مدى قرن من الزمان حتى منتصف القرن السادس الميلادى حين انجلى هذا الغزو عن ظهور سبع ممالك جرمانية في بريطانيا أو ما يسمى بالهبتاركى Heptarchy واحدة أقامها الجوت Jute وثلاث أقامها الإنجليز ومثلها أقامها السكسون (٢٠)، فكانت مملكة كنت لقبيلة الجوت، وأقام الإنجليز: إيست إنجليا (انجليا الشرقية)، ونورثمبريا ومرسيا، بينما أقام السكسون ممالك: إسكس وسسكس ووسكس، وساعدت الظروف الجغرافية على تكوين هذه الممالك إلا أن الحروب الداخلية عاقتهم عن تطويرها، ولم تصبح إنجلترا دولة متحدة إلا بعد مرور أجيال عديدة (٢١).

وظلت هذه الممالك تتصارع من أجل السيادة فيما بينها، وكلما نجحت إحداها في الانتصار على الباقين أكدت سيطرتها وسيادتها في الجزيرة

---

(18) Oman : op. cit. P. 20
(19) Hodgkin :" The moulding of the Nations" B.H. VII, p. 3372
(20) Davis and Arther: "The British Isles" B.H. VII, p. 3837
(٢١) محمد الشيخ : – الممالك الجرمانية في أوربا في العصور الوسطى ص ٤٦
– تاريخ أوربا في العصور الوسطى ص ١١٤

وتحولت الممالك الأخرى في ظلها إلى مقاطعات، وعلى هذه الصورة كان غزو واستقرار الجرمان في الجزيرة البريطانية، حتى انتهى الأمر – كما سنوضح فيما بعد – باتحاد هذه الممالك في مملكة واحدة لتبدأ صفحة جديدة في تاريخ الجزيرة البريطانية[٢٢] .

وعلى هذه الصورة كان انسياب الجرمان فوق رقعة أوربا الغربية في أسبانيا وغالة وإيطاليا والجزيرة البريطانية فضلاً عن ملحقات الإمبراطورية الغربية في شمال إفريقية ، فضلاً عما شهدته ألمانيا من هجوم واستقرار السكسون والألمانى والبافاريين وغيرهم من الجرمان ليضيع معالم الشق الغربى من الإمبراطورية الرومانية تحت وطأة هذا الغزو والاستقرار الجرمانى، وتتغير ملامح الغرب الأوربى بتفاعل الجرمان مع الرومان لتبدأ مرحلة جديدة في أوربا وصفحة جديدة في تاريخها أسفرت عن امتزاج الجرمان بالشعوب الرومانية وظهور ملامح جديدة لأقطار تلك المنطقة في العصور الوسطى.

وهكذا تشكل تاريخ أوربا في تلك الفترة اثر غزوات المتبربرين وانتشار المسيحية وتعمقها في نفوس الناس، واتخاذ عناصر الحضارة الرومانية أساساً لحضارة العالم الرومانى في العصور الوسطى وأتيح خلالها للشعوب الرومانية والجرمانية فرصة الاندماج والتداخل في لغاتها وأنظمتها وقوانينها وعاداتها وتقاليدها[٢٣] ، فضلاً عن أن هذه الحقبة قد شهدت ظهور البابوية وازدياد أهميتها في حياة المجتمع الأوربى والتفاف الناس حولها كقوة بعد أن انهارت الإمبراطورية واختفى

(22) Trevelyan: Hist. Of England, Part 1, p. 81
(23) Camb. Med. Hist. Vol. 2, pp. 55-56

الأباطرة وخلا الميدان من القوة السياسية والعسكرية التى يلتف الناس حولها ويؤملون حمايتها [٢٤] .

غير أنه بحلول القرن السابع الميلادى بدأت حقبة جديدة بالنسبة لأوربا بظهور الإسلام وبداية الفتوحات الإسلامية، فأخذت أوربا تتأثر تأثراً عميقاً بالإسلام في كافة الميادين سواء السياسية أو العسكرية أو الحضارية [٢٥] ، ففى حين قلم المسلمون أظفار الدولة البيزنطية الواقعة في شرق أوربا باقتطاع أهم الأجزاء والأقاليم التابعة لها في بلاد الشام وفلسطين ومصر وشمال إفريقية فضلاً عن بعض الجزر في البحر المتوسط مثل قبرص وكريت وصقلية [٢٦] ورودس وسردينيا وكورسيكا وجزر البليار، إذا بالغرب الأوربى يشهد تقدم المسلمين في أقاليمه وأراضيه في أسبانيا وجنوب فرنسا وجنوب إيطاليا وما بين إيطاليا وفرنسا [٢٧] ، فضلاً عن سيادة البحرية الإسلامية في البحر المتوسط والوثوب على سواحل أوربا الجنوبية [٢٨] .

ثم كان عصر شارلمان ابتداء من الثلث الأخير من القرن الثامن الميلادى وبدايات القرن التاسع الميلادى بداية حقبة جديدة وفترة هامة في تاريخ أوربا، جاءت عقب عصر درج فيه الفرنجة بصفة خاصة على

---

(٢٤) موس : ميلاد العصور الوسطى ص ٤٠
(25) Seidlmayer: Currents of Med. Thought, p. 63 (Trans. By barker)

(٢٦) فازيلييف : العرب والروم ص ٧٢ – ٧٣
موس : المرجع السابق ص ٢٥٢ ،
Hearder and Waley : A Hist. Of Italy , p. 28
Oman : op. Cit. P. 220
(27) Lot : The end of the Ancient World, p. 310
(28) Oman : op. Cit. Pp. 448-50

اتباع سياسة توسعية لاحتواء الممالك المجاورة وفرض السيطرة على القبائل الضاربة في الجهات القريبة، والتحالف مع البابوية، وحرص شارلمان على استمرار هذه السياسة بل والتوسع في تطبيقها[٢٩] ،فنجح شارلمان في إقامة إمبراطورية كبيرة كادت تبتلع معظم الغرب الأوربى، ونجح في إضافة أراضى شاسعة لدولته، ونشر المسيحية بين شعوب وثنية ضاربة فيما وراء حدود مملكته ولم يكتف بحماية أوربا المسيحية من الأخطار بل تصدى لكل الأعداء محاولاً القضاء عليهم وترك لأبنائه وأحفاده إمبراطورية شاسعة، وحقق لأوربا أمناً وسلاماً وفترة هامة في تاريخها الوسيط[٣٠] .

وخلال عصر الإمبراطورية الكارولنجية التى أقامها شارلمان، منذ أواخر القرن الثامن ومطلع القرن التاسع الميلاديين، اندمجت الأقطار الأوروبية الكبيرة في كيان واحد، وشكلت أجزاء هامة في تلك الإمبراطورية الكبيرة، فشكلت إيطاليا – باستثناء أراضى البابوية وبعض الأراضى الأخرى– جزءاً هاماً من إمبراطورية شارلمان [٣١] ، كما دلفت ألمانيا أو الجزء الشرقى في دولة شارلمان إلى أعتاب تاريخها الهام ضمن أقطار هذه الإمبراطورية الناشئة[٣٢] وغدت فرنسا (غالة) حجر الزاوية في هذه الإمبراطورية وعصب هذا الكيان السياسى الجديد .

---

(29) Cantor : Med. Hist. P. 223
(30) Oman : The Dark Ages , pp. 338-9
(31) Hearder and Waley : op. Cit. Op. 32
Cantor : op. Cit. P. 221
(32) Einhard :" Life of Charlemagne" in Med. World . by Cantor, p.142

موس : ميلاد العصور الوسطى ص ٣٥٢
Haskins : The Normans in European Hist. P. 31

أما أسبانيا فقد ظلت خارج نطاق هذه الإمبراطورية، وتابعت تاريخها في ظل الحكم الإسلامى، بعد فتحها على أيدى المسلمين في أوائل القرن الثامن الميلادى فيما بين سنتى ٧١١- ٧١٣م[٣٣] وانتشر الإسلام في ربوعها لتفقد البابوية جزءاً هاماً وإقليماً ارتبط منذ زمن بعيد بالمسيحية وتاريخ المسيحية وشهد صفحة هامة في تاريخ تلك العقيدة، وسطر القديسون والشهداء جانباً هاماً في تاريخ تلك البلاد وتحولت بقاعهم مزارات للحجاج وطالبى الغفران من المسيحيين، فلما دخل المسلمون أسبانيا ونشروا الإسلام فيها شعرت البابوية بخسارة شديدة وفقدت إقليماً هاماً عزيزاً عليها وعلى المسيحيين جميعاً خاصة وأن الحكم الإسلامى استمر في أسبانيا فترة طويلة ربما إلى أواخر العصور الوسطى[٣٤].

وكذلك كانت الجزر البريطانية خارج نطاق إمبراطورية شارلمان، حيث خطت خطوة هامة نحو وحدتها واندماج ممالكها المتعددة لتظهر نتائج هذه الوحدة منذ أوائل القرن التاسع الميلادى في عهد ملوك السكسون في مملكة وسكس Wessex[٣٥] خاصة في عهد ملكها ذائع الصيت ألفريد العظيم الذى حكم اعتباراً من سنة ٨٧١ وحتى نهاية القرن التاسع الميلادى (٩٠٠م) والذى حاز مكانتة في تاريخ الجزيرة البريطانية بنجاحه في التصدى لغزوات الفيكنج الشماليين أو الدانيين، الذين توافدوا على الجزيرة، واجتاحوا بعض ممالكها لاسيما نورثمبريا ومرسيا وإيست أنجليا بعد أن استولوا على لندن وكانتربرى[٣٦]، ولم

(33) Ostrogorski : op. Cit. P. 104

(٣٤) لين بول : العرب في أسبانيا ص ٢١٣، Camb. Med. Hist. Vol. 8,p. 489.

(35) Rayner : Concise Hist. Of Britain, p. 11

(36) Haskins : The Normans in European History, p. 33

يكن بوسع أحد التصدى لهم سوى الملك ألفريد ملك وسكس الذى انعقدت عليه آمال إنجلترا لحفظ استقلالها بعد ضياع لندن وكانتربرى[٣٧] ، فأبلى ألفريد العظيم بلاءً حسناً في حربهم واستطاع أن يلحق بهم عدة هزائم ويجبرهم على عقد أكثر من صلح، وإن لم يلتزموا كثيراً بذلك وانما أظهروا روحاً عدائية شديدة تجاه السكان وبالغوا في إظهار القسوة والعنف معهم[٣٨]، مما كان يجدد الحرب التى نجح ألفريد في كسبها بعد صعوبات جمة[٣٩]، حتى أرغمهم في النهاية على اعتناق المسيحية وجرى تعميدهم، وحين توافدت جموع جديدة منهم قرب أواخر القرن التاسع إلى الساحل الجنوبى الشرقى للجزيرة البريطانية، وهاجمت أساطيلهم ذلك الساحل، وكذلك الجزء الشمالى من مملكة كنت نجح الفريد العظيم قبل وفاته بسنوات قليلة في إجبارهم على الانسحاب[٤٠] .

واعتبر ألفريد العظيم أحد الملوك العظام في تاريخ إنجلترا، لأنه نجح لأول مرة في جمع الممالك الإنجليزية على هدف واحد من خلال تصديه للفيكنج أو الدانيين والحيلولة بينهم وبين الاستيلاء على ما تبقى من إنجلترا وحفظه بعيداً عن متناول قبضتهم، فنجح فيما فشلت فيه الكنيسة من توحيد الإنجليز وجمعهم على هدف واحد، فضلاً عن إصلاحاته التعليمية والكنسية التى أضافت إلى الناحية القومية[٤١]، ولهذا عد عهده بالغ الأهمية بالنسبة لتاريخ الأمة الإنجليزية قاطبة[٤٢]،

(37) Cantor : Med. Hist. p. 121, p. 325
(38) Rayner : A concise Hist. Of Britain , p. 16
(39) Haskins : op. Cit. P. 34
(40) Schjoth : " Great days of the Northmen " B. H. XII, p. 3554
(41) Southern : The making of the middle Ages, p. 167, 188
(42) Cantor : op. Cit p. 207, فشر : المرجع السابق ص ١٢١

وعند وفاته تجرأ خلفاؤه وأخذوا يستردون البلاد من الدانيين جزءاً جزءاً، وكلما تقدموا صوب الشمال وحرروا جزءاً أقاموا فيه قلعة أو معقلاً تحول بمرور الوقت إلى مدينة صغيرة حتى انتهى الأمر بتوحيد إنجلترا كلها تحت حكم ملك واحد هو الملك إدجار (٩٥٩-٩٧٥م) الذى يمكن وصفه بأنه كان بحق ملكاً لإنجلترا المتحدة[٤٣] .

وتوارث خلفاء الفريد العظيم الحكم في الجزيرة في الوقت الذى بدأ النظام الإقطاعي يقوى في كيان المجتمع الإنجليزي، فلما تولى ملوك ضعاف لم يعد بوسعهم السيطرة على النبلاء انتهز الدانيون الفرصة واجتاحوا في أواخر القرن العاشر بعض جهات الجزيرة البريطانية حتى اضطر ملوك وسكس إلى دفع الأموال لهم ليرحلوا عن البلاد[٤٤] ، ثم تتابعت موجاتهم في شكل غزو اسكندنافي عام يمثل الأمة الاسكندنافية المترابطة، الأمر الذى ترتب عليه هروب الملك إثلرد إلى نورمانديا وقيام كانوت ابن ملك الدانيين في عرش إنجلترا سنة ١٠١٦م[٤٥] ، وغدا هذا الملك يحكم إنجلترا والنرويج والدانمرك، فربطت إنجلترا بعجلة الإمبراطورية الاسكندنافية، ولم يعد عرش إنجلترا إلى البيت المالك القديم في الجزيرة إلا في سنة ١٠٤٣م، حين نجح ادوارد الثالث (المعترف) ١٠٤٢ — ١٠٦٦م وهو من بيت ألفريد العظيم في استرداد عرشه بعد فترة قضاها في المنفى لدى دوق نورمانديا[٤٦] .

(43) Trevelyan : op. Cit. P. 81
(44) Simpson: Everyday life in the Viking Age. 43
(45) Trevelyan : op. cit. pp. 98-9
(46) Haskins : op. Cit. p. 74

وبعد وفاة إدوارد الثالث المعترف سنة ١٠٦٦م تذرع دوق نورمانديا وليم – الذى عرف بعد ذلك بوليم الفاتح– ببعض الذرائع والحجج للاستيلاء علي إنجلترا، فنزل على الشاطئ الجنوبى الشرقى لإنجلترا، وأنزل الهزيمة بالإنجليز في موقعة هاستنجز في نفس العام وفتح إنجلترا وضمها إلى نورمانديا، ولقب منذ ذلك الوقت بوليم الفاتح(٤٧) . وهكذا بدأ عهد جديد في الجزيرة لأن هذا الفتح كان فرصة مواتية لتوسع النورمان في كل مجالات الحياة في الجزيرة البريطانية، بعد إخضاع الجيوب المعارضة والسيطرة على بقية البلاد(٤٨) ، وكان هذا التوسع النورمانى فرصة أيضاً لرجل الدولة والمنظم النورمانى لإعادة ترتيب وتنظيم الحكومة في الجزيرة البريطانية، حتى اعتبرت إنجلترا بلداً نورمانياً حتى ليذهب بعض المؤرخين المحدثين إلى أن ذلك لم يكن سوى عملاً لإعادة الإصلاح والتنظيم الذى تطلب كل مواهب النورمان(٤٩) .

ولعل أهم نتائج هذا الفتح بالنسبة لإنجلترا هو تحول إنجلترا جهة الجنوب وزج بها دفعة واحدة ف التيار الرئيسى للشئون الأوربية(٥٠)، والمشكلات السياسية لأوربا والشئون الكنسية والمؤثرات الثقافية والفكرية بعد أن كاد الغزو الدانى يفصل بينها وبين القارة ويشدها بعيداً إلى الشمال(٥١) . ولكن اتحاد إنجلترا ونورمانديا جعل إنجلترا جزءاً من فرنسا فتلقت لغة فرنسا وأدبها وفنونها أيضاً، وأصبح

---

(47) Trevelyan : op. Cit. pp. 116-17
(48) Stenton : Anglo Saxon England , p. 617
(49) Haskins : op. Cit. p. 81
(50) Ibid. p. 82
(51) Trevelyan : op. Cit. p. 102

قانونها إلى حد بعيد قانوناً فرنجياً وغدت مؤسساتها أكثر رسوخاً في النظم الإقطاعية، مع أن الاتصال بينها وبين فرنسا جرى خلال نورماندیا وحمل إليها التأثير الفرنسي في أشكال نورمانيه[٥٢] ، خاصة في المجالات التي برز فيها النورمان أو تفوقوا لاسيما في مجال الحكومة والنظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وليس بخاف أن الملكية النورمانية القوية التي قامت في إنجلترا بعد الفتح هي التي حولت الدولة الانجلوسكسونية المفككة إلى الأمة الإنجليزية، فلم تتحول إنجلترا إلى دولة أوربية إلا بعد أن دفعت الثمن بجعلها بلداً نورمانياً[٥٣] . وعلى هذه الصورة جرى تاريخ الجزيرة البريطانية حتى أواخر القرن الحادى عشر ومطلع القرن الثانى عشر أى إلى بداية عصر الحروب الصليبية.

أما روسيا فلم يبدأ تاريخها إلا في القرن التاسع الميلادى، حين أوغل الفيكنج السويديون شرقاً في هجرة كبيرة، حيث احتكوا بالسلاف فأطلق عليهم السلاف اسم روس Rus أى الحمر[٥٤] ، في الوقت الذى انفتح فيه الطريق أمام هؤلاء للوصول إلى حوض نهر الدنيبر وسواحل البحر الأسود بعد انهيار قوة الآفار في القرن التاسع الميلادى، فترتب على ذلك تأسيسهم لدولة روسية في شرق أوربا[٥٥] ، ومن هذا الحدث بدأ تاريخ روسيا المدون، أى أن السويديين هم الذين وضعوا أسس الدولة الروسية[٥٦] .

---

(52) Haskins : op. Cit. p. 82
(53) Ibid. p. 82
(54) Camb. Med. Hist. Vol. 3 p. 327
(55) Ostrogorski : op. Cit. p. 102
(56) Haskins : op. Cit p. 30

ونظراً لأن هؤلاء الروس عافوا الزراعة والرعى ونزعوا إلى التجارة، فقد تألفت روسيا في القرن التاسع الميلادى من مجموعة مدن تجارية كبرى نهض بعضها على نهر الدنيبر وروافده ونهر الفولجا الأعلى وبعض البحيرات الكبيرة، وأوغل هؤلاء الروس شرقاً حتى بحر قزوين واتخذوا طرقاً متعددة أهمها طريق نهر الفستولا إلى البحر الأسود ومنه إلى البسفور(٥٧)، وبرع الروس في النواحى الإدارية والتنظيمية والسياسية، فأصبحوا سادة روسيا، واتخذوا لهم مستعمرات في جنباتها لاسيما مدنها التجارية الكبرى مثل نوفجرود، كما استولوا على كييف واتخذوا منها دوقية روسية، فأصبحت مركزاً هاماً للروس في شرق أوربا(٥٨) ، ثم ما لبث أن اتسع نفوذها فشمل جانباً كبيراً من السهل الروسى، ولم يمض وقت طويل حتى نفذت المسيحية وتيارات المدنية من القسطنطينية إلى هؤلاء الروس (٥٩) .

وإلى جانب ما اتصف به الروس من حب للتجارة كانوا أيضاً محاربين أشداء اتخذ منهم الأباطرة البيزنطيون جنداً مرتزقة، وفرقاً للحرس الإمبراطورى، غير أن هؤلاء الروس أعطوا التجارة كل اهتمامهم، وكثيراً ما أشعلوا الحروب بسببها، لاسيما مع الدولة البيزنطية لتحكمها في المضايق وتجارة البحر الأسود(٦٠) . وعلى هذه الصورة جرى تاريخ الروس حتى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى .

---

(57) Trevelyan: op. Cit. p. 75
Schjoth : "Great days of the Northmen " B. H. VII. pp. 3539-40
(58) Keen : op. Cit. p. 25
(٥٩) فشر : تاريخ أوربا في العصور الوسطى ق١ ص ١١٥
(60) Schjoth : op. Cit. pp. 3539 -40

وإذا كانت إمبراطورية شارلمان لم تسعد كثيراً بوحدتها، بل عانت من جديد مغبة الانقسام والتداعى، حيث لم يستطع خلفاء شارلمان الحفاظ على وحدة هذه الإمبراطورية إلى أواخر القرن التاسع الميلادى(٦١)، إلا بصعوبة كبيرة أو ينجحوا في منع انهيار هذه الإمبراطورية- بما كانت تمثله من وزن في وحدة العالم الغربى إلا بشق الأنفس إلا أن نتائج هذا الانقسام والضعف أخذت تظهر في الغرب الأمر الذى حاولت معه الكنيسة الغربية أن تبرز كوحدة دينية كبرى للفوز بولاء الشعوب الغربية والالتفاف حول البابا وفي نفس الوقت حاولت الكنيسة أن تجمع هذه الشعوب على هدف واحد وتبث فيهم مشاعر الانتماء إلى الوحدة الجديدة ولو أقيمت هذه الوحدة في ظل الكنيسة أو البابوية (٦٢) .

فلم يكن في فرنسا- قلب الإمبراطورية الكارولنجية - في أواخر القرن التاسع الميلادى ممثلاً للبيت الكارولنجى سوى طفل صغير في السابعة أو الثامنة من عمره، الأمر الذى أدى إلى انتخاب أودو كونت باريس ملكاً وهو أمر أملته الأخطار المحدقة بالبلاد في ذلك الوقت وحصار النورمان لباريس(٦٣) خاصة وقد أكد هذا أحقيته في العرش الفرنسى بنجاحه في رد الغزو النورمانى عن منطقة السين واللوار وإجبار هؤلاء الغزاة على فك الحصار عن باريس، على الرغم من أن هذا لم يكن بمرور الوقت - سبباً مقنعاً لاحتفاظه بالعرش في ظل النظم الإقطاعية(٦٤)، ووجود الكونتات والنبلاء الإقطاعيين المنافسين من ناحية وعودة أودو

(61) Hoyt and Chodorow : Europe in the Middle Ages, p. 204
(62) Cantor : op. cit. p. 225
(63) Davis : op. cit p. 166
(64) Ganshof : Feudalisni , p. XVI, p. 3, p. 115
Hoyt and Chodorow : Europe in the Middle Ages , pp.202-3

لمسالة النورمان ودفع الأموال الطائلة لهم حين عادوا لتـهديد البـلاد مـن ناحية أخرى(٦٥)، في الوقت الذى كان الولاء للسـلالة الكارولنجيـة لازال باقياً والرغبة في الحفاظ على أملاكها لازالت حاضرة من ناحية ثالثة .

لهذا اندلعت الثـورات في البـلاد واضطربـت الأحـوال وجـرى في النهاية تتويج سليل الأسرة الكارولنجية شارل البسيط سنة ٨٩٣م واضطـر أودو إلى الاستسلام في النهاية ووافق على أن يخلفـه شـارل البسـيط عنـد وفاته نظراً لأنه لم يكن له عقب، فلمـا تـوفي سـنة ٨٩٨م أصبـح شـارل البسـيط ملكـاً علـى فرنسـا(٦٦) مسـترداً بذلـك عـرش آبائـه وأسـرته الكارولنجية، وعلى الرغم مما لصق بهذا الملك من أسماء تجعلـه في عـداد البسطاء أو السذج إذ سمـى بشـارل البسـيط أو السـاذج إلا أن فريقـاً مـن المؤرخين يؤكد أن هـذا الرجـل لم يكـن يخلـو مـن منـاقب(٦٧)، ولم تكـن تنقصه القوة أو الطموح في وقت اشتدت فيه هجمات النورمـان وغزواتـهم في الشـمال الغربـى مـن فرنسـا وهـى الهجمـات التـى أرقـت مضـاجع الفرنسيين وأقضت مضاجعهم فتصدى لها هذا الملـك وكبـار نبلائـه(٦٨) في أوائل القرن العاشر الميلادى في همة وعزيمة وحماسة طاغية، حتى نجـح في إلحاق هزيمة كبيرة بهم تحت أسوار شارتر تراجعـوا بعدهـا إلى الـوراء وقبل زعيمهم روللو توقيع معاهدة صلح مع شارل البسيط عرفت بمعـاهدة سان كلير على نهر الإبت في يوليو سنة ٩١١(٦٩) وهى التى كـانت نقطـة

(65) Camb. Med. Hist. V. III , p. 322
(66) Fliche : L'Europe Occidentale , p. 68
(٦٧) حاطوم : تاريخ العصر الوسيط ص ٤٧٤
(68) Camb. Med. Hist. V. III, p. 322
(69) Cantor : op. cit. p. 254
Oman : op. cit. p. 501

البداية للنورمان في تأسيس دوقيتهم في الشمال الغربى لغالة، ومركز الانطلاق لهم بعد ذلك لغزو الجزيرة البريطانية سنة ١٠٦٦م تحت قيادة وليم الفاتح ولتخرج منها جماعات إلى جنوب إيطاليا وصقلية ليلعب النورمان دورهم الناشط في القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين(٧٠).

وإذا كانت الأسرة الكارولنجية قد حافظت على عرشها مدة تربو على نصف قرن من الزمان بعد ذلك وحتى سنة ٩٨٧م أى إلى أواخر القرن العاشر الميلادى، على الرغم من أن تسلسل هذا الحكم قد قطعته حوادث غير متوقعة أحياناً وفقدت هذه الأسرة عرشها سنوات خلال هذه الفترة(٧١)، إلا أن سنة ٩٨٧ م جاءت خاتمة لحكم هذه الأسرة ونهاية لحكم ملوكها في فرنسا حين أختير هيو كابيه ملكاً على البلاد وايدت جموع الشعب الفرنسى هذا الاختيار وباركته أيضاً الكنيسة الفرنسية (٧٢).

وعلى هذه الصورة كانت نهاية الأسرة الكارولنجية في حكم فرنسا في أواخر القرن العاشر الميلادى وخلفها آل كابيه في حكم البلاد في الفترة من سنة ٩٨٧م إلى سنة ١٣٢٨م أى أن هذه الأسرة الجديدة حكمت فرنسا نحو ثلاثة قرون ونصف (٧٣) وعلل المؤرخون أسباب سقوط الأسرة الكارولنجية بأن ملوكها لم يستطيعوا مسايرة النظم الإقطاعية التى غدت عصب الحياة الاجتماعية في البلاد في ذلك الوقت، ولم يستطيعوا مواءمة أنفسهم مع هذه التيارات الإقطاعية التى أصبحت تتغلغل في كيان المجتمع في وقت لم يعد بوسع أى سلطة الاستمرار دون أن تسندها أسس

(70) Haskins : The Normans in Eutropean Hist. P. 45
(71) Camb. Med. Hist. V. III, p. 74, p. 80
Davis : op. cit. p. 168
(72) Camb. Med. Hist. V. III , p. 80 — حاطوم : المرجع السابق ص ٤٨٢
(73) Hoyt and Chodorow : op. cit. p. 204

إقطاعية[٧٤] ، وأكد تاريخ آل كابيه الأوائل هذه الحقيقة، فقد حكم أربعة منهم على مدى نحو مائة وعشرين عاماً (٩٨٧-١١٠٨م) دون أن يتميزوا كثيراً عن أفصالهم الإقطاعيين، ولهذا فقد بدا ملوك آل كابيه الأربعة الأوائل وحتى أواخر القرن الحادى عشر ومطلع القرن الثانى عشر في ظل هذه الأوضاع ملوكاً ضعافاً[٧٥] .

وإذا كانت الحملة الصليبية الأولى قد جذبت بعض كبار الإقطاعيين، الأمر الذى ترتب عليه هدوء المسرح الفرنسى من ذلك الصراع والتنافس قليلاً إلا أن ذلك كله لم يعط الملك الفرنسى كل ما كان يأمل فيه من السلطة والنفوذ ويمنح الملكية قوة أو منعة، وظل الوضع على هذا الحال حتى ولاية الملك لويس السادس سنة ١١٠٨م الذى تبدلت الأوضاع في عهده خاصة في النصف الأخير من عهده لتشهد البلاد خضوع معظم الأتباع الإقطاعيين[٧٦] لاسيما وقد دخل في حلف مع البابوية واتخذ موقفاً حازماً مع رجال الدين في بلاده، ولم يسمح للكنيسة في بلاده أن تعلو فوق سلطانه [٧٧] .

وهكذا كان تطور الأمور في فرنسا قلب الإمبراطورية الكارولنجية وما آل إليه حالها في ظل الملوك الأواخر من الأسرة الكارولنجية والملوك الأوائل من آل كابيه حتى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى (١١٠٨م) وأوائل القرن الثانى عشر الميلادى.

---

(74) Tille: " France under the early Capets " in the Book of Hist. v. VII, p.3771

(٧٥) كانتور: التاريخ الوسيط ق٢ ص ٦٠٤ (ترجمة د. قاسم عبده قاسم القاهرة ١٩٨٣م)

(76) Keen : A Hist of Medieval Europe, p. 89

(77) Tille : op. cit. p. 3771

أما ألمانيا التى كانت تمثل الجزء الشرقى من الإمبراطورية الفرنجية، فقد قامت فيها دولة مستقلة حين انتهت فيها سلالة البيت الكارولنجي في أوائل القرن العاشر سنة ٩١١م[٧٨] واختير فيها كونراد الأول ملكاً ثم خلفه هنرى الأول (الصياد) سنة ٩١٩م الذى كان دوقاً لسكسونيا والذى ظل يحكم إلى سنة ٩٣٦م حيث أخذ الطابع الألمانى يغلب على هذه الدولة لتبرز حقبة جديدة في تاريخ ألمانيا المستقلة [٧٩]، ثم خلفه أوتو الأول Otto (٩٣٦-٩٧٣م) فشكل ذلك نقطة تحول هامة في تاريخ هذه الدولة إذ يعتبر هذا الرجل مؤسس الإمبراطورية الرومانية المقدسة، بما يشير إليه اسمها من ارتباط إيطاليا وألمانيا برباط متين تحت سيادة حاكم واحد، وعد أوتو الأول المؤسس الثانى للإمبراطورية في الغرب بعد شارلمان خاصة بعد دخوله روما سنة ٩٦٣م وتتويجه على يد البابا حنا الثانى عشر، في نفس المكان الذى توج فيه شالمان من قبل[٨٠].

ثم ازداد الارتباط بين إيطاليا وألمانيا في ظل الإمبراطورية الرومانية المقدسة في عهد الأباطرة الذين جاءوا بعد أوتو الأول سنة ١٠٥٦م ، وأصبحت إيطاليا في نظر هؤلاء الأباطرة لاتقل أهمية عن ألمانيا[٨١] لاسيما وقد بذل هؤلاء الأباطرة جهوداً في تثبيت نفوذهم في إيطاليا كلها لا سيما في الجنوب، حيث وثب المسلمون من صقلية واستولوا على بعض المراكز في جنوب إيطاليا في الوقت الذى حرص فيه هؤلاء الأباطرة على إظهار الإمبراطورية بمظهر الوارثة لتراث روما القديمة من ناحية وإمبراطورية شارلمان من ناحية أخرى [٨٢] .

---

(78) Oman : op. cit pp. 472 – 3
(79) Camb. Med. Hist. V. III p. 179
(80) Oman : op. cit. p. 373
(81) Bryce : The Holly Roman Empire, pp. 136 – 8
(82) Epistolae Gerbert , Ed. Havet 1889, p. 231 Chronicon novaliciene (Trans. Davis. in C.M.H. 3, pp. 213 – 14)

هذا وقد حرص أباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة على دخـول روما، وفيها توج بعضهم ومثلت الفترة بـين سـنتى ١٠٣٩ و ١٠٥٦ وهـى الفـترة التـى حكـم خلالهـا الإمـبراطور هـنرى الثـالث أزهـى عـهود الإمبراطورية الرومانية المقدسة في الغرب بلغـت خلالـه الإمبراطوريـة أوج قوتها وذروة عظمتها، وأضحى بوسـعها توجيـه سياسـة الغـرب الأوربـى قاطبة[٨٣] خاصـة وقـد حـرص هـذا الإمـبراطور علـى إصـلاح الكنيسـة في إيطاليا وتطهيرها مـن المفاسـد والتنـازع علـى الكرسـى البـابوى ووضعـها تحت سلطته وسيطر عليـها سـيطرة تامـة، علـى الرغـم مـن أن البابويـة كانت قد أخذت تنشط وتقوى وتحاول التخلص من هذه السـيطرة وطـرح هذه الطاعة مما أرهص بحدوث نزاع حاد بينها وبين الإمبراطورية اشـتد في عهد خليفة هذا الإمبراطور (هـنرى الرابـع) ذائـع الصيـت الـذى بـدأ عهده سنة ١٠٥٦م واعتلاء الكاردينال هلد براند كرسـى البابويـة كأشـهر بابوات العصور الوسطى سنة ١٠٧٣م باسم البابا جريجورى السابع[٨٤].

اندلع الصراع بـين الإمـبراطور هـنرى الرابـع والبابـا جريجـورى السابع بسـبب التقليـد العلمـانى وإصـرار البابـا علـى أحقيتـه في تعيـين الأساقفة في الوقت الذى تمسك هنرى الرابع برأيـه وأحقيتـه في ممارسـة حقوقه التى ورثها عن آبائه وأجداده فضلاً عن إصـراره علـى الوقـوف في وجه البابا لتأكيد هيبته في أملاكه في إيطاليا وفي ألمانيا ذاتـها[٨٥] ، علـى حين آمن البابا بنظرية التفوق والسمو البابوى على كافة القـوى العلمانيـة

---

(83) Camb. Med. Hist. v. III, PP. 272 - 306

(84) W. Durant : The Age of the faith, 395 – 1300, pp. 545 – 546 (N. Y. 1950)

(85) Brooke : A Hist. of Europe 911-1198, p. 171

بما فيها الإمبراطورية.. وساءت الأمور بين الرجلين وتدرجت الأمور في صالح البابوية لينتهى هذا الدور من الصراع بانتصار البابوية واستسلام الإمبراطور واقراره بحقوق البابوية وإجابة مطالبها وذلك في يناير ١٠٧٧[٨٦] ... قبل أن يتجدد هذا الصراع من جديد حتى وفاة البابا جريجورى السابع سنة ١٠٨٥م بعد أحداث كثيرة واستعانته بالنورمان في جنوب إيطاليا ثم اعتلى كرسى البابوية البابا ذائع الصيت أوربان الثانى الذى دعا إلى الحرب الصليبية الأولى ثم البابا باسكال الثانى الذى تابع سياسة جريجورى السابع وتابع عداءه للإمبراطور هنرى الرابع حتى اضطر هذا إلى التنحى عن عرش الإمبراطورية سنة ١١٠٥م[٨٧] .

وعلى هذه الصورة كان تاريخ ألمانيا وإيطاليا في ظل الإمبراطورية الرومانية المقدسة منذ انفصال ألمانيا عن إمبراطورية شارلمان في أوائل القرن العاشر حتى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى حيث لعبت دورها في تلك الفترة بعد أن ضمت إيطاليا وأسمت نفسها الإمبراطورية الرومانية المقدسة إشارة إلى رباط ألمانيا مع إيطاليا في تلك الفترة .

---

(86) Camb. Med. Hist. V. 5, p. 69

(87) Robinson: An Introduction to the Hist. of Western Europe, I. P. 200



الفصل الثانى

معالم تاريخ فرنسا منذ بداية الحروب الصليبية حتى أوائل القرن الرابع عشر الميلادي

– أهمية عرض تاريخ أقطار أوربا في هذه الفترة .
– تطور تاريخ فرنسا (غالة) حتى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى

- ملوك آل كابيه الأربعة الأوائل في فرنسا (٩٨٧ – ١١٠٨م)
- لويس السادس (١١٠٨ – ١١٣٧م) .
- لويس السابع (١١٣٧ – ١١٨٠م) .
- فيليب أوغسطس (١١٨٠ – ١٢٢٣م) .
- لويس الثامن (١١٢٣ – ١٢٢٦ م) .
- لويس التاسع (١٢٢٦ – ١٢٧٠ م) .
- فيليب الثالث (١٢٧٠ – ١٢٨٥م) .
- فيليب الرابع (١٢٨٥ – ١٣١٤م) .
- آخر ملوك الأسرة (١٣١٤ – ١٣٢٨م) .



عرضنا في الفصل السابق مجملاً للتاريخ الأوربي الوسيط حتى بداية عصر الحروب الصليبية أى إلى أواخر القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثانى عشر الميلادى، وفي الصفحات التالية نعرض تطور هذا التاريخ في الجانب السياسى منذ بداية الحروب الصليبية إلى أواخر العصور الوسطى خاصة القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين، وهى الفترة التى شهدت تضافر أقطار الغرب الأوربى وكذلك البابوية لدعم الوجود الصليبى في الشرق(١) ومنع انهياره أمام التيار الإسلامى الذى أخذ ينقص هذا الكيان من أطرافه توطئة للقضاء عليه تماما وطرد الصليبيين نهائياً من الشرق الأدنى(٢) .

وتأتى أهمية عرض التاريخ الأوربى في هذه الفترة من العصور الوسطى لأنها الفترة التى سعى فيها حكام أوربا والبابوية إلى التتار في الشرق لإقامة علاقات معهم وبناء جسور اتصال مع أولئك الذين روعوا آسيا والشرق الأدنى واجتاحوا بلاداً كثيرة هناك وقضوا على الخلافة الإسلامية في بغداد وأنهوا عصر العباسيين قرب منتصف القرن الثالث عشر الميلادى(٣) ، وما حدث من انسيابهم بعد ذلك إلى بلاد الشام وفلسطين مهددين مصر وبقية الأقطار الإسلامية، ولهذا كان لابد من عرض الظروف التى مرت بها أقطار أوربا في الغرب وما أصاب البابوية من تطور في تلك الفترة لمعرفة نتائج ذلك كله وانعكاساته على الموقف مع الصليبيين في الشرق وأسباب الاتصال بالتتار ومحاولة استمالتهم لدعم

---

(1) Stevenson : The Cruraders in the East, pp. 301-2

(2) Grousset: Histoire des Croisades . 111, P. 642

Kirry : The knigths Hospitallers in the Holy land, p. 264

(3) David Morgan : The Mongols, pp. 179-185

الكيان الصليبى المترنح في الشرق[٤] .

فإذا كان حكام الغرب الأوربى قد تحمسوا في كثير من الأحيان لدعم الصليبيين في الشرق بإرسال الحملات العسكرية وبعث المساعدات الحربية حين أحسوا بضعف هذا الكيان وترنحه حتى أوشك أن يتداعى[٥] ، فإن البابوية كانت أكثر حدباً على دعم هذا الكيان وبذل كل ما في وسعها لتأييد الصليبيين ومساعدتهم واستقطاب الحلفاء لهم، ولهذا فقد مالأ حكام أوربا هؤلاء التتار وأظهروا لهم المودة وسعوا للاستفادة بهم لتحقيق أغراضهم في الشرق[٦] في الوقت الذى أظهرت فيه البابوية حماسة طاغية للتقرب من هؤلاء التتار وإظهار المودة لهم أيضاً التماساً لصداقتهم ودعمهم للكيان الصليبى في الشرق بإغراء التتار بالاستمرار في الهجوم على المسلمين تحقيقاً لهذا الغرض، ولابأس إذا كللت جهود رجالها ومبشريها بالنجاح في تحويل التتار الوثنيين إلى المسيحية ووضعهم في خدمة الكنيسة الغربية[٧] .

أى أنه من خلال ما قدمته أوربا للصليبيين من دعم ومساعدة، وما كانت تبذله البابوية من جهود في هذا المجال، ومن خلال ما ظهر من تحفز المسلمين لتصفية هذا الكيان الدخيل والقضاء على بقاياه، جاءت اتصالات أوربا بالتتار لجذبهم إلى المنطقة وإدخالهم في حروب مع المسلمين لتخفيف الضغط على بقايا الكيان الصليبى في تلك الفترة ومنعه

---

(4)Grousset : op. cit. 111 , p. 525

(5)Camb. Med. Hist.V.5, p.310,
Baldwin: Med. Church, pp. 620-1

(٦) زيادة : حملة لويس التاسع على مصر ص ٨٣ — ٨٤

(7)D'Ohsson : Histoire des Mongoles, III, pp. 410-12
Howorth: History of the Mongols, III, PP 278 - 81

من الانهيار[٨]، فضلاً عن آمال البابوية في إدخال هؤلاء التتار في المسيحية واستمرار التبشير بينهم بالمسيحية لتحويلهم إلى أداة طيعة في يد السلطة الدينية في أوربا ليصبحوا في خدمة الكنيسة الغربية[٩] .

لهذه الأسباب كلها رأينا أن نعرض تاريخ أقطار الغرب الأوربى في تلك الفترة من القرنين الثانى عشر والثالث عشر وما بعد ذلك لأنها الفترة التى شهدت نشاطاً وحدباً من أوربا سياسياً ودينياً لدعم الصليبيين في الشرق واستقطاب الحلفاء لهم ومحاولة تخفيف الضغط عليهم من قبل المسلمين بالتحالف مع التتار ونبدأ عرض هذا التاريخ بعرض تاريخ فرنسا السياسى.

فقد وضح من الفصل السابق كيف انتهت الأسرة الكارولنجية في فرنسا سنة ٩٨٧م ، وأعقبها آل كابيه في حكم فرنسا، وكيف مرت الفترة الأولى من عهد هذه الأسرة الجديدة حتى سنة ١١٠٨م وهى التى شهدت عهود أربعة من الملوك على مدى نحو مائة وعشرين عاماً دون ما يلفت النظر في تاريخ هذا القطر[١٠] ، لأن هؤلاء الملوك الأربعة الأوائل من آل كابيه لم يستطيعوا مجاراة كبار النبلاء الإقطاعيين في فرنسا في قوتهم أو سطوتهم، خاصة وقد تطلع بعض هؤلاء النبلاء إلى توسيع نطاق إقطاعاتهم ونفوذهم وحازوا الأملاك وتصرفوا دون كبير اهتمام بمليكهم الفرنسى، لاسيما دوق نورمانديا ودوق برجنديا وكونت فلاندرز وغيرهم

---

(8) Grousser : op. cit. V. 111, p. 525

(9) David Morgan: The Mongols, p. 180,
Keen: op. cit. p. 157, p. 163

(10) Tille : " France under the early Capets " – in the Book of Hist. V. VII, p. 3771

من كبار الأفصال الإقطاعيين[١١] نظراً لتغلغل النظم الإقطاعية في حياة المجتمع الفرنسى واستمرار تطلع الإقطاعيين حتى صغارهم- إلى ممارسة لون من ألوان الاستقلال والظهور بمظهر العظمة والسلطان [١٢] .

وببداية عهد الملك الخامس من ملوك هذه الأسرة وهو الملك لويس السادس (١١٠٨ – ١١٣٧م) شهدت فرنسا فترة جديدة وعهداً آخر، لأن هذا الملك أسهم بنصيب كبير في وضع الأسس التنظيمية للسلطة الملكية[١٣]، خاصة في النصف الثانى من عهده بإخضاع أفصاله الإقطاعيين في فرنسا وإجبار ملك إنجلترا هنرى الأول على الإقرار بالتبعية له بوصفه دوقاً لنورمانديا [١٤] ، وإن لم يقض هذا على تطلعات ملك إنجلترا في الهيمنة على الملكية الفرنسية بحكم أن ملوك إنجلترا قد جمعوا بين عرش إنجلترا ودوقية نورمانديا منذ استيلاء وليم الفاتح على إنجلترا [١٥] ، وتعرض لويس السادس لمشكلات كثيرة من قبل هذا الملك الذى جد في ضم بعض النبلاء الإقطاعيين إلى جانبه من الحانقين على ملك فرنسا في برتيانى وفي جزيرة فرنسا وكونت بلوا وأهالى بعض المدن، ولكن الملك لويس السادس ظل صامداً محتفظاً بمركزه وقوته[١٦] .

وليس من شك في أن لويس السادس قد منح الملكية الفرنسية قوة وثباتاً في مواجهة الأخطار المختلفة التى كانت تواجه فرنسا وترك العرش الفرنسى أقوى مما كان ممهداً السبيل لخلفائه لمواصلة العمل على تثبيت

---

(11) Haskins : op. cit. pp. 64 – 5
(12) Camb. Med. Hist. V. 11. Pp. 594-7
(13) Tiller : op. cit. p. 3771
(14) Rayner : op. cit. pp. 40 – 41
(15) Heer : The Med. World. P. 314
(16) Warner and Marten: The Ground work of British Hist. p. 67

دعائم هذا الحكم(١٧) ، وخلفه لويس السابع (١١٣٧ – ١١٨٠م) الذى امتد حكمه فترة طويلة في القرن الثانى عشر ونجح في ضم دوقية إكوتين عن طريق الزواج السياسى بزواجه من وريثتها الشرعية إليانور، ولم يحفل بما كان يحدث من فتن في جهات مختلفة من فرنسا بل أنه استطاع إخماد ثورة تفجرت في شامبنى سنة ١١٤٧م بشئ كبير من الجسارة والاندفاع حتى اضطر إلى الهجوم على عدد من الثائرين الذين احتموا بإحدى الكنائس خلال تلك الثورة واضطر لإحراق هذه الكنيسة فاحترق فيها نحو ألف شخص من الرجال والنساء والأطفال، الأمر الذى أثار ضميره وظل ينغص عليه حياته خاصة وأنه كان على شئ كبير من التقوى والورع، ولهذا فقد فكر في القيام بحملة صليبية للتكفير عن ذنبه فشارك في الحملة الصليبية الثانية(١٨) مصطحباً معه زوجته إليانور سنة ١١٤٧م وهى الحملة التي شاركه في القيام بها إمبراطور ألمانيا كونراد الثالث .

ويشير المؤرخون إلي أن عهد هذا الملك الفرنسي كان استمراراً لعهد القوة في عصر آل كابيه لأنه استمر في تطوير نظم الحكم في فرنسا ومؤسساتها، فضلاً عن ممارسته السيطرة على كبار الأمراء الإقطاعيين(١٩)، إلا أن فرنسا واجهت من جديد عداء ملك إنجلترا وذلك حين طلق لويس السابع زوجته إليانور وارثة إكوتن بسبب اختلاف الطباع بينهما وميل إليانور إلى المرح والطرب والاستمتاع بالحياة وعدم

(17) Tille : op. cit. p. 3771
Keen : op. cit. p. 88
(18) Tille : op. cit. p. 3771

(١٩) كانتور : التاريخ الوسيط ق٢ ص ٦٥٥

استطاعتها مجاراة الملك في أسلوب الحياة التى يميل إليها [٢٠] ، فضلاً عن أنها لم تنجب وريثاً ذكراً يلى العرش من بعده فانتهى الأمر بطلاقها[٢١] ، فتزوجت من هنرى الانجوى الذى اعتلى عرش إنجلترا باسم هنرى الثانى سنة ١١٥٤م[٢٢] ، فامتدت ممتلكات ملك إنجلترا الجديد وزوج إليانور في صلب القارة من الجزيرة البريطانية حتي جبال البرانس بما في ذلك كونتية أنجو ودوقية إكوتين مما أرهص بصدام جديد مع الملك لويس السابع[٢٣] .

اندلعت الحرب ضارية بين الملكين حين حاول هنرى الثانى الاستيلاء على مدينة تولوز، فتصدى له لويس السابع، ثم تبدلت الظروف في صالح لويس السابع الذى استثمر بعض الأخطاء التي وقع فيها هنرى الثاني ، خاصة قتله توماس بيكت رئيس أساقفة كانتبرى، وانصراف كبار أتباعه عنه في بريتانى وبواتو وجوين واتجاههم لمساندة لويس السابع، في الوقت الذى مال فيه لويس السابع إلى كسب الأعوان في الداخل لمساندته في صراعه مع كبار الإقطاعيين[٢٤] ، كما لجأ إلى التقارب مع حكام ألمانيا والتحالف معهم وكذلك إثارة المشاكل في وجه هنرى الثانى بتحريض أبنائه الثلاثة عليه وهم الذين كانوا ينوبون عنه في حكم أملاكه في فرنسا، ونجح في ذلك إلى حد بعيد، الأمر الذى خفف عنه خطر هنرى الثانى وخطر الملكية الإنجليزية ضد آل كابيه في

(20) Heer: op. cit. p. 153, pp. 156 –9
(21) Tille : op. cit. p. 3771
(22) Camb. Med. Hist. v. 5, p. 609
(23) Heer : op. cit. p. 337
(24) Mahrenholtz: " France Through the Middle Ages" B. H. V. 111 , p. 2764

فرنسا[٢٥] .

شهدت فرنسا بعد ذلك ولمدة تقترب من أربعة واربعين عاماً فترة ازدهار وقوة على عهد ملكها الجديد فيليب أوغسطس (١١٨٠ – ١٢٢٣م) ، الذى منح الملكية الفرنسية قوة في الداخل وتوسعاً في الخارج[٢٦] ، وتمكن من تحقيق ذلك بفضل ما حباه الله به من ذكاء وفطنة وحسن تقدير للأمور من ناحية، وما أظهره من صبر وثبات عزيمة من ناحية أخرى، فأصبح – على حد قول المؤرخين – ثالث الحكام الكبار في أواخر القرن الثانى عشر والربع الأول من القرن الثالث عشر، إلى جانب هنرى الثانى و فريدريك بربروسا [٢٧] .

تمكن فيليب أوغسطس منذ بداية عهده من فرض هيبة الملكية الفرنسية وبسط نفوذها والتمكين لها في الداخل والخارج، فمثل خطراً كبيراً على خصومه في نورمانديا وإنجلترا وفلاندرز وجنوب فرنسا، وساعده على ذلك ما أظهره من مقدرة وكفاية في اتخاذ سياسة حكيمة مزج خلالها بين المقدرة العسكرية واستخدام الدبلوماسية والسياسية من ناحية [٢٨]، وما حدث خلال عصره الطويل من تبدل معظم كبار الأمراء الإقطاعيين في فرنسا وحل محلهم أمراء جدد من ناحية أخرى، فأتاح له ذلك تأكيد حقوقه الإقطاعية قبل هؤلاء الأمراء الجدد والتمكين للملكية الفرنسية في أنحاء فرنسا وبسط نفوذها[٢٩] .

---

(25) Warner and Marten: The groundwork of British Hist. p. 89

(26) Mahrenholtz : op. cit. p. 3772

(٢٧) كانتور : المرجع السابق ق٢ ص ٦٥٦

(28) Tille : op. cit. p. 3772

(29) Camb. Med. Hist. V. 6, pp. 284

استمرت العلاقات العدائية بين فيليب أوغسطس وملك إنجلترا هنرى الثانى، لم يأل ملك فرنسا جهداً في الكيد لهنرى الثانى وإضعاف قوته ونفوذه واستغلال ما نشب بينه وبين أولاده من خلاف وراح يقدم لهم المساعدة لبث الفرقة والشقاق بينهم وبين والدهم لإضعاف نفوذ الملكية الإنجليزية في الأجزاء التابعة لها في الشمال وغرب فرنسا، ومحاولة مد السلطة الملكية على هذه الأجزاء(٣٠) .

وعلى الرغم من أنه بدا أن سياسة فيليب أوغسطس تجاه إنجلترا قد تغيرت حين اعتلى ريتشارد الأول عرش إنجلترا عقب وفاة والده هنرى الثانى، خاصة بعد أن شارك الملك الإنجليزي الجديد في الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة إلى جانب فيليب أوغسطس وفردريك بربروسا سنة ١١٩٠م(٣١) ، إلا ان الأحداث أكدت خطأ هذا الاعتقاد، إذ مالبث فيليب أوغسطس أن تذرع بسوء حالته الصحية وترك ريتشارد في الشرق وعاد مسرعاً إلى بلاده، وفي نيته الهجوم على نورمانديا أثناء غياب ريتشارد، وتصفية أملاك إنجلترا في فرنسا(٣٢) .

إلا أن فيليب أوغسطس لم يتمكن من الهجوم على نورمانديا حينئذ، لرفض أمرائه الاشتراك معه في ذلك لأنه لايجوز الاعتداء على أملاك صليبى يحارب في الأراضى المقدسة لأن هذه الأملاك كانت تعتبر تحت وصاية البابا طيلة غياب صاحبها وتحت حمايته كما قررت

(30) Warner and Marten : op. cit. p. 90
(31) Rayner: A concise Hist. of Britain , p. 53
(32) Tille : op. cit. p. 3772
(33) Runciman : Hist. of the Crusades, I, p. 109

البابوية منذ الحملة الصليبية الأولى[٣٣] ، ولهذا لجأ فيليب أوغسطس إلى بث الشقاق بين ريتشارد وأخيه حنا مغرياً هذا الأخير بإشعال الثورة ضد أخيه ومناه بمساعدته لتتويجه ملكاً على إنجلترا خلال غيبة ريتشارد الأول في الشرق[٣٤] .

لهذا اضطر ريتشارد إلى العودة مسرعاً من الشرق لقلقه على أملاكه، فعقد الصلح مع صلاح الدين وعاد مسرعاً إلى الغرب، فتعرض في طريقه لمؤامرة عطلت عودته فترة، لعب فيها فيليب أوغسطس دوراً رئيسياً ولكن ريتشارد نجح في النهاية في الوصول إلى بلاده سنة ١١٩٤م[٣٥]. وشن هجوماً كاسحاً على فيليب أوغسطس دفاعاً عن نورماندیا وأنزل به هزيمة ساحقة في نفس العام وكاد يأسره، فاضطر فيليب أوغسطس إلى الانسحاب إلى أملاكه وطلب الصلح مع ريتشارد[٣٦]، وتجددت الحرب بين الملكين بعد ذلك لسنوات قليلة حين هاجم فيليب أوغسطس نورماندیا سنة ١١٩٨م ولكنه هزم وكاد يؤسر مرة ثانية لولا أنه نجا بصعوبة بالغة، وتدخل البابا هذه المرة لعقد الصلح بين الرجلين، فجرى الاتفاق على هدنة بين الجانبين في العام التالي (١١٩٩م) أمدها خمس سنوات، ثم مالبث ريتشارد أن لقى حتفه في نفس العام فتخلص فيليب أغسطس بذلك من خصم عنيد وجار مقلق[٣٧] .

---

(33) Runciman: Hist. of the Crusades, I, p. 109
(34) Warner and Marten: op. cit. p. 97
(35) Heer: Med. World, p. 172
(36) Camb. Med. Hist. V. 6, p. 305
(37) Tille : op. cit p. 3772

استغل فيليب أوغسطس وفاة ريتشارد لضرب ضربته وتصفية أملاك إنجلترا في فرنسا، خاصة وقد خلف ريتشارد في حكم إنجلترا أخوه حنا الذى لم يكن له ما كان لأخيه من المقدرة السياسية والعسكرية، كما افتقر إلى المقدرة والكفاية التى امتاز بهما ريتشارد(٣٨)، وفي نفس الوقت واصل فيليب أوغسطس سياسته في تأليب أحد أفراد البيت الإنجليزي ضد حنا وهو آرثر دوق بريتانى ضد عمه حنا مغرياً إياه بمساعدته في الهيمنة على نورمانديا إلى جانب بريتانى، في الوقت الذى كان يحشد فيه ضده الفرنسيين للهجوم على نورمانديا وبريتانى، وفعلاً استولى على مدن نورمانديا واحدة تلو الأخرى بالقوة أحياناً وبذل الأموال أحياناً أخرى، ولهذا لم يكد تمضى من القرن الثالث عشر إلا سنوات خمس حتى كان فيليب أوغسطس قد استولى على نورمانديا وانجو ومين وتورين(٣٩)، كما دان له معظم أمراء بواتو، وعاد له ولاء الأمراء حتى النورمان منهم بعد أن كان هذا الولاء موزعاً بين ملكى فرنسا وإنجلترا مع ما في ذلك من تناقض خطير، وأدى إعادة نورمانديا إلى فرنسا– كما يقول المؤرخون– إلى عودة إنجلترا إلى كيانها كمملكة جزرية قائمة بذاتها، وهى خطوة نحو بلورة القومية الإنجليزية(٤٠) وفي نفس الوقت كانت عودة نورمانديا وإنجو إلى فرنسا واندماجهما في ممتلكات التاج الفرنسي نقطة تحول كبيرة في تاريخ فرنسا وتاريخ غرب أوربا أيضاً (٤١).

وفي نفس الوقت أمدت هذه الأحداث فيليب أوغسطس بفرصة عظيمة لتقوية نفوذه والتمكين للملكية الفرنسية، فأضحى يفوق في قوته

(38) Warner and Marten : op. cit. p. 102
(39) Keen : op. cit. p. 90
(40) Rayner : op. cit. p. 55
(٤١) كانتور : التاريخ الوسيط ق٢ ص ٦٥٣

أى أمير إقطـاعى آخـر بعـد أن شملـت أملاكـه نورمانديـا وإنجـو وبوتـو وأوفرن وبيكـاردى فضـلاً عمـا عـرف بجزيـرة فرنسـا بـل أصبح فيليـب أوغسطس الرجل الثانى في أوربا بعد إمـبراطور ألمانيـا(٤٢) ، ولم يعبأ بمـا دبره حنا ملك إنجلترا من مكائد لاسترداد أملاكه الضائعة والذى نجح في تأليب بعض الحانقين على ملك فرنسا مثـل كونـت فلانـدرز، واستثار إمبراطور ألمانيا أوتو الرابع ضد ملك فرنسا، وجـرى الاتفـاق علـى هجـوم هؤلاء الحلفاء على فرنسـا مـن الشـمال في الوقـت الـذى يقـوم فيـه حنـا بمهاجمة انجو، فأصبح الوضع خطيراً بالنسبة لفرنسا خاصة حين حشـد إمبراطور ألمانيا نحو ثمانين ألف جندى في فلاندرز سنة ١٢١٤م لمهاجمـة فرنسا(٤٣)، لكن فيليب أوغسطس نجح في إنزال هزيمة قاسية بالحلفـاء في موقعة بوفان Bouvines في يوليو سنة ١٢١٤م بفضل ماساد فرنسـا حينئـذ من شعور وطني خاصة في شمالها، في الوقت الذى فشل فيه هجوم ملـك إنجلترا على اللوار فجاء هذا الانتصار عاملاً هاماً في حماية فرنسا من كيد ملك إنجلترا، كما جاء هذا الانتصار تأكيداً لما أصبح لفرنسا من سيادة في نورماندیا والأراضي التى استردتها من الملكة الإنجليزية(٤٤).

مالبثت الأحداث أن هيأت لملك فرنسـا فيليـب أوغسـطس فرصـة أخـرى لمـد نفـوذه في الجنـوب وتـأكيد سـلطته علـى كثـير مـن الأمــراء الإقطاعيين في الجنوب(٤٥) ، فقد وجدت في جنـوب فرنسـا ثلاثـة مراكـز

---

(42) Keen : op. cit. pp. 89 – 90
(43) warner and Marten : op. cit. pp. 105 – 6
(44) Keen : op. cit. p. 96
(٤٥) كانتور : المرجع السابق ﺟ٢ ص ٦٢٦ – ٦٢٧

أساسية برزت ككيانات سياسية وحضارية كبرى في الجنوب هي: دوقية إكوتين وكونتيه تولوز وكونتيه بروفانس، وإذا كانت دوقية إكوتين وكونتيه تولوز قد ارتبطتا بالتاج الفرنسي وكانتا ضمن نطاق الملكية الفرنسية، فقد كانت الكونتيه الثالثة (بروفانس) خارج نطاق هذه الملكية(٤٦) ، في الوقت الذى عاش فيه جنوب فرنسا في شبه عزلة عن شمالها زاد من حدتها الاختلاف الحضارى بين الشمال والجنوب، إذ بقى الجنوب يحتفظ بطابعه الروماني وتراثه اللاتينى القديم أكثر من أي جزء من أجزاء أوربا عامة وفرنسا بصفة خاصة، فضلاً عما ميز جنوب فرنسا عن شمالها من وجود ثروات طبيعية ونشاط تجارى ومناخ معتدل ساعد علي تشييد بناء حضارى اشتهر بالعظمة والتجديد(٤٧) ، فضلاً عن أن سيطرة المسلمين على مصب نهر الرون على مدى نحو قرن من الزمان قد أشاع في جنوب فرنسا كلها جوا من التسامح الدينى وحرية الفكر وباعد الشقة بين جنوب فرنسا وشمالها(٤٨) .

لهذه الأسباب انتشرت في جنوب فرنسا بعض المذاهب المناهضة للكنيسة وشاعت الهرطقة والكره لرجال الدين وللكنيسة ورجالها، خاصة وقد تردت الكنيسة ورجالها في الجنوب في أوضاع سببت استياءً شديداً بين جموع الناس، واشتهر قساوسة فرنسا بعدم الكفاية والفساد وتردى أغلبهم في حب المال وإيثار العافية، الأمر الذى أوجد تربة خصبة لنمو الهرطقة الشعبية وظهور المذاهب المناهضة للكنيسة(٤٩) .

---

(٤٦) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ص ٢٦٥

(47) Heyck : " Rise of the Frankish Dominion " B. H. VII . p. 3480

(48) Oman : op. cit. pp. 292 – 5

(٤٩) كانتور : التاريخ الوسيط ق٢ ص ٦٢٦ – ٦٢٧

فزعت البابوية لما حدث في جنوب فرنسا من انتشار الهرطقة وظهور المذاهب المناهضة للكنيسة والكره لرجال الدين، وفكر البابا إنوسنت الثالث في أوائل القرن الثالث عشر (سنة ١٢٠٤م) في القضاء على هذا الخطر الذى غدا يهدد الكنيسة ولو بالقوة للخلاص من المهرطقين، فحاول الاستعانة بكونت تولوز (ريموند السادس) ، إلا أن هذا رفض الفكرة تماماً لتعارض أهدافها مع شخصيته ونتيجة لما شاع في جنوب فرنسا من التسامح الدينى - كما سبق أن أشرنا - وحرية الفكر في الوقت الذى عمت فيه روح الاستياء من الأوضاع التى تردت فيها الكنيسة ورجالها هناك(٥٠) ، ولهذا لجأ البابا إلى الملك فيليب أوغسطس لتحفيزه على القيام بحملة للقضاء على الهرطقة في الجنوب .

إلا أن فيليب أوغسطس لم يتحمس للفكرة التى دعاه إليها البابا انوسنت الثالث نظراً لأنه كان يعارض تدخل البابوية في الشئون الداخلية لفرنسا وما ادعته البابوية من حق في إخضاع المقاطعات الفرنسية الخارجة على تعاليم الكنيسة من ناحية، ولأن الملك فيليب أغسطس حكمته التقاليد الإقطاعية التى تمنعه من مهاجمة أفصاله تنفيذاً لرغبة البابا والكنيسة من ناحية ثانية(٥١) ، في الوقت الذى كان فيه فيليب أغسطس مشغولاً بحربه ضد حنا ملك إنجلترا من ناحية ثالثة (٥٢)، ولهذا لم يلب الملك الفرنسى نداء البابا الذى تكرر سنتى ١٢٠٥، ١٢٠٧ خاصة وقد رفض هذا الطلب ريموند السادس كونت تولوز الأمر الذى عرض هذا الأخير لقرار الحرمان الذى أصدره البابا(٥٣) .

---

(٥٠) كانتور : المرجع السابق ق٢ ص ٦٢٧

(51) Camb. Med. Hist. V. 6, P. 314

(52) Keen : op. cit. p. 90

(٥٣) محمد الشيخ : تاريخ أوربا في العصور الوسطى ص ٤٤٥

لم يــؤد رفـــض فيليـــب أوغسـطس طلب البابويــة إنفــاذ حملة إلى الجنوب إلى يأس البابوية من تنفيذ الفكرة، بل اسـتمرت تدعـو إلى إنفاذ حملة ضد الهراطقة في جنـوب فرنسـا وشـجعها علـي ذلـك مـا أظهره بعض الأمراء في شمال فرنسا من حماسة للاشتراك في هذه الحملـة التي كررت البابوية الدعوة إليـها سـنة ١٢٠٩م (٥٤) ، فخرجـت الحملـة فعلاً تحت قيادة أمير من أمراء جزيرة فرنسا Ilo de France يدعى سيمون دى مونتفرات، واتســع نطـاق عملـها ليشـمل محاربـة أمـراء الإقطـاع في الجنوب واستطاعت الحملة فعلاً إنزال الهزيمة بريموند السـادس كونـت تولوز سنة ١٢١٣م وبعض أمراء الجنوب ، وقرر البابا منـح دوقيـة تولـوز ودوقية ناربون وغيرهما من الإقطاعات المجاورة لأمير جزيرة فرنسا المشار إليه سيمون دى مونتفرات (٥٥) .

لهذا لم يستطع فيليب أوغسـطس أن يقـف متفرجـا أمـام ازديـاد نفوذ البابوية في جنوب بلاده، فبادر بالمشـاركة في الحملـة وأرسـل ابنـه لويس على رأس قوة لمحاربة هراطقة الجنوب فأسفرت هذه المشاركة عن اعتراف سـيمون دى مونتفـرات بالتبعيـة لملـك فرنسـا وتضـافر الجانبـان وتعاونا على تحطيم بعض الحصون والمعاقل الإقطاعيـة في الجنـوب ومـد النفوذ الملكى إلى جهات لم تكن تربطها بالملك سـوى تبعية اسمية، ثم تلا ذلـك مقتـل سـيمون سـنة ١٢١٨م وبقـاء نفـوذ الملكيــة الفرنسـية في الجنوب(٥٦).

---

(54) Mahrenholtz: "France under the early Capet" in B.H. v. VII, p. 3774

(55) Warner and Marten : op. cit. p. 113

(٥٦) سعيد عاشور : المرجع السابق ص ٢٦٩

وهكذا اسفرت جهود فيليب أوغسطس السياسية والعسكرية عن مد النفوذ الملكى إلى جنوب فرنسا، وأكد سلطة الملكية الفرنسية على معظم الأمراء الإقطاعيين، فغدا أحد ملوك فرنسا الأقوياء على الرغم من أنه لم يكن عنيفاً أو معادياً للأفصال الإقطاعيين، وإنما حكمته فى علاقته بهم الأعراف الإقطاعية(٥٧) ، هذا بالاضافة إلى ما حققه من استعادة نورمانديا واستيلائه على أنجو ومين وتورين، كما دان له معظم أمراء بواتو، أى أنه هيمن على معظم الأراضى التى كانت تتبع الملكية الإنجليزية في شمال وغرب فرنسا وجهات أخرى(٥٨) .

أما عن سياسته تجاه كنيسة فرنسا ومع البابوية، فقد أظهر فيليب أوغسطس رغبة قوية في إحكام قبضته على رجال الدين في بلاده من ناحية والحد من تدخل البابا في شئون الكنيسة الفرنسية من ناحية أخرى، على الرغم مما كان بينه وبين البابوية من صداقة معروفة(٥٩)، فقد ألزم رجال الدين فى فرنسا بدفع ما كان مقرراً عليهم من ضرائب والتزامات، وفي نفس الوقت لم يسمح للبابوية أن تفرض نفوذها أو نفوذ من يدور في فلكها في أى جزء من أجزاء بلاده، وربما لهذا شارك في الحملة على الهراطقة في الجنوب حتى لا يترك الميدان خالياً أمام البابوية وحلفائها من الأمراء الفرنسيين للهيمنة أو السيطرة في الجنوب(٦٠) .

وبالنسبة لسياسته الإدارية فقد أسهم فيليب أغسطس– على حد قول المؤرخين – في البناء الإدارى لفرنسا وهو البناء الذى اكتمل في عهد

(57) Keen : op. cit. p. 89
(58) Ibid. p. 89
(٥٩) كانتور : المرجع السابق ق٢ ص ٦٦٠
(60) Warner and Marten : op. cit. p. 113

حفيده لويس التاسع، فقد عارض جعل الوظائف الكبرى وراثية، لما يمثله ذلك من تهديد لسلطة الملك وصلاحياته الملكية، كما قلل من نفوذ كبار الموظفين لتحقيق نفس الغرض لتقوية نفوذ الملكية الفرنسية[٦١]، واختار الوكلاء الملكيين من الطبقة الوسطى لضمان إخلاصهم للملك وارتباطهم به. وكانت مهمتهم الإشراف على العدالة وجمع الإيرادات الملكية، ولجأ إلى نقلهم من مكان إلى آخر، حتى لا ينشئوا علاقات مع الأهالي في المناطق التى عملوا فيها قد تؤثر علي درجة نزاهتهم أو حيادهم في ممارسة وظائفهم. ويذكر المؤرخون أنه ابتكر نظام البيلي Bailli الذى هو المثل المالى والقانونى والإدارى والعسكرى للملكية الفرنسية في المقاطعات[٦٢]، على حين أسند مهمة الإشراف على المناطق الواقعة على الحدود إلى بعض الرجال الذين اختارهم من الفرسان والبارونات ذوى الخبرة بالحرب، فضلاً عن أنه أحاط نفسه بعدد من المستشارين العلمانيين والدينيين، كان يضيف إليهم أحياناً بعض النبلاء والأساقفة[٦٣]، وتشكل من هؤلاء مجلس كان يجتمع لمناقشة الأمور التى لا تعرض على الحكومة أو يسرى عليها قواعد العرض على الحكومة، كما كان هذا المجلس بمثابة هيئة تشريعية وقضائية عليا، كما كان مجلساً استشارياً بحتاً لا يلتزم الملك بتنفيذ قراراته أو الأخذ بتوصياته[٦٤].

(٦١) سعيد عاشور : المرجع السابق ص ٢٥٨

(٦٢) كانتور : المرجع السابق ق٢ ص ٦٥٧

(63) Camb. Med. Hist. Vol. 6, p. 326

(64) Keen : op, cit. pp. 89

وبالإضافـــة إلى هـــذه الإصلاحات السياسية والدينية والإدارية في فرنسا كان لفيليب أوغسطس مواقفه تجاه المدن، فقد أظهر تعاطفاً كبيراً مع آمال هذه المدن، فأعطى الكثير منها البراءات اللازمة لضمان حريتها، وأسهم ذلك في عودة كثير من المدن إلى الدخول تحت حمايته بعد أن كانت خارجة عن سلطته، فقد شجعها على تقوية أسوارها واستحكاماتها، وحماية تجارتها وتشجيع صناعاتها، ونالت باريس اهتمام هذا العاهل الكبير [٦٥] ، إذ شيد لها سوراً عظيماً واهتم برصف طرقها وغدت باريس عاصمة لمملكة عظيمة، ضمت القصر الملكى والكتدرائية والمدارس والأحياء التجارية والصناعية، كما نالت جامعة باريس على عهده أول براءة ملكية ضمنت لها حريتها وامتيازاتها، بل أن كثيراً من المندوبين الملكيين الذين استعان بهم فيليب أغسطس كانوا متخرجين من الجامعات بل كان بعضهم أساتذة Majistri [٦٦] .

وهكذا أعطى فيليب أغسطس فرنسا الكثير وجعل منها دولة عظيمة ومنح الملكية الفرنسية قوة وازدهاراً تضاءلت إلى جانبه قوة الأمراء الإقطاعيين، فضلاً عن إصلاحاته الأخرى في مجال الإدارة والكنيسة والتعليم وغير ذلك من أوجه الإصلاح، وترك المملكة الفرنسية قوية الجانب[٦٧] ، وحول باريس إلى أول عاصمة حديثة لدولة مركزية كبرى لاتعلو فوقها كيانات الإقطاع الذى تغلغل في الحياة الفرنسية في ذلك الوقت، وأخيراً وبعد حياة حافلة توفى الملك فيليب أوغسطس سنة

---

(65) Camb. Med. Hist. Vol. 6, pp. 327 – 30
Heer : The Medieral World , p. 338

(٦٦) كانتور : نفس المرجع السابق ق٢ ص ٦٥٨

(67) Mahrenholtz : op. cit. pp. 3780 -1

١٢٢٣م بعد أن حول التجارب السابقة إلى نظام دائم في الإدارة المحلية ظلت أسسه باقية حتى انهيار النظام الإقطاعى[٦٨] .

تولى بعده ابنه لويس الثامن (١٢٢٣ - ١٢٢٦م) ، ولم يطل به العهد سوى ثلاث سنوات، وعلى الرغم من أنه لم يكن له ماكان لوالده من مهارة في الشئون السياسية أو العسكرية، إلا أنه واصل سياسة والده فى بسط نفوذ الملكية الفرنسية على مختلف أنحاء فرنسا خاصة في الجنوب ، حيث قام بحملة جديدة ضد الهراطقة هناك[٦٩] ، وذلك سنة ١٢٢٦م نجح خلالها في تحقيق كثير من أهدافه وبسط سلطانه في الجنوب، بالإضافة إلى نجاحه في فرض سلطته على إكوتين وحصل من عمورى ابن سيمون دى مونتفرات على تنازل عن كل ما منحته البابوية لوالده من امتيازات في جنوب فرنسا[٧٠] ، وتوفي لويس الثامن فجأة في نفس العام الذى خرج فيه على رأس حملة إلى الجنوب .

خلف لويس التاسع (١٢٢٦- ١٢٧٠م) والده وكان حينئذ طفلاً لم يتجاوز الثانية عشر من عمره تحت وصاية والدته بلانش القشتالية، وأظهر لويس التاسع كثيراً من التقوى والورع حتى اشتهر بعد ذلك بالقديس لويس، ولذلك حصل على تأييد البابوية وتدعيمها استمراراً لما كان بين فرنسا والبابوية من روابط وصلات تقليدية وصداقة قويت في فترات كثيرة وحفزت البابوية على تدعيم الملكية الفرنسية ومساندة الملك لويس التاسع[٧١].

(٦٨) كانتور : المرجع السابق ق٢ ص ٦٥٦

(69) Warner and Marten ; op. cit p. 113

(70) Camb. Med. Hist. Vol. 6, pp. 322 -4

(71) Mahrenholtz : " The Last of the old Capet ", B. H. vol. VII. P. 3781

ولقد أسهمت هذه العلاقة في تجنيب هذا الملك الصغير مخاطر كثيرة في بداية عهده، وهو تحت وصاية والدته، فقد استغل الأمراء الإقطاعيون فرصة صغر سن الملك وعملوا على التملص من نفوذ الملكية الفرنسية والحد من سلطتها ودبروا مؤامرات متعددة تزعم إحداها سنة ١٢٢٩م دوق برجنديا وكونتات بريتانى وشامبنى ولامارش بتأييد من هنرى الثالث ملك إنجلترا[٧٢] ، غير أن هذه المؤامرات باءت بالفشل بفضل حزم الملكة بلانش من ناحية وتأييد البابوية من ناحية أخرى، واستمرت الأوضاع على حالها إلى أن بلغ لويس التاسع سن الرشد سنة ١٢٣٥م وانتهت فترة الوصاية [٧٣] .

وفي نطاق هذه العلاقة أيضاً خرج لويس التاسع على رأس الحملة الصليبية المعروفة بالحملة السابعة، فقد حدث سنة ١٢٤٤م أم مرض لويس التاسع، ونذر إن هو أبلى من مرضه أن يقوم بحملة صليبية إلى الشرق مدفوعاً في ذلك بحماسته الدينية وورعه وتقواه، ولما شفى من مرضه أوفي بنذره، وخرج على رأس الحملة سنة ١٢٤٨م إلى مصر بعد أن سيطرت على الصليبيين فكرة أن مفاتيح بيت المقدس توجد في مصر، وذلك منذ أوائل القرن الثالث عشر الميلادى[٧٤] ، وعلى الرغم مما حشد في هذه الحملة من جنود، وما نالته من اهتمام واستعداد حتى استولت على مدينة دمياط في سهولة، وتقدمت للاستيلاء على القاهرة، إلا أن الهزيمة ما لبثت أن حلت بالحملة في النهاية ووقع لويس نفسه أسيراً في

---

(72) Rayner : op. cit. p. 59
(73) Camb. Med. Hist. Vol. 6, p. 357
(74) Brehier : L'Eglise et L'orient , pp. 191-192

أيدى المسلمين (٧٥)، ولم يطلق سراحة إلا بعد أن وافق على دفع فدية كبيرة، وتوجه لويس التاسع إلى بلاد الشام، حيث قضى نحو أربع سنوات قبل أن يعود إلى فرنسا(٧٦) .

أما عن سياسته تجاه أقطار الغرب الأوربى، فقد اتسمت بصفة عامة بالمسالة وعدم الرغبة في إثارة المشاكل مع جيرانه وأقرانه ملوك وحكام الغرب الأوربى، وفي إطار هذه السياسة عقد لويس التاسع صلحاً مع انجلترا عرف بصلح باريس مسالماً بذلك هنرى الثالث ملك إنجلترا(٧٧)، بعد فترة طويلة من الحروب بين الدولتين، وعقد هذا الصلح سنة ١٢٥٩م ، وبمقتضاه تنازل ملك إنجلترا عن حقوقه في بعض الجهات ووافق على أن تؤدى هذه الجهات فروض التبعية للويس التاسع(٧٨) .

وأملت عليه هذه السياسة ايضاً مسالة حكام ألمانيا من أسرة هوهنشتاوفن، فلم يحاول استغلال الظروف السيئة التى مر بها هذا البيت في ذلك الوقت للتدخل في شئون ألمانيا، كما رفض أن يقحم نفسه فيما نشأ من نزاع بين الإمبراطورية والبابوية وهو النزاع الذى استشرى بين الإمبراطور فردريك الثاني والبابا إنوسنت الرابع(٧٩) ، فإذا كان هذا الملك قد سلك سياسة المسالة مع إنجلترا وكذلك مع ألمانيا فإنه لم يرفع راية السلام إلا بوازع من ضميره وقيمه ومثله العليا وهى المثل التى أهلته في النهاية ليصبح في نظر رعاياه قديساً (٨٠) .

(75) Grousset : op. cit V. III P. 484
(76) Mahrenholtz :" France under the Early Capet " p. 3779
(77) Warner and Marten : op. cit. p. 115
(78) Camb. Med. Hist. voi. 6, p. 358
(79) Heer : op. cit. p. 137
(٨٠) محمد الشيخ : تاريخ أوربا في العصور الوسطى ص ٥١٤

أما في الداخل فقد اتبع لويس التاسع سياسة لينة تجاه كبار أفصاله وأمرائه الإقطاعيين بوازع من ورعه وتقواه، إذ احترم حقوق هؤلاء النبلاء في الوقت الذى احتفظ فيه بسلطانه الملكى وحقوقه العليا في السيادة في الدولة[٨١] ، وساعده على ذلك أن هؤلاء الأمراء لم يسببوا له متاعب تذكر، ولم يكونوا على شاكلة أمراء القرن الثانى عشر الذين أتعبوا أسلافه من قبل، وإنما كانوا أضعف من أن يرفعوا راية العصيان كما فعل أقرانهم في القرن السابق .

لهذا أتيح للويس التاسع القيام بكثير من الإصلاحات الداخلية في مجال الإدارة والقضاء والنظم المالية[٨٢] ،فقد مثل المجلس الإقطاعى للملك محور السلطة المركزية في ذلك العصر، وتألف هذا المجلس في جوهره من الوزراء الدائمين ينضم إليهم أفصال الملك إذا فكرت المملكة في إعلان الحرب أو في أمر من الأمور الداخلية الهامة مثل زيادة الضرائب[٨٣]، ولما زاد عدد أعضاء هذا المجلس تفرعت عنه عدة لجان اختصت إحداها بالإيرادات الملكية وأخرى بالقضاء والمحكمة الملكية، ولقد أسند لويس التاسع مهمة الإشراف على ممتلكاته وأراضيه الإقطاعية إلى وكلاء ملكيين، وكان يرسل مندوبين ملكيين للتفتيش على الحكام المحليين وسماعة شكاوى الأهالى والتحقيق فيها[٨٤].

أما في مجال القضاء فقد أدرك لويس التاسع أهمية القضاء ووجوب سريان العدل بين الرعية وحاول ألا ينحرف القضاء عن أهدافه

---

(٨١) سعيد عاشور : المرجع السابق ص ٢٦٢
(82) Mahrenholtz: "Evolution of Med. France" B. H. VII, P. 3796
(83) Camb. Med. Hist. V. 6, p. 335
(84) Mahrenholtz: op. cit. p. 3790

لكفالة العدل بين الناس، وحاول ألا يفسد القضاء أو ينزلق إلى الانحراف وذلك بوازع من قيمه وضميره الحى ومثله الدينية[٨٥] ، فحدد لويس التاسع عدداً من الجرائم جعل الفصل فيها من اختصاص القضاة الملكيين وحدهم في الوقت الذى تمسك فيه بحقه في أن تستأنف أمامه كافة القضايا بحيث يكون رأيه نهائياً وملزماً حتى لكبار الأمراء الإقطاعيين[٨٦].

وفى مجال الإصلاح المالى اهتم لويس التاسع كثيراً بإنعاش التجارة وكفالة الأمن لتمكين التجار من ممارسة تجارتهم في أمن وطمأنينة، وأضفى حمايته على القومونات وأنشأ عدة مدن في الجنوب وسك عملة ملكية جعلها صالحة للتداول في كافة أنحاء فرنسا، في الوقت الذى لم يسمح فيه بتداول العملات التى يصدرها كبار الأمراء الإقطاعيين إلا في نواحيهم فقط لتصبح العملة الملكية هى الوحيدة المتداولة في كافة الأنحاء مما يعطيها الأفضلية فى هذا المجال [٨٧].

أما عن سياسته تجاه الكنيسة الفرنسية فقد وجهها وازعه الدينى القوى، وكان لورعه وتقواه أثره في رسم سياسته تجاه الكنيسة الفرنسية، فقد أضفى حمايته على الكنيسة وحماها من جشع الموظفين الملكيين ومنحها حقوقها كاملة دون أن ينقص هذا من سلطاته الملكية أو يكون لذلك أثر في تقليل سلطته الملكية في الوقت الذى لم يسمح فيه للكنيسة بالتدخل في الشئون العلمانية، بل إنه أصر على أن تدفع الكنيسة ما كان مقرراً عليها من أموال واستخلص منها حقوقه كاملة[٨٨]، وإن أظهر

(85) Ibid. pp. 3789 – 90

(٨٦) محمد الشيخ : المرجع السابق ص ٤٥٢

(87) Camb. Med. Hist. V. 6, pp. 336 – 8 , p. 351

(88) Ibid. p. 350 , Keen : op. cit. p. 171

ميلاً لمنظمتي الفرنسسان والدومنيكان على حساب غيرهم من المنظمات الرهبانية الأخري .

ودون ذلك اتسمت سياسة هذا الملك بكثير من الاعتدال والسلام واتجه بكل امكاناته للإصلاحات الداخلية، وعدم إثارة المشاكل في أوربا، وأظهر عطفاً وليناً مع شعبه وبر كثيراً بالمحتاجين والضعفاء في ظل إدارة داخلية صالحة[٨٩] ، فازدهرت فرنسا في عهده كثيراً ورخيت أحوالها وتقدمت العلوم والفنون والحضارة، وخطت جامعة باريس خطوات هامة في عهده وانتعش الفن القوطى في ميدان العمارة وعمارة الكنائس والكتدرائيات بصفة خاصة وشهد هذا العصر تقدماً ملحوظاً وازدهاراً كثيراً في مختلف الميادين [٩٠] .

وعلى الرغم من كل ذلك ظل لويس التاسع يفكر في مشروع حملة صليبية يمحو بها الأثر الذى تركته حملته الصليبية الفاشلة على الشرق، ويختم حياته بمشروع صليبي آخر في ظل ما سيطر عليه من نوازع دينية وحماسة صليبية متقدة، فقام فى سنة ١٢٧٠م بحملة صليبية جديدة، اتجهت هذه المرة إلى تونس في شمال إفريقية[٩١] ، إلا أنه ما لبث أن توفي أثناء هذه الحملة وفي نفس السنة (١٢٧٠م) قبل أن يحقق حلمه ويمحو الأثر الذى تركته حملته الفاشلة من قبل، وانتهى بذلك عصر من أعظم عصور الملكية الفرنسية وأسرة كابيه في فرنسا [٩٢] .

استمرت الملكية الفرنسية في عهد ابنه فيليب الثالث الملقب

---

(89) Mahrenholtz : " The last of the old Capet " ,p. 3781
(90) Heer : op. cit p. 64
(91) Lodge: The close of the Middle Ages 1273 – 1494, p.46

(٩٢) محمد الشيخ : تاريخ أوربا في العصور الوسطى ص ٤٥٤

بالجرئ (١٢٧٠ - ١٢٨٥م) في تقدمها واتساعها بل تدعم نفوذها وامتد سلطانها في أقاليم جديدة نجحت في ضمها إلى التاج الفرنسي على حساب الأمراء الإقطاعيين، فامتد سلطانها في بوتو وتولوز وأوفرن وبروفانس على أثر وفاة ألفونس أمير هذه الممتلكات دون عقب [٩٣] ، كما استولت الملكية الفرنسية على ممتلكات هنرى كونت شامبنى الذى توفى دون وريث في شامبنى وبري، ونجح في ضم ليون سنة ١٣١٢م. وهكذا اتسعت سلطة ملك فرنسا وامتدت أملاكه لاستمرار ضعف النظم الإقطاعية وانهيار الإقطاع في أجزاء كثيرة ونشأة المدن وازدهارها في تلك الفترة من العصور الوسطي، وما ترتب علي ذلك من بروز حقبة جديدة ومفاهيم جديدة في أوربا[٩٤] .

وعلى عهد ملك فرنسا الجديد فيليب الرابع أو فيليب الجميل (١٢٨٥ - ١٣١٤م) استمر توحيد فرنسا ومد حدودها وتحقيق زعامتها على غرب أوربا، فقد كرس الملك الجديد جهوده لتحقيق ذلك[٩٥]، فأعلن هذا الملك أن حدود بلاده الطبيعية هى الراين والألب والبرانس، ولهذا عمل على ضم الجهات الخارجة عن نفوذه في جوين وجاسكونى اللتين كانتا من أملاك إنجلترا مع اعتراف ملك إنجلترا بالتبعية فيهما لملك فرنسا، كما رغب في ضم فلاندرز رغم ميل أهلها إلى إنجلترا بحكم الروابط بينهما والمصالح المشتركة بين البلدين [٩٦] .

لهذا ساءت العلاقات سريعاً بين ملكى فرنسا وإنجلترا وتصادمت

(93) Lodge : op. cit. p. 47
(94) Keen : op. cit. pp. 160-1
(95) Mahrenholtz : op. cit pp. 3786 – 7
Keen : op. cit. p. 170
(96) Camb. Med. Hist. V. 7 , p. 320

المصالح بينهما، فأعلن إدوارد ملك إنجلترا تحلله من الولاء لملك فرنسا، وتحالف مع بعض الأمراء الألمان ضده، فرد ملك فرنسا على ذلك التحالف باحتلال جوين ومهاجمة فلاندرز سنة ١٢٩٧م ، كما تحالف مع اسكتلندا ضد ملك إنجلترا (٩٧) ، غير أن البابا بونيفيس الثامن توسط بين الجانبين ونجح في أن يعقد بينهما صلحاً سنة ١٢٩٨م ثم صلحاً آخر سنة ١٣٠٣م استردت به إنجلترا جاسكونى وجوين، وإن لم يؤد ذلك إلى وقف أطماع فيليب الرابع في فلاندرز الأمر الذى جدد المحاولات لعقد صلح جديد سنة ١٣٠٥م مع أهل فلاندرز (٩٨) .

غير أن فيليب الرابع مالبث أن دخل في مشكلة مع البابوية التى يبدو أنها لم تسلم بتغيير الأوضاع في الغرب الأوربي في أواخر القرن الثالث عشر بالمقارنة بما كان عليه الحال في الغرب في القرن الثانى عشر، ولم يستطع البابا بونيفيس الثامن الذى اعتبره المؤرخون آخر بابوات العصور الوسطى العظام أن تتفهم الروح الجديدة التى سادت المجتمع الأوربى في أواخر العصور الوسطى، وظل يمارس دوره كأنه لايزال يعيش في القرن الثانى عشر بما ساده من أوضاع، فحين استمر فيليب الرابع في تحصيل الضرائب من رجال الدين لسد العجز في النفقات خاصة نفقات الحروب ضد إنجلترا(٩٩)، تململ رجال الكنيسة الفرنسية ورفعوا الأمر إلى البابا بونيفيس الثامن الذى أعلن سنة ١٢٩٦م بطلان حق الملوك في فرض الضرائب على الممتلكات الكنسية دون إذن من البابوية، وهدد بتوقيع قرار الحرمان على كل من يخالف هذا القرار،

---

(97) Lodge : op. cit. pp. 51 – 3
(98) Keen : op. cit. pp. 215 – 16
(99) Rayner : op. cit. p. 85

فاستاء فيليب الرابع من هذا القرار ومن تدخل البابوية في شئون بلاده، ورد على ذلك بتحريم دخول الأجانب إلى فرنسا بما يعنيه ذلك من منع وصول المندوبين البابويين إلى فرنسا، وكذلك تحريم تصدير الذهب والفضة والنقود إلى خارج فرنسا بما يعنيه ذلك من قطع الموارد المالية عن البابوية من فرنسا [١٠٠] .

تصاعد الصدام بين ملك فرنسا فيليب الرابع والبابا بونيفيس الثامن الذى احتج كثيراً على إجراءات ملك فرنسا [١٠١] ، وعقد مجمعاً دينياً سنة ١٣٠٢م ، فأقر المجمع السيادة الروحية والزمنية للكنيسة، الأمر الذى أهاج فيليب الرابع، وجعله يتهم البابا بونيفيس الثامن بكثير من الاتهامات، ودعا إلى عقد مجمع لمحاكمته [١٠٢] ، فتأهب البابا لإصدار قرار الحرمان ضد فيليب الرابع، إلا أنه مالبث أن توفى سنة ١٣٠٣م ، وانتهت صفحة هامة في تارخ البابوية .

هكذا حقق فيليب الرابع انتصاراً على البابوية، وان سلك في ذلك طريقاً غير مشروع، وباستثناء ذلك لم يحقق فيليب الرابع نتائج هامة في الميدان الخارجى، وان حقق نتائج طيبة في الميدان الداخلى بتحسن الإدارة [١٠٣] ، وسيطرة ملك فرنسا التى اخذت تتسع تدريجياً على حساب كبار الأمراء الإقطاعيين .

---

(١٠٠) محمد الشيخ : المرجع السابق ص ٤٥٦

(101) Camb. Med. Hist. V. 7, P. 313
Southern: Western Society and the Church in the Middle Ages, p. 351

(١٠٢) سعيد عاشور : المرجع السابق ج١ ص ٢٧٠

(103) Lodge : op. cit. p. 50, pp. 56 - 7

ومالبث فيليب الرابع أن ساير الاتجاه الذى كان قد بدأ في جهات أخرى من أوربا ضد اليهود الذين مارسوا - كعادتهم - لوناً من ألوان التسلط المالى والاقتصادي واستمروا في إقراض الحكومات والأشخاص والأمراء بالربا الفاحش منتهزين فرصة تحريم الكنيسة الإقراض بالربا، حتى سيطر اليهود على عصب الحياة المالية والاقتصادية في أجزاء كبيرة من الغرب الأوربى، فاتخذت ضدهم اجراءات الطرد والنفى ومصادرة الأموال في إنجلترا وألمانيا وإيطاليا وأسبانيا منذ أواخر القرن الثالث عشر ومطلع القرن الرابع عشر ، ولهذا ساير فيليب الرابع هذا الإتجاه[١٠٤] ، فصادر أموالهم ولجأ إلى طرد الكثير منهم مستغلاً في ذلك موجة الكره التى سادت بين الرعايا في الغرب ضد اليهود في ذلك الوقت، متحملاً ما ترتب على هذا الطرد في بعض الأحيان من اضطراب في الأحوال المالية والاقتصادية وفي التجارة[١٠٥] .

كما بطش فيليب الرابع. بجماعة الداوية وهي الجماعة التى لعبت دوراً بارزاً في أحداث الحروب الصليبية، ولكن بعد سقوط عكا في أيدى المماليك سنة ١٢٩١م وانتهاء الكيان الصليبي في بلاد الشام فقدت هذه الجماعة أهميتها العسكرية، وانصرف أتباعها إلى المصالح الدنيوية وإلى النشاط المالى والمصرفي الذى در عليهم ثروات هائلة، فألفوا حياة الدعة والرفاهية وأظهروا كثيراً من الغطرسة والكبرياء[١٠٦] ، واضطر البابا إلى اتخاذ موقف حازم منهم وأشار إلى إدماجهم في جماعة الاسبتارية، إلا أن الداوية رفضوا الانصياع إلى رأى البابا واستمروا في

---

(104) Heer : op. cit. p. 77
(105) Cambv. Med. Hist. V. 7, pp. 74 – 5
(106) Ibid. pp. 316 – 17

غطرستهم، فانتهز فيليب الرابع الفرصة فقبض على عدد من فرسانهم وأمر بإحراقهم في باريس سنة ١٣١٠م وأمر بحل هذه الجماعة ومصادرة أملاكها فانحلت هيئة الداوية وتفرق أتباعها في البلاد، وإن أشار بعض المؤرخين إلى أن هذا العمل لم يكن من الأعمال التى ينبغى أن يفخر بها فيليب الرابع (١٠٧) .

ومما يحسب للملك فيليب الرابع دعوته لمجلس طبقات الأمة لأول مرة سنة ١٣٠٢م وهو المجلس الذى كان له أثر خطير في تاريخ فرنسا فيما بعد، فأكد بذلك أنه كان يقيم وزناً كبيراً للرأى العام ويقدر أهميته(١٠٨) ، وتكررت الدعوة لهذا المجلس في سنوات متعددة كلما أحس بحاجته إلى تأييد الشعب وكلما التمس من الرعية العون والتأييد، واضطر سنة ١٣٠٤م إلى إلغاء بعض الضرائب وعدم التلاعب في العملة عند اعتراض أعضاء المجلس على ذلك، فكانت هذه خطوة إلى الأمام في التاريخ الدستورى والتشريعى في فرنسا في أواخر العصور الوسطى(١٠٩) .

وكان فيليب الرابع آخر ملوك آل كابيه الأقوياء فبموته سنة ١٣١٤م أوشكت الأسرة على التداعى إذ خلفه عدد من الملوك الضعاف أولهم لويس العاشر (٣١٤-١٣١٦) ثم فيليب الخامس (١٣١٦ - ١٣٢٢م) ثم شارل الرابع (١٣٢٢ - ١٣٢٨م) والثلاثة كانوا أبناء فيليب الرابع، وبوفاة آخرهم دون عقب انتهت أسرة آل كابيه واجتمع مجلس طبقات الأمة سنة ١٣٢٨م ليختار ملكاً جديداً. وعلى هذه الصورة انتهت

(107) Lodge : op. cit. p. 50
(108) Camb. Med. Hist. V. 7 , p. 684
(109) Lodge : op. cit. p. 50

هذه الأسرة بعد أن أفادت فرنسا مـن اخضاعـها البـلاد لسـلطتها وتوفـير لفرنسا مدناً ثرية وطبقة محاربة فضلاً عن تشجيع الجامعات والإفادة من خريجيها، فحققت هذه الأسرة نجاحـاً كبـيراً حـين اسـتفادت مـن كـل ذلك(١١٠) .

(١١٠) كانتور : التاريخ الوسيط ق٢ ص ٦٥٤ (ترجمة د. قاسم عبده قاسم)

الفصل الثالث

تاريخ ألمانيا وإيطاليا منذ عصر الحروب الصليبية حتى أوائل القرن الرابع عشر الميلادي

- هنرى الخامس (١١٠٦ - ١١٢٥ م) .
- لوثر الثاني (١١٢٥ - ١١٣٨ م) .
- كونراد الثالث هوهنشتاوفن (١١٣٨ - ١١٥٢ م) .
- فردريك الأول بربروسا (١١٥٢ - ١١٩٠م) .
- هنري السادس (١١٩٠ - ١١٩٧ م) .
- فردريك الثانى (١٢١٢ - ١٢٥٠م) .
- نهاية أسرة هوهنشتاوفن سنة ١٢٥٠م .
- أحوال ألمانيا حتى قيام أسرة هابسبورج سنة ١٢٧٣م.
- رودلف هالسبورج ١٢٧٣ - ١٢٩١م ملكاً علي ألمانيا .
- فترة حكم أدولف كونت ناسو ١٢٩٢ - ١٢٩٨ م .
- ألبرت الأول ابن رودلف هابسبورج ١٢٩٨ - ١٣٠٨ م .

وأشرنا من قبل إلى تاريخ ألمانيا وإيطاليا في ظل الإمبراطورية الرومانية المقدسة منذ انفصال ألمانيا عن إمبراطورية شارلمان في أوائل القرن العاشر حتى نهاية عهد الإمبراطور هنرى الرابع الذى اضطر بعد نزاع طويل مع البابوية – إلى التنحى عن العرش سنة ١١٠٥م [١] ، وكانت هذه الإمبراطورية قد ضمت إليها إيطاليا وأسمت نفسها الإمبراطورية الرومانية المقدسة، إشارة إلى رباط ألمانيا وإيطاليا تحت راية هذه الإمبراطورية[٢] ، وكيف تدرج تاريخ هذه الإمبراطورية في تلك الفترة إلى أواخر القرن الحادى عشر ومطلع القرن الثانى عشر الميلاديين أى إلى بداية عصر الحروب الصليبية .

وباعتلاء هنرى الخامس العرش الألمانى (١١٠٦ – ١١٢٥م) بدأت حلقة جديدة من حلقات الصراع بين الإمبراطورية والبابوية في هذا الدور، فقد تمسك هنرى الخامس بحقوقه كاملة في تقليد الأساقفة وراح يملأ الأسقفيات الشاغرة في الإمبراطورية كما يحلو له، وفي نفس الوقت لم يعط البابوية فرصة تأليب الأمراء الألمان عليه، لأنه عجل بالاتفاق مع كبار الأمراء الألمان ووحد الصف في مواجهة البابوية[٣] ، ثم ما لبث أن قاد جيوشه إلى إيطاليا سنة ١١١٠م واستطاع أن يخضع البابا باسكال الثانى ويجبره وأنصاره الكرادلة على الرضوخ في مسألة التقليد العلمانى، فاضطر البابا إلى الموافقة على قيام هنرى الخامس بتقليد الأساقفة. وهكذا ثأر هنرى الخامس لما حل بوالده في كانوسا[٤] .

---

(1)Robinson: op. cit. I, p. 200
(2)Oman : op. cit. p. 373
(٣) محمد الشيخ : تاريخ أوربا في العصور الوسطى ص ٣٦١
(4) Brooke : op. cit. p. 252

غير أن هذا الاستسلام من قبل البابوية لم يكن إلا انحناء للريح ومسايرة للتيار لأنه سرعان ما عادت المشكلة من جديد، واضطر هنرى الخامس إلى دخول إيطاليا من جديد سنة ١١١٧م . وبعد اعتلاء البابا كالكستس الثانى الكرسى البابوى سنة ١١١٩م ، وكان رجلاً قديراً اتجه إلى تصفية المشكلة مع الإمبراطور، وفي نفس الوقت كان هنرى الخامس قد مل الصراع مع البابوية ومال إلى حل المشكلة وأخيراً عقدت اتفاقية ورمز Worms سنة ١١٢٢م ذائعة الصيت(٥) ، وتقضى هذه الاتفاقية أن يجرى انتخاب الأساقفة ومقدمى الأديرة في خارج ألمانيا وفق القانون الكنسى دون تدخل من السلطة العلمانية، وبعد تقليد الأسقف أو مقدم الدير دينياً يصبح بوسع الإمبراطور أن يزوده بأية سلطة، أما في ألمانيا فيكون اختيار الأساقفة بطريق الانتخاب، ويمكن للإمبراطور أن يحضر بنفسه عملية الانتخاب أو يرسل مندوباً عنه لحضور هذه العملية وبعد أن يجرى انتخاب الأسقف يقلده الإمبراطور تقليداً علمانياً قبل تقليده الدينى (٦) .

وهكذا نجحت البابوية في تحقيق جانب من أهدافها حين حددت سلطة الإمبراطور في اختيار رجال الدين، وأجبرته على التراجع إلى نصف الطريق ، وتقدمت هى لتلقاه في موضعه، أى أنها تقدمت خطوات وتراجع هو خطوات فالتقتا في نصف الطريق، وإلى ذلك يشير المؤرخ برايس Bryce بأن الأباطرة الألمان خسروا نصف الحقوق التى كانت لهم في استثمار المراكز الدينية(٧) ، ورضوا أن يكون الأمر بينهم

(5)Camb. Med. Hist. Vol. 5,p. 107
(6)Stroyer, Munro : op. cit. p. 208
(7) Bryce : op. cit. p. 161

وبين البابوية مناصفة وفي نفس الوقت أنهت هذه الاتفاقية النزاع حول التقليد العلماني والدور الأول من الصراع بين الإمبراطورية والبابوية، ولكنها لم تضع في الحقيقة حداً للنزاع بين السلطتين الدنيوية والدينية، إذ استمر الصراع بينهما بعد ذلك، وما لبث البابا أن توفي في سنة ١١٢٤م ولحق به الإمبراطور هنرى الخامس في العام التالى[٨] .

وعقب وفاة هنرى الخامس أجمع الأمراء الألمان على اختيار لوثر الثانى دوق سكسونيا ملكاً سنة ١١٢٥م، وهو الرجل الذى حظى بحب الألمان بسبب نجاحه في الحروب مع السلاف من ناحية والرجل الذى كان يتخذ موقف المعارضة من هنرى الخامس من ناحية أخرى، على الرغم من أن هذا الاختيار لم يحظ برضى أسرة هنشتاوفن أمراء سوابيا، الذين اعتقدوا أن لوثر الثانى هذا لم يكن بوسعه بعث هيبة الإمبراطورية واسترداد عظمتها بسبب ضعفه وتقدم سنة [٩].

وقد خالف لوثر الثانى سياسة سلفه هنرى الخامس حين انعطف جهة البابوية ومال إلى مسالمتها وتأييدها ولهذا لجأ إليه البابا إنوسنت الثانى حين نشأ نزاع حول الكرسى البابوى وفر هذا البابا إلى ملك ألمانيا مستنجداً به ضد خصومه فأنجده لوثر الثانى، فكافأه البابا بتتويجه إمبراطراً في روما سنة ١١٣٣م[١٠] ،وكان لوثر الثانى قد اعترف بحق البابوية في تركة الأميرة ماتيلدا على أن يأخذ لوثر الثانى هذه التركة من البابا كإقطاع مقابل إيجار سنوى، فكانت هذه فرصة البابوية في الحصول على دليل جديد أظهر الإمبراطور في صورة فصل إقطاعى للبابا .

---

(8) Camb. Med. Hist. vol. 5, pp. 334 - 5

(٩) سعيد عاشور : المرجع السابق ق١ ص ٣٩٦ – ٣٧٠

(10) Southern : op. cit. p. 109

وحين توفى لوثر الثانى سنة ١١٣٨م، جرى اختيار كونراد الثالث هو هنشتاوفن ملكاً على ألمانيا (١١٣٨ - ١١٥٢م)[١١]، وكان أضعف من تولى عرش ألمانيا في تلك الفترة، فضلاً عن أنه أول ملك من ملوك ألمانيا لايتوج إمبراطورا منذ عهد أوتو العظيم، بالإضافة إلى انكماش الأراضى الخاصة بالتاج فأدى ذلك إلى ضعف الملك الذى كان يستمد قوته من اتساع ضياعه الخاصة في ظل النظم الإقطاعية[١٢]. وشهدت هذه الفترة ازدياد نفوذ كبار الأمراء مع ضعف سلطة الملكية الألمانية في تلك الحقبة، ولهذا كان انتخاب الملك على يد هؤلاء الأمراء. كما ضعفت سلطته في إيطاليا، وقلت هيبته خاصة بعد الحملة الصليبية الفاشلة التى شارك فيها وهى الحملة المعروفة بالحملة الثانية، والتى ذبح فيها الجيش الألمانى على يد السلاجقة في آسيا الصغرى[١٣] ، وربما لذلك أعلن البابا إنوسنت الثانى في نفس السنة التى اعتلى فيها كونراد الثالث العرش تحلله من الارتباط باتفاقية ورمز التى عقدتها البابوية مع الإمبراطور هنرى الخامس سنة ١١٢٢م[١٤] ، وأعلنت البابوية سيادتها العليا على جميع الحكام العلمانيين الذين لا يحق لهم التدخل في شئون الكنيسة وأملاكها أو بتقليد رجالها، وعلى الرغم من أن ذلك كان بمثابة إعلان العداء للسلطة العلمانية إلا أن كونراد الثالث رفض أن يدخل في حرب سافرة مع البابوية وفضل العمل على توطيد نفوذه في ألمانيا [١٥] .

---

(11) Brooke : The saxon and Norman Kings, p. 137
(12) Ibid. p. 137
(13) Runciman : Hist. of the Crusades . 11, p. 268
(14) Camb. Med. Hist. Vol. 5, pp. 358 - 361
(15) Thompson : The Middle Ages, Vol. 1, p. 475

خلف كونراد الثالث ابن أخيه فريدريك الأول بربروسا (١١٥٢–١١٩٠م) الذى اعتلى العرش الألمانى وهو في الثلاثين من عمره، وكان شاباً شجاعاً فصيحاً محباً للعظمة والمجد ويؤمن بسمو العرش الألمانى وعظمة الوظيفة الإمبراطورية [١٦] . ولم يكن ذلك يتحقق إلا بالربط بين شطرى الإمبراطورية في ألمانيا وإيطاليا لاسترداد مكانة الإمبراطورية واسترجاع مجدها السالف من ناحية وتخليص ألمانيا من شر الفتنة التى أنزلت بكثير من المدن الألمانية الخراب والدمار[١٧] من ناحية أخرى ولتحقيق الهدف الأول تفاهم فريدريك الأول بربروسا مع البابا وعقد معه معاهدة كونستانس سنة ١١٥٣م تعهد بموجبها بإخضاع أعداء البابا والخارجين على سلطته وعدم مهادنة خصومه في مقابل أن يقوم البابا بتتويجه إمبراطوراً ويقدم له المساندة ضد خصومه في ألمانيا[١٨] .

غير أنه قدر للصراع الذى كان قد نشب من قبل بين البابوية والإمبراطورية أن يحيي من جديد وتضطرم ناره بعد أن خمد طوال نحو خمسة وعشرين عاماً، وذلك على عهد كل من البابا أوربان الرابع ومن خلفه في الكرسى البابوى والإمبراطور فريدريك الأول بربروسا. وإذا كان الصراع في الدور الأول قد اندلع بسبب مسالة التقليد العلمانى[١٩] ونظرية السمو والتفوق التى آمن بها كل طرف من أطراف النزاع، فقد ارتكز الصراع في هذا الدور الجديد حول مشكلة القومونات الإيطالية وأحقية الإمبراطورية في الهيمنة على المدن اللمباردية وإخضاعها [٢٠] ، بعد أن

(16) Bryce : op. cit. p. 160
(17) Davis : Medieval Europe, p. 319
(18) Tour : The Empire and the Papacy, pp. 247 – 48
(19) Fliche : L'Europe Occidentale, Vol. 1, p. 370
(20) Robinson : op. cit. p. 205, Southern : op. cit. p. 313

نجحت المدن اللمباردية في شمال إيطاليا في أن تتخلص من سيطرة الأمراء الإقطاعيين لتصبح قومونات مستقلة واتفقت جميعها على مقاومة أية سلطة تحاول الإمبراطورية فرضها عليها، لرغبتها في مباشرة نشاطها الاقتصادي وإدارة شئونها (٢١) .

وكان كل من البابا أوربان الرابع والإمبراطور فريدريك الأول بربروسا قد مكن لنفسه وقوى مركزه، فعلى حين تحالف البابا مع النورمان في الجنوب وحصل على ولاء الإيطاليين خاصة في روما، فقد وفق الإمبراطور في حل مشاكله في الإمبراطورية وإقرار الأوضاع الداخلية(٢٢) ، والحصول على ولاء الأمراء الألمان. وهكذا تهيأت الفرصة للدخول في المواجهة مع البابا في هذا الدور الجديد، وبدأت الأحداث برسالة تلقاها الإمبراطور من البابا جاء فيها أن التاج الإمبراطورى إنما هو إحسان وإقطاع من البابا للإمبراطور ، وكان رد الفعل لدى الإمبراطور عنيفاً وضح فيه أنه إنما " استمد عرشه وملكه من الله مباشرة لا من البابا" (٢٣) ، فما كان من البابا إلا أن تراجع واعترف أنه إنما كان يقصد معنى عاما وليس معنى خاصاً، فأجل بذلك تفجر الصراع بينه وبين فريدريك الأول ، وأرجأ اندلاع الحرب السافرة بينهما فترة (٢٤) .

إلا أن الصراع ما لبث أن اشتد على اثر مبادرة فريدريك الأول بمحاولة إخضاع المدن اللمباردية، وتعيين حكام إمبراطوريين فيها، بعد

---

(21) Camb. Med. Hist. Vol. 5 p. 361
(22) Davis : op. cit. p. 319
(23) Bryce : op. cit. p. 167
Tout : op. cit. p. 254
(٢٤) محمد الشيخ : المرجع السابق ص ٣٦٤

أن تمتعت هذه المدن فترة من الزمن بشئ من الاستقلال الذاتى، وألفت هذه الأوضاع زمناً طويلاً (٢٥) ، ومن الطبيعى أن تثور ثائرة البابوية خشية ازدياد نفوذ الإمبراطورية في إيطاليا بما يعنيه ذلك من احتواء البابوية والتضييق عليها، ولم يحفل فريدريك الأول بمعارضة البابا إذ عبر جبال الألب سنة ١١٥٨م ، وأخضع ميلان وأعلن تمسكه بكافة حقوقه في المدن اللمباردية الأخرى(٢٦) ، وأعقب ذلك وفاة البابا أوربان الرابع وولاية البابا اسكندر الثالث (١١٥٩- ١١٨١م) ، الذى أصر على التمسك بحقوق البابوية وإشعال نار الفتنة مع الإمبراطور، وبادر بتحريض المدن اللمباردية على الثورة ضد الإمبراطور والدخلاء الألمان في إيطاليا، فثارت معظم المدن اللمباردية ضد فردريك الأول الذى سارع بمواجهة الموقف بمنتهى العنف فدمر كريما Crema وميلان، رغم صمود هذه الأخيرة نحو ثلاث سنوات، وقبض على زعمائها وصفى الموقف لصالحة في إيطاليا ومع المدن اللمباردية (٢٧) .

التفت الإمبراطور بعد ذلك نحو البابا اسكندر الثالث ورأي أن يرد على عدائه بتعيين بابا آخر إمبراطوري هو فكتور الرابع لينافسه على الكرسى البابوى، وعندئذ لم يجد اسكندر الثالث بداً من الهرب من روما لاسيما وقد أيده في موقفه كل من لويس السابع ملك فرنسا وهنرى الثانى ملك إنجلترا، ففر البابا إلى فرنسا بعد أن سقطت ميلان في يد الإمبراطور سنة ١١٦٢م ، وبدأ الإمبراطور في مواجهة مشاكله في

(25) Camb. Med. Hist.. Vol. 5, p. 427

(٢٦) العرينى : تاريخ أوربا في العصور الوسطى ص٥٤٢ (بيروت لبنان ١٩٦٨)

(27) Robinson : op. cit. pp. 207- 8

إيطاليا(٢٨) بشئ من العنف والقسوة فعاد بعد نحو عامين إلى شمال إيطاليا للمرة الثالثة لإقرار الأوضاع في المدن اللمباردية، ولقد شجعت هذه الأحداث البابا المنفى اسكندر الثالث على العودة إلى روما حيث عقد مجمع دينى أعلن فيه البابا قرار الحرمان ضد الإمبراطور(٢٩) . وساعدت هذه الأحداث على اشتعال الثورة في المدن اللمباردية الأمر الذى عجل بعودة الإمبراطور فريدريك الأول بربروسا إلى إيطاليا للمرة الرابعة، واتجه في هذه المرة إلى روما ذاتها للقضاء على غريمه البابا اسكندر الثالث، ولكن هذا تمكن من الفرار إلى الجنوب قبل دخول الإمبراطور المدينة (٣٠)، وبعد دخول فريدريك روما سنة ١١٦٧م جرى تتويجه للمرة الثانية إمبراطوراً على يد البابا الإمبراطورى الجديد باسكال الثالث الذى كان قد عينه الامبراطور خلفاً للبابا فيكتور الرابع (٣١) .

ولم يكن فريدريك بربروسا حصيفاً في هذه المرة، لأنه ألب جميع أعدائه ضده، إذ بدأ الاتصال بسلطنة سلاجقة الروم بقونية مثيراً الإمبراطور البيزنطى ما نويل كومنين (٣٢) ، بدلاً من محالفة هذا الأخير وتوجيه الحلف ضد النورمان في جنوب إيطاليا ، ولهذا فقد واجه فريدريك عداءً شديداً وتألب ضده أعداء كثيرون، فبالإضافة إلى البابا اسكندر الثالث وحلفائه النورمان، انضم الإمبراطور الشرقى مانويل كومنين إلى قائمة الأعداء، فضلاً عن المدن اللمباردية التى سارعت بتكوين حلف فيما بينها شمل معظم مدن السهل اللمباردى، وزاد في سوء

---

(٢٨) العرينى : المرجع السابق ص ٥٤٣

(29) Robinson : op. cit. p. 208

(30) Camb. Med. Hist. Vol. 5, p. 441

(31) Ibid. p. 394

(32) Ostrogorski : op. cit. p. 342

أحوال فريدريك الأول انتشار الوباء في جيشه أثناء مرابطته في إيطاليا، وتكتلت المدن اللمباردية تحاول أن تسد الطريق أمامه، لهذا لم يعد الإمبراطور إلى ألمانيا في هذه المرة إلا بشق الأنفس وبعد أن تكبد خسائر فادحة [٣٣] ، وأصبحت سلطته في إيطاليا شبه مفقودة إذ واصلت مدن العصبة اللمباردية حلفها ضد الإمبراطور ماضية في الحفاظ على استقلالها[٣٤] .

غير أن فريدريك الأول بربروسا لم يستسلم لهذه النتيجة وإنما فضل القيام بحملة ضد مدن العصبة اللمباردية، فهبط إلى إيطاليا في المرة الخامسة والأخيرة سنة ١١٧٤م حين دارت معارك عنيفة في شمال إيطاليا[٣٥] أبرزها معركة لينانو Legnano إلى الشمال الغربي من ميلان وقد جرت سنة ١١٧٦م ، وفيها دارت الدائرة على جيوش الإمبراطور ولحقت به هزيمة ساحقة على يد جيوش مدن الشمال[٣٦] ، ولهذا مال إلى عقد الصلح مع هذه المدن ومع البابا اسكندر الثالث الذى انتقل إلى البندقية ليكون قريباً من الأحداث ولم يمانع البابا في هذه المرحلة من الدخول في مفاوضات مع الإمبراطور بعد أن أحس اتجاه هذا إلى الخضوع والاستسلام، وبعد أن أصر على التمسك بحقوق البابوية كاملة، ولهذا تكررت في سنة ١١٧٧م مهزلة كانوسا التى جرت قبل ذلك بمائة عام بالضبط[٣٧] ، فدخل الإمبراطور فريدريك الأول بربروسا على البابا اسكندر

(33) Tout: op. cit. p. 259

(٣٤) العرينى : نفس المرجع ص ٥٤٤

(35) Camb. Med. Hist. Vol. 5, p. 445

(36) B-yce : op. cit. p. 175

(37) Camb. Med. Hist. Vol. 5, p. 448

مثلما فعل سلفه هنرى الرابع مع البابا جريجـورى السـابع سـنة ١٠٧٧م أى قبل ذلك بقرن من الزمان [٣٨].

وجرى عقد صلح البندقية بين البابوية والإمبراطورية في أغســطس سنة ١١٧٧م على قاعدة رد جميع الأملاك البابوية إليها وعلى أن يتعهد الإمبراطور بعقد هدنة مع النورمان حلفـاء البابويـة أمدهـا خمسـة عشـر عاماً، ويتعهد أيضاً بمسـاعدة البابـا ضـد أى عـدو يتـهدده، وأن يـهادن أيضاً المدن اللمباردية [٣٩] لمدة ستة أعوام، وانتهت الأمور بين الإمـبراطور والمدن اللمباردية فعلاً سنة ١١٨٣م حين عقد صلـح حصلـت فيـه المـدن اللمباردية على استقلالها باستثناء بعـض الأمـور الشـكلية وهكـذا فقـدت الإمبراطوريـة إيطاليـا وأخـذت قوتـها تضمحـل رويـداً رويـداً ويعتريــها الذبول[٤٠].

وترتب على صلح البندقية بين الإمبراطور فريدريك الأول بربروسا والبابوية أن هدأت الأحوال واستقرت الأمور وسادت علاقة جديـدة بـين ألمانيا وإيطاليا، ولعـل ذلـك قـد أتـاح فرصـة للإمـبراطور فريدريـك الأول ليدعـم نفوذه في ألمانيا [٤١] ويتصـدى للأمــراء الطـامحين إلى الهيمنـة والظهور وتهديد السلطة الإمبراطورية خاصة أمـير سكسـونيا الـذى نجـح الإمبراطور في إنزال الهزيمة به سنة ١١٨٠م وتقسيم أملاكه بين عدد مـن النبلاء [٤٢].

---

(38) Tout : op. cit. p. 263

(٣٩) العرينى : المرجع السابق ص ٥٤٥

(40) Bryce : op. cit. pp. 201 – 205

(٤١) سعيد عاشور : المرجع السابق ص ٣٨٥

(42) Rompson : op. cit. vol. 1 , pp. 200 – 201, p. 507

كما نجح الإمبراطور فريدريك الأول بربروسا بعد ذلك بسنوات قليلة في تزويج ابنه وخليفته من وارثة مملكة صقلية الأمر أدى إلى التوحيد بين الإمبراطورية الرومانية المقدسة ومملكة صقلية مما جعل أملاك البابا في وسط إيطاليا تقع بين شقى الرحى، بعد زواج ولى العهد الألمانى من الأميرة كونستانس وارثة المملكة المذكورة [٤٣] ، وجاء ذلك نصراً سياسياً للأمبراطورية في مواجهة البابوية وتهديداً لسلطة البابا في وسط إيطاليا، الذى أحاطت به أملاك الألمان من الشمال والجنوب[٤٤].

ثم مالبث الإمبراطور فريدريك الأول بربروسا أن أحرز نجاحاً آخر حين تفكك حلف القومونات اللمباردية، واشتد التنافس بين تلك القومونات في الفترة التى أحست فيها بانتهاء الخطر الإمبراطورى عليها، وعندئذ تمكن الإمبراطور من النفاذ إلى إيطاليا، بعد أن تعرضت سلطة الإمبراطور في تلك المنطقة من قبل لاهتزاز كبير في الفترة السابقة[٤٥]، وعادت من جديد للإمبراطور فريدريك الأول بربروسا سيادته على ألمانيا وإيطاليا بعد أن قضى على المناوئين في ألمانيا من النبلاء ودعم نفوذه هناك ونفذ إلى إيطاليا شمالاً وجنوباً ليقوى نفوذه في شطرى الإمبراطورية الرومانية المقدسة [٤٦] .

فلما وردت الأخبار من الشرق بانتصار صلاح الدين الأيوبى على الصليبيين واسترداده بيت المقدس سنة ١١٨٧م ، عولت البابوية على قوى الغرب وخاصة الإمبراطورية الألمانية للمشاركة في حملة صليبية

(43) Painter : A Hist of the Middle Ages, p. 280
(44) Southern : op. cit. p. 205
(45) Bryce : op. cit. pp. 201 - 205
(46) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 509

جديدة للثأر من المسلمين لما حل بالصليبيين من هزائم على يد صلاح الدين، ولهذا خرج الإمبراطور فريدريك الأول بربروسا سنة ١١٨٩م على رأس الشطر الألمانى من الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة متوجهاً إلى الشرق[٤٧]، ولكن هذا الإمبراطور لقى حتفه غرقاً وهو يعبر نهر السالف بآسيا الصغرى سنة ١١٩٠م ، قبل أن يصل إلى الأراضى المقدسة أو يلتقى بالشق الإنجليزى أو الشق الفرنسى من تلك الحملة الهامة[٤٨] ، وذهب المؤرخون إلى أن غرق هذا الإمبراطور في ذلك النهر كان بسبب تقدمه في السن وهو شيخ كبير لم يتحمل السباحة في النهر مع ثقل ملابسه وضعف صحته، فغرق وهو في طريقه من طرسوس إلى أذنة وأنطاكية [٤٩] .

تولى العرش الألمانى بعد فريدريك الأول بربروسا، ابنه هنرى السادس (١١٩٠ - ١١٩٧م) الذى لم يكن يقل عن والده مقدرة وعزيمة وميلاً لاستمرار هيمنة الإمبراطورية باعتبارها إمبراطورية عالمية[٥٠]، وخطط هنرى السادس لجعل المنصب الإمبراطورى وراثياً في ذريته، وإلغاء مبدأ الانتخاب في اختيار الإمبراطور، واستثمار مركز زوجته كوارثة لعرش صقلية لتدعيم نفوذه في جنوب إيطاليا، وإن صادفته مشاكل في ذلك واصطدام ببعض المناوئين، غير أنه تمكن في النهاية من الانتصار على خصومه في ألمانيا مما أتاح له فرصة توجيه كل جهوده نحو إيطاليا[٥١].

---

(47) Tout : The Empire and the Papacy , pp. 270-271
(٤٨) العرينى : المرجع السابق ص ٩٤٥
(49) Grousset : op. cit. III, pp. 16 – 17
(50) Camb. Med. Hist. Vol. 5, p. 460
(51) Tout : op. cit. pp. 306 - 309

ثم ما لبث هنرى السادس أن استولى على مملكـة الصقليتـين بعـد أن ساعدته الظروف بانشغال المدن اللمباردية في شمال إيطاليا بمـا نشـب بينهما من خلاف، فضلاً عما حصل عليه مـن معونـة بحريـة مـن جنـوة وبيزا في حربه في صقلية، في الوقت الذى لم يكن للبابوية في تلـك الفـترة جرأة للوقوف في وجه الإمبراطور، أو الحيلولة بينه وبين تنفيذ مشروعاته في الجنوب، الأمر الذى مكن الإمـبراطور مـن تحقيـق أهدافـه في إيطاليـا وتوسيع نفوذه في الغرب أكثر من أى إمبراطور آخر خاصـة بعـد خلاصـه مـن مناوئيـه في ألمانيـا ابتـداء مـن سـنة ١١٩٥م عنـد وفـاة خصمـه أمـير سكسونيا السابق(٥٢) ولهذا نجح الإمـبراطور هـنرى السـادس في الحصـول على موافقة أمراء ألمانيا سنة ١١٩٦م على أن يخلفه ابنه فريدريك الثـانى في عرش الإمبراطورية، ثم اتجه بعد ذلك إلى إيطاليـا حيـث توفـى سـنة ١١٩٧م(٥٣).

وبعد وفاة الإمبراطور هنرى السادس آثـرت زوجتـه كونسـتانس – والدة فريدريك الثانى – الاحتفاظ لابنها بمملكـة الصقليتـين مبتعـدة عـن ألمانيا ومشاكلها، في الوقت الذى غرقـت فيـه ألمانيـا في مشـاكل كثـيرة، وشـهدت أطمـاع الطـامعين وحـوادث الإنقسـام التـى جرتـها إلى حـروب أهليـة(٥٤)، ثـم مـالبثت كونسـتانس أن توفيـت سـنة ١١٩٨م، بعـد أن أوصت بأن يخلفها البابا في الوصاية على ابنها الصغير فريدريك الثـانى، ونظراً لتعرض البابا لعداء وأطماع الأمراء الألمان الرامين إلى الهيمنـة علـى العرش الألمانى والتمسك بالسـيادة الإمبراطوريـة في إيطاليـا، الأمـر الـذى

(52) Camb. Med. Hist. Vol. 5, p. 469
(53) Thompson : op. cit. Vol. 1 , p. 512
(54) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 233

جعل البابا إنوسنت الثالث يعلن فريدريك الثانى إمبراطوراً(٥٥) ، وانتـهى الأمر بإجماع عدد من أمراء ألمانيـا سـنة ١٢١١م علـى اختيـار فريدريـك الثانى – ابن هنرى السادس – ملكـاً علـى ألمانيـا، وايـد البابـا إنوسـنت الثالث ذلك، على الرغم من أن ذلك كان يعنـى أن تصبـح البابوية مـن جديد بين شـقى الرحـا، فيحيـط بـها أمـلاك الألمـان مـن الشـمال ومـن الجنوب، وما يترتب على ذلـك مـن نتـائج(٥٦) ،وبعـد انتصـار فريدريـك الثانى في ألمانيا واستسلام خصومه احتفـل بإعـادة تتويجـه في كاتدرائيـة آخـن، فـأصبح بذلـك الحـاكم الـذى لا ينازعـه منـازع في حكـم ألمانيـا والصقليتين(٥٧) .

وعد فريدريك الثانى من أكثر الشخصيات الأوربية حينئـذ شـهرة وغرابة في نفس الوقت فهو ابن هنرى السادس مـن زوجـة صقليـة وارثـة عرش صقلية – كما سبقت الإشارة – فهو بذلك من أب ألمانى وأم نصـف إيطالية، وعاش فترة طفولته وصباه في صقلية وتلقـى تعليمـه هنـاك وسـط المؤثرات العربية والبيزنطية(٥٨) ، فنشـأ نشـأة خاصـة وأغـرم بالرياضيـات والفلسفة – وأحب الجدل وأجاد عدة لغات منـها اللغـة العربيـة، وكـان يتذوق الشعر العربى وغير العربى، ويعرف القـانون ولـه خـبرة كبـيرة في الشئون السياسية فضلاً عن كونه محاربـاً فـذاً(٥٩) .ولقـد أظـهر فريدريـك

---

(55) Thompson : op. cit. Vol. 2, p. 621
(56) Tout : The Empire and the Papacy, p. 239
(٥٧) عاشور : المرجع السابق ج١ ص ٣٩٤
(58) Heer : Medieval World, p. 284, p. 323
(٥٩) فشـر : تـاريخ أوربـا في العصـور الوسـطى ق١ ص ٢٥٥ (ترجمـة زيـادة والعرينى والعدوى)
محمد الشيخ : النظم والحضارة الأوربية في العصور الوسطى ص ٣٣٤،
Bryce : op. cit. p. 204

الثانى اهتمامـاً كبيراً بإيطاليـا ورغبـة في التمكـين لنفسـه فيـها ليـس في جنوبها وصقلية فحسب، وإنما أيضـاً في شمالهـا فضـلاً عـن ألمانيـا[٦٠] ، ولعل ذلك كان له ضلع في إثارة مخاوف البابويـة التـى خشـيت أن تقـع أملاكها بين شقى الرحا، ويبدو أن البابوية على عهد البابا ذائع الصيت إنوسنت الثالث حاولت أن تفرغ حماسة الإمبراطور في الحروب الصليبيـة وتدفعه إلى القيام بحملة صليبيـة ووعـد فريدريـك الثـانى البابـا إنوسـنت الثالث سنة ١٢١٥م بالقيام بحملة صليبية، لكنه عـاد فتلكـأ في إنجازهـا وماطل في تنفيذها، فضلاً عن أنه تـوج ابنـه هـنرى في حياتـه ليخلفـه في حكـم صقليـة والإمبراطوريـة كلـها[٦١] ،فـزاد في إفـزاع البابويـة وزيـادة مخاوفها، وبعد وفاة البابا إنوسنت الثالث وفشل حملـة جـان دى بريـن (١٢١٩ - ١٢٢١م) زادت رغبة البابـا الجديـد هـنريوس الثـالث في قيـام الإمبراطور بالحملة الصليبية التى وعد بها وشجع فكـرة زواج الإمـبراطور من وارثة عرش مملكة بيت المقدس الصليبية ليفـى الإمـبراطور بوعـده[٦٢] فتزوجـها الإمـبراطور فعـلاً سـنة ١٢٢٥م ، لكنـه مـع ذلـك راح يمـاطل في القيـام بالحملـة بـل أنـه جـد في فـرض قوانـين مشـددة علـى رجـال الدين ليحد مـن نفوذهـم، كمـا أعلـن تمسـكه بحقوقـه الإمبراطوريـة في السيطرة على لمبارديا وكل ذلك زاد من حنق البابا وفزعه، وأوشك البابـا أن يتخذ خطوة ضد فريدريك الثانى لولا أنه توفى سنة ١٢٢٧م وخلفه في الكرسى البابوى جريجورى التاسع [٦٣] .

---

(60) Camb. Med. Hist. Vol. 6, p. 76
(61) Tout : op. cit. pp. 364 – 5
(62) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 307
Runciman : op. cit. Vol III , P. 176
محمد الشيخ : عصر الحروب الصليبية ص ٤٧٧
(63) Durant : The Age of the Faith, 395 – 1300, p. 714-717

ولم يقبل البابا الجديد الذرائع التى تذرع بها فريدريك الثانى للمماطلة في أمر القيام بالحملة الصليبية، بل إنه أصر على قيام الإمبراطور بحملة(٦٤) ،واضطر هذا للخروج قاصداً الشرق سنة ١٢٢٧م، إلا أنه عاد بعد أيام مدعياً المرض، الأمر الذى أعطى البابوية مبرراً لإصدار قرار الحرمان عليه في سبتمبر من نفس العام(٦٥) ، ويبدو أن البابوية انتهزت هذه الفرصة لتنتقم من الإمبراطور ليس لماطلته في أمر الحملة، وإنما لمواقفه تجاه البابوية ورغبته في إخضاعها وتدخله في شئون إيطاليا ولمبارديا بصفة خاصة، غير حافل بمشاعر الإيطاليين من ناحية والبابوية من ناحية أخرى، ولهذا جد البابا في محاولة إثارة مشاعر الرعايا ضد الإمبراطور والتأكيد على وجوب طرح طاعته والثورة في وجهه لأنه محروم من رحمة الكنيسة (٦٦) .

ويبدو أن ذلك أتى بثمرة في النهاية فقد اضطر فريدريك الثانى للخروج إلى الشرق وهو كاره لهذا الأمر، ويدل على ذلك أنه لم يعزم على الاشتباك مع المسلمين في الشرق بدليل أنه اصطحب قوة صغيرة يقال أنها لم تزد عن خمسمائة فارس لاتكفى لمجرد التفكير في شن حرب على المسلمين وإنما كان يعول على فتح باب المفاوضات مع الملك الكامل الأيوبى للحصول على بيت المقدس بطريق السياسة لا بطريق الحرب(٦٧) بل بطريق الاستعطاف إن لزم الأمر، وفعلاً وصل به الأمر في بعض

---

(64) Camb. Med. Hist. Vol. 6 , p. 146
(65) Runciman : op. cit. Vol. III , p. 178
محمد الشيخ : المرجع السابق ص ٤٨٠
(66) Tout : op. cit. p. 367
(67) Stevenson : op. cit. p. 311

مراحل المفاوضات أن بكى أمام رسل الملك الكامل ليرق قلب السلطان ويمنحه بيت المقدس حتى لا يعود إلى الغرب صفر اليدين، فينتهز البابا الفرصة لخلعه من عرشه، وفعلاً رق له قلب الملك الكامل وعقد معه معاهدة جرى بمقتضاها تسليم بيت المقدس للإمبراطور فريدريك الثانى سنة ١٢٢٩م ، فدخل فريدريك الثانى كنيسة القيامة ببيت المقدس وقام بتتويج نفسه بنفسه فيها إشارة إلى أنه لم يتلق التاج من يد رجال الدين، وإنما تلقاه من الله مباشرة. ثم قفل راجعاً إلى الغرب الأوربى بعد قليل في يونيو سنة ١٢٢٩م [٦٨] .

وكان البابا جريجوري التاسع قد انتهز فرصة غياب فريدريك الثانى في الشرق، وأشاع نبأ وفاته هناك وقام من جانبه بالإغارة على أملاك الإمبراطور في إيطاليا واستولى على بعض القلاع[٦٩]، غير أنه فوجئ بوصول الإمبراطور إلى إيطاليا فأوجس خيفة وأخذ يستعد للدفاع عن روما، إلا أنه آثر في النهاية الاعتراف بما حققه الإمبراطور للمسيحية كلها والصليبيين قاطبة من نصر باسترجاع بيت المقدس، ومال إلى عقد الصلح مع الإمبراطور، وفعلاً عقد صلح سان جرمانو سنة ١٢٣٠م رفع البابا بموجبه قرار الحرمان عن الإمبراطور[٧٠] وانتهز الإمبراطور هذه الفرصة ليؤكد سيطرته في إيطاليا وينزل بحلف العصبة اللمباردية الهزيمة قرب ميلان سنة ١٢٣٨م واضطرها إلى عقد الصلح مع الإمبراطورية، الأمر الذى استاءت له البابوية وبدا في ظله صلح سان جرمانو مجرد هدنة بين البابوية والإمبراطورية [٧١] لأن النزاع مالبث أن تجدد لاسيما حين جد

(68) W. Durant: op. cit. p. 717

(٦٩) عاشور : المرجع السابق ٣٩٨

(70) Camb. Med. Hist. Vol. 6, p. 147

(71) Thompson : op. cit. Vol. 2, pp. 629 – 630

الإمبراطور في محاولة إثارة القلاقل ضد البابا في روما ذاتها، مما دفع هذا إلى القيام بإصدار قرار الحرمان ضد الإمبراطور للمرة الثانية سنة ١٢٣٩م[٧٢] ،واشتعلت الحروب بعد ذلك بين البابا والإمبراطور واستعان البابا في ذلك بالقوى البحرية الإيطالية جنوا وبيزا والبندقية، غير أن الهزيمة لحقت بهم وتقدم الإمبراطور في أملاك البابا في وسط إيطاليا، ووسط ذلك كله توفى البابا في عام ١٢٤١م وقد قارب عمره المائة عام [٧٣].

استمر النزاع بين الإمبراطورية والبابوية بعد ذلك وعلى عهد البابا إنوسنت الرابع الذى اضطر أمام ضربات الإمبراطور القوية في إيطاليا إلى الفرار إلى ليون سنة ١٢٤٢م، وظلت يد الإمبراطورية هى العليا في إيطاليا حتى سنة ١٢٥٠م باستثناء مرات قليلة لقيت فيها قواته بعض الهزائم من المدن الإيطالية، وأخيراً توفى فريدريك الثانى سنة ١٢٥٠م وكان متوجهاً من جنوب إيطاليا إلى شمالها [٧٤] ، وبذلك انتهى عهد الأباطرة العظام الذين آمنوا بنظرية سمو الإمبراطورية وعاليتها وتفوقها على كافة القوى بما فيها البابوية وانتهت بذلك عالية الإمبراطورية الرومانية المقدسة [٧٥] ، فقد ضعفت الإمبراطورية وانتشرت بين ربوعها الفتن ولم تعد نداً للبابوية، وانتهى ذلك الدور الخطير من أدوار الصراع بين القوتين وهو الدور الثالث في أدوار الصراع بين الجانبين في العصور الوسطى، ولعله من الواضح أن الإمبراطورية قد عجزت بكل ما لها من ثقل عن إخضاع البابوية نظراً لأن هذه اعتمدت على رصيد هائل من

---

(72) Camb. Med. Hist. Vol. 6 p. 135
(73) Ibid. p. 156
(٧٤) عاشور : المرجع السابق ص ٤٠٣
(75) Camb. Med. Hist. Vol. 6, p. 164

الشعور الروحى لدى الناس الذى كان منهلا فياضا اعتمد عليه البابوات في صراعهم مع الأباطرة الذين لم يكن لهم سوى سوابق الماضى وأمجاد الأباطرة في الماضى دون سند قوى يمكن أن يكون له أثر في جسم هذا الصراع لصالحهم .

ولاشك أن عهد الإمبراطور فريدريك الثانى كان عهد ازدهار وعظمة للإمبراطورية الرومانية المقدسة، على الرغم من أن هذا الإمبراطور لم يول ألمانيا الاهتمام الذى أولاه لكل من صقلية وإيطاليا، لأنه اعتبر نفسه صقليا قبل أن يكون ألمانيا، ولم يستقر في ألمانيا سوى سنوات قليلة من عهده الطويل، وراقت له صقلية وإيطاليا مستقرا أكثر من ألمانيا، وعلى الرغم من ذلك سارت ألمانيا في طريق التطور والازدهار والقوة والتوسع (٧٦) ، ولعت مدنها التى انتعشت صناعاتها وتجارتها، والتى اتجهت نحو الاستقلال السياسى وتأكيد ذاتيتها، وتكوين العصبات فيما بينها والتحالفات ضمانا لصالحها وتقوية نفوذها (٧٧) ، وكذلك انتعشت تجارة المانيا كلها، وغدت ألمانيا مركزا للثراء والعظمة الاقتصادية في غرب أوربا، كما دلفت ألمانيا إلى ميدان الحضارة والتطور الحضارى، في العلوم والآداب والقانون والتشريع، وربما كان لتشجيع الإمبراطور فريدريك الثانى نفسه لهذا التطور الحضارى الفضل الأكبر في تطور ألمانيا في هذه الميادين (٧٨) ، فقد حبى الشعراء والأدباء والعلماء برعايته وتشجيعه وأظهر حدبا واهتماما بالفروع العلمية المختلفة وغدا بلاطه قبلة الشعراء والأدباء والعلماء والفلاسفة وغيرهم (٧٩) .

---

(76) Tout : The Empire and the Papacy , p. 378
(77) Thompson : op. cit. vol. 2, p. 637
Camb. Med. Hist. V. 6, pp. 112-113
(78) Bryce : op. cit. pp. 203 – 4

(٧٩) فشر : المرجع السابق ق١ ص ٢٥٥

وعلى الرغم من كل ذلك يميل كثير من المؤرخين إلى القول بأن الإمبراطورية الرومانية المقدسة قد انتهت من الوجهة العملية، بوفاة الإمبراطور فريدريك الثانى سنة ١٢٥٠م وإن ظلت بعد ذلك أسمياً حتى القرن التاسع عشر الميلادى (٨٠)، وبانتهاء عهد فريدريك الثانى انتهت أسرة هوهنشتاوفن، ثم توفى كونراد الرابع ابن فريدريك الثانى سنة ١٢٥٤م ، وعانت ألمانيا على مدى عشرين سنة معاناة شديدة وانغمست خلالها في حروب أهلية وصراعات دموية في غيبة من يتولى أمرها أو يسيطر على مقدراتها حتى سنة ١٢٧٢م ، ومثلت هذه الفترة ثغرة خطيرة في تاريخ الحكم الألمانى (٨١) ، جاءت ثمناً لاقتناع حكام ألمانيا بهيمنة الإمبراطورية الرومانية المقدسة على مقدرات الغرب الأوربى ووجوب عاليتها واحترامها في الغرب الأوربى، وجاءت كذلك نتيجة جرى هؤلاء الحكام وراء سراب هذه الإمبراطورية واستمرار وجودها مع التضحية بمصالح وطنهم ذاته ومستقبل ألمانيا نفسها (٨٢) .

جرى انتخاب رودلف (١٢٧٣ - ١٢٩١م) كونت هابسبورج ملكاً وتوج في أكتوبر سنة ١٢٧٣م فبدأت بعده أسرة هابسبورج في حكم ألمانيا، وكان في الخامسة والخمسين من عمره وواجهته مصاعب جمة على رأسها إخضاع المناوئين والطامعين في العرش، وكذلك تحديد مسار علاقته بالبابوية وحقوق الإمبراطورية الألمانية في إيطاليا (٨٣) .

---

(٨٠) عاشور : المرجع السابق ص ٤٠٤ - ٤٠٥
(81) Southern : op. cit. p. 207
(82) Bryce : op. cit. p. 210
(83) Camb. Med. Hist. Vol. 7, p. 78

ويشير المؤرخون إلى أن رودلف هذا غاير سياسة ألمانيا نحو البابوية، حين تنازل للبابوية عن كل حقوق الإمبراطورية وأملاكها في إيطاليا ليتفرغ لحل مشكلاته مع المناوئين خاصة في دوقية أوستريا (النمسا). واضطر إلى قيادة جيشه لإخضاع حاكمها وأنهى هذه المهمة سنة ١٢٧٨م وأقر الأمور في تلك المناطق [٨٤]، ثم توفى رودلف سنة ١٢٩١م وهو في الثالثة والسبعين من عمره.

جرى انتخاب أدولف (١٢٩٢ – ١٢٩٨م) كونت ناسو سنة ١٢٩٢م فاضطر إلى القيام بحملة ضد ألبرت ابن الملك المتوفى خشية أن ينازعه السلطة وأجبره فعلاً على تقديم فروض التبعية والولاء. وتسليم الشعار الملكى الذى احتفظ به منذ وفاة أبيه وعمل على الحد من نفوذ كبار الأمراء في المملكة، لكن ذلك كله لم يمكنه من الهيمنة على عرش ألمانيا لأن ألبرت جد في التحالف مع كبار الأمراء والمناوئين لأدولف[٨٥]، وكذلك ملك فرنسا فتقرر عزل أدولف سنة ١٢٩٨م، ثم قتلوه في نفس العام فعاد الحكم إلى أسرة هابسبورج وإلى ألبرت ابن الملك السابق رودلف. فحكم ألبرت عشر سنوات أثبت خلالها مقدرة وكفاية رغم قصر حكمه ورغم عنفه وقسوته ورغم خلافه مع البابوية حين رفض البابا بونيفيس الثامن الاعتراف به ملكاً على ألمانيا، فمال البرت الأول إلى محالفة فيليب الرابع ملك فرنسا، الذى كان في نزاع هو الآخر مع البابوية[٨٦].

---

(84) Painter : op. cit. p. 397
(85) Camb. Med. Hist. Vol. 7, pp. 88 – 9
(86) Ibid. p. 88

ومن مميزات حكم ألبرت الأول هذا مناصرتـه لسكان المدن ضد الأمـراء وإلغائـه جميـع الضرائـب والمكـوس التـى اسـتحدثت قبـل نحـو خمسين عاماً. ولذلك بذل جهداً كبيراً في القضـاء علـى المتمرديـن واقـرار الأمور في المملكة وحل المشـكلات المتعلقـة بحكـم بعـض الأقـاليم التابعـة لألمانيا، إلا أنه مـالبث أن قتـل علـى يـد ابـن أخيـه حنـا سـنة ١٣٠٨م فانتهى بذلك عهد أسرة هابسبورج وظهر بيـت جديـد في حكـم ألمانيـا في أوائل القرن الرابع عشر الميلادى(٨٧) .

---

(87) Ibid. p. 93

الفصل الرابع

إنجلترا بعد الفتح النورمانى حتى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى

- أهمية الفتح النورمانى لإنجلترا
- عهد الملك وليم الفاتح في إنجلترا ١٠٦٦ – ١٠٨٧ م
- فترة حكم الملك وليم الثانى ١٠٨٧ – ١١٠٠ م
- هنرى الأول ١١٠٠ – ١١٣٥ م
- هنرى الثانى ١١٥٤ – ١١٨٩م
- ريتشارد الأول قلب الأسد ١١٨٩ – ١١٩٩م
- يوحنا والعهد الأعظم ١١٩٩ – ١٢١٦ م
- هنرى الثالث ١٢١٦ – ١٢٧٢م
- إدوارد الأول ١٢٧٢ – ١٣٠٧م

أشرنا في الفصل الأول إلى أهمية الفتح النورماني للجزيرة البريطانية، وكيف جعل هذا الفتح إنجلترا جزءاً من فرنسا، فتلقت لغة فرنسا وأدبها وفنونها، وأصبح قانونها قانوناً فرنجياً إلى حد بعيد كما أصبحت أكثر رسوخاً في النظم الإقطاعية ، وشهدت تقدماً في مجالات مختلفة خاصة تلك التى برز فيها النورمان أو تفوقوا [١] ، كمجال الحكومة والنظم السياسية، وكذلك النظم الاقتصادية والاجتماعية، كما حولت الملكية النورمانية القوية التى قامت في إنجلترا الدولة الأنجلو سكسونية المفككة إلى الأمة الإنجليزية المتحدة، فكأن إنجلترا دفعت ثمن تحولها إلى دولة أوربية متقدمة بجعلها بلداً نورمانياً [٢] .

ولم يكن تأثر إنجلترا بفرنسا بعد الفتح النورماني قاصراً على النواحى العلمانية وإنما تعدى ذلك إلى الشئون الدينية والكنسية، فقد حمل رجال الدين النورمان معهم، وهم الذين وفدوا على إنجلترا وتولى بعضهم رئاسة أسقفية كانتربرى، حملوا معهم حركة الإصلاح الكنسية ومبادئها المرتكزة على تحرير الكنيسة ورجالها من سيطرة السلطة العلمانية وسلطة الحكم[٣] ، ولهذا شهدت إنجلترا بعد الفتح النورمانى حركة إصلاح كنسية واسعة، وربما لهذا اصطدم كبار رجال الدين في كانتربرى بالملوك في إنجلترا من خلفاء وليم الفاتح للحفاظ على مكانة الكنيسة وسيادتها واستقلالها عن السلطة الزمنية في الوقت الذى نشطت فيه الديرية الإنجليزية محتذية حذو الديرية الفرنسية التى بلغت في تلك

---

(1) Haskins : op. cit p. 82
(2) Ibid. p. 82
(3) Tout : France and England, op. 56

الفترة أوج عظمتها في فرنسا [٤] ، وكان وليم الفاتح قد حصل على تـأييد البابوية قبل شروعه في غزو إنجلترا، فلـم يكـن غريبـاً أن يحمـل رجـال الدين النورمان إلى إنجلترا مرتكزات الإصلاح الكنسى الـذى ارتبط بإسـم البابا جريجورى السابع، والذى بعـث روحـاً جديـدة في حيـاة الكنيسـة الغربية لتبدأ صفحة جديدة في الحياة الدينية في الجزيرة البريطانية .

جاء حكم وليـم الفـاتح ابتـداءً مـن سـنة ١٠٦٦م بدايـة مرحلـة جديـدة في إنجلـترا، لأن وليـم أدرك أن المملكـة بحاجـة ماسـة للحمايـة العسكرية والتصدى لما قد يحدث في الداخل أو ما يمكن أن يـهددها مـن الخارج، فقد تحفز السكسون لتفجير الثورات في الداخل في الوقت الـذى تربصت بها الأخطار من الخارج [٥] ، ولهذا حكم وليـم الفـاتح الجزيـرة حكماً قوياً محاولاً أن يخضع شعب إنجلترا مـن ناحيـة، ويسـيطر علـى رفاقه النورمان من ناحية أخرى [٦] ، ولهذا عمـل علـى إعـداد دفاعـات قوية للتصدى لغارات الإسـكتلنديين والولشـيين في الداخـل ورد الغـارات الاسكندنافية من الخارج، فكان لابـد مـن سلسـلة مـن القـلاع والحصـون القوية المشحونة بالجند والمقاتلين، وكذلك جيش كبير يمكـن أن يتصـدى للأعداء في الخارج، فضلاً عن أنـه فكـر أيضـاً في دراسـة شـاملة لأحـوال البلاد الاقتصادية والاجتماعية، وإحصـاء لـثروة إنجلـترا وكيـف يجـرى توزيعـها وعـدد السـكان توطئـة لإصـلاح أحـوال إنجلـترا في المجـال

---

(٤) كانتور : التاريخ الوسيط ق١ ص ٣٦٨ — ٣٦٩

Eyre : European civilization , 3, p. 222

جوزيف نسيم يوسف حاشية (١) في ص ١٧٢ مـن ترجمتـه لكتـاب كولتـون: عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة

(5) Camb. Med. Hist. Vol. 5, pp. 507 – 8

(6) Warner and Marten :The Groundwork of British Hist. p.58

الاقتصادي والاجتماعي[٧] .

وفي نفس الوقت عمل وليم الفاتح على تحويل إنجلترا إلى دولة إقطاعية نظراً لأن من تبعه من المقاتلين النورمان كانوا قد تشبعوا بالفكرة الإقطاعية [٨] ، ولم يقاتلوا لمجرد إقامة ملك نورمانى في إنجلترا وإنما من أجل ما سوف يحصلون عليه من أراضى وإقطاعات ومغانم في الجزيرة البريطانية، فأعلن وليم الفاتح أنه المالك لكل أراضى إنجلترا، لأن ذلك حق أعطاه إياه الانتصار في هاستنجز [٩] ، فضلاً عن أحقيته في مصادرة أراضى كل من يقاومه من الأمراء في الجزيرة ، فأصبح لديه فائضاً من الأراضى قام بتوزيعها على أتباعه النورمان[١٠] ، وراعى ألا تجتمع أراضى أى من نبلائه في منطقة واحدة هادفاً بذلك إلى إضعاف نفوذ كبار النبلاء النورمان من ناحية، في الوقت الذى أصر فيه على أن يؤدي أفصال هؤلاء الأمراء يمين الولاء والتبعية له، ليكونوا تابعين له مباشرة، فتصبح الالتزامات المفروضة على الأتباع لأسيادهم تلى في الأهمية إلتزاماتهم للملك، وفي ذلك إضعاف لهؤلاء الأمراء من ناحية أخرى [١١]، فنجح وليم الفاتح بذلك في بناء حكومة إنجلترا بناء إقطاعياً، وفى نفس الوقت منح نفسه سلطة كبيرة تمكنه من الهيمنة على نبلائه ويضعف من

---

(٧) وهو الإحصاء الذى عرف باسم Domesday Book أو الروك النورماني الذى كان مسجلاً لمساحة الأرض وما يملكه الملك من الأراضى في إنجلترا وتعداداً للسكان وإحصاءً للثروة وكيفية توزيعها. انظر
Davis: Medieval Empire, p. 296

(8) Rayner : A Concise Hist. of Britain, p. 32

(9) Stephenson : Med. Hist. p. 250

(10) Camb. Med. Hist. Vol. 5, p 506

(11) Ibid. p. 506

سلطة هؤلاء النبلاء بتناثر ضياعهم التى تخللت ضياع غيرهم مما أضعف قوتهم في الوقت الذى وافق فيه على أن يحتفظ بعض الإنجليز بأراضيهم بشرط أن يتنازلوا عنها ثم يستعيدونها باعتبارهم حائزين لها كإقطاعات فأدت هذه التنظيمات إلى هيمنة وليم الفاتح على إنجلترا الإقطاعية[١٢] .

وعلى الرغم من أن وليم الفاتح قد حصل قبل غزوه لإنجلترا على موافقة البابوية على الفتح، الأمر الذى شجع رجال الدين النورمان على أن يحملوا معهم إلى الجزيرة ركائز الحركة الإصلاحية الكنسية وأهدافها في التحرر من ربقة السلطة العلمانية، كما سبق أن اشرنا [١٣] ، إلا أن وليم الفاتح عاد فأنكر على البابوية رغبتها وحماستها في ممارسة سلطتها الدينية في إنجلترا، وتكريس تحرر رجالها من سيطرة الحكم النورمانى والسلطة الزمنية ،فرفض أن ينصاع للبابا، ولم يسمح للبابا بتوقيع قرارات الحرمان على كبار نبلائه دون إذن منه شخصياً وموافقته، بل استمر في ممارسة سلطاته العلمانية على رجال الدين بتعيين الأساقفة ومقدمى الأديرة في إنجلترا ، غير ملتفت لغضب البابوية واحتجاجاتها وإن لم يمنعه هذا من شمول الكنيسة الإنجليزية بعطفه ورعايته، وتشجيع الديرية في الجزيرة، وإن كان ذلك تحت إشراف أعوانه من النورمان [١٤] ؛ فضلاً عن أنه أجاز للكنيسة أن تتخذ لها نظاماً قضائياً مثلما كان لها في سائر أقطار الغرب الأوربى، وفصل المحاكم العلمانية عن المحاكم الكنسية .

وهكذا هيمن وليم الفاتح على المملكة هيمنة زمنية ودينية، ودعم

---

(12) Davis : Medieval Empire, p. 296
(13) Tout : op. cit. p. 56
(14) Camb. Hist. Vol. 5, pp. 515 – 16

البناء الإقطاعى فيها وفق معاييره هو، وحماها من خطر الثورات الداخلية والهجمات من الخارج، فدانت له المملكة، منذ الفتح أكثر من عشرين سنة حتى توفى سنة ١٠٨٧م ، بعد حياة حافلة وفترة حكم ناجحة في إنجلترا ونورمانديا (١٥) .

خلف وليم الثانى والده في حكم إنجلترا (١٠٨٧- ١١٠٠م) طبقاً للتقسيم الذى كان قد أجراه وليم الفاتح بين أبنائه قبل وفاته، فتابع وليم الثانى سياسة والده في حكم إنجلترا، وإن أظهر شدة في تعامله مع الكنيسة أكثر مما أظهر والده (١٦) ، الأمر الذى أنذر بوقوع صدام عنيف بين الجانبين، لا سيما وقد أصر أنسلم رئيس أساقفة كانتربرى على التمسك برأيه في ضرورة إقرار الملك بسمو الكنيسة على الدولة وتحررها من سيطرة الحكومة، واضطر أنسلم في النهاية إلى ترك منصبه بل ومغادرة إنجلترا كلها حتى لا يضطر إلى التراجع عما أصر عليه (١٧) .

وأنذر ذلك بصدام عنيف بين الكنيسة في إنجلترا والملكية النورمانية، مسايرة لما كان جارياً بين البابوية والإمبراطورية في ألمانيا من صراع عنيف في تلك الفترة، وغير خاف أن ذلك الصراع الأخير في مرحلته الأولى بين البابا جريجوري السابع والإمبراطور هنرى الرابع (١٨)، قد انتهى بانتصار البابوية واستسلام الإمبراطور، وإقراره بحقوق البابوية وإجابة مطالبها على عهد جريجورى السابع، ثم اضطر في النهاية إلى

---

(15) Warner and Marten: op. cit. pp. 58 – 9

(16) Rayner : op. cit. p. 38

(17) Camb. Med. Hist. Vol. 5, p. 526

(18) Stephen : Hildebrand and his times, p. 114
Brooke : A Hist. of Europe, p. 185
Tout : The Empire and the Papacy , p. 130

التنحى عن عرش الإمبراطورية سنة ١١٠٥م [١٩] ، بعد صدام جديد مع البابا أوربان الثانى ومن ولى بعده عرش البابوية، وربما لهذا تمسك أنسلم برأيه وإصراره على سمو الكنيسة على الدولة في إنجلترا، وتركه إنجلترا ومغادرته إياها مفضلاً ذلك على تنازله عن رايه، لولا ما حدث من وفاة وليم الثانى سنة ١١٠٠م وولاية هنرى الأول عرش إنجلترا، فآذن ذلك بانتهاء هذه الأزمة وتجنب الصدام مع الكنيسة[٢٠] .

ولى هنرى الأول عرش إنجلترا بعد أخيه وليم الثانى، وامتد عهده من سنة ١١٠٠م إلى سنة ١١٣٥م ، فكان عليه أن يجنب الملكة النورمانية في انجلترا مغبة الصدام مع الكنيسة وتهدئة الأمور معها، فدعا أنسلم رئيس أساقفة كانتربرى السابق إلى العودة إلى إنجلترا، الأمر الذى جعل المؤرخين يصفونه بكثير من الإعتدال[٢١] ، ليس بسبب موقفه فقط من الكنيسة، وإنما أيضاً مع الشعب وأعوانه الإقطاعيين، ففيما يخص الكنيسة، فقد رفض انسلم بعد عودته إلى إنجلترا أن يقدم فروض التبعية الإقطاعية للملك على أراضى الكنيسة، كما عارض تعيين الملك للأساقفة في مناصبهم الدينية، فأظهر هنرى الأول كثيراً من الإعتدال، ووافق على أن يعترف الأساقفة بالتبعية للملك في الشئون الدنيوية مقابل تنازل الملك عن تقليد الأساقفة مناصبهم الدينية [٢٢] ، فجنب ذلك الدولة مغبة الصدام مع السلطة الدينية، فضلاً عن أنه غاير سياسة والده وأخيه في اختيار موظفيه، فلم يشأ أن يختارهم من طبقة البارونات وكبار النبلاء

---

(19) Robinson : op. cit. 1, p. 200

(20) Camb. Med. Hist. Vol. 5, p. 526

(٢١) العرينى : تاريخ أوربا في العصور الوسطى ص ٥٠٢

(22) Adams: The History of England , p. 147

عاشور : المرجع السابق ص ٤٧٠

وإنما مال إلى اختيار هؤلاء من صغار الإقطاعيين أو الطبقات التى تلى البارونات في المكانة فجنب المملكة أيضاً ما كان يجرى من نزعة استقلالية لدى كبار البارونات، وما يترتب على ذلك من مشاكل، وجعل المشرفين الإداريين يمثلون الملك في مختلف الأقسام الإدارية، وأخضع هؤلاء لإشراف بعض أعضاء المجلس الملكى (٢٣) .

وكان هنرى الأول ملكاً نورمانياً قوياً في إنجلترا، محتذياً حذو والده وليم الفاتح، فحين اندلعت ثورة في إنجلترا فجرها بعض البارونات محاولة منهم للتخلص من السلطة الملكية، لم يتردد هنرى الأول في القضاء على تلك الثورة بشئ كبير من القسوة والعنف، ولم يسمح لمثل هذه الثورات أن تهز عرشه، وحين فجر أخوه روبرت ثورة في نورمانديا لم يتردد في الزحف عليها حيث قبض على أخيه الثائر وزج به في السجن حيث مات في سجنه، وأعاد الأمور إلى نصابها في تلك الدوقية(٢٤)، بل أنه منع البارونات من انتزاع حقوق الولاية القضائية في إنجلترا ومنعهم من تشييد القلاع إلا بإذنه، وتصدى أيضاً لملك فرنسا وحليفه كونت إنجو (٢٥) ، ثم توفى سنة ١١٣٥م دون أن يترك وريثاً للعرش في إنجلترا سوى ابنته ماتيلدا أرملة الإمبراطور هنرى الخامس وزوجة كونت أنجو .

وعقب وفاة هنرى الأول وقعت إنجلترا في فوضى وحروب أهلية استمرت سنوات طويلة نظراً لتعدد الطامعين في العرش منهم إستيفن ابن أخت الملك المتوفى ، وكذلك ماتيلدا ابنة الملك الراحل وزوجها كونت

---

(23) Adams : op. cit. p. 147
(24) Painter : op. cit. p. 184
(25) Tout : France and England, p. 68

أنجو، وأخيراً فاز بالعرش في إنجلترا هنرى الثانى الذى حكم فيمـا بـين سنتى ١١٥٤ و ١١٨٩م (٢٦) .

وكان على هنرى الثانى القيـام بمـهام عـدة علـى رأسـها إخضـاع الأمـراء وفـرض السـيطرة الملكيـة عليـهم، وقـد نجـح في ذلـك نجاحـاً مؤزراً(٢٧)، لما تمتـع بـه مـن قـوة وطمـوح وذكـاء، فقـام باقتحـام بعـض حصونهم بل وتحطيمها لمنعهم من حشد المقاتلين بها، فضلاً عن قيامـه بإصلاح الإدارة في المملكـة وتوابعـها، وكذلـك أصلـح النواحـى الماليـة والقضائية، بل كانت الإصلاحات القضائيـة في مقدمـة أعمالـه الهامـة في المملكة (٢٨) .

أما عن سياسته مع الكنيسة فقد كانت الكنيسة قد استفادت مـن حالـة الفوضـي التـى عمـت إنجلـترا عقـب وفـاة هـنرى الأول واسـتمرار الحروب الأهلية، وبسطت هيمنتها من ناحية وأضافت إلى ممتلكاتها مـن ناحية أخرى، فضاعف هذا من نفـوذ رجـال الديـن(٢٩) ، فحـاول هـنرى الثانى إعادة سيطرة الدولة على الكنيسة، وإخضاع رجـال الديـن لسـلطة الملك، كما جرى الحال عالى عهد ملوك النورمان الأوائـل في إنجلـترا (٣٠) ،فضمن إصلاحاته القانونية تنظيمات من شأنها الحـد مـن سـلطة رجـال الدين في إنجلترا، فقرر أن يمثل أمام قضاة الملـك رجـال الديـن المتـهمون بارتكاب الجرائم (٣١) ، وتحددت سلطة الكنيسة فيما كانت تصـدره مـن قرارات الحرمان والقطع من رحمة الكنيسة خاصة بالنسبة لكبـار النبـلاء

(26) Keen : A Hist of Medieval Europe, p. 87
(27) Warner and Marten: The Groundwork of British Hist., p. 74
(28) Rayner : op. cit. p. 46
(29) Stephenson : op. cit. 422
(30) Warner and Marten: op. cit. p. 80
(31) Rayner : op. cit p. 48

وكبار الموظفين في المملكة، فلا يجوز ذلك إلا بعد إخطار مندوب الملك وموافقة الملك على ذلك، بالإضافة إلى النصوص التـي تؤكـد حقوق الملك باعتباره سيداً إقطاعياً على أراضى الكنيسة وحائزيها (٣٢) . بالإضافـة إلى ما نص عليه من حق الملك في تعيين الأساقفة ومقدمى الأديرة فى الأماكن التى تخلو على أن يبذل المعين الجديد يمـين الـولاء والإخـلاص للملك قبل رسامته (٣٣) .

ثم قام هنرى الثانى بتعيين أحد مستشاريه وصديقه توماس بيكت رئيساً لأساقفة كانتربرى لمحاولة إحكام سيطرته على الكنيسة، وإخضاع رجال الدين، مؤملاً أن تلقى قراراته موافقة وتأييد بيكت، ويدفعـه ولاؤه للعرش إلى تعضيد رغبات الملك، فقبل توماس بيكت هذه القرارات في أول الأمر، وامتثل لرغبة الملك، ولكنه عاد فأعلن إنكاره لهذه القرارات وعـدم قبولـه لهـا، ففجـر بذلـك صراعـاً رهيبـاً وتسـبب في شـجار بـين الملـك والكنيسة(٣٤) ، إذ تمسك بيكت بحقوق الكنيسة، وعدم السـماح بمسـاس هذه الحقـوق، كمـا أعلـن سـيادة القـانون الكنسـى وسمـو الكنيسـة، ولم يتراجع أمام إصرار الدولة، ولما فشل في تغيير الموقف ترك إنجلترا واتجه إلى فرنسا حيث أقام هناك نحو ست سنوات خاصة وقد أيده الملك لويس السابع في موقفه (٣٥) .

ويبدو أن موقف الملك لويس السابع هذا مع سوء العلاقـات بـين فرنسـا وإنجلـترا في تلـك المرحلـة(٣٦) ، قـد جعـل هـنرى الثـانى يحـاول

(32) Keen : op. cit. p. 88
(33) Warner and Marten : op. cit. pp. 80 –81
(34) Painter : op. cit. p. 251
(35) Ibid. p. 251
(36) Roger of Hoveden : The Annals of Roger of Hoveden Vol. 2, p. 367
Haskins : The Growth of English Representative Government, p. 29 (London 1948)

استرضاء توماس بيكت وحمله على العودة إلى إنجلترا،فلما عاد بيكت إلى مكانه السابق كان أول عمل قام به هو إصدار قرار الحرمان ضد الأساقفة الذين ناصروا الملك وأيدوه، فغضب لذلك هنرى الثانى غضباً شديداً وأغرى بعض رجاله بتأديب هذا الأسقف المتعنت، فهجم عليه أربعة منهم وقتلوه في كانتربرى، فكان لهذا العمل ردود أفعال غاضبة من الناس والرأى العام(٣٧) ،الذى اعتبر بيكت شهيداً وقديساً، وأنحى باللائمة على الملك لمقتل هذا الأسقف، فاضطر هنرى الثانى لتفادى ما قد يحدث من ردود أفعال إلى محاولة التنصل من المسئولية فيما حدث، والقسم بأنه برئ من هذه الجريمة، واضطر أيضاً إلى إعلان موافقته على احترام حقوق رجال الدين والتراجع عما أصدره من قوانين مجحفة بهم، وهكذا لم يوفق هنرى الثانى في سياسته مع الكنيسة (٣٨) .

ويذكر المؤرخون أن سياسة هنرى الثانى الخارجية وعلاقاته مع غيره من الحكام شغلت حيزاً كبيراً من تفكيره، فحين أساء نبلاؤه معاملة الأيرلنديين، ولم ينصاعوا لرغبة الملك للعمل في ظل حكومة مركزية واحدة واستمروا في إعتداءاتهم على الإيرلنديين مما فجر الثورات والفتن في الجزيرة(٣٩)، اضطر الملك إلى الذهاب بشخصه إلى هناك على رأس جيشه وبقى بالجزيرة من اكتوبر سنة ١١٧١ إلى ابريل سنة ١١٧٢م(٤٠) ، نجح خلالها في إلحاق الهزائم بكثير منهم حتى اضطر الآخرون إلى التوافد عليه لتقديم فروض الطاعة والولاء، وساعده على ذلك أن الإيرلنديين نظروا إليه على أنه منصفهم وراد الظلم عنهم من قبل

(37) Camb. Med. Hist. Vol. 5, p. 566
(38) Stephenson: op. cit. p. 422
(39) Adams: op. cit. pp. 279 – 99
(40) Roger of Wendover: Flowers of History, Vol. 2, p. 20

النبلاء النورمان، فسهل لـه ذلـك إتمـام الفتـح وإرسـاء دعـائم الملكيـة في جزيرة أيرلندا[41] وفي نفس الوقت نجح هنرى الثـانى في إقامـة علاقـات سياسية طيبة مع بعض الحكام الآخريـن في أوربـا عـن طريـق الزيجـات السياسية والمصاهرة، فقـد زوج بناتـه الثـلاث مـن دوق سكسـونيا وملـك قشتالة وملك صقلية فارتبط مع هؤلاء بروابط ممتازة [42] .

غير أن علاقة هنرى الثانى بفرنسا ساءت كثيراً بسـبب تعضيـد الملك لويس السابع ومن بعده فيليب أوغسطس للثورات التى اندلعت ضد هنرى الثانى في إنجلترا، وفي أملاك إنجلترا في فرنسا، الأمر الذى اضطر معه هنرى الثانى إلى محاولة إخضاع هؤلاء الأمراء، بل أنه أعلن الحـرب على فرنسا أكثر من مـرة[43] بسـبب موقـف ملكـها مـن تلـك الثـورات، خاصة تلك التى جرت في أملاك هنرى الثانى في فرنسا، ولما بدأ هـنرى الثانى في تقسيم ممتلكاته وتوزيعها على أولاده بعـد أن تـوج أحـد أبنائـه ملكاً على إنجلترا ونورمانديا، وخص الأبن الثـانى بجـزء مـن أملاكـه في فرنسا (أكوتين) وضمن بريتانى للابن الثالث وهى أيضاً في فرنسا، واضطر هنرى الثانى إلى المجئ إلى بريتانى لتأكيد تبعيتها لإنجلترا وإقرار الأمور فيها سنة ١١٦٩م أثار هذا نـار الغـيرة والحسـد في قلـب الملـك الفرنسـى وجعله يترقب الفرصة للكيد له وإثارة المشاكل في وجهه، فلما شرع هنرى الثانى في سنة ١١٧٠م في تقسيم أملاكه بين ابنائـه، قـام الملـك الفرنسـى بتحريض أبناء الملك هنرى الثانى ضد والدهم [44] ، فاندلعت الثـورة ضـد

(41) Roger of Hoveden : op. cit. vol. 2, p. 354
(42) Stephenson : op. cit. p. 423
Warner and Marten : op. cit. p. 93
(43) Davis : England under the Normans and Angevins 1066-1272, p. 202
Maitland : The Constitutional Hist. of England, p. 13
(44) Nicholas : The Evolution of Medieval world , p. 224

هنرى الثانى فجرها أبنـاؤه وشـاركهم في ذلـك بعـض الأمـراء في إنجلـترا وملك اسكتلندا وكذلك بعض الأمراء في أمـلاك انجلـترا في فرنسـا، إلا أن هنرى الثانى نجح في إخضاع الثوار، وأجبر ملك اسكتلندا على الخضـوع وإعلان تبعيته لملك إنجلترا[٤٥] ، وعفا في نفس الوقـت عـن أبنائـه، غـير أنه أعقب ذلك وفاة اثنين منهم في حياتـه، بينمـا بقـى ريتشـارد الـذى أغـراه ملـك فرنسـا الجديـد فيليـب أغسـطس بـالثورة ضـد أبيـه سـنة ١١٨٨م، ثم كانت وفاة هنرى الثانى في العام التالى سـنة ١١٨٩م فبـدأت حقبة جديدة في تاريخ إنجلترا في العصور الوسطى [٤٦] .

ولى العرش في إنجلترا ريتشارد الأول بعد وفاة والده، وامتد عهده من سنة ١١٨٩م إلى سنة ١١٩٩م ، واتصف هذا الملك بالشجاعة والبطولة والجرأة حتى سمى بريتشارد قلب الأسـد[٤٧] ، مـع ميـل شـديد للعنـف والقسوة ربما لهذا لم يمتد بـه العمـر كثـيراً، ولم يـزد حكمـه عـن عشـر سنوات، بل إنه لم يمكث في إنجلترا طوال هذه المدة أكثر من سنة واحدة قضاها على دفعتين لم تزد إقامتـه فيـها في كـل مـرة علـى عـدة شـهور، واقتصرت أعماله فيها على جمع الأموال لتمكينه مـن القيـام بمشـروعاته وحروبه خارج إنجلترا[٤٨] ، سواء في الشرق في الحملة الصليبيـة المعروفـة بالثالثة وكذلك في حروبه ضد فرنسا ومشـروعاته في القـارة. واشـتهر هـذا الملك بكراهيته الشديدة لليهود، فقد سفك دماء كثير منهم حتـى أولائـك الذين قدموا له الهدايا بعد تتويجه ملكاً على إنجلترا، ولكن شـهرة هـذا الملك تستند كلية على اشتراكه في الحملة الصليبية المذكـورة التـى حـاول

(45) Warner and Marten: op. cit p. 76
(46) Camb. Med. Hist. Vol. 5, p. 572
(47) Rayner : op. cit. p. 52
(48) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 266

من خلالها الاستيلاء على مدينة بين المقدس التى كان صلاح الدين قد نجح في استعادتها عقب موقعة حطين سنة ١١٨٧م [٤٩] ، وكذلك تقديم العون لصليبى الشرق، وتدعيم كيانهم في الشرق بعد أن اهتز هذا الكيان وأوشك أن يتداعى بسبب جهاد صلاح الدين في تلك المرحلة، وحدث أن اشتد الخلاف بين ريتشارد هذا وفيليب أوغسطس ملك فرنسا، الذى شاركه في تلك الحملة، فاضطر فيليب أغسطس إلى العودة إلى بلاده بعد نجاح الصليبيين في دخول عكا سنة ١١٩١م [٥٠] ، ولحق به ريتشارد في العام التالى سنة ١١٩٢ م عائدا إلى إنجلترا بعد عقد الصلح مع صلاح الدين [٥١] ، حيث قضى عدة أشهر يجمع الأموال توطئة للدخول في حرب مع ملك فرنسا، الذى تآمر عليه أثناء عودته وأثار ضده العصيان في بعض أملاكه في فرنسا، فكانت حرب ريتشارد في فرنسا دفاعا عن أملاكه فيها[٥٢] ، ولكن من سوء حظه أن أصيب بجرح خطير في إحدى المعارك، ثم لم يلبث أن توفى متأثرا بجراحه سنة ١١٩٩م لتنتهى صفحة هامة في تاريخ إنجلترا من ناحية وفي علاقتها بالملكية الفرنسية من ناحية أخرى[٥٣] .

ولى العرش في إنجلترا بعد ريتشارد الأول أخوه يوحنا (١١٩٩ — ١٢١٦م) ، الذى حاول زيادة سلطة الملك على حساب البارونات من ناحية والبابوية من ناحية أخرى، على الرغم من أنه لم يكن على شاكلة أخيه ريتشارد أو والده هنرى الثانى، بل افتقر إلى القوة والشجاعة [٥٤]،

---

(49) Warner and Martn: op. cit. p. 95
(50) Runciman : A Hist. of the Crusades, III, p. 52
(51) Grousset : Histoire des Croisades, III, p. 119
(52) Keen : op. cit. p. 89
Rayner : op. cit. p. 53
(53) Adams : The Hist. of England, p. 378, p. 386
(54) Camb. Med. Hist. Vol. 6, pp. 218 - 19

واستخف به الناس، بل أنه أضاع معظم أملاكه في فرنسا خاصة نورمانديا وماين وأنجو ولازمه سوء حظ، فواجه عدوين في وقت واحد هما الملك فيليب أوغسطس ملك فرنسا والبابا إنوسنت الثالث، فضلاً عما كان يواجهه من مشكلات مع البارونات(٥٥) .

فحين عزم يوحنا على استرجاع أملاكه في فرنسا ومحاربة ملك فرنسا فيليب أوغسطس بعد ضياع نورمانديا وأنجو وماين، كان عليه أن يعد لذلك ميزانية ضخمة للحرب (٥٦) ، وكان لابد أن يأتي الجانب الأعظم منها من حقوقه الإقطاعية، وما يحصله من النبلاء من رسوم ضخمة للأيلولة حين يؤول الإقطاع إلى الوارث بعد وفاة الحائز له، وبما كان يأتيه من منح الامتيازات المبذولة لهؤلاء النبلاء، فضلاً عن الرسوم المحصلة باسم البدل الحربي Scutage وهي الضريبة التي كان يدفعها كل فارس لا يريد أداء الخدمة العسكرية ويستعيض عنها بالبدل النقدى، بالإضافة إلى ما استحدثه من ضرائب جديدة مثل ضريبة الدخل وضريبة العقار والمكوس الجمركية وغيرها (٥٧) ، فإذا أضفنا إلى ذلك ما حصله من أموال من رجال الدين خلال نزاعه مع البابوية (٥٨) ،أدركنا أن يوحنا قد زج بنفسه في صراع داخلي رهيب مع باروناته وأمراء إنجلترا في تلك الفترة وهم الذين أثقلت كاهلهم هذه الأعباء، ولذلك بدأ البارونات في تدبير المؤامرات وإعداد أنفسهم للثورة ضد الملك، وتولت قيادة هذه الثورة جماعة منهم لا يتجاوز عددهم الثلاثين حركت بعضهم أسباب شخصية لمعاداة الملك (٥٩) ، ونقم عليه آخرون ما فرضه من

(55) Rayner : op. cit. p. 54
(56) Camb. Med. Hist. Vol. 6, pp. 244 – 5
(57) Camb. Med. Hist. Vol. 6, pp. 244 – 5
(58) Warner and Marten : op. cit. p. 104
(59) Rayner : op. cit. p. 54

ضرائب وما حصله من رسوم باهظة، ولما دفعوه من حقوق امتيازات وحيازة الضياع، وما صرفوه في تشييد القلاع والحصون، فأصبح كل نبيل يكره الملك لسبب أو لآخر دون أن يعنى ذلك أن جموع البارونات كانوا يمقتونه لنفس الأسباب (٦٠) .

ولما اندلعت ثورة الأمراء في وجه الملك يوحنا وقدم الثوار مطالبهم في قائمة إلى الملك راح الملك يماطل في إجابتها مؤملاً أن يحصل خلال ذلك على مساعدة أهل لندن وتأييد رجال الدين، فقام البارونات باحتلال لندن، والضغط على الملك الذى اضطر في النهاية إلى الإذعان والموافقة على ما عرف بالعهد الأعظم وذلك في ١٥ يونيو سنة ١٢١٥م(٦١)، حيث عكف كتاب الملك على صياغة الوثيقة الهامة التى جعلت مطالب البارونات لها قوة القانون، وصارت هذه الوثيقة هى العهد الأعظم Magna Carta ،واعتبر المؤرخون العهد الأعظم وثيقة إقطاعية تهدف إلى تنظيم العلاقة بين الملك وكبار الأمراء الإقطاعيين (٦٢)، دون أن تعنى في جوهرها تحقيق الحرية للشعب – كما يبدو – لأنها لم تتعرض أصلاً لسكان القرى والريف الذين يمثلون ثلاثة أرباع السكان حينئذ، وإنما تبلورت حول علاقة الملك مع كبار نبلائه (٦٣) .

فقد حرم هذا العهد على الملك جمع إتاوات دون موافقة المجلس الكبير إلا في حالات خاصة، كما أتاح للتجار الدخول إلى البلاد لمباشرة نشاطهم دون أن يتعرضوا لأية مضايقات، فإذا أرادت الدولة الإستيلاء على بعض الممتلكات للمصلحة العامة، فلا بد من تعويض أصحابها

---

(60) Keen : op. cit. p. 88
(61) Adams : The History of England, p. 437
(62) Painter : op. cit. p. 269
(63) Warner and Marten: op. cit. pp. 106 - 7

تعويضاً مناسباً (٦٤) ، ونص على ألا يؤخذ الناس بالشبهات وإنما لابد من شهود وأدلة دامغة لإثبات التهمة ، ونص كذلك على إلغاء بعض العقوبات القاسية، وجعل العقوبة تتناسب مع الجريمة دون إسراف أو تعسف، كما نص على احترام حقوق الكنيسة خاصة فيما يتعلق بإنتخاب القساوسة (٦٥) .

واعتبرت المادة التاسعة والثلاثون والمادة الأربعون من العهد الأعظم أهم مواد هذا العهد فقد نصت الأولى منهما على أنه لا يجوز إلقاء القبض على أى شخص أو تجريده من ممتلكاته أو نفيه أو إخراجه من مظلة القانون أو إيذائه بشكل من الأشكال إلا بعد محاكمته أمام محكمة من أنداده وفق أحكام القانون المطبق في البلاد (٦٦) ، والمقصود بهذا أنه لا يجوز للملك أن يلحق الضرر بأحد إلا بمقتضى حكم صادر من المحكمة، ويعتبر ذلك أصل ما عرف عند الإنجليز بعد ذلك من فكرة الإجراء القانونى، وأما المادة الأربعون فتنص على تعهد الملك بالا ينكر حقاً لأحد أو يماطل فيه (٦٧) .

ولعل أهمية العهد الأعظم في تاريخ إنجلترا ما يفهم منه من أن الملك خاضع للقانون، وأن القانون فوق الملك، وأن الملك لا يملك الخروج على القانون، فإذا فعل ذلك وجب على رعيته استعمال القوة لإخضاعه، ولهذا كلما أظهر أحد الملوك الإستبداد والخروج على القانون أجبره البارونات على الخضوع لمواد القانون أو العهد الأعظم واحترامه(٦٨)،

(64) Camb. Med. Hist. Vol. 6, pp. 245 – 6
(65) Rayner : op. cit. p. 57
(66) painter : op. cit. p. 269
(67) Warner and Marten : op. cit. pp. 106 – 7
(68) Adams: op. cit. p. 439

فأضحى العهد الأعظم رمزاً لخضوع الملك للقانون، ومثل ذلك ركناً أساسياً في الدستور الإنجليزى، وظل العهد الأعظم يذكر ملوك إنجلترا دوماً بأن ملكيتهم مقيده (٦٩) .

أما عن علاقة يوحنا بالكنيسة والبابوية، فقد حدث سنة ١٢٠٥م أن حاولت الكنيسة الإنجليزية التنصل مما كان سائداً من تدخل الملك في تعيين رئيس أساقفة كانتربرى(٧٠) ، فقام البابا إنوسنت الثالث بتعيين أحد رجال الدين رئيساً لأساقفة كانتربرى، فرفض الملك يوحنا قبول ذلك، فغضب البابا غضباً شديداً وأخذ سوء التفاهم يزداد بين الجانبين، حتى انتهى الأمر بأن أصدر البابا قرار الحرمان ضد الملك يوحنا سنة ١٢٠٨م (٧١) ، بل أعلن البابا إنوسنت الثالث عزل يوحنا وأباح لرعاياه طرح طاعته، فقام يوحنا بالاستيلاء على أراضى الكنيسة في إنجلترا، فرد البابا بتحريض فيليب أوغسطس ملك فرنسا بمحاولة غزو إنجلترا سنة ١٢١٢م (٧٢) .

ونظراً لأن الملك يوحنا كان يواجه حينئذ ثورة البارونات ومؤامراتهم، فقد اضطر إلى الإذعان لرغبة البابوية سنة ١٢١٣م ، وقبل من عينه البابا رئيساً لأساقفة كانتربرى، ورد أراضى الكنيسة التى كان قد سبق وأن صادرها واضطر إلى الاعتراف بسيادة البابوية، وتعهد بتقديم مبلغ سنوى رمزاً لهذه التبعية (٧٣) ، فاعتبر البابا ذلك من الانجازات الهامة للبابوية وأسهمت الكنيسة بعد ذلك في حل مشكلة الملك يوحنا

(٦٩) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ص ٤٧٧

(70) Stephenson : Med. Hist. pp. 430 – 31

(71) Warner and Marten : op. cit. p. 104

(72) Rayner : op. cit. p. 56

(73) Stephenson : op. cit pp. 431 - 32

مع باروناته، إذ قام رئيس أساقفة كانتربرى الذى عينه البابا وهو ستيفن لانجتون Stephen Langton ، وكان أحد رجال القانون في عصره يحث البارونات على أن يضعوا قائمة بالمطالب العامة للطبقة الإقطاعية التى عرفت بمطالب البارونات والتى اعتبرت أساس العهد الأعظم[٧٤] .

توفى الملك يوحنا سنة ١٢١٦م ، وترك إبناً في التاسعة من عمره ليخلفه في الحكم هو هنرى الثالث (١٢١٦ – ١٢٧٢م) الأمر الذى دفع مجموعة من النبلاء وكبار الأساقفة إلى القيام بتسيير دفة الحكم على مدى نحو خمسة عشر عاماً، كان أشهرهم: هوبرت دى برو Hubert de Burgh الذى كان رجل قانون[٧٥] فقاموا بذلك خير قيام حتى وضع هنرى الثالث على العرش وتولى السلطة سنة ١٢٢٧م، لكنه كان ملكاً ضعيفاً افتقر إلى الحكمة أو الشجاعة،فعانت إنجلترا في تلك المرحلة مساوئ الحكم الضعيف [٧٦] ، وانتهزت الكنيسة الفرصة، فأخذت البابوية تعين رجال الدين الإيطاليين في المناصب الشاغرة في إنجلترا، وحرصت على جباية الأموال الطائلة من الكنيسة الإنجليزية برسم الحروب الصليبية حتى ذكر المؤرخون أن ثروات البلاد تسربت إلى خزائن البابوية، فأثارت سخط الجميع في إنجلترا[٧٧] .

واستمرت البلاد في انحدارها نحو الضعف والاضمحلال خاصة وقد أحاط هذا الملك نفسه ببطانة من رفقاء السوء وتمادى في نزواته وشهواته، وفشل في كبح جماح نفسه عن ارتكاب الرذائل ففشل في

(74) Keen : op. cit. pp. 88 – 9
(75) Rayner : op. cit. p. 58
(76) Warner and Marten : op. cit. p. 110
(77) Stephenson : op. cit. pp. 478 – 9

سياسته الداخلية ومشروعاته الخارجية خاصة ضد ملوك فرنسا[٧٨] ، في الوقت الذى رحب هنرى الثالث باستقدام الأجانب وشجعهم على المجئ إلى إنجلترا، وأغدق عليهم، فقدم كثيرون من سافوى وبروفانس، ونعموا بخيرات البلاد على حساب أهلها، فكان ذلك مما زاد في معاناة سكان إنجلترا وأضاف إلى ضعفها [٧٩] .

ونظراً لما أدته إنجلترا من أموال للبابوية برسم الحروب الصليبية من ناحية ، فضلاً عما قدمه هنرى الثالث للبابوية من أموال أخرى دعماً لها في حروبها ضد مملكة صقلية طمعاً فيما وعدته به البابوية من تتويج أحد أبنائه ملكاً على تلك المملكة من ناحية ثانية، بالإضافة إلى ما صرفه هنرى الثالث من أموال في مشروعات فاشلة في المانيا من ناحية ثالثة[٨٠]، فقد أفلست خزائن إنجلترا، وعانت البلاد مساوئ ذلك كله، فلما اشتدت حاجة هنرى الثالث للمال، اضطر إلى اللجوء إلى المجلس الكبير، الذى كان يمثل السلطة في البلاد، والذى غدا منذ ذلك الوقت يعرف بالبرلمان سنة ١٢٥٨م ، فطلب منه هنرى الثالث تعضيده فيما كان يبغى من جمع المال، إلا أن البرلمان أجبر هنرى الثالث على الإذعان[٨١] ، واشترط طرد جميع الأجانب من البلاد، كما اشترط أن يتولى السلطة في المملكة جماعة من البارونات على أن يصبحوا كوزراء مسئولين أمام البرلمان، وعضد ذلك تحرك أحد النبلاء وهو سيمون دى مونتفورت ليصبح زعيماً لهؤلاء النبلاء[٨٢]، ويخطو هذا الزعيم خطوات

---

(78) Keen : op. cit. p. 88
(79) Warner and Marten : op. cit. p. 113
(٨٠) تقديمه رشاوى للألمان حتى ينتخبوا ريتشارد إمبراطورا، وكان ريتشارد هذا أخا لهنرى الثالث . أنظر : Keen : op. cit. p. 147
(81) Tout : The Hist of England, pp. 98 – 102
Keen : op. cit. p. 180
(82) Camb. Med. Hist. Vol. 6, p. 283

ناجحة نحو تجنيب البلاد الحرب مع فرنسا فعقد معها معاهدة سنة ١٢٥٩م، وأوقف كثيراً من المفاسد في البلاد ، فلما حاول حفنة من أنصار الملك الوقوف في وجه هذا الزعيم أنزل بهم سيمون دى مونتفورت الهزيمة وتابع مسيرة الإصلاح(٨٣) ، وأصر على عقد البرلمان سنة ١٢٦٥م بشكله الجديد، الذى مثلت فيه المدن لأول مرة وهو الأمر الذى جعل هذا البرلمان يبدو بصورة البرلمان الشعبى، الأمر الذى جعل سيمون دى مونتفورت هو صاحب الفضل الأول في نشأة فكرة مجلس العموم، بل أنه مالبث أن ألقى القبض على الملك نفسه وتولى حكومة البلاد(٨٤) .

وكانت هذه هى فرصة لبقية الأمراء لاستعادة ما كان لهم من امتيازات، فهيمنوا على اراضيهم، وسيطروا على محاكم المقاطعات، واغتصبوا امتيازات موظفى الملك المحليين وأخضعوا أجهزة الحكومة المركزية والمحلية لسلطتهم، غير أن بعض هؤلاء النبلاء ثاروا وقتلوا سيمون دى مونتفورت في نفس العام سنة ١٢٦٥م فضربت البلاد في فوضى من جديد بعد أن أسهموا في تحطيم استبداد الملك، ثم توفى في النهاية هنرى الثالث سنة ١٢٧٢م وبدأت مرحلة أخرى في تاريخ إنجلترا(٨٥).

ولى العرش في إنجلترا بعد هنرى الثالث ابنه إدوارد الأول (١٢٧٢– ١٣٠٧م) الذى كان شاباً طموحاً محارباً شجاعاً أسهم بنصيب في الحملات الصليبية حتى أن والده توفى وهو غائب في حملة صليبية، فضلاً عن أنه نال قسطاً طيباً من التعليم والثقافة جعله يتطلع إلى تحقيق

(83) Rayner : op. cit. p. 60
(84) Warner and Marten : op. cit. pp. 113 – 14
(85) Rayner : op. cit. p. 488

العدالة والإصلاح في البلاد(٨٦) .

ويرى المؤرخون أن عهد هـذا الملك يمثـل خطـوة هامـة في تـاريخ إنجلترا، فإذا كانت المملكة قد عرفت معنى الوحدة التـى تجمـع المـالك الجرمانية في العهد الأنجلو – سكسونى بقيادة مملكة وسكس حين حكـم إنجلترا الملك إدجار (٩٥٧ – ٩٧٥ م)(٨٧)، فـإن إنجلـترا في عـهد الملـك إدوارد الأول شهدت محاولة لتحقيق هذه الوحـدة بـين مختلـف أجـزاء الجزر البريطانيـة، لتصبـح دولـة واحـدة متحـدة، بعـد أن تطـور تـاريخ المملكة تطوراً جديداً منذ الفتح النورمانى، وأعيد بناء الأمة الإنجليزية في تلك الفترة(٨٨) .

ولتحقيق ذلك كان لابد من ضم إمارة ويلز بعد أن أصبحت خطـراً يهدد المملكة تحت حكم بعض أمرائها الطموحين، فنجح إدوارد الأول في إخضاع إمارة ويلـز، وضمـها إلى التـاج الإنجلـيزى بمقتضـى قـانون سـنة ١٢٨٤م ، وأمر بتطبيق القوانين الإنجليزية في ويلز، وابتداء سنة ١٣٠١م منح إدوارد الأول ولى عهده لقب أمير ويلز وهو اللقب الذى لا يزال يلازم ولى عهد إنجلترا (٨٩) .

أمـا بالنسـبة لاسـكتلندا فقـد اسـتمرت جـهود إدوارد الأول لإخضاعها فترة طويلة، فقد تدخل لإختيار وريث للعـرش الاسـكتلندى، بعد انتهاء سلالة البيت المالك فيها سنة ١٢٩٠م وقد نجحت البعثة التى أوفدها إدوارد إلى هناك في اختيار ملـك جديـد هنـاك هـو يوحنـا بـاليول

(86) Stephenson : op. cit. p. 488
(87) Rayner : op. cit. p. 11
(88) Haskins : op. cit. p. 82
(89) Warner and Marten : op. cit. pp. 128 –9

John Balliol[٩٠] ، فبادر هذا الملك بتقديم الولاء والتبعية لملك إنجلترا إدوارد الأول إلا أنه عاد فعارض تدخل إنجلترا في شئون مملكته، وأعلن إنكاره لاستئناف الأحكام التى تصدرها المحاكم الاسكتلندية أمام المحاكم الإنجليزية، بل وخطا خطوة لتجنب ردود الفعل الإنجليزية بمحالفة ملك فرنسا[٩١] ضد إدوارد الأول ، فرد إدوارد الأول بغزو اسكتلندا وقبض على يوحنا باليول، وأقام حكومة موالية له وأخمد الثورة. غير أن الاسكتلنديين ما لبثوا أن ثاروا من جديد سنة ١٢٩٧م ،بقيادة زعيم جديد هو وليم ولاس، وألحقوا هزيمة بالجيش الانجليزى، فاضطر إدوارد الأول للعودة بنفسه إلى هناك بعد أن صالح ملك فرنسا، فأنزل بالثوار الاسكتلنديين هزيمة جديدة وأمر بإعدام قائدهم ولاس، وإن لم يقض هذا على نوازع الثورة في نفوس الاسكتلنديين حتى وفاة إدوارد الأول في سنة ١٣٠٧م [٩٢] .

أما عن علاقته بالكنيسة فقد عمل إدوارد الأول على الحد من نفوذها ومنع ازدياد اتساع أراضيها عن طريق الهبات والمنح والهدايا، وأمر أن توضع هذه المنح تحت الإدارة الملكية، ويبدو أن إدوارد الأول وجد الكنيسة تمتلك نسبة كبيرة من الأراضى في البلاد قاربت على الثلث تتمتع بالإعفاء من الضرائب الإقطاعية، فأصدر تشريعاً للحد من نفوذ الكنيسة[٩٣] ، كما أصدر تشريعاً حدد به اختصاص مجالس القضاء الكنسية [٩٤].

---

(90) Camb. Med. Hist. Vol. 7, pp. 563 – 64
(91) Rayner : op. cit. p. 86
(92) Ibid pp. 86 – 7
(93) Camb. Med. Hist. Vol 7 , pp. 398 – 400
(94) Stephenson : op. cit. p. 490
Rayner : op. cit. p. 82

وواصل إدوارد الأول إصلاحاته في مجال الإقطاع بتشريعاته الهامة التى مست النظم الإقطاعية الأساسية، بأن نظمت تقديم الخدمات والالتزامات الإقطاعية للسيد الإقطاعى الكبير مباشرة، وقللت عدد الأفصال بين الملك وأصحاب الضياع الفعليين أو كبار الأتباع[٩٥] ، كما أجازت تشريعاته انتقال الأراضى من أيدى إلى أخرى عن طريق البيع والشراء بعد أن كان هذا الانتقال لا يحدث إلا بحيازة الأرض طبقاً للنظم الإقطاعية، فضلاً عن أنه اتجه إلى تمكين الأسر الإقطاعية الكبيرة من الاحتفاظ بأراضيها وتكتيلها، بأن أصدر تشريعاً يسمح بحبس الأراضى ووقفها، فأعطى فرصة للبيوت الكبيرة للاحتفاظ بضياعها وقوتها الإقطاعية[٩٦] .

وكان إدوارد الأول من ملوك إنجلترا الذين أظهروا كراهية شديدة لليهود مثل الملك ريتشارد الأول الذى سبق أن نكل بهم[٩٧] ، خاصة وقد ازداد نفوذهم كثيراً في إنجلترا وهيمنوا على الحياة الاقتصادية فيها ولكراهية الناس لهم، لما أظهروه من مواقف ضد المسيحيين والمسيحية، فبدأ إدوارد الأول في اضطهادهم، فألزمهم بلبس زى خاص بهم إمعاناً في تحقيرهم، وانتهى الأمر بأن طردهم من بلاده سنة ١٢٩٠م ، فحرموا من دخول البلاد فترة طويلة [٩٨] .

وواصل إدوارد الأول إصلاحاته القضائية والتشريعية، حتى أدت إصلاحاته إلى ظهور ثلاث محاكم انفصلت عن المحكمة الملكية، إحداها اختصت بحسابات الملكة والقضايا المالية واختصت الثانية بالقضايا

---

(95) Warner and Marten : op. cit. pp. 127 – 8
(96) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 272
(97) Coulton : Life in the Middle Ages Vol. 2. Pp. 31-33
(98) Rayner : op. cit. pp. 84 – 5

المدنية بين الأهالى بعضهم والبعض، والثالثة اختصت بالفصل فى جميع القضايا المدنية والجنائية التى تهم الملك، ولهذا سميت بمجلس القضاء الملكى [٩٩] .

وظهر فى عهد إدوارد الأول الوجه الدستورى العظيم للحكم فى إنجلترا، فقد أصبح البرلمان الإنجليزى يضم جميع ممثلى الأمة الإنجليزية من نبلاء وأساقفة ومقدمى أديره، فضلاً عن اثنين من فرسان كل مقاطعة وممثلين عن أهالى المدن[١٠٠] ، ثم حدث تطور هام فى تشكيل ممثلى الأمة، فاجتمع الفرسان والنبلاء وممثلى أهالى المدن فى الوقت الذى اجتمع فيه رجال الدين وحدهم وجرى تصفيتهم والاقتصار على حضور كبار رجال الدين فى عضوية هذا البرلمان، ثم جرى جمع الفرسان مع ممثلى المدن وأضيف إليهم عدد من البرجوازيين ليؤلفوا مجلس العموم، الذى يعتبر ظهوره من المعالم الهامة فى التطور الدستورى فى إنجلترا[١٠١] فى حين انضم النبلاء إلى الأساقفة ليتكون مجلس اللوردات، ولم يلبث أن جرى تحديد سلطة الملك حين طلب منه النبلاء أن يحرم من حق جمع الأموال دون موافقتهم، فكان ذلك أحد الإنجازات فى المملكة[١٠٢] .

وبانتهاء عهد الملك إدوارد الأول سنة ١٣٠٧م نكون قد وصلنا إلى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى، الذى جعلناه هدفاً لعرض تاريخ إنجلترا فى ظل النورمان وبقى فى تاريخ المملكة فى هذه الفترة بعد ذلك

---

(99) Keen : op. cit. pp. 167 – 8
(100) Warner and Marten : op. cit p. 127
(101) Rayner : op. cit p. 85
(102) Tout : op. cit. pp. 202 - 4

عهد كل من إدوارد الثانى وإدوارد الثالث وريتشارد الثانى وهنرى الرابع وهنرى الخامس ثم هنرى السادس وأخيراً ريتشارد الثالث وقيام أسرة تيودور أى أن عهود هؤلاء الملوك امتدت من سنة ١٣٠٧م إلى سنة ١٤٨٥م (١٠٣).

(103) Painter : op. cit. p. 382



الفصل الخامس

شرق أوربا وروسيا في النصف الثاني من العصور الوسطى

– السلاف ومجال انتشارهم في إوربا .
– الشعوب التى تأثرت بالسلاف واكتسبت صفاتهم .

- البلغار .
- الصرب .
- الكروات .
- الهنغاريين أو المجريين .

– الشعوب السلافية ذاتها : السلاف الغربيون والسلاف الشرقيون

السلاف الغربيون :

- المورافيون .
- التشك أو البوهيميون .
- الونديون .
- البولنديون .

السلاف الشرقيون :

- الروس بعد امتزاج الفيكنج السويديين بالسلاف .



استقرت كتلة سلافية فوق مساحات شاسعة من شرق أوربا، بعد أن انسابت إلى هذه البقاع في هجرتها صوب الغرب، والمعروف أن السلاف يرجعون إلى الجنس الهندوأوربى وهاجروا إلى تلك البقاع في أوربا وشكلوا كتلة كبيرة أخذت تتوسع تدريجياً نحو الغرب والجنوب في أوربا لتغطى أجزاء كبيرة من شرق القارة وشمالها الشرقى وجنوبها الشرقى، وخضعت جموع كثيرة منهم لقوى أخرى أقوى استعبدتهم وانزلتهم إلى رتب العبودية أى جعلتهم عبيداً Slaves (١) ،ومن هذه الرتبة استمدوا اسمهم " سلاف " خاصة وأنهم لم يظهروا مقاومة كبيرة لدفع العناصر الأقوى منهم، بل جنحوا إلى المسالمة إيماناً منهم بأن إمكاناتهم خاصة الإمكانات السياسية لا تؤهلهم للوقوف في وجه تلك العناصر (٢) .

وعلى عكس ما جرى لعناصر غزت أوربا من قبل مثل الكلت Celts الذين كانوا محاربين أشداء انسابوا فوق رقعة أوربا في زمن قديم مشكلين كتلة كلتية امتدت من المحيط إلى الأطلسى غرباً إلى آسيا الصغرى وسواحل البحر الأسود شرقاً ثم ما لبثوا تركوا الجندية وعزفوا عن القتال وتحولوا إلى شعب مسالم، وغدوا شعب زراعة وموسيقى ورقص وغناء(٣) ، فضاعوا وتشربتهم الشعوب، ولم يبق لهم من أثر سوى آثار ضئيلة في الجزر البريطانية خاصة في إيرلندا (٤) ،نقول على عكس هؤلاء كان السلاف من الشعوب المسالمة إلى حد بعيد استعبدتهم شعوب أخرى

---

(1) Dunlop: The History of the Jewish Khazar, p. 114

(٢) عاشور : أوربا العصور الوسطى ص ٦٠٨

(3) Cantor : Med. Hist. p. 121

(4) Trevelyan : Hist of England. Part 1, pp. 10 – 11

محمد الشيخ : الممالك الجرمانية في أوربا في العصور الوسطى ص٤

أقوى وأنزلتهم إلى رتب العبودية، لكنهم مالبثوا أن تحولوا بمرور الوقت إلى شعب محارب، واكتسبوا كثيراً من القوة، وتمكنـوا مـن تأسيس دول لهم في بعض جهات أوربا لاسيما في شرقها والبلقـان واعتنقـوا المسيحية وخطوا خطوات هامة نحو الحضارة (٥) .

وإذا أردنا تحديد البقاع والأقاليم التى انتشر فوقها السلاف، وكيف كانت حركتهم التوسعية في شرق أوربا وروسيا وجدنا أنهم نزلوا في البلقان(٦) والمناطق التى عرفت بعد ذلك ببلغاريا وكرواتيا وصربيا وهنغاريا ومورافيا وبوهيميا وبولندا وشرق ألمانيا فضلاً عن روسيا، ولم تكن حركة السلاف قاصرة على الشعوب السلافية وحدها وإنما شملت شعوباً أخرى تأثرت بالسلاف وسايرتهم في العادات وأساليب الحياة والنظم مثل البلغار والصرب والهنغاريين أو المجريين وبعض الشعوب الأخرى (٧) .

أما البلغار فالمعروف أنهم يرجعون إلى أصل تركى ارتحل جانب منهم من موطنهم الأول تجاه الغرب في السبعينات من القرن السابع الميلادى، فظهروا قرب مصب نهر الدانوب بالبلقان(٨) ، ثم ما لبثوا أن عبروا نهر الدانوب إلى الإقليم الشمالى الشرقى من البلقان ليحتموا من العناصر المتبربرة وليفيدوا من الأراضى الخصبة في دلتا نهر الدانوب من ناحية أخرى (٩) ، ومنذ ذلك الوقت غدت تلك المملكة الجديدة التى

---

(5) Camb. Med. Hist. Vol. 3 p. 327

(6) Ostrogorski : Hist. of the Byzantine State, p. 74

(7) Jinkins : Byzantium, p. 45

(8) Vasiliev : The Byzantine Empire, p. 219

(٩) وسام عبد العزيز فرج : دراسات في تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية ص١٦٨

أسسها البلغار خطراً كبيراً يهدد الدولة البيزنطية، خاصة بعد أن شرع البلغار في التوسع، فاختلطوا بالسلاف واضطروا للتأثر بهم والبعد تدريجياً عن الأصول التركية حتى غدوا في القرن التاسع من الشعوب السلافية رغم احتفاظهم باسم البلغار وظلوا يهددون بيزنطة ويمثلون قوة معادية لها (١٠) .

ولقد واجهت دولة البلغار مصاعب جمة من قبل الإمبراطورية البيزنطية بصفة خاصة فترات متعددة عبر تاريخها، إذ اعتبرها البيزنطيون شوكة في ظهورهم وعدواًيتربص بهم وعلى مقربة من العاصمة البيزنطية، وشهدت دولة البلغار خلال حكم ملكها تيليتز Teletz بصفة خاصة، وكان يعاصر إمبراطور بيزنطة قنسطنطين الخامس، عداءً شديداً حتى أن قنسطنطين الخامس وجه حملة شرسة ضد البلغار سنة ٧٦٣م محاولاً استئصال شأفتهم، ونجحت الحملة فعلاً في إلحاق هزيمة ساحقة بالبلغار (١١) ثم لقى ملك البلغار المشار إليه حتفه على إثر ثورة اندلعت في بلغاريا بعد الهزيمة المروعة بقليل (١٢) .

وعلى الرغم من ذلك ظل البلغار يتوسعون فيما حولهم حتى كونوا إمبراطورية فيما بين أواخر القرن التاسع وأوائل القرن الحادى عشر بلغت هذه الإمبراطورية أوج عظمتها على عهد ملكها سيميون (٨٩٣-٩٢٧م) ، لاسيما بعد أن تم الامتزاج بين البلغار والسلاف وأضحت دولة البلغار تشمل جانباً كبيراً من غرب البلقان، بعد أن اعتلى العرش البلغارى سنة ٨٩٣ م سيميون أعظم ملوك البلغار في العصور الوسطى(١٣)،

(١٠) حسنين ربيع : دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ص ٩٢ - ٩٣
(11) Vasilev : op. cit. 1, p. 239
(12) Ostrogorski: op. cit. pp. 148 – 9,
(١٣) العرينى : الدولة البيزنطية ص ٣٧٥

وكان هذا الرجل قد نشأ بالقسطنطينية وتلقى تعليمه بها وأتقن اللغة اليونانية واستهوته الحضارة البيزنطية، وعلى الرغم من ذلك نشب النزاع بين بلغاريا وبيزنطة بمجرد ولاية هذا الملك الحكم، فقام سنة ٨٩٤م بالاغارة على الأراضى البيزنطية في تراقيا على عهد الإمبراطور البيزنطى ليو السادس، فأنزل سيميون بالقوات البيزنطية هزيمة ساحقة [١٤]، وبعث بمن أسرهم إلى القسطنطينية بعد جدع أنوفهم، وردت بيزنطة على ذلك بالتحالف مع المجريين النازلين في ذلك الوقت وراء الحدود البلغارية، فأنزل المجريون الهزيمة بالبلغار وخربوا الأراضى الواقعة بشمال بلغاريا[١٥] ، بينما أرسلت بيزنطة قواتها لاحتلال جنوبى بلغاريا في الوقت الذى أحكم فيه الأسطول البيزنطى الحصار على مصب الدانوب ،فأضاف إلى متاعب سيميون كثيراً، وأجبره على طلب الهدنة. ثم مالبث سيميون أن تغلب على مصاعبه وعاد من جديد إلى الهجوم على بيزنطة فألحق بها هزيمة قاسية قرب أدرنة سنة ٨٩٦م وأجبرها علي قبول الصلح ودفع الجزية مع التنازل عن بعض الأراضى[١٦] ، فامتد نفوذه في البلقان على حساب بيزنطة وغيرها من الشعوب المجاورة[١٧]، فضلاً عما تبوأته إمبراطوريته من مكانة في الحضارة وبحكم أن سيميون نفسه كان قبل ولايته العرش قد تلقى تعليمه في القسطنطينية – كما سبق أن أشرنا – ولذلك شجع الآداب وأشرف على ترجمة الإنجيل وكتابات القديسين إلى لغة البلغار [١٨] .

---

(14) Vasiliev : op. cit. I, p. 316
Jenkins : op. cit. p. 202
(15) Ostrogorski : op. cit. p. 227
(16) Camb. Med. Hist. Vol. 3, p. 237
(17) Miller : The Balkans , pp. 135 – 7
(18) Camb. Med. Hist. Vol. 4 , p. 327

غير أن إمبراطورية البلغار مالبثت أن سقطت وخضعت لبيزنطة سنة ١٠١٨م على يد الإمبراطور البزنطى باسيل الثانى المشهور في التاريخ بذابح البلغار Bulgar Slayer [١٩] ولم تستطع أن ترفع رأسها إلا بعد مرور نحو قرن وثلثى القرن من الزمان أى في سنة ١١٨٦م وظلت حتى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى (١٣٩٨م) فيما عرف باسم الإمبراطورية الثانية للبلغار، وهى الإمبراطورية التى شهدت الغزو العثمانى لأملاك البلغار في شرق أوربا[٢٠] .

وإذا كان ذلك قد جرى في الجزء الشمالى الشرقى من البلقان، فإن الأوضاع في الجزء الشمالى الغربى من البلقان شهد أيضاً هجرة مماثلة قام بها الكروات والصرب، بعد أن تخلصا من سيطرة الأفار قرب منتصف القرن السابع الميلادى، إذ جمعت أواصر القربى بين الشعبين[٢١] ، فعبر الكروات الدانوب ليقوموا بطرد بقايا الآفار من إقليم ايلليريا، واستقر هذا الشعب بموافقة الإمبراطورية البيزنطية في ذلك الإقليم بين درافا والبحر الادرياتى وعلى طول الساحل الشرقى للادرياتى، وبعد ذلك بقليل عبر الشعب الآخر وهو الصرب ونزلوا بموافقة الإمبراطورية البيزنطية ايضاً إلى الشرق من الكروات في الجزء الشمالى الغربى من شبه جزيرة البلقان[٢٢] ، ثم مالبث الشعبان أن أصبحا يدوران في فلك الإمبراطورية البيزنطية واعتنقوا المسيحية على يد بعثات تبشيرية أرسلت إلى الصرب من بيزنطة فاتبع الصرب الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية في الوقت الذى اعتنق فيه الكروات المسيحية على مذهب الكنيسة الغربية، وظل الكروات يمارسون

---

(19) Hussey : The Byzantine World, p. 38
(20) Miller : op. cit. pp. 187 – 194
(٢١) وسام عبد العزيز فرج : المرجع السابق ص ١٧٠
(22) Camb. Med. Hist. Vol. 4 pp. 541 - 2

دورهم حتى أوائل القرن الثانى عشـر الميـلادى، حـين فقـدوا اسـتقلالهم تحت وطأة قوة جديدة (٢٣) .

ومن الشعوب الأخرى التى واكبت حركة السلاڤ في شـرق أوربـا الشعب الهنغارى وهو من الشعوب الآسيوية أيضاً، وبدأ ظهورهم في شرق أوربـا في القـرن التاسـع الميـلادى واقـترن زحفـهم في شـرق أوربـا بـالقوة المتناهية والتعطش لسفك الدماء، وانزال الخراب والدمار في الجهات التى اجتاحوها(٢٤) ، إذ كانوا من أمـهر الشـعوب في ركـوب الخيـل مـع ميـل شديد للقوة والعنف، كما اشتهروا بالسرعة الفائقة في حركتهم وبالصلابـة الشديدة في القتال والبراعة في الرماية، وفي حملتهم ضـد مورافيـا أحدثـوا بـها الخـراب والدمـار، وفرضـوا الهـوان والـرق علـى بعـض الشـعوب السلاڤية، وأسس زعيم هؤلاء المجريـين ويدعـى أربـاد Arbad(٢٥) أسـرة حاكمة عاشت زمناً طويلاً، وظفر المجريون بنصيب الأسد من الأراضى في البلقان.

ثم نزل الهنغاريون أخـيراً في المنطقـة الواقعـة بـين نـهرى الـدون والدنيبر وتوسعوا فيما حولهم منذ أواخر القـرن التاسـع الميـلادى، حتـى أخضعوا المنطقة المعروفة الآن بالمجر أو هنغاريا وسـكنوها فـاتخذت هـذه المنطقـة أسمـها هنغاريـا (٢٦)، ومـن أجـل التوسـع وتدعيـم كيانـهم لجـأ الهنغاريون أو المجريون إلى التحالف مع بيزنطة ضد البلغار حـين سـبب ملك البلغار سيميون (٨٩٣ – ٩٢٧م) المتاعب لبيزنطة في البلقان، فخطب

---

(٢٣) محمد الشيخ : تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ص ١٠٢

(24) Miller : op. cit. pp. 30 – 31

(25) Vasiliev : op. cit. p. 388

(26) Keen : op. cit. pp. 25 - 6

البيزنطيون ود هؤلاء الهنغاريين لحرب البلغار وفعلاً نجح الهنغـاريون في إلحاق الهزائم بالبلغار وخربوا الأراضى الواقعة بشمال بلغاريـا [٢٧] إلا أن سيميون لم يستسلم بل ما لبث أن تحالف مـع قبـائل الهجنـاك شـديدى المراس، ونجح بمساعدتهم في التغلب على الهنغاريين أو المجريـين [٢٨]، ثم على البيزنطيين وألجأ هؤلاء إلى طلب الصلح - كمـا سـبق أن أشـرنا- إلا أن المجريين استمروا في اندفاعهم، ولم تسلم الجهات المجـاورة لهـم من هجماتهم فشنوا منذ أواخر القرن التاسع وعلى مدى النصف الأول من القرن العاشر هجمات عنيفة على لمبارديا في إيطاليا وبافاريا وسكسونيا في ألمانيـا وحتـى برجنديـا الفرنسـية لم تسـلم مـن هجماتـهم وكذلـك بروفانس[٢٩]، ونجح الألمان في النهاية في إجبارهم على الإخـلاد للسـكينة والتمركز في البلقان وذلك قرب منتصف القرن العاشر الميلادى.

ثم مـالبث الهنغـاريون أن اعتنقـوا المسيحية، وراحـوا يسـايرون أسس الحضارة الأوربية لاسيما فيما يخصّ بالاقطاع[٣٠]، ثم مـا لبثـوا أن أغاروا على المناطق المجاورة فـهاجموا في أوائـل القـرن العاشـر الميـلادى ألمانيا، وقضوا كذلك على مملكـة المورافيـين سـنة ٩١٥م، وغـيروا معـالم المنطقة المجاورة [٣١]، ويشير المؤرخـون إلى أن حركـة توسـع الهنغـاريين بدأت منذ أواخر القرن الحادى عشر الميلادى تتجه نحو الجنـوب تجـاه البحر الأدرياتى وتجاه سواحل دالماشيا، ولم يكن ذلـك يرضـى كـلا مـن

---

(27) Ostrogorski : op. cit. p. 227

(٢٨) كان الهجناك يجاورون البلغار وكثيراً ما حاربوهم وتفوقوا عليهم لقوتهم من ناحية وكثرتهم العددية من ناحية أخرى .
انظر : قنسطنطين السابع : إدارة الإمبراطورية البيزنطية ص ٥٦ - ٥٧.

(٢٩) العرينى : تاريخ أوربا في العصور الوسطى ص ٣٦٨ - ٣٦٩

(30) Dunlop : op. cit. p. 94, p. 196

(31) Camb. Med. Hist. Vol. 6, pp. 421 - 2

البندقية أو الإمبراطورية البيزنطية، وجاء ذلك في الوقت الـذى تشـابكت فيه الأحداث، وظهرت في الأفق مشكلات أخرى في سياسة بيزنطة علـى عهد ألكسيوس كومنين ونعنى بها الحملة الصليبية الأولى في أواخر القـرن الحادى عشر الميلادى ومطلع القرن الثانى عشر الميلادى[٣٢].

أما الشـعوب السـلافية ذاتـها، فقـد صنفـهم المؤرخـون صنفـين: السـلاف الغربيـون، والسـلاف الشـرقيون، ومثـل المورافيـون والتشـك أو البوهيميون والونديون والبولنديون أبرز الشعوب السلافية الغربيـة، بينمـا كان الروس الذين ظهروا بعد امتزاج السـويديين بالسـلاف الشـرقيين هـم أبرز السلاف الشرقيين[٣٣] وهم الذين استقروا حول شواطئ البحر الأسـود وتركز نشاطهم حول الأنهار العظيمة الواصلة بين البحـر البلطـى والبحـر الأسود[٣٤] .

ولقد انساب المورافيون فوق رقعة كبيرة من البلقان مشكلين مملكة في النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى، امتدت من إقليـم بانونيـا في الشمال الغربى للبلقان متضمنة بوهيميا وممتدة حتـى غاليسـيا في الشـرق. ولقيت مورافيا أو دولة المورافيين اهتماماً كبيراً مـن قبـل بيزنطـة، حتـى استطاعت بيزنطة أن تجبر هذا الكيان السـلافى علـى تقديـم المسـاعدات العسكرية للإمبراطورية[٣٥] ، في الوقت الذى اضطرت فيـه مـدن دالماشـيا أيضاً لمالأة بيزنطة والدوران في فلكها ، أى أن بيزنطة لم تنجـح فقـط في إجبار هذه المدن على مساعدتها، بل أيضاً نجحـت في إجبـار المورافيـين

(32) Vasiliev : op. cit. Vol. 2, p. 388
(33) Camb. Med. Hist. Voi. 4, p. 207
(34) Fisher : A Hist. of Europe , p. 375
(35) Ostrogorski : op. cit. p. 210

سكان الساحل وكذلك داخل البلقان على الانصياع[٣٦] ، بحكم ماكان لها من امتيازات لدى هـذه القوى، وكـان تأثـير بيزنطـة في البلقـان لاسـيما التأثير الدينـى قويـاً، فقـد نشـطت بيزنطـة لنشـر المسـيحية بـين هـؤلاء المورافيين على أيدى مبشرين من لدنها، إلا أن مورافيا تلقت تأثـير رومـا في ذلك[٣٧]، في الوقت الذى مال فيه أيضاً معظم السلاف الغربيين لكنيسة روما، واعتنقوا المذهب الكـاثوليكى الغربـى، ولم تعمـر مملكـة المورافيـين كثيراً، فسرعان ما تهاوت تحت ضغـط الهنغـاريين [٣٨] ، كـما سـبق أن أشرنا، ثم مالبث المغول أن اجتاحوا كل شرق أوربا حتى سواحل البحـر الأدريـاتى بمـا في ذلـك بولنـدا وبوهيميـا ومورافيـا وهنغاريـا وغيرهـا مـن الأراضى في البلقان [٣٩] .

أمـا التشـك أو البوهيميـون، فقـد انسـابوا مـع بعــض الشــعوب السلافية فوق الرقعة التى،عرفت بعد ذلك ببوهيميـا في البلقـان، وحدّهـا نهر الدانوب من جهـة الجنـوب، وعـاصرت دولتـهم منـذ أوائـل القـرن التاسـع الميــلادى إمبراطوريــة الفرنجــة في أوج عظمتــها علــى عصـر شارلمان[٤٠]، وفصلتهم عن دولة الفرنجة - في ذلـك العصـر- غابـات غـير مطروقة وبعض الجبال والمرتفعات وجعلتهم بمنأى عن التأثير الفرنجـى، غير أنه في عام ٨٠٥ - ٨٠٦م أرسل إليهم شارلمان حملة على رأسها أحد

(36) Vasiliev : op. cit. 2, p. 414,
Jenkins : op. cit. p. 175
(37) Oman : The Dark Ages, p. 471
(38) Jenkins : Byzantium , p. 170
(39) Ostrogoski : op. cit. p. 390
Morgan : The Mongols , p. 138
(40) Oman : op. cit. p. 361,

عاشور : أوربا ج١ ص ٢٠٢

أبنائه الذى اجتاح مرتين كل وادى الإلب الأعلى، ونجـح في النهايـة في إجبار رؤساء التشك هؤلاء علي دفع الجزية للحفاظ على استقلالهم[٤١] .

ثم حل التشك أو البوهيميون محـل الموارفيـين بعـد انـهيار دولـة هؤلاء في أوائل القرن العاشر، ونجـح التشـك في إرسـاء دعـائم دولتـهم في القرن العاشر الميلادى على الرغم من انسياب أعداد كبـيرة مـن المواطنـين الألمان إلى أراضى بوهيميا حيث استقر هؤلاء فوق جزء كبير مـن بوهيميـا ربما وصل إلى ثلثها، فضلاً عما أبداه الأساقفة الألمان من نشاط لربط هـذه الدولة بألمانيا، وإدخالها في نطاق المسيحية الغربيـة [٤٢] ، وجذبـها نحـو الحضارة الألمانية، ولهذا تأثرت بوهيميا تأثراً عميقـاً بالطـابع الألمـانى في الحياة والنظم والبلاط الملكى، وأظهر بعض ملوكها وأمرائها ميـلاً شـديداً للحضارة الألمانية والنظم الألمانية في جوانب متعددة، على الرغم مما أبداه بعـض ملـوك بوهيميـا مـن رغبـة في الوقـوف في وجـه السـيطرة الألمانيـة ومحاولة التباعد عن ألمانيا[٤٣] ، بل أظهر بعضهم ميلاً نحو التوسع جهة الغرب على حساب أملاك ألمانيا وأراضيـها، ثـم اجتـاح المغـول بوهيميـا سنة ١٢٤٠م قبل اتجاههم نحو روسيا [٤٤] .

ومـن العنـاصر السـلافية أيضـاً مـن سمـوا بـالونديين الذيـن ظلـوا يضغطون على الحدود الشرقية لألمانيا منذ أواخر القرن العاشر الميـلادى، وعلى مدى سـنوات متفرقـة مـن القـرن الحـادى عشـر ونظـراً لأن هـؤلاء الونديين ظلوا وثنيين فترة طويلة منذ ظهورهم في القرن السابع بل وأبـدوا

---

(41) Oman : op. cit. p. 361
(42) Jenkins : op. cit. p. 175
Southern : op. cit. p. 262
(43) Camb. Med. Hist. Vol. 6, p. 422
(44) Vasiliev : op. cit. Vol. 2, p. 530

نفوراً من الحضارة، خاصة تلك التى غدوا بقربها وهى الحضارة الألمانية وسببوا لجيرانهم متاعب كثيرة خاصة الفرنجة [٤٥] بسبب إغاراتهم المتواصلة على حدود دولة الفرنجة، فقد واصلوا إغارتهم على الحدود الشرقية لألمانيا كما سبق أن أشرنا، بل ركزوا إغارتهم على الكنائس والأديرة والمزارع والحقول[٤٦] ، حتى اقتنع الغرب الأوربى في عصر الحروب الصليبية بأنه من الأولى توجيه أحدى الحملات الصليبية إلى هؤلاء الونديين الوثنيين وهى الحملة التى وجهت لحربهم قرب منتصف القرن الثانى عشر الميلادى (١١٤٧م) [٤٧] ، في نفس الوقت الذى وجهت فيه الحملة الصليبية الثانية إلى الشرق. ويشير المؤرخون إلى أن الحملة الصليبية ضد الونديين هى التى مدت النفوذ الألمانى شرقاً بعد أن قضت على وثنية هؤلاء الونديين، وطبعت الأراضى ومن عليها بين نهرى الإلب والأودر بالطابع الألمانى، وخلصت تلك البقاع من شرور تلك العناصر الوثنية[٤٨] .

وهكذا تزايد الطابع الألمانى وامتد إلى أراضى البحر البلطى، إذ تشير الدلائل إلى أنه فيما بين سنتى ٩٠٠ - ١٢٠٠م أى على مدى القرون من القرن التاسع حتى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى تزايد عدد المدن الألمانية في أراضى البلطى من أربعين مدينة إلى ٢٥٠ مدينة وحتى مدينة لوبك Lubeck التى تأسست في أغلب الظن على ايدى الونديين حوالى سنة ١٠٥٠م أعيد تأسيسها في سنة ١١٤٣م كمدينة المانية[٤٩] ، وتقدمت هذه المدينة بجهود هنرى الأسد الألمانى وبعد انتهاء

(45) Oman : The Dark Ages, Period 1, pp. 177 – 8
(46) Ibid. p. 177
(47) Heer : op. cit. p. 86, pp. 135 – 6
(48) Thompson : The Middle Ages, Vol. 1, pp. 513 – 14
(49) Heer : op. cit. p. 85

عهده أصبح الطريق ممهداً أمام هـذه المدينـة لتحكـم نفسـها بنفسـها وأن تستقل بأمورها في العـهود التاليـة ثـم تـابعت تقدمـها في هـذه الناحيـة، وغدت لوبك نموذجاً يحتذى لمجموعة المـدن الونديـة(٥٠) ، مشـكلة نـواة العصبة الهانزية، وفي غضـون قـرن منـذ تأسـيس لوبـك أصبـح السـاحل البلطى من لوبك إلى ريفال وإلى نيرفا ساحلاً ألمانيـاً وغـدت لوبـك نفسـها النموذج الأمثل لما يمكن أن يؤسس في نطاق الإقليم كله (٥١) .

أما البولنديين فتشير الدلائل إلى أنهم نجحوا في الإقامة في البلقان في القـرن التاسـع الميـلادى، لكنـهم تعرضـوا – طبقـاً لـما ورد في المصـادر الروسية – لضغط الخزر في الجهات الواقعة إلى الجنوب من وادى الدنيبر الأوسط أى في مناطق الغابات والجهات المرتفعة علـى طـول النـهر حتـى أنـهم أجـبروا علـى دفـع الجزيـة عـن كـل صـاحب مـأموى أو حـامل سيف(٥٢)، وتشير هذه المصادر إلى أن سيوف هـؤلاء البولنديـين كـان لهـا نصلان أى أنها سنت من الجهتين، وأن هذه المعلومـة حـين وصلـت إلى حاكم الخزر ورفاقه الأكـبر والأكـثر خـبرة انزعجـوا كثـيراً، لأن سـيوف الخزر – على حد ما تذكره هذه المصادر أيضاً – كان لها نصلاً واحداً أي أنها سنت من ناحية واحدة (٥٣) ، ويبدو أن ذلـك كـان يختـص بالفـترة السابقة على سنة ٨٥٩م لأنه في نفس هذه السنة استطاع هؤلاء البولنديون وبعض حلفائهم دفع الخزر من تلك المناطق التى تمركزوا فيها (٥٤) .

---

(50) Oman : op. cit. p. 426
(51) Hear : op. cit. p. 85, p. 86
(52) Dunlop : op. cit. p. 198
(53) Vernadsky , Anc. Russ. P. 332
Dunlop : op. cit. p. 198
(54) Ibid. p. 198

ثم أرسى البولنديون دعائم مملكتهم بـين نـهرى الأودر والفستولا مع حركـة السـلاف في شـرق أوربـا، وفي القرن العاشـر الميـلادى اعتنـق البولنديون المسيحية على مذهب رومـا بوسـاطة ألمانيـة، إذ نشـط الألمـان كثيراً في جذب كثير من العناصر السلافية لتلقى مسيحية الغرب وإبعادها عن المؤثرات الدينية البيزنطية [٥٥] ، وإن تفوقـت هـذه المملكـة البولنديـة باستقلالها الدينى والدنيوى فترات طويلـة في القرنـين العاشـر والحـادى عشر الميلاديين تحت حكم بعض ملوكها الكبـار، علـى الرغـم مـن أنـها ضعفت بعد ذلـك بسـبب ضغـط الألمـان عليـها، ثـم تفككـت في النهايـة وعانت الحروب الأهلية بـين أمرائـها، بـل انضـوت بعـض أقاليمـها إلى الإمبراطورية الرومانيـة المقدسـة تحـت حكـم بعـض أباطرتـها مـن أسـرة هوهنشتاوفن [٥٦] ، وفي القرن الثالث عشـر الميـلادى فقـدت هـذه المملكـة سيطرتها على سواحل البحر البلطى فانتقلت تجارتها إلى ايـدى الألمـان، ثم كان الغزو المغولى لهذه الجهات وهو الغزو الذى قضى علـى كثـير مـن القوى ومن بينها هذا الكيـان البولنـدى[٥٧] ، وإن عـادت بولنـدا فأفـاقت بعد انحسار هذا المد المغولى في القرن الثالث عشر الميلادى[٥٨] .

أما السلاف الشرقيون، فيبدو أنهم كانوا أكثر حظـاً مـن السـلاف الغربيين ، فقد مرحوا في شرق أوربا حتـى القـرن التاسـع الميـلادى، أى حتى قدوم الفيكنج السويديين، الذين اندفعوا بعد عبورهم البحـر البلطـى في الاتجاه الجنوبى الشرقى تجاه الدانوب وسواحل البحر الأسود واختلط

(55) Morfill : Poland, pp. 26 – 28

عاشور : أوربا العصور الوسطى ص ٦١٣

(56) Camb. Med. Hist. Vol. 6, pp. 462 – 3

(57) Morgan : The Mongols , p. 139

(58) Lodge : The Close of the Middle Ages, Period III, p. 183

السويديون بالعناصر السلافية الشرقية في تلك البقاع، حيث أطلق عليهم السلاف لفظ "روس Rus" أى الحمر[٥٩] ، وأسس الروس هؤلاء دوقية كييف منذ أوائل القرن التاسع الميلادى، حيث أصبحت هذه الدوقية نواة الدولة الروسية[٦٠] ، ثم اتخذت دولة الروس نوفجرود مركزاً لها بعد ذلك وهى المدينة التى جعلها روريك مقراً لحكمه في النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى .

وعلى الرغم من ذلك ظل الروس على فطرتهم، ولم يصبهم في تلك الفترة ما أصاب الغرب الأوربى من ظواهر حضارية وما شاب تاريخهم من حروب دينية[٦١] ، وهى الحروب التى هزت عروش كثير من الملوك والحكام في غرب أوربا، ولم يعرف الروس أيضاً ما عرفه الغرب من نزاع بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية وما ترتب على ذلك من صراع بين البابوية والامبراطورية، وهو النزاع الذى أضاف إلى خبرات الغرب الأوربى وصقل تجارب شعوبه، لكن روسيا هذه بقيت في عزلة في الشرق بعيده عن المؤثرات الروحية التى تأثرت بها شعوب غرب أوربا، وبقيت كذلك حتى القرن العاشر الميلادى [٦٢] .

ومنذ ظهرت الدولة الروسية في النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى، واتخذت نوفجرود مركزاً لها، أخذت هذه الدولة في التوسع حتى أخضعت الخزر شمالى البحر الأسود[٦٣] ، وامتد نفوذها في تلك

(59) Camb. Med. Hist. Vol. 3, p. 327
(60) Moss : The Birth of the Middle Ages, pp. 266 – 7
(61) Fisher : A Hist of Europe, p. 374
(62) Ibid. p. 374
(63) Dunlop: op. cit. p. 99
Ostrogorski : op. cit. pp. 259 - 62

الجهات، فضلاً عن سيطرة الروس على الطريق التجارى بين البحر البلطى وعاصمة بيزنطة القسطنطينية، وهكذا بدأ التاريخ الروسى حول شواطئ البحر الأسود، وتكونت أول حكومة للروس ليكون مجال نشاطها حول الأنهار العظيمة الواصلة بين البحر البلطى والبحر الأسود(٦٤)، واستقر الروس حول المحطات التجارية بالقرب من الأنهار لا سيما نهر نيفا ونهر الدنيبر منذ القرن الثامن الميلادى بعد فترة تنقل بين جنوب روسيا ووديان نهر الدانوب وجبال الكربات، ثم تطورت هذه المحطات لتصبح مدناً ذات حكومات(٦٥).

أى أن نشاط هؤلاء الروس انحصر في السهول الشرقية لأوربا، حيث حلوا محل الآفار، الذين انهارت قوتهم في القرن التاسع (٦٦)، وتزايدت عظمة دوقية كييف بصفة خاصة بعد أن صارت عاصمة للدولة الروسية منذ أواخر القرن التاسع الميلادى، وزادت أهميتها منذ أوائل القرن الحادى عشر الميلادى، فقوت علاقاتها التجارية مع كثير من القوى السلافية والقريبة مثل البولنديين والهنغاريين والألمان، فضلاً عن بيزنطة والخلافة العباسية في بغداد (٦٧).

وبنى الروس الأساطيل البحرية وكونوا الجيوش وهيمنوا على الأنهار والبحيرات بين البحر البلطى والبحر الأسود، واتسعت تجارتهم

(64) Fisher : op. cit. p. 375
(65) Ibid. pp. 375 – 6
Vasiliev : op. cit. Vol. 2, pp. 322 – 3
(66) Stephenson : Medieval Hist. pp. 201 – 11
(67) Thompson : The Middle Ages , 1 , p. 325
Mawer : The Vikings , pp. 79 - 80

وتضاربت مصالحهم مع جيرانهم حتى بدأوا في الإغارة على المناطق المحيطة، حتى انشغلت بيزنطة بمحاولة ترويضهم وإدخالهم في المسيحية(٦٨) ثم اتسعت تجارة الروس مع الإمبراطورية البيزنطية، خاصة منذ النصف الأول من القرن العاشر الميلادى، فقد كانوا يجلبون لها منتجات الشمال مثل الفراء والأخشاب والأسماك واللحوم والشمع والرقيق، ويعودون حاملين معهم المنسوجات والتوابل والحلى والزجاج والبخور وغير ذلك من المنتجات، كما برعوا في النواحى الإدارية والتنظيمية والسياسية فأصبحوا سادة روسيا(٦٩) ، ويدل ذلك على أن الروس عافوا الزراعة والرعى، ونزعوا إلى التجارة، فقد تألفت روسيا من مجموعة مدن كبرى نهض بعضها على نهر الدنيبر وروافده ونهر الڤولجا الأعلى وبعض البحيرات الكبيرة، وأوغل الروس شرقاً حتى بحر قزوين واتخذوا طرقاً متعددة أهمها طريق الفستولا إلى البحر الأسود ومنه إلى البسفور(٧٠)، ولم يمض وقت طويل حتى نفذت المسيحية وتيارات المدينة من القسطنطينية إلى هؤلاء الروس(٧١).

وإلى جانب حب هؤلاء للتجارة كانوا أيضاً محاربين أشداء اتخذ منهم الأباطرة البيزنطيون جنداً مرتزقة، وفرقاً للحرس الإمبراطوري، وفي

(68) Morfill : Russia , p. 119
Vasiliev : op. cit. 1, p. 323

(69) Simpson : Everyday life in the Viking, p. 126
Jenkins: op. cit. pp. 161 – 2

(70) Schjoth : " Great days of the Northmen " , B.H. VII, pp. 3539 – 40
Trevelyan : op. cit. p. 75

(٧١) فشر : المرجع السابق ص ١١٥

هذا الإطار السلمى جرت العلاقات مع بيزنطة، لكـن هـذه العلاقـات مـا لبثت أن ساءت، وتحكمت في هؤلاء الـروس نزعتـهم الحربيـة، وميلـهم للقتـال، فـأخذوا في الهجـوم علـى بيزنطـة ومحـاصرة عاصمتـها القسطنطينية، ولجأت بيزنطة أحياناً إلى دفع مبالغ مالية لهم لإجلائـهم من عاصمتها[٧٢] .

وتكررت هجمات الروس على العاصمة البيزنطية في القرن العاشـر الميلادى، حتى اضطرت بيزنطة إلى التفاهم معـهم قـرب منتصـف القـرن العاشر الميلادى، واستقطبت أعداداً غفيرة منهم للعمل في بحريتها، نظراً لخبراتهم ومهارتهم في ذلك الميدان، فـاقتنع الـروس في النهايـة بضـرورة مسالمة بيزنطة والاستفادة منها بتبادل التجارة وتنمية مصالحهم التجارية التى تعـود عليـهم بـالربح الوفـير [٧٣] ، واسـتمر امـتزاج السـويديين مـع السلاف فترة طويلة ربما إلى قرب منتصف القرن الحادى عشر الميلادى، حين امتزج الشعبان في شعب واحد طبع بالطابع السلافى ومثـل الـروس كتلة هامة في شرق وشمال شرق أوربا، ولعبت دوراً هاماً في تلـك البقـاع، وشكلت علاقاتها ببيزنطة أهمية خاصة لهذه القوة في أوربا[٧٤] .

أما عن عقيدتهم، فقد ارتبط هؤلاء الـروس أو السـلاف الشـرقيين بالكنيسـة البيزنطيـة، واعتنقـوا المسـيحية علـى مذهبـها الأرثوذكسـى الشرقي، مخالفين في ذلك معظم العناصر السلافية الغربيـة الذيـن تحـول أكثرهم إلى المسيحية على مذهبها الغربى اللاتينى، والتى تلقوها من رومـا

(72) Ostrogorski : op. cit. p. 229
(73) Vasiliev : op. cit. vol. 1, p. 322
Jenkins : op. cit. p. 250
(74) Ostrogorski : op. cit. p. 229, p. 245

بواسطة رجال الدين الألمان أحياناً وعن طريق المبعوثين البابويين أحياناً أخرى أما الروس هؤلاء فقد ارتبطوا رباطاً وثيقاً بالكنيسة الشرقية البيزنطية[٧٥] ، ورسخت المسيحية على مذهبها الشرقى لدى هذا الشعب بصفة خاصة في عهد الملك فلاديمير الأول، في الربع الأخير من القرن العاشر وأوائل القرن الحادى عشر، وصارت الديانة الرسمية للدولة، الأمر الذى جعل كنيسة روسيا تتبع مباشرة كنيسة بيزنطة[٧٦] .

وإذا كان الروس قد تأثروا ببيزنطة كثيراً وأكبروا الحضارة البيزنطية وحاولوا تقليدها في مجالات متعددة [٧٧] ، إلا أنهم لم ينجحوا في ذلك بل ظلوا في مكانة أدنى وافتقروا للوعى الحضارى لتنظيم دولتهم، وضمان وحدة أجزائها والترابط بين مختلف أقاليمها، بل فقد أمراء كييف ابتداء من بداية الربع الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى وحدة الدولة وحكم جميع قبائل الروس، وعجزوا عن التصدى لما حدث من نزعة انفصالية أدت إلى الانقسام والتفتت في تلك الدولة المترامية الأطراف[٧٨] .

وقد بدأت هذه الدولة تعانى الضعف منذ بداية الربع الثانى من القرن الثانى عشر بعد انتهاء عهد فلاديمير الثانى أى بعد سنة ١١٢٥م[٧٩] ، بدأت حقبة غصت بالفوضى والانقسام التى سادت أنحاء البلاد في الوقت الذى فقدت فيه كييف أهميتها بعد انتهاء عهد ذلك

(75) Camb. Med. Hist. Vol. 4, p. 207
(76) Painter : op. cit. p. 60
(77) Vasiliev : op. cit. 1, p. 243
(78) Ostrogorsky : op. cit. p. 341
(79) Camb. Med. Hist. Vol. 7, pp. 607 - 8

الملك، حيث حلت محلها مدينة سوزدال Suzdal في الشمال الشرقى من روسيا ولم تكد هذه الدولة تفيق حتى دهمتها غزوات المغول في القرن الثالث عشر لتوقف تقدم هذه القوة في أوربا (٨٠) .

(80) Vasiliev : op. cit. 2, p. 530



الفصل السادس

البابوية وازدياد قوتها وتأثيرها في حياة المجتمع الأوربي في العصور الوسطى

- ارتفاع مكانة الكنيسة الغربية في أوائل العصور الوسطى وأسباب ذلك
- ظهور بابوية روما والعوامل التى أسهمت في تدعيم سلطة البابا وانفراده بالنفوذ الدينى والسياسى في الغرب .
- مرحلة ضعف البابوية عقب تقسيم إمبراطورية شارلمان خاصة بعد غارات الفيكنج والمجريين وغيرهم .
- بروز سلطة رجال الإقطاع وسيطرتهم على الكنيسة الغربية ودخول الكنيسة في خدمة الدولة .
- حركات الإصلاح في جوف الكنيسة الغربية خاصة الحركة الكلونية.
- إصلاحات البابا جريجورى السابع في النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى.
  - موضوع زواج رجال الدين
  - التقليد العلمانى
- النتائج التى ترتبت على إصلاحات جريجورى السابع .
- مكانة بابوية روما منذ أوائل القرن الثالث عشر الميلادى .

انفردت الكنيسة في غرب أوربا بمكانة بارزة نتيجة لانتصار الكاثوليكية من ناحية ولانتقال الأباطرة إلى القسطنطينية من ناحية أخرى، ومالبث سلطان رجال الدين في أوربا أن أخذ يعلو شيئاً فشيئاً دون معارضة تذكر من السلطات الحاكمة، في الوقت الذى خضع فيه رجال الدين في الشرق لسلطة الأباطرة البيزنطيين، ولم ينجحوا في الانفراد بتدبير الأمور أو الوصول إلى نفس المكانة التى وصل إليها الآخرون فى الغرب(١) .

ثم أخذت الكنيسة منذ القرن الرابع الميلادى تتدخل في شئون السلطة العلمانية وازداد تدخلها بضعف سلطة الإمبراطور وتهالكها، وتوغل الجرمان في جوفها، مما أدى إلى انهيار الحكومة الإمبراطورية ذاتها(٢) ، حتى انتهى الأمر بحلول الكنيسة محل الإمبراطورية عندما أفل نجم الأخيرة في الغرب الأوربى(٣) وساعد الكنيسة على ذلك ما حدث من انتهاجها نهج النظم الإمبراطورية، بل اتبعت الكنيسة ما سبقتها إليه الإمبراطورية، بل جعلت التنظيم الإمبراطورى نموذجاً لنظمها فأصبحت – على حد قول أحد المؤرخين – " هى الإمبراطورية الرومانية في قالب كنسى" (٤) ، ولم يلبث رجال الدين أن بلغوا مكانة ملحوظة في حياة المجتمع، فتولوا القضاء وراقبوا الشئون العامة والسلوك الفردى، وأسهموا في تكييف العرف(٥) .

ولم يمض وقت طويل حتى حصلت الكنيسة المسيحية من الحكومة الإمبراطورية على بعض الامتيازات الخاصة والإعفاءات، فغدا لها الحق في

(١) فشر : تاريخ أوربا في العصور الوسطى ق١ ص ١٠٦ (مترجم)
(2) Hoyrk : "Rise of the Germanic race and the Coming of the Barbarians " . B. H. Vol. VII, pp. 3423 – 5
(3) Chapman : Studies in the Eurly papacy, p. 97
(٤) فشر : المرجع السابق ق١ ص ١٠٤
(٥) كرمب وجاكوب : تراث العصور الوسطى ج١ ص ٤٦ (ترجم بدران وزيادة)

الحصول على الهبات وكذلك الإعفاءات من الضرائب وحق قيام الأساقفة بالفصل في المنازعات بين المسيحيين، وترتب على ذلك ازدياد نفوذ الأساقفة في أقاليمهم بحكم مكانتهم الدينية من ناحية، وبحكم ما حصلوا عليه من ثروات بطريق الهبات والصدقات إلى غير ذلك[٦] . وهكذا أخذت ثروة الكنيسة تزداد ونفوذها يتسع حتى امتلكت الضياع الواسعة ، وصار لها نفوذ دينى ودنيوى كبير ، وتشبه الأساقفة بالأمراء واتخذوا الأتباع والموظفين والخدم والحشم[٧].

برزت إذن أهمية الكنيسة الغربية وانفرادها بالأمر، لعدم وجود قوة حاكمة تقلل من شأنها أو تحد من سلطتها[٨] ، ولهذا استطاع رجال الكنيسة في روما الرقى بكنيستهم والوصول بها إلى مكان الصدارة في العالم الغربى، ومالبث أن حصل أسقف روما على لقب بابا Pope تشريفاً له وتكريماً لمكانته عن بقية رجال الأسقفيات الكبار في العالم المسيحى فقد استطاعت كنيسة روما أن تقدم من النصوص والأسانيد ما يكفى لإقناع الناس بزعامتها للعالم المسيحى في ذلك العهد، حين كان الناس يؤمنون ويسلمون بكل ما هو تقليدى وبكل ما من شأنه التدليل على المجد الرومانى القديم[٩] .

وهكذا علا نجم أسقف روما وتمتع بمكانة لا يدانيه فيها أحد بين أساقفة الغرب واستمد هذه المكانة من أهمية روما، ومن ثم راح أساقفة هذه المدينة يستثمرون هذه الأهمية والمكانة في الحصول على الزعامة على أسقفيات الغرب وتحقيق السمو على تلك الأسقفيات بما فيها مدينة قرطاجة[١٠] ، وفى

(6) Camb. Med. Hist. Vol. 1, p. 561
(7) Thompson : The Middle Ages, Vol. 1, p. 49
(8) Deanesly : A Hist. of Early Med. Europe, p. 165
Lot : The end of the Ancient world, p. 53
(٩) فشر : تاريخ أوربا في العصور الوسطى ق١ ص ١٠٤ – ١٠٥
(10) Thompson : op. cit. Vol. 1, pp. 51 - 2

عـهد البابـا ليـو الأول أو العظيـم (٤٤٠ - ٤٦١م) جـرى الاعـتراف بسـيطرة البابوية على كافة الكنائس المحلية في الغرب، ثم جـاء سـقوط الإمبراطوريـة الرومانية في الغرب على أيدى الجرمان سنة ٤٧٦م عاملاً هاماً في تدعيم سلطة البابا وانفراده بالنفوذ الدينى والسياسى في الغرب(١١) ، ثم كان اعتـلاء البابـا جريجورى الأول أو العظيم (٥٩٠ - ٦٠٤م) فصل الختام بالنسبة لمكانة البابا وسلطته البابوية في الغرب الأوربى، بعد أن دانت له الكنيسة الغربية بوصفه خليفة القديس بطرس ورأس السلطة الدينية في أوربا والعالم المسيحى كله(١٢)، وما لبث الإمبراطور فالنشيان الثالث أن أصدر مرسوماً بخضوع جميع أساقفة الغرب للبابا في روما (١٣) .

غدا البابا إذن رأس الجـهاز السياسـى والدينـى معاً بحكـم خلافتـه للقديس بطرس واعتبر المعاصرون سلطته فوق سلطة الملوك وسيادته فوق سيادة الأمراء أى أن السلطة الكهنوتية أعظم بكثـير مـن السـلطة العلمانيـة للسـادة الإقطاعيين والملوك والأباطرة، وأن المجتمع المسيحى الحق هو الـذى تسـيطر عليه الكنيسة(١٤) ، ثم تابع البابوات جهودهم لجعل نفـوذ الكنيسـة الغربيـة حقيقة ملموسة في مختلف أنحاء الغرب المسيحى وساعد البابويـة علـى ذلـك أيضاً ما حـدث مـن انصـراف الإمبراطوريـة البيزنطيـة عـن إيطاليـا إلى حـل مشاكلها في الشرق، مما ألقى عبء حمايـة إيطاليـا وحمايـة حضارتـها علـى كاهل البابوية وحدها(١٥) ، ومـا حـدث أيضـاً مـن خـلاف مذهبـى وانقسـام

(١١) هلستر : أوربا في العصور الوسطى ص ٥٣ (مترجم)

(12) Sullivan : Heirs of the Roman Empire, pp. 48 –9
Baldwin : The Med. Church, p. 27
La Monte : The world of the Middle Ages, p.31, 72, 79

(١٣) عاشور : أوربا العصور الوسطى ج١ ص ٥٤

(١٤) هلستر : أوربا ص ١٧٩

(15) Vasiliev: op. cit 1, p. 259
Ostrogorski : op. cit. p. 58

سياسى بين الشرق والغرب والتفاف الشعوب الغربية حول البابوية في صراعها ضد الإمبراطورية الشرقية(١٦) .

وبدا للمعاصرين في المرحلة الحالكة الظلام عقب تقسيم إمبراطورية شارلمان وضعف السلطات الحاكمة في الغرب أن الحفاظ على التراث الغربى والحضارة الغربية مرهون بقيام سلطة كنسية مركزية، يصبح بوسعها الصمود في وجه السلطة العلمانية وانتزاع اعترافها بسمو الكنيسة وسيادتها(١٧) ، إلا أن الكنيسة عانت في تلك الفترة الضعف والاضمحلال، بعد أن عصفت غارات الفيكنج والمجريين بأوربا(١٨) ، من الشمال والشرق وهجمات المسلمين عليها من الجنوب والغرب، فعلى اثر هجمات الفيكنج وغيرهم من البرابرة، اختفت الأديرة في إنجلترا مثلاً، كما حطموا الكنائس والأديرة في شمال فرنسا(١٩) ، وعانت البلاد الجهل وانحدار الحضارة، نظراً لأن الأديرة كانت مراكز التعليم والثقافة والتهذيب في العصور الوسطى، وحدث مثل ذلك في فرنسا أيضاً(٢٠) ، في الوقت الذى انتهز السادة الإقطاعيون في دولة الفرنجة الفرصة ليفيدوا من هذه الفوضى لاغتصاب أراضى الكنيسة وأظهر كبار رجال الدين حرصهم على أن يحيوا حياة الفرسان والإقطاعيين ويتبعوا نفس نظمهم(٢١) ، ولم تتغير الصورة كثيراً في ألمانيا، ولهذا ازدادت الكنيسة ضعفاً في تلك الفترة، وغدت أحوال البابوية بالغة السوء .

---

(16) Chadwick : The early Church , p. 283

(١٧) عاشور : أوربا ج٢ ص ٢١٧ (ط ١٩٧٦)

(18) Southern : Western Society and the Church in the Middle Ages. p. 27

(19) Keen : op. cit. p. 25

(20) Haskins : op. cit. p. 35

(21) Stephenson : Medieval Feudalism , pp. 237 - 8

وإذا كانت البابوية والكنيسة الغربية قد عانت مخاطر الهجمات الخارجية وأخطار البرابرة في تلك الفترة، فقد عانت في نفس الوقت داخلياً بسبب ما كان يجرى من اشتراك نبلاء روما في اختيار البابا الذى لم يزد في كثير من الأحيان عن كونه رئيس حزب سياسى، بل لم يكن كل من تولى هذا الكرسى الدينى بعيداً عن الشبهات أو سمعته فوق مستوى الشبهات(٢٢) ، ولهذا فقد انحطت مكانة البابوية، وفقدت كثيراً من أهميتها الروحية في تلك الفترة .

ويبدو أن الكنيسة اضطرت للإبقاء على وجودها واستمرارها في أداء دورها إلى الدخول في حلف مع النبلاء الإقطاعيين والسلطات العلمانية، وتوثيق علاقاتها مع هذه الفئة لأنها الوحيدة التى بوسعها أن تبذل لها الحماية وتضمن لها الاستمرار(٢٣) ، فبذل كبار رجال الكنيسة التبعية الإقطاعية للسادة النبلاء والتزموا بتأدية الخدمات الإقطاعية لهم وترتب على ذلك امتداد سلطة هؤلاء السادة الإقطاعيين لتشمل الناس النازلين بأراضى رجال الكنيسة (٢٤) .

ونظراً لأن رجال الدين الذين بذلوا التبعية الإقطاعية للنبلاء لم يكن بوسعهم تقديم الخدمة العسكرية التي هى جوهر النظم الإقطاعية ، فقد أجيز لهم اختيار نواب عنهم لممارسة القتال وقيادة الفرسان إذا دعت الحاجة إلى ذلك (٢٥) ،وكذلك نواباً عنهم لممارسة القضاء والنظر في القضايا، بعد أن شغلتهم مهامهم الكثيرة عن ذلك ، وأجيز لهم أيضاً اختيار نواب عنهم

---

(٢٢) فشر : المرجع السابق ق١ ص ٨٦
(٢٣) كانتور : التاريخ الوسيط ق١ ص ٣٤١ – ٣٤٢
(24) Durant : The Age of the faith, p. 546
(25) stephenson : op. cit. p. 238

لإنجاز هذه المهام، وفي سبيل حصول رجال الديـن علـى الإقطاعـات تغـاضوا كثيراً عن مهامهم الدينيـة ودخلـوا في طاعـة السـادة الإقطـاعيين والسـلطات العلمانية، بل شاركوا أحياناً في الحرب خاصـة في القرنـين التاسـع والعاشـر الميلاديين [٢٦] ، فأضافوا إلى ضعف الكنيسة في تلك الفترة .

وترتب على ذلك أن حرص رجال الدين وكبار موظفي الكنيسة على إرضاء السادة الإقطاعيين بتعيين الأساقفة ومقدمى الأديرة الذين يرضى عنـهم هؤلاء السادة، في الوقت الذى تـولى فيـه السـادة الإقطـاعيون تعيـين موظفـى الكنيسة ومنحهم شارات الوظيفـة الدينيـة والدنيويـة[٢٧] ، فغـدت الوظـائف الدينية الكبرى من صنع رجال الإقطاع، فأغرى هـذا رجـال الديـن وموظفـى الكنيسة على انتزاع حقوق الكنائس وأراضى الكنائس الداخلـة في سـلطتهم في ظل نفوذ رجال الإقطاع[٢٨] ،وصار بوسع بعض كبار رجـال الديـن خاصـة في ألمانيا أن يتخطى السـادة الكونتـات والدوقـات المحليـين ونوابـهم، ويوثقـوا علاقاتهم وتحالفهم بالملك مباشرة، فوضعت الكنيسة نفسها في خدمة الدولة، وأدخلت نفسها في نطاق السلطة العلمانية[٢٩] .

ازدادت سلطة رجال الإقطاع، وتقلصت في نفس الوقت سلطة الكنيسة في فترة الاضطرابات والضعف حين أظهر السـادة الإقطـاعيون اهتمامـاً كبـيراً بإنشاء كنائس جديدة خاصة في القرى والضياع التابعة لهـم لإتمـام سـيطرتهم على النواحى الدينية والدنيوية [٣٠] ، فأصبح بوسعهم جباية العشور وضرائب

(٢٦) ديفز : أوربـا في العصـور الوسـطى ص ٩٢ ، ص ٩٦ (ترجمـة د. عبـد الحميد حمدى)

(27) Fliche : L'Europe Occidentale , pp. 121 – 2

العرينى : تاريخ أوربا في العصور الوسطى ص ٤٤٦

(28) Stephenson : op. cit. pp. 237 – 8

(29) Camb. Med. Hist. Vol. 1, p. 152

(30) Heer : op. cit. pp. 26 - 7

الخراج من الأراضى التى كانت تتبع الكنـائس في الوقت الذى تمتعوا فيه بتعيين رجال الدين من القساوسة، ولم يدفعوا من الرواتب إلى القليل، وما يكاد يسد حاجتهم، فأضاف السادة الإقطاعيون إلى مواردهم ما أصبح يحصل من عشور وخراج من أراضى الكنائس، وأضافوا إلى سلطاتهم سلطات جديدة خصماً من سلطة الكنيسة [٣١] .

والدليل على ما عانته الكنيسة في تلك الفترة من ضعف هو شعور رجال الدين أن قانون الكنيسة الذى تألف أصلاً من الأحكام الواردة بالكتاب المقدس وكتابات آباء الكنيسة وقرارات البابوات وإصدارات المجامع الدينية[٣٢] شعور هؤلاء بأن القانون الكنسى لم يعد صالحاً لمنحهم ما أملوا فيه من حقوق وما كانوا في حاجة إليه من موارد تمنحهم بعض القوة وتعطيهم أسلحة روحية تمنحهم التفوق في حربهم ضد السادة الإقطاعيين والسلطات العلمانية من ناحية وإخضاع رجال الدين المارقين من ناحية أخرى[٣٣] .

ويذكر المؤرخون أنه في ظل هذه الظروف ظهرت مجموعة قوانين كنسية مزورة لجأ بعض رجال الدين إلى اختراعها في القرن التاسع بعد أن أجروا في قرارات البابوات بعض التغييرات التى تطابق آراءهم، وتمنحهم بعض الميزات، ونسبت هذه المواد إلى بابوات ربما بابوات وهميين، بل أنهم عزوا المجموعة كلها إلى العالم الدينى القديس ايزيدور الإشبيلى[٣٤] ،متضمنة أيضاً وثائق مزورة ومدسوسة ترجع إلى زمن سابق، والهدف من ذلك كله هو محاولة إخراج رجال الدين مما كانوا فيه من الضعف وإعطائهم ما يقوى

(31) Keen : op. cit. p. 35

(٣٢) كولتون : عالم العصور الوسطى ٢٤٨

(٣٣) العرينى : المرجع السابق ص ٤٤٧

(34) Keen : op. cit. p. 78

مركزهم في مواجهة السلطات العلمانية في تلك الفترة البالغة الاضطراب بالنسبة لأحوال الكنيسة الغربية(٣٥) .

ومن مظاهر الضعف أيضاً في تلك الفترة أن رئيس الأساقفة لم تكن سلطته تزيد عن سلطة الأسقف إلا في اتساع حدود الأسقفية وازدياد ثرواتها، ولم يكن لرئيس الأساقفة سلطة على الأساقفة. أما الأسقف فكانت سلطته مطلقة في أسقفيته من الناحية الدينية والمالية(٣٦) دون أن يعنى ذلك خضوعه لأى سلطة روحية أعلى. حقيقة جرى انتخابه من قبل رجال الدين في الأسقفية لكن هؤلاء لم يكن بوسعهم سوى اختيار الأسقف الذى يرضى عنه السيد الإقطاعى، وعلى هذا كانت الكنيسة في جعبة الإقطاعيين والسلطة كانت لرجال الإقطاع في تلك الفترة وكذلك الملوك(٣٧) .

وحتى الأديرة لم تعد تهتم بالنواحى الدينية إلا قليلاً بل إنها غدت ملاذاً يلجأ إليها الناس مما قد يتهددهم من أخطار أو تجنباً لما يمكن أن يحدث لهم خلال الإضطرابات خارج الدير من أضرار، وتولى مقدم الدير مهمته بترشيح من السيد الإقطاعى في كثير من الأحوال وحدث في فرنسا في القرن العاشر أن تولى أمر الدير السيد الإقطاعى نفسه الذى ينيب عنه من يقوم بمهمة مقدم الدير خاصة المهام الدينية (٣٨) ، وعلى الرغم من أن الأسقف هو الذى يعتبر من الناحية النظرية المسئول عن الأديرة في نطاق أسقفيته، وله السلطة في الإشراف عليها وتفقد أحوالها إلا أن الواقع يؤكد أن هذا الأسقف لم تكن له سلطة فعلية لأن الأساقفة حرصوا على عدم إغضاب السادة

(35) Ibid. p. 78
(36) Southern : op. cit. p. 96
(37) Ibid. pp. 96 – 7
(38) Heer : op. cit. p. 51

الإقطاعيين بالتدخل في شئون الأديرة [٣٩] ،في الوقت الذى حصلت فيه بعض الأديرة الكبيرة على قرارات من البابا تعفيها من سلطة الأساقفة وتخضعها مباشرة للبابا، ولم تكن للبابا سلطة حقيقية على هذه الأديرة بل ساعد بُعد هذه الأديرة على مركز البابوية من ناحية، وضعف سلطة البابا من ناحية أخرى على منح هذه الأديرة الاستقلال الكامل[٤٠] .

ثم شهدت الكنيسة حركات إصلاحية، فنهضت الحركة الكولونية بإصلاح هام في الديرية في القرن العاشر الميلادى في فرنسا وألمانيا، وأصلح مجموعة من رجال الدين على رأسهم القديس دنستان الكنيسة والأديرة في إنجلترا طبقاً للنظم الكولونية، فلم تمض سوى فترة قصيرة حتى شهد غرب أوربا إصلاحاً ديرياً وكنسياً كبيراً [٤١] ، واستكمل عدد كبير من رجال الدين في القرن الحادى عشر إصلاح أوضاع الكنيسة كلها وتوحيد نظامها وإخضاعها لسلطة مركزية قوية ،فالتمسوا القيادة من البابوية وساعدهم في ذلك بعض الرجال المخلصين من الحكام، فكان لهذه الحركة آثارها البالغة الأهمية، وامتد حدود تأثيرها إلى بقية أنحاء الغرب الأوربى [٤٢] .

وفي هذا الإطار جرت محاولات للتخلص من نفوذ السلطة العلمانية في انتخاب البابا بعد أن غدا انتخاب البابا موضع تنافس الأسرات العريقة في روما ونبلائها، وما كان يستتبع ذلك من فوز هذه الأسرات بالمناصب العليا في الكنيسة، ولهذا جدت البابوية للتخلص من كل هذه المعوقات منذ منتصف

(٣٩) العرينى : المرجع السابق ص ٤٤٧ – ٤٤٨
(40) Southern : op. cit. p. 98
(41) Camb. Med. Hist. Vol. 5, pp. 662 – 4
(42) Coulton : Med. Village , p. 210
Baldwin : Med. Church , pp. 34 – 6 , p. 41

القرن الحادى عشر الميلادى،باعتبارها مصدر جميع السلطات السياسية والدينية (٤٣) .

كما أبدى مصلحو الكنيسة أيضاً اهتماماً كبيراً بموضوع زواج رجال الدين ، فقد كان زواج رجال الدين شائعاً حتى ذلك الوقت (٤٤) ، بل توارث أبناؤهم المناصب الكنسية بل تمادى بعض رجال الدين في ذلك، فاتخذوا السرارى والمحظيات ولم يعبأوا بما كان من استهجان الناس وانحدار الأخلاقيات، وترتب على تكوينهم الأسرات انشغالهم بالنواحي الإجتماعية وانصرافهم عن أداء واجباتهم الدينية بل حرص هؤلاء على وضع ايديهم على ثروات الكنائس وأملاكها لتأمين مستقبل أبنائهم وذريتهم سواء كانوا في نظر الناس شرعيين أم غير شرعيين، ولهذا أصبح الإصلاح ضرورة في جوف الكنيسة وإلزام رجال الدين بالعزوبة قد أصبح فرضاً ليحيا رجال الدين حياة دينية سامية (٤٥) .

فما لبثت الكنيسة أن بلغت على عهد البابا ذائع لصيت جريجورى السابع أو هلدبراند (١٠٧٣ – ١٠٨٥م) شأواً بعيداً، وشهدت مرحلة هامة في تاريخها، لأن هذا البابا ناضل كثيراً لحرمان السلطة العلمانية من اختيار الأساقفة وتقليدهم(٤٦) ، لأن الملك ليس نائباً عن الله في الأرض، لأنه مجرد شخصية علمانية مكلفة بحفظ النظام في المجتمع المسيحى(٤٧) ، وغدت المرحلة منذ بداية النصف الثانى للقرن الحادى عشر الميلادى مرحلة هامة في

---

(43) Camb. Med. Hist. Vol. 6, pp. 650 – 1
(44) Keen : op. cit. pp. 59 – 62
Southern : op. cit. pp. 101 – 104
(٤٥) كانتور : المرجع السابق ق١ ص ٤١٤
(46) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 161
(٤٧) هلستر : أوربا ص ١٨٤

تاريخ الكنيسة الغربية، حتى ليعد جريجورى السابع أعظم بـابوات العصـور الوسطى، بسبب موقفه العنيد من السلطة العلمانية، ومحاولته انتزاع اعتراف الإمبراطورية بسمو البابوية ومركـز البابـا واعتبارهـا مصـدر جميـع السـلطات الدينية والزمنية (٤٨) .

وعلى الرغم من شهرة هذا البابا ومكانته في تاريخ الكنيسة الغربية، إلا أنه أيضاً كان من الشخصيات التى اكتنفها الغموض، والتى أثارت كثيراً مـن الجدل والإعجاب في نفس الوقت، فقد اختلف الـرواة حـول أصولـه واسـرته وهل انحدر من جد يهودى اعتنق المسيحية، أو أنه الرجل الأسمر الذى كان يقف وراء عدد من البابوات في روما، وهل كان مخلصاً فعلاً في ورعه وتقواه أم أنه الرجل المحب للقوة والسلطة(٤٩) ، وما إذا كان فعلاً يكره الإمبراطورية أم كان يؤمن بضرورة التعايش معها، أى التعايش بين الإمبراطوريـة والبابويـة، ولكن الشئ الذى لا خلاف عليـه أنـه منـذ أصبـح عضـواً في هيئـة المجلـس البابوى سنة ١٠٤٥ م حتى اعتلى كرسى البابوية سنة ١٠٧٣م كان من أبـرز المصلحين الدينيين في الكنيسة الغربية (٥٠) .

اعتلى هلدبرانـد كرسـى البابويـة باسـم البابـا جريجـورى السـابع في إبريل سنة ١٠٧٣م ، فبدأت مرحلة هامة في تاريخ الكنيسة الغربية، إذ كان لشخصية هـذا الرجـل التأثير الشـديد في الغـرب اللاتينـى وحماسـة طاغيـة لإصلاح الكنيسـة(٥١) ، فسـمى إصلاحـه بـالإصلاح الهلدبرانـدى أو الإصـلاح الجريجورى، الذى لم يكن كله أفكاراً جديدة بل كان جانب منه إصلاحات

(48) Camb. Med. Hist. Vol. 6, pp. 650 – 1
(49) southern : op. cit. pp. 101 – 3
(50) Keen : op. cit. p. 58
(51) Heer : op. cit. p. 198

سبق المناداة بها مثل زواج رجال الدين، يضاف إلى ذلك هيمنة العلمانيين على الكنيسة التى اعتبرت شراً، وعرفت في ذلك الوقت بالتقليد العلمانى(٥٢)، أى قيام السلطة العلمانية بتعيين رجال الدين في وظائفهم والإنعام عليهم بشاراتهم، فإذا تلقى الأسقف شارته من الملك أو الإمبراطور، اعتبر ذلك تقليداً علمانياً لأنه لم يتلقاها من رئيسه المباشر بالكنيسة بل تلقاها من صاحب السلطة العلمانية، فصار بذلك خاضع لسلطانه(٥٣) وهذا ما اعتبره المصلحون الدينيون من الشرور .

لذلك اتجه جريجورى السابع لإصلاح هذه الشرور: زواج رجال الدين، والتقليد العلمانى، أى تحريم زواج رجال الدين ومنع هؤلاء من تكوين الأسرات(٥٤) ، وكذلك التخلص من هيمنة الدولة على تعيين رجال الدين أى تعيينهم وفقاً للقانون الكنسى وقيام رئيس الأساقفة برسامة الأسقف وتقليده شارات وظيفته الروحية، ثم يجرى تقليده شارة السلطة الزمنية من السيد العلمانى بعد ذلك، دون أن يكون لهذا الأخير دور في اختيار الأسقف أو الموافقة علي تعيينه، أى حرمان السلطة العلمانية من اختيار الأساقفة وتقليديهم (٥٥) .

ولم يكن الأمر هيناً على جريجورى السابع، فلم يكن متوقعاً من رجال الدين الاستجابة لطلب البابا بعزوبتهم ومنعهم من الزواج وتكوين الأسرات، بعد أن ألفوا هذه الحياة على مدى سنوات طويلة وتعودوا على

---

(52) Southern : op. cit. pp. 278 – 9
(53) Camb. Med. Hist. Vol. 6, pp. 650 – 1
(٥٤) كانتور : المرجع السابق ق١ ص ٤١٤
Eyre : op. cit. p. 216
(55) painter : op. cit. p. 161

الحياة الأسرية وإقامة العلاقات الاجتماعية فترة طويلة[٥٦] ، فلم يكن سهلاً عليهم الانصياع بين يوم وليلة لقرار البابا جريجورى السابع، والالتزام بإصلاحه وحدود تعليماته في هذا الشأن، وتطلب الأمر شدة وحزماً كبيراً لإلزامهم بحدود هذا الإصلاح[٥٧] .

أما التقليد العلماني فكان من المتوقع أيضاً ألا يقبل الحكام هذا الإصلاح والتخلى عن سلطاتهم على الكنيسة، لأن ذلك يعنى فقدهم السيطرة على الكنيسة والتفريط فيما بدا أنه حق من حقوق الإمبراطورية، فكان متوقعاً أن يقاوم الإمبراطور دعاوى الإصلاح والمضى في اختيار الأساقفة وتقليدهم شارات السلطتين الدينية والزمنية لممارسة وظائفهم[٥٨] ، وتصادف أن كان الإمبراطور هنرى الرابع (١٠٥٦ – ١١٠٦ م) يتولى عرش الإمبراطورية في ذلك الوقت فضرب عرض الحائط بدعوى الإصلاح الدينى، ومضى قدماً في ممارسة ما كان يمارسه أسلافه الأباطرة في موضوع التقليد العلمانى، ولم يعبأ كثيراً بغضب البابا[٥٩] .

واستند البابا جريجورى في إصلاحه على ما كان للبابوية من سلطة وسيادة في العالم الغربى، وما كان لها من أهمية في قيادة العالم المسيحى كله، فقد اشرف المقر الرسولى على سائر الوحدات الدينية، وقادت البابوية أمر الدفاع عن روما وإيطاليا ضد خطر اللمبارديين من قبل ، وكان للبابوية الهيمنة والسلطة على كل أساقفة إيطاليا[٦٠] ،وهى التى أعادت إنجلترا إلى المسيحية ووقفت في وجه القسطنطينية ودعواها في الاستقلال، وإذا لم تكن

(٥٦) عاشور : أوربا ج٢ ص ٢٣٠
(57) Keen : op. cit. pp. 59 – 62
(58) Brooke : A Hist. of Euope 911 – 1198, p. 171
(59) Stephen : Hildebrand and his times , p. 114
(٦٠) العرينى : المرجع السابق ص ٤٥٤

البابوية قد تمسكت بكل ما كان لها من حقوق فلم يكن ذلك إلا بسبب ما أصابها من فساد واضمحلال وتغليبها الدنيوية ،وبعدها كثيراً من الحق[٦١] .

أما بالنسبة لزواج رجال الدين، فقد اشتدت الرغبة في الأخذ بمبدأ عزوبة رجال الدين لأنه بينما كان التدين ينمو باطراد في شتى أنحاء الغرب الأوربى، ظلت الصفات الخاصة برجال الكنيسة أقل من المطلوب[٦٢] ، وحاولت البابوية حينئذ برغم كل ما قابلته من معارضة من قبل رجال الدين الذين ألفوا حياة الزوجية وتكوين العائلات، وأيضاً من قبل بعيدى النظر الذين خشوا انتشار الزنا والزواج العرفي بين رجال الدين، حاولت البابوية بكل طاقاتها المضى في تنفيذ سياستها[٦٣] ، فعقدت المجامع الدينية المتتابعة أسفرت آخرها سنة ١٠٧٤م – بعد اعتلاء هلدبراند كرسى البابوية بعام واحد – عن إصدار مرسوم يحرم زواج رجال الدين تحريماً تاماً، فيحيا كل منهم حياة دينية سامية وعندئذ عزم البابا على تنفيذ هذا القرار بكل ما أوتى من قوة حتى أنه أمر المتزوجين من رجال الدين بطرد زوجاتهم فوراً[٦٤] .

ولم تجد المعارضة التى تفجرت في أنحاء مختلفة من أوربا عن ثنى البابوية عن عزمها فأكدت سياستها تلك بمجمع آخر في روما سنة ١١٣٩م قرر من جديد مبدأ عزوبة رجال الدين وأن زواج أى منهم يعتبر غير شرعى وتصبح ذريته بعد ذلك أبناء سفاح[٦٥] ، واستطاعت البابوية في النهاية بعد تحقيق سيادتها وسموها، أن تنفذ مبدأ عزوبة رجال الدين تنفيذاً دقيقاً

(61) Heer : op. cit. pp. 323 – 4

(٦٢) كانتور : التاريخ الوسيط ق٢ ص ٤١٤

(63) Keen : op. cit. pp. 58 – 61

(٦٤) عاشور : المرجع السابق ج٢ ص ٢٣١

(65) Eyre : European Civilization , p. 216

شاملاً، بعد أن قام عدد من البابوات بحملة قوية ضد السيمونية وزواج رجال الدين وسافروا إلى كل مكان في أوربا وعقدوا المجالس المحلية Synods وعزلوا رجال الدين الذين ارتكبوا الآثام[٦٦] ، حتى أصبحت أى مخالفة لهذا المبدأ منذ منتصف القرن الثانى عشر خرقاً لمبدأ هام من مبادئ القانون الكنسى[٦٧] .

وقد أسفر هذا المبدأ عن نتائج بالغة الأهمية في الحياة الدينية والاجتماعية في أوربا في العصور الوسطى، إذ زاد من قوة الروابط بين رجال الدين بعد أن كانت العلاقات الأسرية قد أوشكت على القضاء عليها، فضلاً عن أنه رفع رجال الدين في أعين الناس وأنزلهم منزلة سامية في نفوس الأهالى، كما أسفر ذلك عن تحسن ملحوظ في المستوى الأخلاقى والفكرى لرجال الدين [٦٨] .

أما بالنسبة للتقليد العلمانى فقد أصر جريجورى السابع على الرجوع إلى القاعدة القديمة التى تقضى بأنه ينبغى على رؤساء الأساقفة ألا يتلقوا شارات وظائفهم[٦٩] ، إلا من البابا وحده وألزمهم البابا جريجورى السابع أن يحلفوا يمين الولاء للمقر الرسولى في الوقت الذى حرص فيه البابا على إرسال المندوبين البابويين إلى كل الوحدات الدينية لفرض سلطة البابوية من ناحية، والتحقق من تنفيذ أوامر البابا من ناحية أخرى[٧٠] ، أى أن جريجورى السابع حرص على تحقيق سيادة البابوية الدينية بالإضافة إلى سلطتها

(٦٦) هلستر : أوربا ص ١٨٢

(67) Eyre : op. cit. p. 217

(٦٨) كانتور : المرجع السابق ق٢ ص ٤١٢

(٦٩) كانت الشارة عبارة عن شريط طرزت زواياه الأربعة بالصلبان
انظر : العرينى : المرجع السابق ص ٤٥٥

(70) Southern : op. cit. p. 181

الدنيوية ممثلة في قطع الملوك والأمـراء مـن رحمـة الكنيسـة وتوقيـع قـرارات الحرمان عليهم(٧١) .

وتبلور هذا الإصلاح فيما أملاه البابا جريجورى السابع من حقوق في سبع وعشرين مادة عنونـت " الإرادة البابويـة " Dictatus Papae " نصـت على عظمة ومكانة كنيسة روما التى أنشأها الله تعالى وحده وهى معصومة من الخطأ، وحظرت أن يجتمع مجمع دينى إلا إذا اعـترف البابـا بسـلطته وأن البابا لا يمكن محاكمته أمام أحد سوى الله وحده، وأنه وحده صاحب الحق في عزل الأساقفة أو إعادتهم إلى وظائفهم كما أنه الوحيد الذى بإمكانـه عـزل الإمبراطور وإقصائه عن عرشه (٧٢) .

وهكذا بلغت الكنيسة مرحلة هامة في تاريخها في النصف الثـانى مـن القرن الحادى عشر الميلادى، حتى سمى هذا العصر بعصر البابا جريجورى السابع، لأن هذا البابا وقـف موقفاً صلبـاً مـن الإمبراطوريـة لإجبارهـا علـى الاعتراف بسمو البابوية، وبأن هذه البابوية مصدر جميع السلطات السياسـية والدينية (٧٣) .

وقد أدت سياسة جريجورى السـابع فيمـا يتعلـق بـالتقليد العلمـانى بصفة خاصة إلى دخـول البابويـة في صراع طويـل ونـزاع شـديد مـع السـلطة الزمنية ممثلة في الإمبراطورية الرومانية المقدسة ومع الإمبراطور الألمانى هـنرى الرابع المعروف بعناده وسطوته وحرصه على سيادة الإمبراطوريـة وهيبتـها في أملاكها في ألمانيا وإيطاليـا(٧٤) ، والـذى رفـض رفضـاً تامـاً الانصيـاع لمشـيئة

(71) Brooke : op. cit. p. 185

(٧٢) انظر نص هذه الثيقة في كتاب العرينى : تاريخ أوربـا في العصـور الوسـطى ص ٤٦٢

(٧٣) عاشور : المرجع السابق ج٢ ص ٢١٧

(74) Brooke : op. cit. p. 171

البابويـة، فتـهيأ البابـا جريجـورى السـابع لاسـتخدام سـلاح الحرمـان ضـد الإمبراطور بشقيه الحرمان الفردى والحرمان الجماعى إن لزم الأمر، ولم يكن هـذان السـلاحان جديديـن علـى الكنيسـة، فكثيراً مـا لجـأت البابويـة إلى استخدامهما ضد الأفراد والشعوب، أى ضد الحكام أحياناً وشـعوبهم أحيانـاً أخـرى لتنفيـذ مشـيئتها وفـرض سـلطتها[٧٥] ، إلا أن الجديـد في ذلـك أن جريجورى السابع عزم على استخدام عقوبة الحرمان في عنف وقسوة وبطريقة فيها كثير من الإصرار والقسوة لتحقيق أغراضه[٧٦] .

وتتضح خطورة القطع الفردى الذى لجأ إليه جريجورى السـابع ضـد الإمبراطور هنرى الرابع من أن هذا غدا مطروداً من رحمة الكنيسة منبوذاً مـن المجتمع المسيحى كله، لا يسمح لأحد بالاقتراب منه أو التعـامل معـه [٧٧] ، في الوقت الذى يسبب فيه القطع الجماعى لو حدث هلعاً لدى الشعب بأسره بكل فئاته إذ يترتب على توقيعه إغـلاق الكنـائس في وجـه النـاس وإضـراب رجال الدين عن تأدية مهامهم ، والتـى تقـوم بـها الكنيسـة كمراسـم الـزواج والتعميد والشعائر الجنائزية، بالإضافة إلى تحريم ارتباط هذا الشعب المحروم بأى شعب آخـر مـن الشـعوب المسـيحية أى قطـع الروابـط بينـه وبـين بقيـة المجتمع المسيحى كله [٧٨] .

وهكـذا أحسـنت البابويـة اسـتخدام أسـلحتها في وجـه الإمبراطوريـة فتحمس كثير من رجال الدين لوجود مثل هذا البابا القوى في الكرسى البابوى مع رغبة في الاستمرار في إكمال حركة الإصلاح الكنسى، في حين أمل البابا في

---

(75) Southern : op. cit. pp. 102 – 5
(76) Camb. Med. Hist. Vol. 6, pp. 650 –3
(77) Brooke : op. cit. p. 185
(٧٨) عاشور : المرجع السابق ج٢ ص ٢١٧

عطف الناس في جميع أنحاء العالم المسيحى باعتباره رأساً للكنيسة الغربية وأباً روحياً للشعوب المسيحية(٧٩) ، وفي نفس الوقت أصبح هنرىالرابع في موقف لا يحسد عليه خاصة بعد أن وقع عليه البابا عقوبة الحرمان وبادر بعزله من منصبه، إذ لم يكن بوسعه الاعتماد على الجيوش الإمبراطورية التى أثبتت حينئذ عجزها عن إخضاع البابوية وإقرارها بالتبعية للإمبراطورية(٨٠).

وساعد البابوية على نجاحها أن رجال الدين الألمان الذين أمل الإمبراطور في معاضدتهم بعد أن أظهروا تخوفاً من قوة البابوية وسطوتها وأظهروا أيضاً ولاء للإمبراطور إلا أن هذا الولاء للإمبراطور لم يكن إلا ولاءً ظاهرياً، في حين كانت أفئدتهم مع البابوية باعتبارها القوة الروحية في العالم، فضلاً عن كبار رجال الدين الألمان لم يكن يؤمل في كسب عطفهم وتحطيم ما كان قائماً بينهم وبين البابوية من صلات(٨١) .

نجحت اذن البابوية في تحقيق أغراضها في الهيمنة على الكنيسة الغربية وانحصرت مهمتها الرئيسية بعد تحقيق هذا النجاح في تنظيم شئون البابوية والكنيسة الغربية حتى غدت مهمة البابوية منذ منتصف القرن الحادى عشر هى تحقيق السيطرة المركزية للكنيسة أى تدعيم مركز البابا ونفوذه داخل الكنيسة بعد أن حقق البابا سموه بالنسبة للإمبراطورية فأصر البابا على أن تعامل البابوية باعتبارها المرجع الوحيد فيما يختص بشرح أصول العقيدة وكذلك عمل على نمو التنظيم الكنسى الإقليمى ليحد من سلطة الملكية والأمراء الإقطاعيين وتدخلهم في شئون الكنيسة (٨٢) .

---

(79) Keen : op. cit. pp. 58 – 61
(80) Camb. Med. Hist. Vol. 5, p. 68
(81) Durant : The Age of the faith 395 – 1300 , p. 549
(82) Camb. Med. Hist. Vol. 6, pp. 553 - 4

ورأينا كيف ازدادت سلطة رجال الإقطاع في فترات الاضطرابات والضعف وتقلصت في نفس الوقت سلطة الكنيسة وكيف حرص رجال الدين وكبار موظفي الكنيسة على إرضاء السادة الإقطاعيين بتعيين الأساقفة ومقدمى الأديرة الذين يرضى عنهم هؤلاء السادة في الوقت الذى تولى فيه السادة الإقطاعيون تعيين موظفى الكنيسة (٨٣) ، بعد أن غدت الوظائف الدينية الكبرى من صنع رجال الإقطاع مما هدد نفوذ البابوية وحقها في الهيمنة على الكنيسة ، ولهذا أصرت البابوية ايضاً على جعل الإقليم – لا المملكة – الوحدة الأساسية في التنظيم الكنسى ، كما نجحت أيضاً في إخضاع رؤساء الأساقفة في الإقليم لسلطان البابوية المطلق وحرمان رجال الإقطاع من الهيمنة عليهم(٨٤) فلم يكد القرن الثانى عشر الميلادى ينتهى إلا وتحققت سيادة البابوية على الكنيسة كلها في غرب أوربا (٨٥) .

وهكذا بلغت البابوية شأواً بعيداً حين ولى كرسى البابوية البابا ذائع الصيت إنوسنت الثالث (١١٩٨ – ١٢١٦م) في أوائل القرن الثالث عشر الميلادى بعد أن أكدت سمو مركزها بالنسبة للسلطة العلمانية وسيطرت سيطرة تامة على الهيئات الدينية بل أصبح لها النفوذ السياسى الملحوظ (٨٦) . فقد كانت الكنيسة الرومانية هيئة سياسية إلى جانب كونها هيئة دينية ، وجاء ذلك كله انعكاساً لما تمتعت به البابوية داخل الكنيسة الغربية ، فقد اعتبر البابا نفسه نائباً عن السيد المسيح وأعطاه هذا شعوراً دافقاً جعلت هدفه الأعلى أن يجعل من العالم المسيحى كله مملكة يتولى هو حكمها وزعامتها (٨٧).

(٨٣) العرينى : المرجع السابق ص ٤٤٦
(84) Camb. Med. Hist. Vol. 6, p. 557
(85) Eyre : op. cit. p. 204
(86) Keen : op. cit. pp. 58 – 61
(٨٧) عاشور : المرجع السابق ج٢ ص ٢١٩

وترتب على نجاح البابوية في تحقيق أهدافها في السمو والهيمنة على الكنيسة الغربية أن أخذ البابا يعامل ملـوك أوربـا وأمرائـها باعتبـارهم أبنـاء الكنيسة وأنه هو أبوها، أى أنه أدخل غرب أوربا كله داخل نطاق الكنيسـة فمنذ مطلع القرن الثالث عشـر احتلـت البابويـة المكانـة الهامـة في المجتمـع الغربي بشقيه الدينى والدنيوى، فلم يكن البابـا يعتـبر نفسـه زعيمـاً لرجـال الدين والكهنوت فحسـب، وإنمـا اعتـبر نفسـه أيضـاً رأسـاً للعـالم المسـيحى بأسره[٨٨] .

(88) Camb. Med. Hist. Vol. 6, pp. 4 – 5 , p. 34

الباب الثانى

التتار (المغول) وقيام دولتهم في القرون الأخيرة من العصور الوسطى

الفصل السابع : التتار حتى عصر جنكيزخان .

الفصل الثامن: جنكيزخان وإرساء دعائم الدولة .

الفصل التاسع : توسعات التتار في عهد جنكيزخان في آسيا وشرق أوربا

الفصل العاشر: توسعات التتار بعد جنكيزخان (في عهد خلفائه) في العراق والشرق الأدنى وأوربا .

الفصل السابع

التتار حتى عصر جنكيزخان

- من هم التتار ؟
- المنطقة التى عاش فيها التتار .
- ظروفها الجغرافية والمناخية وأهم معالمها .
- أثر البيئة فيما اتصف به التتار من صفات جسمانية ونفسية .
- الأسباب التى دفعت التتار للتحرك من موطنهم .
- معتقدات التتار ودياناتهم .
- علاقات التتار بجيرانهم .
- غزوات التتار في آسيا والنتائج التى ترتبت عليها .
- أحوال منغوليا قبل جنكيزخان .
- ظهور جنكيزخان وبداية عهد جديد في تاريخ التتار .
- أشهر قبائل المغول والتتار وطوائفهم .

التتار من الشعوب التركية التى لعبت دوراً هاماً في التـاريخ ومـن الغزاة الذين روعوا وسـط آسـيا والشـرق الأدنـى وشـرق أوربـا في العصـور الوسطى، وضم التتار في القرن الثامن الميلادى نحو تسع وثلاثـين قبيلـة، شكل قسم منها تسع قبائل وشكل القسـم الثـانى ثلاثـين قبيلـة، واتخـذ المغول اسم التتار خاصة في فترة الفتوحات المغولية في القرن الثالـث عشـر الميلادى[١] ، فعرفوا بالتتار في الصين وفي العالم الإسـلامى وفي روسـيا وفي غرب أوربا، بعد أن أطلق هذا الاسـم علـى أسـلاف جنكيزخـان في زمـن يسبق الفتوحات المغولية، بينما صار اسم المغول يطلق على الشعوب التـى خضعت لجنكيزخان بعد قهرها، ثم لم تلبث لفظة التتار أن غلبت عليها لاسيما في الجهات القريبة من الإمبراطوريـة المغوليـة، بعـد أن كـان لفـظ المغول والتتار يشير إلى طائفتين كانتا تعيشان في الشطر الشرقى مـن آسـيا الوسطى وفي الشمال الغربى من الصين [٢] .

وواضح أن شهرة التتار ذاعت كثيراً أكثر مما صـادف المغـول مـن شهرة، نظراً لأن مضارب التتار كانت تقع على طريـق التجـارة الرئيسـى بين الصين في الشرق وبلاد المسلمين في الغرب، فضلاً عن شدة بأسـهم في الحرب، حتى أجبروا إمبراطور الصين علـى إقامـة سـور الصـين العظـيم ليمنع إغاراتهم المدمرة على ممتلكاته القريبة منهم، وظل لفظ التتار يطلـق على كافة القبائل التى تجاور الصين، وتقطـن الأقـاليم الممتـدة في أواسـط آسيا وذلك حتى ظهور جنكيزخان[٣] . وعلى الرغم من شهرة المغول بعـد

---

(١) بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٣٨٧

(٢) العرينى : المغول ص ٣٤

(٣) أحمد محمود الساداتى : الدول الإسلامية ص ٥٤ – ٥٥

Morgan : The Mongols , p. 56

جنكيزخان فقد ظل صيت التتار القديم هو الغالب، وأطلق أيضاً على المغول أنفسهم في كثير من البلاد[٤] .

ولقد عاش المغول في المنطقة التى عرفت بمنغوليا وهى جزء من الهضبة الآسيوية وعاش التتار على شاطئ بحيرة بويور في أقصى الشرق من منغوليا[٥]، التى كانت تطوقها هى والتركستان سلسلتان من الجبال، سلسلة في الشمال الغربى هى سلسلة جبال تيان شان والتاى، والأخرى وهى الأشهر في الجنوب وهى سلسلة جبال الهيملايا، التى تعرف بسقف الدنيا وهى في تشعبها وتفريعاتها كانت بحق حاجزاً بين القبائل التى لاتزال على البداوة والشعوب المتحضرة في جنوبها[٦].

وهاتان السلسلتان تطوقان منطقة منغوليا والتركستان وتعزلاهما عن بقية أنحاء آسيا، وامتدت هضبة منغوليا التى عاش فيها أغلب قبائل التتار في أواسط آسيا طولاً من جنوب سيبريا حتى شمال التبت وعرضاً ما بين غرب منشوريا وشرق تركستان[٧] .

وتسبب بعد هذه المنطقة عن البحار، فضلاً عن ارتفاعها فوق مستوى سطح البحر ارتفاعاً شديداً في جعل مناخ هذه المنطقة مناخاً شديد القسوة، مناخاً قارياً شديد الحرارة صيفاً قارس البرودة شتاء[٨]، بل إنه

---

(٤) الساداتى : المرجع السابق ص ٥٥ ، ووصف مصدر قديم:
"…. in 1221 described all the Mongols as Tatars, dividing them into Black, White and Wild."
انظر :
Morgan : The Mongols , p. 57

(٥) مصطفى طه بدر : محنة الإسلام الكبرى ص ٧٣

(٦) الساداتى : الدول الإسلامية ص ٥٤

(٧) جمال حمدان : أنماط البيئات ص ٥٤
فايد حماد عاشور : العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ص ٢٧

(٨) العرينى : المغول ص ٦

كان واضحاً في قاريته بين الفصول بعضها والبعض وحتى بين الليل والنهار، والأمطار قليلة بوجه عام، الأمر الذى سبب جفافاً في تلك البقاع، خاصة في أواسط الصيف وأواسط الشتاء، وتفاوتت درجات الحرارة في بعض جهات منغوليا تفاوتاً كبيراً بين شدة الحرارة وشدة البرودة، ولهذا دخلت هضبة منغوليا في نطاق منطقة الاستبس(٩) .

ولم تكن هذه الظروف الجغرافية والمناخية هى السائدة في كل المناطق التى عاش فيها المغول، بل يستثنى من ذلك هضبة التبت، التى تتدرج فيها النباتات حتى تصل إلى نباتات المنطقة القطبية، وكذلك المناطق الجبلية التى تتساقط فيها الثلوج في الشتاء والأمطار في الصيف، ولهذا نمت الأشجار في بعض الجهات لتؤلف نطاقاً من الغابات، وانتشرت المراعى الصيفية الغزيرة في الأحواض العليا وعلى جوانب التلال، فضلاً عن المناطق التى تغطيها الأعشاب شتاء وتجف صيفاً لتتصل بمناطق البرارى والصحراوات في جهات متعددة (١٠) .

وهناك أيضاً أحواض بعض الأنهار مثل حوض نهر التاريم وغيرها من الأحواض التى اشتهرت بعض واحاتها بنشاط تجارى مميز، على الرغم من أن هذه الواحات كانت متناثرة إلى حد بعيد، كما اشتهرت هذه الواحات بوجود بعض المدن على طول طرقها، خاصة في حوض نهر التاريم، الذى كانت تعترضه — على طول امتداده — صحارى وجبال، ولكنه مع ذلك حافظ منذ القدم على اتصال الحضارات، مثل الحضارة الصينية والحضارة الفارسية، وشهد كذلك طريق الحرير وطريق التجار أى الطريق الذى سلكه التجار(١١) والحجاج واجتازته البعثات التبشيرية،

---

(٩) جمال حمدان : المرجع السابق ص ٥٤

(10) Morgan : op. cit. p. 37
(11) Ibid. pp. 33 – 35

فضلاً عن طرق أخرى للرعاة التى وطئتها أقدام المتبربرين على مدى أزمنة طويلة، بالإضافة إلى الطرق التى وطئتها أقدام الفرسان القادمين من منغوليا[١٢] .

وبصفة عامة كانت البيئة التى عاش فيها المغول والتتار بيئة قاسية في ظروفها الطبيعية والمناخية، انعكست آثارها على صفات هذه الشعوب وتكوينهم الجسمي والنفسى وعلى حياتهم ذاتها، فقد كانوا قصار القامة، رءوسهم عريضة، وجباههم مرتفعة بشرتهم صفراء سميكة أنوفهم فسطاء وعيونهم منحرفة وجفونهم ثقيلة[١٣] ، وشعورهم خشنة مرسلة وذقونهم جرداء وسيقانهم مقوسة وأجسامهم ممتلئة[١٤] واتصفوا بالقذارة واعتادوا عليها وأظهروا من العناد والغطرسة والكبرياء ما أخرجهم عن نطاق الشعوب والأقوام المألوفة ، أى أنهم اتصفوا بصفات بدنية ونفسية تناسب البيئة التى عاشوا فيها[١٥] .

وفي نفس الوقت هيأتهم هذه البيئة القاسية ليكونوا فرساناً أشداء ومقاتلين بالفطرة يجيدون فنون القتال[١٦] ، وكان أهالى الاستبس الرحل في آسيا يدخلون الرعب في نفوس أعدائهم وهم على ظهور الجياد، ويصل الأمر بهم إلى أن يناموا وقد أمالوا رءوسهم على أعناق دوابهم، وهم لا يزرعون حقلاً أو يحرثون أرضاً بل هم في تجوال دائم[١٧] ، بل شغل القتال والفروسية كل حياتهم بل اشتق اسم المغول نفسه من كلمة Mong

(١٢) العرينى : المغول ص ٨ — ١٠
(١٣) محمد غلاب : تطور الجنس البشرى ص ٢٩٧
(١٤) فؤاد الصياد : المغول في التاريخ ص ٧ ، ص ٢٥
(15) Walker : Jenghiz Khan , p. 33
(١٦) براون : تاريخ الأدب في إيران ص ٥٣٣
(١٧) هارولدلام : جنكيزخان ص ٣٩ (ترجمة مترى أمين)

الصينية بمعنى باسل أو شجاع كما يذهب إلى ذلك Schott ، على الرغم من أن هذا الاسم لازال موضع خلاف بين الباحثين[١٨] ، كما أكسبتهم تلك البيئة القاسية الشجاعة والإقدام، وقوت فيهم روح المخاطرة ومنحتهم الجلد والصبر وتحمل الجوع[١٩]، خلال الحروب أياماً، فيكتفون بأقل القليل وعودتهم هذه البيئة القاسية أيضاً تحمل البرد القارس والحر اللافح بعزيمة وهمة لا تفتر[٢٠] ، فضلاً عما منحتهم من جرأة وصراحة في إبداء الرأى والجهر به دون مواربة أو خوف أو نفاق، وقوى المجتمع نفسه هذه النزعة ونماها في الأفراد فصارت من العادات[٢١] .

وعلى مر التاريخ اجتازت الدروب الشرقية في آسيا جماعات جافية في سعيها للحصول على المراعى وطلب الرزق[٢٢] ، والطمع في فرض سلطانها على الجموع الأخرى، وتنازع الترك والمغول وتخاصموا لتوفير المراعى لقطعانهم والهيمنة على المساحات الشاسعة التى تهئ للفرسان ما يلائم نشاطهم وما يوفر لهم الحياة التى تناسبهم، وتهيئ للبدو الرعاة وجموع الاستبس ظروف الحياة التى يبتغونها، ويعد هبوط الرعاة من مضاربهم وارتحالهم إلى جهات أخرى قاعدة طبيعية وأمرا مألوفاً عبر الحقب التاريخية المختلفة خاصة وأن منغوليا تدخل في نطاق منطقة الاستبس [٢٣] .

(١٨) العرينى : المغول ص ٣٩

(١٩) هارولدلام : المرجع السابق ص ١٠

(20) Howorth : Hist. of the Mongols , Vol. 1 , p. 18

(٢١) مصطفى طه بدر : محنة الإسلام الكبرى ص ٩٥

(22) Morgan : op. cit. p. 33

(٢٣) جمال حمدان : أنماط البيئات ص ٥٤

وفي هـذا الإطـار تـدفقت الجمـوع الجافيـة مـن منـاطق منغوليـا والتركستان على الجهات المجاورة عبر القرون، حيث لفظت هذه المناطق وما حولها جموع الهون الذين نفذوا إلى جنـوب شـرق أوربـا قـادمين مـن أواسط آسـيا عـبر الـبرارى والسـهوب الآسـيوية في أواخـر القـرن الرابـع الميلادى[٢٤] ، وتركزت هجماتهم في القرن الخـامس المـيلادى علـى شـرق أوربا ووسطها[٢٥] ،ثم تدفقت جموع الآفار علـى أوربـا في القـرن السـادس الميلادى، وبعدهم الخزر الترك في القرن السابع الميلادى[٢٦] ، ثـم الخطـا المغول في القرن العاشر الميلادى والبجناك الترك في القـرن الحـادى عشـر الميلادى، ثم الكومان الترك في القرن الثانى عشر الميلادى، ثم بعـد ذلـك جميعاً مغول جنكيزخان في القرن الثالث عشـر المـيلادى، بعـد أن نجـح جنكيزخان في إضفاء الصفة المغولية على كثير مـن القبائـل التركيـة قبـل إقدامه على اجتياح الجهات المجاورة [٢٧] .

ولاشك أن ما كانت تمارسه هذه الأقوام البدويـة مـن ضـغط علـى الإمبراطوريات المتمدينة القريبة منها خاصة في الجنـوب ، قـد تطـور إلى غارات للضم والتوسع على يد هؤلاء المتبربـرين الـذين ظـل جانـب كـبير منهم يعيش على الصيد في الغابات والصيد في الأنهار والبحيرات والرعـى في المراعى[٢٨] ،وظل جانب آخر منهم قابعين في مناطق الغابات والمراعـى حتى القرن الثانى عشر الميلادى منعزلين في موطنهم دون أن تكون لديهم

(24) Ammianus Marcelinus : The Huns , pp. 576 – 79. Trans. by yong. In Med. World by Cantor, p. 68

(25) Bury : Hist. of the Roman Empire, Vol. 1 pp. 291 – 4

(26) Dunlop : the Hist. of the Jewish Khazar, p. 44

(27) Morgan : op. cit. p. 137

(٢٨) رالف لنتون : شجرة الحضارة ج٢ ص ١٦٩

فكرة عن الجهات الأخرى، وفرضت البيئة على جانب ثالث منهم من سكان الصحارى والاستبس عادات وتقاليد خاصة، لاسيما فيما يختص بتوزيع المراعى واقتسام المياه، وهى الأمور التى حددت مجال طوافهم في فصول السنة المختلفة، الأمر الذى تطور إلى غارات على المناطق المجاورة[٢٩]، خاصة عند اشتداد الجفاف في فصل من الفصول وتقلص المراعى بسبب ذلك، وتلك كانت هى أسباب الترحال والغزو والتوسع.

ولقد مارس المغول أجداد جنكيزخان الرعى وكذلك الصيد في سهوب وغابات آسيا في منطقة منغوليا[٣٠] والتركستان فدخلوا بالتالى في نطاق شعوب السهوب الذين تغلب عليهم سمة البداوة ويحترفون الرعى، وكان عليهم أن يتغلبوا على مصاعب الصحارى المترامية الأطراف وأن يجتازوا الجبال وأن يعبروا البحار والأنهار وأن يقهروا قسوة المناخ وأن يصبروا على ما تفشى فيهم من أوبئة ومجاعات ، ولهذه الأسباب حدثت الحركات المنتظمة للرعاة أولاً داخل مواطنهم، ثم طورت إلى إغارات على البلاد المجاورة لحدودهم[٣١].

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أدت عزلة العالم التركى المغولى بسبب ما كان يحيط بمنغوليا والتركستان من سلاسل جبلية، أن انفصل هذا العالم عن بقية أنحاء آسيا وأجبر على مواجهة ظروفه الصعبة ومواجهة أقداره ومحاولة التواؤم مع ما كان يعيشه من ظروف طبيعية قاسية[٣٢]، هذا فضلاً عما أحدثه وقوع نهر سيحون بين هذا العالم التركى

(٢٩) العرينى : المغول ص ١٢

(30) Morgan : op. cit. p. 32

(٣١) العرينى : المرجع السابق ص ١٣

(٣٢) مصطفى طه بدر : محنة الإسلام الكبرى ص ٤٩

المغولى والعالم الإسلامى من عزل هـذا العـالم وفصـله عـن جيرانـه سـكان البلاد الإسلامية، وإن أدى ذلك إلى محافظـة المغـول الـترك علـى تقاليـد عنصرهم وتشبثهم بالوثنية والبوذية[٣٣].

ويشير المؤرخون إلى أنهـم لم يعرفـوا في البدايـة دينـاً واضـحاً، أو يؤمنوا بعقيدة معينة، نظراً لما عاشوه من بداوة وغزلة في منغوليا، ونظـراً للظروف التى عاشوها وقسوة الطبيعـة حـولهم وجفـاف البيئـة وجـبروت الطقس وفقر الصحارى، التمس المغول قوة تحميهم من الأخطار وتمـنحهم مـا كـانوا في حاجـة إليـه مـن وسـائل العـيش وترعـى مـا يملكـون مـن حيوانـات[٣٤]، فسـجد بعضـهم للشـمس عنـد شـروقها، وعظـم بعضـهم النجوم وعبدوها، ومنهم من عبد النار ومنهم من قدس أرواح الأجداد[٣٥]، وانعطف بعضهم إلى الشامانية، وهـى ديانـة وثنيـة بدائيـة وان اشـتملت على فكرة البعث والحساب ولكن بطريقة مختلفة[٣٦].

وكانت هذه فرصة لانتشار السحر والشعوذة وتغلب الخرافات، فظهرت طبقة من الكهـان والسـحرة مـن الشـامان وسـيطروا علـى عقـول البسطاء وغدت لهم بمرور الوقت مكانة لدى الحكام، ثم انتشرت البوذية لديهم بالاتصال بالصينيين في الشرق وقبائل الأويغوريين في الجنـوب[٣٧]. ويشير المؤرخون إلى أن المغول انتقلوا بذلك من تقـديس قـوى الطبيعـة إلى عبادة الأوثان، خاصة تلك التى أقيمت لبوذا وجرى عبادتها تزلفا [٣٨].

---

(33) Morgan : op. cit. p. 41

(٣٤) مصطفى طه بدر : المرجع السابق ص ٥٦

(٣٥) انظر : ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ج٥ ص ٥٤٢ ، ابن الأثير :الكامل ج١٢ص ١٣٨، القرمانى أخبار الدول وآثار الأول ص٢٨٣،ابراهيم العدوى العرب والتتار ص٢٧.

(٣٦) بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ١٨٦

(٣٧) بارتولد : تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى ص ٥٤٢

(٣٨) محمد ماهر حمادة : وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولى ص ٦٥

ثم عرف المغول بعد ذلك عقائد أخرى اختلفت عن وثنية الشامانية وأصنام البوذية، فقد نفذت إليهم المسيحية والإسلام، لكنهم لم يولوا اليهودية أى اهتمام(٣٩)، ولم يكن انتشار المسيحية ثم الإسلام بين المغول أمراً سهلاً وإنما احتدم التنافس بينها وبين الشامانية والبوذية فترة طويلة، حتى نفذت إليهم في النهاية واعتنقها فريق منهم (٤٠)، على الرغم من أن انتشار المسيحية النسطورية جرى بين بعضهم من فترة وكذلك تأثروا إلى حد ما بالحضارة الصينية، ولخص المؤرخ دوسون Dohsson ذلك كله بقوله أنهم لم يكونوا يؤمنون بدين في البداية لأنهم عبدوا الشمس عند شروقها ولم يعرفوا حراماً أو حلالاً، وأكلوا لحوم الحيوانات على اختلافها حتى الكلاب والخنازير وغيرها .

وهكذا كانت منطقة منغوليا والتركستان وشعوبها، فلم تكن سوى مستودعاً للأمم مثلها مثل اسكندريناوة في أقصى شمال أوربا، إذ خرج المتبربرون من منغوليا والتركستان إلى بقية أنحاء آسيا والشرق الأدنى وروسيا وشرق أوربا(٤١)، مثلما خرج الجرمان فدكوا عرش الإمبراطورية الرومانية الغربية، وأقاموا الممالك الجرمانية في أنحاء أوربا، وأسهموا في صنع التاريخ الأوربى في العصور الوسطى(٤٢)، وكان هبوط الجموع من الاستبس سبباً في إقامة الإيلخانات والسلطنات في جهات متعددة من آسيا والشرق الأدنى وشرق أوربا .

---

(٣٩) بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ٦٤

(٤٠) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ١٩٠

(41) Dunlop : op. cit. p. 10

(٤٢) محمد الشيخ : تاريخ أوربا في العصور الوسطى ص ٨٧

وكان المغول قبل جنكيزخان قد انعزلوا كثيراً عما حولهم في منطقة منغوليا وما حولها باستثناء ما أقاموه من علاقات قليلة مع الصين في فترات متفاوتة، أو ما أقاموه من علاقات مع بعض القبائل التركية الرعوية، خاصة تلك التى زاحمتهم في المراعى الفقيرة وشاطرتهم الماء القليل في تلك البقاع، لأن المغول والتتار في تلك الفترة كانوا رعاة وصيادين في مجموعهم تخلفوا كثيراً عن ركب الحضارة، بل كانوا أميين لا يعرفون القراءة أ الكتابة، ولا علم لهم بالدواوين شأنهم في ذلك شأن الرعاة في المناطق الأخرى (٤٣).

ثم عرفت منغوليا في ظل جنكيزخان الوحدة بعد أن أعلن هذا نفسه خاقاناً أعظم في أوائل القرن الثالث عشر الميلادى، وسيداً على كل القبائل الرعوية في منغوليا، خاصة وأنه كان إذ ذاك شيخاً قد تعدى الخمسين من عمره حنكته تجارب الحياة، وجاء انتصاره على القبائل المناوئة خاصة من القبائل التترية وغيرها من القبائل التركية سبباً في انضمام قبائل أخرى طواعية ودون حرب(٤٤). ومن هنا اتخذ المغول اسم التتار — كما سبق أن أشرنا — وللأسباب سالفة الذكر التى أشرنا إليها، فمنذ زمن الفتوحات في عهد جنكيزخان بدأ اسم التتار يغلب على الشعوب التى دانت لهذا القائد خلال توسعاته في الغرب(٤٥).

وكان خطر التتار أوضح في آسيا منه في أوربا، فلم يبلغ من الشدة في أوربا ما بلغه هذا الخطر في آسيا، فقد دمر التتار بغداد، وأزالوا الخلافة العباسية، قرب منتصف القرن الثالث عشر الميلادى واستأصلوا

---

(٤٣) رالف لنتون : شجرة الحضارة ج٢ ص ١٦٩

(٤٤) بارتولد : تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى ص ٥٦٣ — ٥٦٤

(٤٥) الساداتي : الدول الإسلامية ص ٥٤ — ٥٥

شأفة الأسرة الحاكمة في شمال الصين قبل ذلك بنحو ربع قرن من الزمان، وهيمنوا على جنوب الصين، واجتاحوا خوارزم وفارس وكل المناطق المجاورة، وأقاموا لهم حكماً في الهند امتد نحو ثلاثة قرون(٤٦)، وإن أظهر حكامهم في الهند كراهيتهم للأصل المغولى.

ولم يكن غزو التتار كله شراً، على الرغم مما أحدثه من تدمير واعتداء على الحضارة والمدنية فقد اعقب هذا الغزو حركة إحياء ضخمة انبعثت من بين أنقاض وآثار الحضارة التى دمرتها الغارات المتبربرة(٤٧)، إذ ترتب على سقوط بغداد في أيدى هؤلاء المتبربرين أن انتقل مركز الدراسات الإنسانية إلى مصر، وتفرق العلماء والأدباء في أنحاء العالم الإسلامى، فأضاف ذلك إلى الحركة العلمية في الجهات التى حلوا بها، وجاء انتعاش الحركة العلمية في مصر وبعض البلاد الإسلامية الأخرى منهلاً أفاد العالم الغربى الذى كان معنياً في ذلك الوقت بعلوم الشرق وثقافاته(٤٨).

في الوقت الذى أحدث فيه هذا التوسع التترى تطورات بالغة الأهمية في آسيا ونتائج ملحوظة في تلك القارة، فقد جرى توحيد أجزاء واسعة من آسيا، كفل لها هذا الغزو السلام والأمن في تلك الإمبراطورية المترامية الأطراف، وغدت طرقها آمنة مفتوحة يطمئن التجار والمسافرون إلى اجتيازها، بالإضافة إلى أن عدم اكتراثهم بأمور العقيدة أو الدين(٤٩)

---

(٤٦) الساداتى : نفسه ص ٥٣

(٤٧) العرينى : المغول ص ٢٥ — ٢٦

(48) Camb. Med. Hist. Vol. 8, p. 667

(49) Morgan : op. cit. pp. 41 – 48

قد جعلهم يظهرون روحاً غاية في التسامح الدينى أو ما فسر بأنـه تسـامح دينى، فضلاً عما ترتب على هذا الغـزو مـن تغـيرات اقتصـادية واهتمـام بالطرق والتجارة واستخدام النقود الورقية وغير ذلك مـن التطـورات التـى شهدتها تلك القارة في ظل التتار[٥٠] .

وتشير الدلائل إلى أن الجانب الأكبر من منغوليـا قـد شـهد حالـة بالغة الشـدة مـن الاضـطراب والهمجيـة قبـل جنكيزخـان بسـبب تنـازع القبائل واندلاع الحروب بينها[٥١] ، بلغـت الـذروة قـرب منتصـف القـرن الثانى عشر الميلادى، حين تمزقت الروابط السياسية والإجتماعية بسبب الفوضى التى استمرت طويلاً، ولما حدث من تنازع بين قبائل المغول، وما حدث من تنافس على مـواطن الرعـى بـين مختلـف العشـائر، ويبـدو أن جنكيزخان قد قام بمحاولات كثيرة بعد وفـاة والـده لجمـع شـتات تلـك العشائر والقبائل، ومنع ما كان يجرى بينها من حروب [٥٢] .

وقدم المؤرخ رشيد الدين صورة بالغة السوء للمجتمع المغولى في تلك الفترة أشار فيها إلى ما حدث من انعـدام الأمـن في كـل مكـان، وانتشـار قطاع الطرق والمتمردين فلم يعد أحد يأمن على نفسه أو قطعانه من المـوت أو السرقات، فقد انتشر اللصوص في كل مكان، واستفحل أمر الخـارجين على العرف والتقاليد، ولم يظهر الأغنياء ميلاً للوقوف إلى جانـب رؤسـاء القبائل أو مساعدتهم وحتى المجتمع نفسه لم يعـد كمـا كـان، فلـم تعـد النساء يوقرن أزواجهن ولا عاد الصـغار يسـتجيبون للكبـار، بـل لم يعـد الأطفال يطيعون آباءهم وأمهاتهم [٥٣] .

(٥٠) العرينى : المغول ص ٢٧

(51) Walker : op. cit. p. 33

(٥٢) فؤاد عبد المعطى الصياد : المغول في التاريخ ص ١٧ — ١٨

(٥٣) العرينى : المرجع السابق ص ٣٩

كما تشير الدلائل أيضاً إلى أنه قد جرت محاولات لتوحيد القبائل المغولية قبل عهد جنكيزخان، ولكنها كانت محاولات باهتة، ونظراً لأن التتار كانوا معروفين منذ القرن السادس الميلادى، فقد اتخذ المغول اسمهم، لما كان للتتار من شهرة سابقة على ظهور المغول[٥٤] ، فلم تبدأ شهرة هؤلاء المغول إلا في القرن الثانى عشر الميلادى، بالإضافة إلى ما كان للتتار من قوة كانت مصدر تهديد لملكة الصين الشمالية، ولمن جاورهم من أقوام في الوقت الذى حلت فيه الفوضى والاضطراب بين قبائل المغول، بسبب ما كان بينها من نزاع مستمر وحروب دائمة[٥٥].

وأسفر اتحاد قبائل المغول في النصف الأول من القرن الثانى عشر، وظهور الملكية الأولى للمغول عن نهوض هذه الملكة وازدياد قوتها، فلما جرت المشاحنات بينها وبين مملكة الصين واندلعت الحرب بينهما سنة ١١٣٥م حلت الهزيمة بجيش الصين [٥٦] وحدد هذا التاريخ بداية نهوض المغول خاصة بعد أن سادوا قبائل التتار النازلين على الضفة الجنوبية لنهر كيرولين بعد معارك عديدة اشترك فيها والد جنكيزخان الذى أشارت الروايات إلى أن اسمه يسوكاى بهادر [٥٧]، الذى ابلى بلاء حسناً جعله يخلد هذا الانتصار بأن أطلق على ابنه المولود اسم أحد قادة التتار الذين صرعهم وهو الابن الذى عرف بعد ذلك باسم جنكيزخان [٥٨]، قائد وزعيم التتار بعد أن عرف المغول بهذا الاسم الجديد .

---

(٥٤) الساداتى : الدول الإسلامية ص ٥٤ — ٥٥
عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية في إيران ص ١٧.
(٥٥) فؤاد عبد المعطى الصياد : المغول في التاريخ ص ٦ — ٧
(٥٦) عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية في إيران ص ٣٨
(٥٧) القلقشندى : صبح الأعشى ج٤ ص ٣٠٥
(٥٨) فايد جماد عاشور : المرجع السابق ص ٢٨

تبع ذلك تداعى مملكة المغول الناشئة وسيطرة التتار، وما أصبح لهم من النفوذ والسلطان، بفضل مساندة أسرة كين بالصين الشمالية، وبفضل ما وصلت إليه جيوش التتار من قوة حتى صار التتار مصدر خطر على أسرة كين نفسها فلم يسع هذه إلا أن تنقلب عليهم(٥٩) ، في الوقت الذى صار لجنكيزخان الهيمنة على قبائل المغول فهيأت أسرة كين الفرصة لجنكيزخان للإنتصار على التتار فضلاً عما لجأ إليه جنكيزخان من محالفة طغرل زعيم الترك الكرايت في الغرب، فأفاد جنكيزخان من هذا التحالف في تدعيم مركزه وإقرار الأمور في مملكته (٦٠) .

وعلى رأس مشروعات جنكيزخان في ذلك كان مشروع تصفية التتار والقضاء على قوتهم، فانتهز زعيم المغول فرصة إرسال إمبراطور الصين جيشاً لمحاربة التتار ــ وانتظر حتى تقهقر التتار أمام ضغط الصينيين، وانقض المغول على التتار من الخلف مدعمين بحلفائهم من قبائل الكرايت، فحطموا قوة التتار وأجبروهم على الخضوع(٦١) ، ثم أمر جنكيزخان أن يقتل التتار جميعاً ولا يبقى منهم أحد فراح المغول يجهزون على كل من يصادفهم من التتار حتى النساء والأطفال وبقروا بطون الحوامل ولم يفلت منهم إلا القليل (٦٢) .

ويبدو أن جنكيزخان كان يهدف من هذه المذبحة تصفية عدو اعتقد أنه يمكن أن يسبب له مشاكل في المرحلة التالية، وتأمين جيوشه

---

(٥٩) العرينى : المغول ص ٤١

(60) Walker : op. cit. p. 34

(٦١) هارولدلام : جنكيزخان وجحافل المغول ص ٥٨

(62) D'Ohsson : Histoire des Mongols, Tom 3, p. 372

من الخلف، إذا فكر في الإتجاه شرقاً نحو أملاك الصين أو غرباً تجاه أملاك المسلمين [٦٣].

وما كان من اتخاذ المغول اسم التتار بعد ذلك إلا إحساساً من جنكيزخان من أنه صفى هذا العدو القوى وورث أرضه وأملاكه وكذلك اسمه الذى كان أكثر ذيوعاً من اسم المغول[٦٤] للأسباب التى أسلفناها، فضلاً عن أن جنكيزخان نفسه أطلق عليه في البداية اسم تيموجين وهو اسم أحد قادة التتار الذى صرعه والد جنكيزخان، وأطلق اسمه على ابنه المولود، تخليداً لذكرى انتصاره من ناحية، ولإكسابه مهابة وعظمة من ناحة أخرى، وعلى هذا كان اسم التتار أكثر قبولاً لدى المغول في ضوء هذه التفسيرات وبحكم هذه الأحداث التاريخية التى أشرنا إليها، وكان أن أقبل كثير من المغول على الزواج من بنات التتار فأسفر هذا عن نسل جديد يضم كبار قادة المغول وزعمائهم[٦٥].

وممن اشترك مع جنكيزخان من طوائف المغول ذكر المؤرخون: قيات وهى قبيلة جنكيزخان، ولم تكن من القبائل كثيرة العدد، لكن شهرتها ذاعت بعد قيادة جنكيزخان لها. أويرات Oirat وهى من القبائل كثيرة العدد، وكان لها لهجتها الخاصة دون القبائل المغولية الأخرى[٦٦]. النايمان وكانوا من الأتراك الذين غلب عليهم الطابع المغولى، وكانوا بدواً رحل ودان بعضهم بالمسيحية النسطورية وتكلموا اللغة المغولية، وتشابهت عاداتهم وتقاليدهم مع عادات وتقاليد المغول.

---

(٦٣) العرينى : المغول ص ٤٠

(٦٤) عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية في إيران ص ١٧

(٦٥) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ ج١ ص ٦٢-٦٣ (تحقيق بهمن كريمى)

(٦٦) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ١٣

الكرايت Kerait ، وهم شبه بدويين وينتمون إلى أصول تركية ودان بعضهم بالمسيحية النسطورية وكانوا من أقوى قبائل المغول، وأصاب ملكهم طغرل شهرة كبيرة[٦٧]، وساعده يسوكاى والد جنكيزخان في حروبه فصار أقوى ملوك ورؤساء القبائل في منغوليا. المركيت وهم من المغول وكان لهم جيش قوى ومالوا كثيراً إلى إحداث الشغب والفتن، ولهذا دخل جنكيزخان معهم في حروب حتى أمر بالقضاء عليهم تماماً فلم ينج منهم إلا القليل[٦٨]. التتار وكانوا قبائل كثيرة أحرزوا شهرة كبيرة أكثر من المغول، وكانت لهم صلات بالمسلمين، كما كان من بينهم من اعتنق الإسلام، وكانوا أكثر قبائل الجنس الأصفر بطشاً وجبروتاً وأكثرهم رفاهية وتنعماً وثراء[٦٩].

---

(٦٧) العرينى : المغول ص ٤٧

(٦٨) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ المجلد الأول ص ٧٣
وانظر عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ١٥

(٦٩) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ ج١ ص ٦١

الفصل الثامن

جنكيزخان وإرساء دعائم الدولة

- مولد تيموجين (جنكيزخان) ونشأته وحياته و أسرته بعد وفاة والده يسوكاى زعيم قبيلة قيات المغولية .
- مواهب تيموجين الكثيرة وشخصيته القيادية .
- خطواته السياسية الأولى تجاه القبائل في منغوليا .
- اختياره خانا على المغول ليعيد الوحدة للقبائل المغولية ،وإسناده الوظائف الهامة لمعاونيه .
- تأكيد زعامته على القبائل الأخرى .
- المرحلة الهامة في حياة جنكيزخان ابتداء من سنة ١٢٠٦ م .
- مجتمع وجيش المغول و أسباب انتصارهم في الحروب والياسا .
- حروب جنكيزخان في الصين.



أشرنا من قبل إلى أن والد جنكيزخان ويدعى يسوكاى الذي كان زعيما لقبيلة قيات المغولية كان غائبا عن مضاربه يقاتل التتار ، وقت ولادة ابنه، وذلك بعد منتصف القرن الثاني عشر الميلادي بسنوات قليلة، ذهب بعض المؤرخين إلى أن ذلك جرى سنة ١١٥٥ م ،وذهب البعض الآخر الى أنها جرت سنة ١١٦٧م[١] ،أى أن يسوكاي لم يحضر مولد ابنه لانشغاله بحرب مع قبائل التتار .

وتذكر الروايات أن يسوكاى قد أبلى بلاء حسنا في تلك الحرب مع التتار،وصرع زعيما لهم يدعى تيموجين[٢] فلما عاد الى أهله منتصرا فوجئ بأن زوجته قد أنجبت له ابنا فتراءى له ان يخلد انتصاره على التتار بأن أطلق اسم زعيمهم المقتول (تيموجين) على ابنه المولود[٣] . وهو المولود الذي سيكون له شأن كبير بعد ذلك وسيصبح زعيم قبائل المغول ويحمل اسم جنكيزخان .

وكان هذا المولود الذي سماه والده باسم تيموجين موضع اهتمام والده يسوكاى فكان يصحبه معه في رحلاته ، وصحبه معه وهو في التاسعة من عمره لزيارة أخواله ،فالتقى أثناء الرحلة بزعيم قبيلة القنقرات المغول ،الذي أعجب كثيرا بالطفل تيموجين ،وتنبأ له بمستقبل عظيم وعزم على أن يزوجه من ابنته عندما يكبر فلم تكن ابنته تتجاوز

---

(١) عبد السلام فهمي : تاريخ الدولة المغولية في إيران ص٣٠.
Morgan: op. cit.p.55

(٢) تعنى الصلب الفائق ،ومن معانيها أيضا الفارس الكامل.
انظر العريني :المغول ص٤٣ .

(3) Morgan: op.cit.p.57

العاشرة من عمرها في ذلك الوقت [٤] . وبعدها قفل يسوكاى راجعا الى أهله، غير انه ما لبث ان توفي في طريق عودته، وقيل أن التتار هم الذين دسوا له السم فمات لتوه سنة ١١٧٦ م بعد حياة حافلة في قيادة قبيلة قيات وقبائل المغول [٥].

وكان يسوكاى قد نجح قبل وفاته في جمع عدد من قبائل المغول تحت زعامته وحصل منها على الولاء له باعتباره زعيم قبيلة قيات ، فلما توفي يسوكاى ظهرت أحقاد هذه القبائل و أعلن خصومه من زعماء هذه القبائل عداءهم لابنه تيموجين ،وعارضوا رغبته في خلافة والده في الزعامة، ويعلل المؤرخون تلك الأحقاد بسبب ما حققه يسوكاى من انتصارات خلال فترة زعامته [٦] ، وكانت اكثر القبائل حقدا وكراهية لتيموجين هى قبيلة التايجوت التي أظهرت عداءا شديدا لذلك الشاب وأنكرت عليه طموحه لخلافة والده في الزعامة .

لهذه الأسباب بدأت أحوال أسرة تيموجين تسوء يوما بعد يوم، ومر تيموجين ووالدته وإخوته بظروف غاية في الصعوبة وساءت أحوالهم المعيشية يوما بعد يوم خاصة وأن اكبر الأبناء كان لا يزال صغيرا [٧]، وتذكر الروايات ان أرملة يسوكاى وتدعى يولون جاهدت كثيرا لتحصل على الزاد الضروري لهذه الأسرة .مما يؤكد انصراف الناس عنهم وحرمانهم من أى مساعدة ممن حولهم ،حتى قيل أن هذه الأرملة كانت تلتقط لهم الثمار ،وما يمكن أن تحصل عليه مما تخرجه الأرض ، وما

(٤) هارولد لام : جنكيزخان وجحافل المغول ص١٣-١٤ (ترجمة مترى امين)
(٥) العرينى : المغول ص ٤٤

(6) Morgan: Op. cit. p. 59

(٧) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ٣٠

تجود به البيئة لاسيما من حصيلة الصيد من الأنهار ،ولم يزد ذلك كله الأسرة إلا إصرارا على الحياة وصبرا على المكاره[٨] وقد جبلوا على مجابهة مثل هذه الصعاب في البيئة التي عاشوا فيها ،في الوقت الذي راحت فيه تلك الأرملة تعمل على لم شمل الأسرة من أبناء يسوكاى الأشقاء وغير الأشقاء لمجابهة ما يطرأ من ظروف [٩]من ناحية واستعدادا لما يمكن أن تقوم به قبيلة التايجوت من ناحية أخرى .

وعلى الرغم من هذه الظروف ووسط ما تعرضت له أسرة تيموجين من مصاعب ، لم تتردد قبيلة التايجوت في شن غاراتها على هذه الأسرة مبدية رغبة محمومة لإذلالها والحط من قدرها ،حتى اضطرت هذه الأسرة إلي الاتجاه نحو المناطق الجبلية للنجاة بأنفسهم ،وكان لذلك أثره الكبير في نفس تيموجين وتكوينه النفسي والجسدي،وقدرته على مجابهة مختلف الظروف [١٠]،حتى ذهبت الروايات إلى أن الأسرة لم تكن تملك سوى تسع أفراس نجح المغيرون من قبيلة التايجوت في الاستيلاء على ثمان منها،فاضطر تيموجين إلي مطاردة المغيرين لاستخلاص الأفراس من أيديهم ،وأظهر شجاعة وبراعة في ذلك بمساعدة شاب يدعى بورتشو،حتى نجح في إجبار الأعداء على التخلي عن الأفراس، فعاد بها إلى أسرته بمساعدة ذلك الشاب،الذي بدأت الصداقة تربط بينهما لتخط بداية مرحلة هامة في تاريخ هذين الشابين [١١].

وليس من شك في أن تيموجين كان صاحب مواهب كثيرة

---

(٨) هارولد لام: المرجع السابق ص ١٦

(٩) العريني : المغول ص ٤٥

(10) Morgan: Op. cit. p. 60

(١١) هارولد لام : نفس المرجع ص ٢٦

وشخصية قيادية عظيمة بهرت كل من عرفه أو التقى به .ولهذا أمل الكثيرون أن ينجح فيما عزم عليه من استعادة الزعامة وخلافة والده في قيادة القبائل لما ظهر فيه من قوة الشخصية وحسن القيادة (١٢) ،وحبه للعدالة واتزانه وإخلاصه لأصدقائه وحفظه لعهودهم وامتنانه لما يؤدونه من خدمات ،وليس من شك في أن الجانب الأعظم في هذه الشخصية والسجايا التى تميز بها ،إنما كانت بالسليقة وفطرية ،لأنها من صفات الأقوام الرحل وسكان الخيام لاسيما المحبة الشديدة للأصدقاء والكراهية المتناهية للخصوم (١٣).

لم يلبث تيموجين بعد ذلك أن تزوج بورته ابنة زعيم قبيلة القنقرات المغول المقيمين على نهر كيرولين،وهى الفتاة التى كان والده قد عقد له الخطبة عليها(١٤) منذ سنوات فانتقل تيموجين وأفراد أسرته للإقامة بالقرب من منابع نهر كيرولين ، فبدأ نجمه يسطع في سماء المنطقة لاسيما بعد أن نجا من شرور التايجوت وهرب من أسرهم ، ثم أكد قوته ورسوخ أقدامه ودأبه لتحقيق أهدافه(١٥) .

ثم خطا تيموجين بعد ذلك خطوة غاية في الأهمية من الناحية السياسية أبانت عن ذكاء وفطنة حين بذل التبعية لطغرل زعيم الكرايت، للإفادة من دعم هذا الزعيم وتأييده القوى باعتباره من أقوى ملوك الاستبس من ناحية ،وباعتباره في مقام والده من ناحية أخرى، لأنه سبق أن شرب مع يسوكاى نخب الصداقة الأبدية وتعاهدا

(12)Morgan: Op.cit.p.59

(١٣) عبد السلام فهمي :المرجع السابق ص ٣٠

(١٤) هارولد لام : المرجع السابق ص١٣-١٤

(15)Morgan:Op.cit.pp.60-61

على أن يساعد كل منهما أولاد الثانى إذا دعت الحاجة إلى ذلك (١٦)، وكان يسوكاى قد أسهم في تدعيم مركز هذا الزعيم ،حتى صار إلى ما صار إليه من قوة وزعامة . فتوجه تيموجين إلى طغرل المقيم على نهر تولا، وبذل له يمين الولاء وتعهد بأن يكون من أتباعه المخلصين وعامله كما يعامل الابن أباه (١٧)، فأثرت هذه الخطوة تأثيرا طيبا في نفس طغرل وارتاح كثيرا لبذل هذه التبعية ،ووعد بمساندة تيموجين وجمع القبائل التى سبق أن خضعت لوالده من قبل على الولاء له بعد أن طرحت هذه القبائل الطاعة سنوات طويلة بعد وفاة يسوكاى (١٨).

وفي نفس الوقت نجح تيوجين في كسب صداقة رجال كثيرين على المستوى الشخصى لعبوا دورا كبيرا في دعمه وتأييده في الفترة التالية منهم زعيم أحد القبائل المغولية وهى قبيلة جاجيرات ويدعى جاموكا الذى ربطت الصداقة بينه وبين تيموجين فصارا كالأخوين ، إلا أنهما اختلفا بعد ذلك وتنازعا وانفرط عقد التحالف بينهما (١٩) ولكن تيموجين أفاد من ذلك أيضا إذ انحاز كثير من أتباع جاموكا إلى صف تيموجين لما لمسوه فيه من إصرار على الانفراد بالزعامة الكبرى وطموح لبلوغ هذه الزعامة وإصرار على ذلك (٢٠) .

وتذكر الروايات أن القبائل بدأت تسعى لكسب مودة تيموجين وصداقته بل والانضمام إلى حلفه والدخول في طاعته لما ذاع حينئذ من أن الزعامة الكبرى سوف تؤول إليه ،فانحازت كثير من القبائل إليه وكثير

---

(16) Grousset : L Empire Mongol, VIII , pp .48-54

(١٧) هارولد لام: المرجع السابق ص٣٥، ص٥٨

(١٨) العرينى : المغول ص٤٧

(١٩) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص٣٢-٣٣

(٢٠) هارولد لام : المرجع السابق ص٦٦

من العشائر المغولية والتركية فبسط سيطرته على منطقة شاسعة من إقليم منغوليا تمتد حتى صحراء جوبى حيث مضارب عدد كبير من قبائل التتار (٢١)،كما انحاز إليه أربعة أمراء مغول تجرى في عروقهم الدماء الملكية من الذين انفصلوا عن جاموكا خاصة وأن تيموجين كان ينتمى إلى أسرة ملكية قديمة (٢٢).

ثم جرت أهم خطوة في حياة تيموجين بعد ذلك ،حين أجمع الأمراء الملكيون الأربعة على اختياره خانا أعظم على المغول ،واضعين في اعتبارهم انتماءه الى الأسرة الملكية القديمة من ناحية،ومؤملين فيه حسن القيادة من ناحية أخرى ،حتى لتذهب الرواية إلى أنهم بذلوا له التبعية وأكدوا له الإخلاص ،وتعاهدوا على خوض المعارك الى جانبه (٢٣)، بل إنهم تعهدوا بالطاعة له وتقديم كل عون ،فإذا عصوا أوامره أو برموا به حق عليهم العقاب واستحقوا ما ينزل بهم من عقاب، بل أعطوه في هذه الحالة - حق ان يفرق بينهم وبين زوجاتهم ، وينزع منهم متاعهم ويعزلهم ويجعلهم منبوذين ،فالتزموا بما وعدوا به واختاروه خانا أعظم وأطلقوا عليه اسم جنكيزخان (٢٤).

(٢١) عبد السلام فهمى: نفس المرجع السابق ص ٣٢

(22) Morgan : Op. cit. p. 60

(٢٣) العرينى : المغول ص٤٨

(٢٤) أشار مؤرخ المغول رشيد الدين الى ان هذا اللقب الملكى مشتق من لفظة صينية مغولية هى (Tching) التى تعنى القوى ،وأشار مؤرخ صينى الى أنها مشتقة من لفظة تعنى ابن السماء،وفي رواية ثالثة انها اشتقاق صينى يعنى المحارب الكامل .ومن ناحية اخرى تعددت الروايات عن الزمن الذى اتخذ فيه تيموجين اسم جنكيزخان ، ففي رواية انه اتخذ هذا الاسم بعد انتصاره على الكرايت سنة ١٢٠٣م، وفي رواية أخرى انه اتخذه سنة ١٢٠٦م بعد الانتصار على النايمان . انظر العرينى: المغول ص ٤٨، ص٥٤- ٥٥ .

ويبدو أن هذا الانتخاب الذى شارك فيه الأمراء من الأسرة الملكية السابقة كان يهدف بالدرجة الأولي إعادة الوحدة إلى القبائل المغولية، والسيادة الى الأسرة الملكية القديمة أسرة قبيلة قيات التي ينتسب إليها الخان الجديد ،ومحاولة جمع المغول على هدف واحد، وإعدادهم لمحاربة التتار والانتقام منهم تحت قيادة هذا الزعيم الذى أملوا فيه قائدا قويا ومحاربا من طراز فريد ومنظما بارعا ورجلا شديد الاحترام للنظام دقيقا في اختيار أعوانه ومعاونبه [٢٥].

ولم يضع تيموجين وقتا ،بل شرع بعد انتخابه في توزيع الوظائف الهامة على معاونيه سواء الوظائف الحربية أو المدنية فاختار حرسه الخصوصيين من أمهر الرماة وأسند الى آخرين أمر توفير مؤن الجيش وسقاية الجنود وإعداد العربات ،فضلا عمن يشرفون على الخدم وينقلون الأوامر الملكية ، ويحافظون على النظام خاصة عند انعقاد مجلس القبيلة، وكان انعقاد هذا المجلس يعقب الأحداث الهامة ،وفيه تجرى مناقشة أهم الأمور التى تواجه القبيلة [٢٦]، واهتم كذلك بتعيين من يشرفون على رياضة ركوب الخيل ،وأسند الإشراف العام على كل هؤلاء لبعض رفاقه القدامى ،خاصة بورتشو رفيق صباه وصديقه القديم الذى وقف إلى جانبه وهو في أسوا الظروف ،فقد كان تيموجين حفيا بكل أصدقائه ورفاقه القدامى ومن انحازوا إليه وقت الشدة وكانوا أوفياء له[٢٧]

وفي سبيل تأكيد زعامته بدا تيموجين في التغلب على منافسيه،

---

(25) Morgan : Op .cit. p. 61

(٢٦) هارولد لام : المرجع السابق ص٦٤

(٢٧) العريني : المغول ص ٤٩

فهاجم قبيلة التايجوت[٢٨] أعداءه القدامى سنة ١١٨٨م الذين خشوا أن تزداد قوة تيموجين والذين ندموا على أنهم أعطوه فرصة الهرب حين وقع تحت أيديهم من قبل [٢٩]، وعلى الرغم من أن جموع التايجوت كانوا أكثر من ضعف جموع تيموجين ،إلا أنه نجح في إلحاق هزيمة قاسية بهم ،وبلغ من شدته وقسوته انه كان يلقى بالأسرى منهم في أحواض مليئة بمياه شديدة الحرارة ، فألقى بذلك الرعب في قلوب أعدائه ،و أثار الخوف في نفوس الخصوم ، وذاع بين الناس جميعا ما اتصف به هذا القائد من قسوة وغلظة [٣٠] .

غير أنه برغم ذلك كان لا يزال من الناحية الشكلية تابعا من أتباع طغرل ملك الكرايت ،الذى أشرنا من قبل إلى أنه كان يعامله كما يعامل الابن أباه ،ولهذا أفادت هذه التبعية تيموجين كثيرا لأنه بفضل تعاون طغرل معه استطاعا أن يقهرا كثير من القبائل المغولية والتركية الخارجة على طاعتهما [٣١]، وشغلت هذه الحروب السنوات الخمس الأخيرة من القرن الثانى عشر الميلادى ومطلع القرن الثالث عشر الميلادى، فانصاعت كثير من القبائل لهما خاصة قبيلة النايمان التى أغار عليها تيموجين سنة ١٢٠٤م وألحق بها هزيمة قاسية عند جبال التاى وقتل زعيمها واستولى على ممتلكاتها [٣٢]، بعد حدوث خلاف بين زعمائها أضعفها و أوردها هذا المورد وأدخلها في نطاق التبعية للزعيم الجديد[٣٣] .

---

(٢٨) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص٣٢

(29) Morgan: Op. cit. pp. 58 – 9

(30) D'Ohsson : Histoire des Mongols, Tom 3, p. 372

(٣١) العرينى : المغول ص٥٠

(٣٢) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ٣٢ – ٣٣

(33) Morgan:Op.cit.p.56

ويذكر المؤرخون أن ما وقع في منغوليا من أحداث في النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى ،أسهمت في صنعه سياسة أسرة كين في الصين الشمالية بالإضافي إلى عوامل أخرى جرت في منغوليا، إذ درجت الحكومة في الصين الشمالية على سياسة الإيقاع بين قبائل منغوليا وزعمائها فنجحت هذه السياسة في دفع قبائل التتار للتحرش بكثير من أمراء المغول والإيقاع بهم ،حتى فقد كثير من هؤلاء الأمراء حياتهم بسبب ذلك فأضحى للتتار من القوة ما أعجز الصينيين عن مناهضتهم[٣٤].

ويبدو أن حكومة الصين الشمالية حرصت في تلك الفترة أي في النصف الثاني للقرن الثاني عشر الميلادي على تكوين حلف يدعم سياستها في منغوليا ويضمن لها النفوذ فيها [٣٥]فاتخذت من الكرايت والمغول حلفاء لها فنجحت سنة ١١٩٤م في الانتصار على القبائل المناهضة ولذلك أنعمت بألقاب التشريف على ملك الكرايت وعلى زعيم المغول تيموجين الذى صار يحمل اسم جنكيزخان ،و أرست دعائم سياستها في منغوليا معتمدة على أقطاب هذا الحلف العسكري[٣٦] الذى غدا يمثل القبائل المميزة أو يمثل الأرستقراطية التركية المغولية .

ولهذا جاء رد الفعل لدى القبائل الخارجة على هذا الحلف سريعا وحاسما فسرعان ما تحالفت قبائل التايجوت والمركيت وجاجيرات والقنقرات والتتار ، واتفق زعماؤها على مناهضة حلف مغول تيموجين والكرايت ،واختاروا جاموكا -ملك جاجيرات -وعدو تيموجين

(٣٤)العرينى: المرجع السابق ص ٥٠
(٣٥)هارولد لام : جنكز خان وجحافل المغول ص ٥٨
(٣٦)الساداتى : الدول الإسلامية ص ٦٢

زعيما وإمبراطور سنة ١٢٠١ م [٣٧] .

وعلى الرغم من الهزيمة التى لحقت بجاموكا وحلفه سنة ١٢٠١/١٢٠٢م، إلا أنه نجح في إغراء بعض قادة حلف تيموجين بالانصراف عنه والتخلى عن حلفه الأمر الذى اضطر معه تيموجين للتحصن بالقرب من إحدى البحيرات مع فئة قليلة من الموالين له،حيث نجح في خداع أعدائه بفضل ما كان له من دهاء ومكر [٣٨]،وما لبث أن باغت أعداءه بهجوم مفاجئ سنة ١٢٠٣م ، فأنزل بهم هزيمة ساحقة ،ولم ينج زعماؤهم من الموت إلا الفرار ، وإن لم يحل ذلك بينهم وبين مصيرهم المحتوم ،فقد لقي هؤلاء الزعماء حتفهم بعد هذه الأحداث بقليل ،وأثبت تيموجين أنه فعلا قائد محنك وداهية من دهاه المغول في تلك الفترة ، فضلا عما اتصف به من قسوة وعنف [٣٩].

وترتب على هذا الانتصار نتائج بالغة الأهمية بالنسبة لتيموجين ، وعد بداية مرحلة جديدة في حياة هذا الزعيم المغولى الكبير ، فقد منحه هذا الانتصار فرصة للتخلص من التبعية لطغرل ملك الكرايت ،بعد ان منى هذا بالهزيمة وثبت أنه لم يكن على المستوى الذى يضمن له الاستمرار في الزعامة ، فتحول الكرايت أنفسهم إلى طاعة تيموجين وخضعوا له[٤٠]، بل انضوت تحت لوائه جميع القبائل التى كانت تقطن الجانب الشرقى من منغوليا ، وبدأت زعامته على معظم القبائل

---

(37) Morgan: Op. cit. p.59

(٣٨) هارولد لام :المرجع السابق ص ٦٠-٦٢
العرينى : المغول ص٥٢

(39) Dóhsson: Op. cit. tom.3 p .372

(٤٠) عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية ص ٣٢

تصبح حقيقة واقعة في ذلك الوقت أى في السنوات الأولي من القرن الثالث عشر الميلادي [٤١].

لم يلبث تيموجين أن صفى بعد ذلك تطلعات القبائل التى مضت في عدائها له وكونت حلفا جديدا ، كان أبرز زعمائه ملك النايمان وجاموكا -ملك جاجيرات وغيرهم من الزعماء ،وضم بعض القبائل مثل المركيت والاويرات والتتار وغيرهم ، إلا أن تيموجين نجح في ، إنزال هزيمة جديدة بهم في العام التالى (١٢٠٤م) [٤٢] وقتل بعض كبارهم مثل زعيم النايمان ،فاضطرت قبيلته للخضوع لتيموجين ،وكانت خسائر القبائل الأخرى أشد وأفدح خاصة التتار الذين جرى تدميرهم تدميرا يكاد يكون تاما في الوقت الذى استسلم فيه جاموكا -ملك الجاجيرات-للأسر ،ثم لقى مصيره المتوقع إذ أمر تيموجين بقتله وتقطيع أطرافه وأعضاء جسده[٤٣]، ليكون عبرة لمن يتجرأ فيخرج عن طاعة هذا الزعيم القاسي، واستفاد تيموجين من هذا الانتصار فأدخل بعض العاملين لدى ملوك القبائل المهزومة في خدمته ،ومنهم كاتب الملك النايمان الذى أمره تيموجين أن يعلم أبنائه هو شخصيا الأبجدية الاويغورية وكذلك تعليم أبناء الطبقة الراقية في المجتمع المغولى تلك الأبجدية فبدا المغول مرحلة جديدة في حياتهم [٤٤].

---

(41) Morgan : Op.cit.pp.60-61

(٤٢) عبد السلام فهمى :المرجع السابق ص٣٢-٣٣

(٤٣) يذكر بعض المؤرخين ان تيموجين أمر أن تخمد أنفاسه تحت ضغط أقمشة ثقيلة .

انظر هارولد لام :جنكيزخان ص٦٦

(٤٤) العرينى : المغول ص٥٢-٥٣

وتمثـل سـنة ١٢٠٦م بدايـة مرحلـة هامـة في تـاريخ تيمـوجين السياسي ،بعد أن أكمل فتح الجانب الغربي من منغوليا ،وبعـد أن هـزم قبيلة النايمان التى كانت تـدين بالمسـيحية والتـى اعتـبرت مـن القبائـل القوية [٤٥] . فقد منحه هذا النصر قوة وعظمة وجعله يبـادر بعقـد مجلـس النبلاء، حيث هتف به الحاضرون جنكيزخـان أى الخـان الأعظـم علـى سائر الأقوام المغولية التركية. ويبدو أن توحيد منغوليـا هـو الـذى أعطـى لجنكيز خان البداية الحقيقية في زعامة تلك القبائل بعد سـنة ١٢٠٦م ، فبدا بعقد أول مجلس للنبلاء بعد هذه الأحداث [٤٦]وفي هذه المناسبة اتخذ جنكيزخان رداء الخانية ووضع نظـم الإمبراطوريـة لأول مـرة ورفـع فـوق معسكره دلالات الزعامة والقـوة والعظمـة بعـد أن قـام بتوزيـع الوظـائف المدنية والعسكرية على أتباعه وأحاط نفسه بصفوة من الأصدقاء المخلصين ووضع فيهم كل ثقة وكان يركن إليهم في كل الأمور[٤٧].

ويذكر المؤرخون أن جنكيز خان أبدى اهتماما كبيرا بقوة الحرس التى بلغت في عهده نحو عشرة آلاف رجل ،فاتخذت صـورتها النهائيـة في هـذه المرحلـة أى في سـنة ١٢٠٦م ،وحـددت بدقـة واجبـات هـؤلاء الحراس، فضلا عما عرفوا به من اليقظة والحذر الشديد وشـدة البـاس ، وعهدوا اليهم بحفظ النظام في معسكر الخان،وميز جنود هـذا الحـرس في رتبهم[٤٨]عن بقية جنود الجيش المغولى،إذ كان جنـدي الحـرس يفـوق في رتبته قائد ألف رجـل في الفرق الأخـرى ،ولهـذا غـدوا طبقـة مميـزة في الجـيش ،بـل ألفـوا طبقـة أرسـتقراطية ممتـازة ،وعهـد إلى كتيبـة مـن

---

(٤٥) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص٣٢-٣٣
(٤٦) هارولد لام :نفس المرجع ص٦٤-٦٩
(٤٧) العرينى :المغول ص٥٥
(٤٨) هارولد لام : المرجع السابق ص٦٩

هؤلاء الحراس قوامها ألف رجل من الرجال الشجعان خدمة الخان وملازمته ،حتى أنهم كانوا لا يخرجون للحرب إلا في معية الخان ،أى أن هذه الفرقة هى فرقة الحرس الخصوصيين للخان(٤٩).

وبدأت تتضح معالم الفئات المميزة في هذا المجتمع المغولى ،فعلى رأس هذه الفئات المميزة طبقة الأمراء من أسرة جنكيز خان الذين احتلوا المكانة الأولى في ذلك المجتمع ،يليهم طبقة أشراف الجند أو الطرخانات(٥٠)، الذين مثلوا الطبقة المميزة الثانية في ذلك المجتمع، والذين جرى إعفاؤهم من دفع الضرائب،وكان لهم ما يحصلون عليه من الغنائم في الحروب وواضح أن هذه الفئات المميزة كانت الدعامة الأولى للخان في ذلك المجتمع والفئات التى يعتمد على تأييدها ومساندتها في كل الظروف (٥١) .

بينما تألف جيش المغول من وحدات محددة قوامها :العشرات والمئات والألوف ولكل وحدة مشرف أو قائد تسهيلا وتنظيما لسريان الأوامر وتبسيطا للإجراءات الحربية واشتهر الجيش المغولى بالقوة وسرعة التعبئة والتحرك ،وما أظهره جنود هذا الجيش من القسوة وشدة البأس، ملأ قلوب معاصريهم رعبا وخوفا (٥٢)، وجعل أعداءهم في وجل وخوف دائما ،خاصة وقد عرف عنهم المبادرة بالهجوم قبل أن يتهيأ الأعداء

---

(٤٩) العرينى : المغول ص٥٦

(٥٠) هارولد لام :المرجع السابق ص٦٩

(٥١) العرينى :نفسه ص٥٦

(52) D'Ohsson : Op. cit. Tom.3 p. 372

للدفاع ، وقبل أن يصل التحذير أو الإنذار[٥٣] ، فضلا عما لجا إليه المغول من استخدام الجواسيس والعملاء ومثيري الفتن والمؤامرات في جبهات الأعداء ،وما اشتهر به من طرق في استخلاص الأخبار والمعلومات التى تفيد الجيوش من كل من يستطيعون الإفادة منه ، لاسيما التجار وعابرى السبيل ومن لهم صلة بالأعداء [٥٤]،فضلا عن الإفادة من الذين خضعوا لهم في نقل أدوات الحصار وعدد الجيش وإثقاله، وكانوا دائما يعرضون على أعدائهم أما الاستسلام والإذعان أو التعرض للقتل والنهب والتدمير ،وضمن لهم ذلك في كثير من الأحيان توفير الجهد والتقليل من الخسائر والإمعان في القهر والإذلال ،بعد أن حرص سكان البلاد الخاضعة لهم على التفاني في تقديم الخدمة لهم[٥٥].

وعلى الرغم من ذلك لم تكن غزوات المغول كلها مغامرات أو اندفاعات، وإنما كانت مشروعات محسوبة ،وفيها كثير من التعقل والاتزان ،فإذا شعروا بخطر يتهدددهم توقفوا عن الحرب ،وإذا لم يكن النجاح مضمونا بنسبة تكاد تكون كاملة عزفوا عن المضى في القتال، وانهوا المشروع وعادوا من حيث أتوا [٥٦]، ولم يكن ذلك دليلا على الجبن او الضعف او إيثار العافية ، لأن شجاعتهم وإقدامهم لم تكن لها حدود، وبأسهم وعنفهم لم تكن تحدها حدود[٥٧] ، فلم يسمع المعاصرون أن أحدا منهم وقع في أسر الأعداء أو استسلم أثناء القتال لأنه إما أن

---

(53) Morgan : Op. cit. p. 59

(٥٤) العرينى : المغول ص٥٦

(٥٥) ف بان : جنكيزخان سفاح الشعوب ص٩٦

هارولد لام :المرجع السابق ص ١٥١

(٥٦) العرينى :المغول ص٥٧

(57) D'Ohasson : Op. cit. Tom.3. pp. 372 - 4

ينتصر أو يلقى حتفه صرعا في المعركة ، أى أنه لم يكن هناك أمر وسط إما النصر أو الموت [٥٨].

ولم يكن ذلك كله هو سبب انتصارات المغول أو التتار ،وإنما أهم من ذلك هو نجاح جنكيز خان في تعبئة النفوس قبل تعبئة الجيوش، وإقناع شعبه بما كان يراه قبل أن يطلب منهم الغزو والضم والمضى في الاندفاع [٥٩]، فلم يبن جنكيز خان مشروعاته على أنها مشروعات يقصد بها فقط خير شعبه وإشباعهم بعد فقر وكسوهم بعد عرى ، بل ركز هذا الخان على أن ما يقوم به إنما كان لضمان الأمن لهم وإقرار النظام وتقويم المجتمع ، وإعادته إلى جادة الصواب ،خاصة وقد اهتم بإصدار الياسا بعد تعديلها لتنظيم العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وعلاقة المحكومين بعضهم بالبعض وتقويم النواحى الاجتماعية للمغول[٦٠].

فقد حدث قبل زمان جنكيز خان أن خرج الابن عن طوع أبيه، ولم يستجب الصغير لنصح الكبير ، ولم تكن الرعية تستجيب لآمال الحاكم ومطالب الحكام ، بل أن هؤلاء الحكام لم يلتزموا من جانبهم بالوجبات تجاه رعاياهم [٦١] ، أما في زمنه فإنه يجب أن يعود الأمن ويقر النظام ويجرى تصحيح المسار ،ولهذا حقق جنكيز خان بجيوشه ما فشل في تحقيقه كثيرون ،وخط بجهود شعبه ملحمة فريدة في تاريخ هذه الأقوام [٦٢].

---

(٥٨) العرينى : المرجع السابق ص ٥٧

(59) Morgan : Op. cit. p. 61

(٦٠) عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية ص ٣٥
حافظ حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ص٢١١
Howorth : Op. cit. v. iv , p.79

(٦١) العرينى: المغول ص٥٨

(62) D'Ohsson : Op. cit. Tom.2, p. 288

جرى كل ذلك ودولة المغول أو التتار لم تأخذ بعد بأسباب الحضارة ولم تول هذه ما هى جديرة بها من اهتمام ،على الرغم من أنها ورثت إمبراطورية الصين العظيمة ودخلت عاصمتها بكين ، وتزوج جنكيز خان نفسه أميرة صينية من أسرة كين ،فلم يمنح جنكيز خان الثقافة الصينية فرصة التأثير ،إلا بعد زمن طويل من حكمه (٦٣)،ولم يستخدم المغول الأبجدية الصينية إلا بعد سنوات طويلة من غزوهم للصين، وظلوا يستخدمون اللغة الايغورية فترة طويلة ، وحرروا بها الوثائق ودونوا المكاتبات ، ولم يكن جنكيزخان نفسه يعرف سوى لغة قومه وإن سمح لبعض شباب المغول بالإلمام بلغات وثقافات الشعوب المقهورة، وأدخل في خدمته بعض الرجال المثقفين من الشعوب المغلوبة(٦٤)، وعهد إليهم ببعض المهام كإدارة مدينة بكين ،وتعليم أبنائه و أبناء الطبقة الراقية (٦٥) .

والمعروف أنه كان للمغول قبل جنكيز خان مجموعة من الآداب والتقاليد تعارفوا عليها وكانت نتاج أعراف توارثها المغول جيلا بعد جيل ، فلما انتخب جنكيزخان إمبراطوراً أعاد النظر في هذه الآداب والتقاليد ، فعدلها بالحذف والإضافة (٦٦) ، وأعطاها الصفة الرسمية، وأمر بتدوين تلك الأحكام والاحتفاظ بها في خزائن الأمراء ،وهو ما عرف بالياسا ،التي أصدرها هذا الخان سنة ١٢٠٦م(٦٧)،ووضع جنكيز خان في هذه الياسا خلاصة

---

(63) Morgan: Op. cit. pp. 108 - 109

(٦٤) هارولدلام : المرجع السابق ص ٨٧

(٦٥) العريني: المغول ص ٥٨

(٦٦) احمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ج ٧ ص٧٣٨

(٦٧) الياسا لفظة مغولية تعنى الحكم او القاعدة او القانون ودونت بالخط الأيغوري.

انظر : العرينى : المغول ص ٥٩-٦٠

تجاربه وحصيلة ما مر به من أحداث ،فحرص على أن يجمع من خلالها كلمة القبائل ويكبح جماح أفرادها ويخضعهم لأحكامه(٦٨) ،فكان لابد وأن تتضمن هذه الياسا عقوبات بالغة القسوة لإعادة الأمن إلى نصابه وتقويم المجتمع المغولي ، كما عنى هذا القانون بتحديد العلاقة بين الحاكم والمحكوم وعلاقة المحكومين بعضهم ببعض وعلاقة الفرد بالمجتمع(٦٩) .

بل إن الياسا نظمت العلاقة بين أفراد الأسرة الواحدة تقوية للكيان الاجتماعي القائم على الأسرة (٧٠) ، كما عالجت أمر الزواج ووضعت قواعد لذلك تتناسب مع طبيعة هذا المجتمع (٧١) ،فقد جعلت الزواج رهنا بموافقة المرأة و أحلت الجمع بين الأختين (٧٢) ،و أحلت كذلك زواج الابن من زوجات أبيه بعد وفاته باستثناء أمه(٧٣) ،فبدت الياسا وقد دعمت الروابط الاجتماعية بين المغول ودعتهم إلى الالتزام بالأخلاق ليقوى المجتمع ويأمن شرور الأعداء (٧٤) .وحظرت نصوص الياسا على أي فرد من المغول أن يشبع وغيره جوعان ،بل عليه أن يقتسم معهم الطعام ،فمن أكل ولم يطعم من عنده جاز قتله ،بل عليه ان يسلم الطعام بيده الى الآخرين ولا يرميه لهم (٧٥) . ومن يكذب يتعرض للموت ،ومن يمارس السحر كذلك لما يمكن أن يلحق الناس بسبب ذلك

---

(٦٨) رالف لنتون : شجرة الحضارة ج٢ ص١٧٤
(٦٩) العرينى : المغول ص ٦٠
(٧٠) رالف لنتون : شجرة الحضارة ج٢ص١٧٤
(٧١) ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات ج١ص٣٠٢
(٧٢) عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية ص٣٥
(٧٣) حافظ حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ص٢١١
(٧٤) فؤاد الصياد : المغول في التاريخ ص٣٥١
(٧٥) ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص١١٩

من أضرار ، وكذلك من يتجسس على الآخرين لمعرفة عوراتهم ومن يسرق يعدم أيضا في أغلب الأحيان وكذلك من يلوث المياه يعاقب بالموت(٧٦).

وهكذا جاء انتخاب تيموجين إمبراطورا على الأقوام التركية المغولية ، واتخاذ اسم جنكيز خان إحياء للإمبراطورية التركية القديمة أى إمبراطورية الإيغور في القرن التاسع الميلادي ،واتخذ جنكيز خان عاصمته في قراقورم ،ثم بدأ يغير على البلاد المجاورة في منغوليا بغرض السلب والنهب (٧٧)أما ما وجهه من حملات جهة الغرب فكان يطارد فيها الأعداء الهاربين الى تلك الجهات .ثم لم يلبث ان أصبحت حملات بغرض التوسع والضم ،فقد قضى جنكيز خان أكثر من عشرين سنة يحاول فيها توسيع نطاق حكمه ،وضم ما يمكن ضمه من المناطق المجاورة حتى وفاته سنة ١٢٢٧م (٧٨).

ويذكر المؤرخون أنه في السنوات الأولى بعد المناداة به إمبراطورا نشط جنكيز خان للقيام بحملات يهدف من ورائها إخضاع القبائل المتمردة وإدخال البعض الأخر تحت رايته فحارب التانجوت وأحرز انتصارات باهرة على المركيت والنايمان وبادر ملك الإيغور بالاعتراف بسيادته سنة ١٢٠٩م ،وحذا حذوه ملك القارلق بعد ذلك بعامين ونهج نهجهما أمير المالق، وقدمت كذلك قبائل القرغيز التركية خضوعها لجنكيز خان . كل ذلك قبل أن يشرع في غزو الصين ،وهكذا انضوت

(٧٦) براون :تاريخ الأدب في إيران ص٥٦١،

Howorth :Hist. Of the Mongols ,IV,p 79

(77) Morgan: The Mongols ,p.63

(٧٨) هارولد لام :المرجع السابق . ص٨٤

القبائل المغولية والتركية في صحراء جوبى تحت رايته باعتباره الخان الجديد [٧٩].

وانقسمت الصين إلى قسمين : الصين الشمالية .وكانت تحكمها حينئذ أسرة كين،والصين الجنوبية وكانت تحكمها أسرة سونج.وكانت الصين هدفا لحملات جنكيزخان خاصة الصين الشمالية التى كان لها السيادة على التتار وغيرهم من القبائل ،ونجح جنكيزخان في إنزال هزيمة ساحقة بجيش أسرة كين[٨٠] . فخضعت له البلاد الواقعة داخل سور الصين العظيم سنة ١٢١١ م .

ثم حشد جنكيزخان ثلاثة جيوش كبيرة سنة ١٢١٣م تولى هو قيادة أحدها، وتولى قيادة الجيش الثاني بعض أبنائه بينما قاد الجيش الثالث بعض أخوته ، فاجتاحت هذه الجيوش الثلاثة جانبا هاما من الصين الشمالية . ولم تتوقف إلا في ربيع العام التالي بعد أن وصلت إلى مرتفعات شانتونج [٨١]، حيث قرر جنكيز خان أن يرسل إلى إمبراطور الصين الشمالية من أسرة كين رسالة يعلمه فيها أن كل ما يقع شمال النهر الأصفر من بلاد إنما يعتبر من أملاكه باستثناء بكين، وأنه على استعداد للتوقف عن القتال بشرط أن يقدم الهبات ويبذل الضيافات لرجاله ليخلدوا إلى الهدوء ويركنوا للسلام[٨٢].

فلم يكن أمام إمبراطور كين إلا أن يقبل هذه الشروط لإقرار السلام، فقدم لجنكيزخان ابنة الإمبراطور الصيني السابق وأميرة أخرى

---

(٧٩) السادانى : الدول الاسلامية ص٦٣

(٨٠) عبد السلام فهمى :المرجع السابق ص٣٧

(٨١) العرينى : المغول ص٦٥

(82) Morgan : Op.cit.p.65

من البيت المالك الجديد ،فضلا عن خمسمائة من الجواري والغلمان ، وثلاثة آلاف فرس.وعلى الرغم من ذلك نشبت الحرب بين الجانبين بعد شهور قليلة ونجح الصينيون في استرداد جانب كبير من أملاكهم بعد عودة جنكيز خان إلى منغوليا سنة ١٢١٦م،واستمرت أسرة كين تحكم جانبا كبيرا من أملاكها حتى وفاة جنكيز خان ،ولم تفقد هذا الجانب من أملاكها إلا في عهد خليفة جنكيز خان [٨٣].

وخصص جنكيز خان حملات لإخضاع القبائل والممالك في الغرب في السنوات السابقة على سنة ١٢١١م،والسنوات التالية لسنة ١٢١٦ م نظرا لانشغاله بالحروب في الصين فيما بين سنتي ١٢١١ ، ١٢١٦م ،فقد أخضع كثيرا من القبائل والممالك في تلك الجهات في غرب منغوليا في إقليم ما وراء النهر وغيرها من الجهات لتمتد إمبراطوريته امتدادا عظيما حتى وفاته في سنة ١٢٢٧م[٨٤].

---

(٨٣) هارولد لام : المرجع السابق ص٧٩-٨٠
(٨٤) العريني : المغول ص٦٦-٦٨

الفصل التاسع

توسعات التتار في عهد جنكيزخان في آسيا وشرق أوربا

- دولة الخطا (القرة خطائيين) ومجال نفوذها .
- إقليم خوارزم في ظل نفوذ دولة الخطا .
- خوارزمشاه تكش .
- خوارزمشاه علاء الدين محمد وظهور الإمبراطورية الخوارزمية .
- علاقة خوارزمشاه علاء الدين محمد بكوجلك زعيم النايمان .
- كوجلك يقضى على دولة الخطا ويصبح جاراً للخوارزمشاه .
- جنكيزخان يقضى على قوة كوجلك ليصبح المغول مجاورين للخوارزمشاه .
- العلاقات بين جنكيزخان والخوارزمشاه محمد .
- بداية النزاع بين الجانبين سنة ١٢١٩ م / ٦١٦ هـ .
- جنكيزخان يعلن الحرب على الدولة الخوارزمية :

. استيلاء المغول على بلاد ما وراء النهر : أوترار –بخارى– سمرقند– جند– ترمز.

. استيلاء المغول على إقليم خوارزم : بناكت – خوقندة – جرجانية.

. استيلاء المغول على خراسان : بلخ– مرو– نيسابور– هرات – غزنة

- غزوات المغول في الأقاليم المجاورة حتى بلاد الروس وفي شرق أوربا .
- عودة جنكيزخان إلى بلاده سنة ١٢٢٥م
- وفاة جنكيزخان سنة ١٢٢٧م



شهدت آسيا الوسطى تغيرات هامة وظهور قوى مهيمنة جديدة في القرن الثانى عشر الميلادى، وبالتحديد ابتداءً من بداية الربع الثانى لذلك القرن بقيام دولة الخطا (القرة خطائيين) في كاشغر وسمرقند وبخارى وإقليم ما وراء النهر وكذلك إقليم خوارزم، بعد أن أدركت الصفة التركية معظم هذه المناطق وحوض نهر سيحون وصبغت بالصبغة التركية، ففرضت هذه القوى الجديدة سلطانها على ما حولها من الحكام وأرغمتهم على دفع الإتاوات[١] .

وكانت خوارزم قد خضعت لسلطان السلاجقة في إيران، الذين امتد حكمهم لهذا الإقليم حتى وفاة السلطان سنجر سنة ١١٥٧م ، وكان قد أناب عنه في حكمها اتسز الذى اضطر لدفع جزية سنوية للقوة القريبة المهيمنة قوة الخطا (القرة خطائيين)، وقدرها ثلاثين ألف دينار من الذهب حتى يأمن شرهم، ويتقى بأسهم بعد أن هزموا السلطان سنجر هزيمة ساحقة، وأخضعوا أجزاء واسعة من آسيا الوسطى [٢] .

وعلى الرغم من أن الخطا قد أخضعوا إقليم ما وراء النهر حتى خوارزم، إلا أن الأمور لم تتغير كثيراً في تلك الأقاليم، ولم يكن لذلك سوى تأثير ضئيل في أجزاء من هذه المنطقة، فقد ظل الأمراء المحليون يحكمون أقاليمهم باعتبارهم أتباعاً للخطا، في الوقت الذى شكلت فيه هذه الأقاليم الجانب الأكبر من إمبراطورية الخطا، واحتفظ المسلمون في إقليم ما وراء النهر بمناصبهم ومراكزهم في ظل التبعية للخطا، وإن أدى

---

(1) Morgan : op. cit. pp. 48 - 49

(٢) كانت خوارزم قد خضعت قبل ذلك للغزنويين ، منذ سنة ١٠١٧م فعين السلطان محمود الغزنوى التونتاش حاكماً عليها، ظل يحكم هو وأسرته حتى سنة ١٠٤١ م . انظر العرينى : المغول ص ٨٠

ذلك إلى تحجيم دورهم كثيراً، خاصة فيما يختص بمناهضة الديانات والمذاهب الأخرى في تلك المناطق [٣] .

وفي أعقاب توسعات الخطا في آسيا الوسطى، تدفقت جموع من الغز التركمان صوب الجنوب إلى المناطق الخاضعة للسلاجقة وسلطانهم سنجر، وكانت أعداد كبيرة منهم لازالت على وثنيتها، فاصطدموا بالسلاجقة ونشب القتال بينهم وبين سنجر، فأسروا هذا السلطان لفترة، ثم أفلت منهم قبل وفاته بعام واحد (١١٥٦م) ، بعد أن خربوا جهات كثيرة وأزالوا فرع الأسرة السلجوقية في كرمان وعاثوا الفساد في معظم أنحاء سلطنة السلاجقة[٤] .

إلا أن الظروف خدمت خوارزم كثيراً فلم تتعرض لهذه المحن لوقوعها في واحة خصيبة يحميها شريط من الصحراء من ناحية، ولتحررها من التبعية للسلطان سنجر بعد أن تداعت سلطته من ناحية أخرى، وأكمل استقلالها ما حدث من تفكك دولة الخطا بسبب ما تعرضت له من ضغط الشعوب والقبائل القادمة من سهوب آسيا، الأمر الذى حتم على الخوارزمية الاهتمام بتدعيم قوتهم العسكرية، وتوجيه حصيلة النشاط التجارى لخوارزم لزيادة قوة الجيش ودعم كيانهم العسكرى تحسباً للظروف[٥] .

انتهز حكام خوارزم المسلمين هذه الفرصة لتكوين جيش من الأتراك المقيمين في الجهات المجاورة خاصة في الشمال الغربى، بعد

---

(3) Morgan : op. cit. p. 49

(٤) العرينى : المرجع السابق ص ٨١ — ٨٢

(5) Morgan : op. cit. p. 49

إدخالهم في الإسلام، وإن لم تتح لهم فرصة شرائهم صغار السن لتنشئتهم تنشئة إسلامية صادقة، ومنحهم قدراً من التربية والثقافة الإسلامية، وربما لهذا اشتهر هؤلاء الخوارزمية بعد تعبئتهم في جيش خوارزم بالقسوة والعنف في حروبهم خارج خوارزم، حتى مع المسلمين في البلاد الأخرى [٦] .

حكم خوارزم فيما بين سنتى ١١٧٢ و ١١٩٩م / ٥٦٨ — ٥٩٦ هـ خوارزمشاه تكش فبذل هذا الخوارزمشاه جهوداً صادقة في تقوية دولته، وتوسيع رقعتها، رغم ما واجهه من مصاعب، وما كان ينتظره من عقبات، خاصة من القوى المحيطة والأعداء المتربصين به، خاصة دولة الخطا (القرة خطائيين) التى أجبرته على دفع الإتاوة والإقرار بالتبعية، لكن الظروف خدمته بزيادة تفكك قوة السلاجقة [٧] في إيران الأمر الذى مكن تكش من الاستيلاء على الرى وهمذان، فلما حاول آخر سلاطين السلاجقة (طغرل الثالث) استعادة سلطته على حساب الخليفة العباسى، استنجد الخليفة بتكش، ثم ما لبث طغرل الثالث هذا أن لقى مصرعه سنة ١١٩٤م ، فتطلع تكش إلى أن يرث السلاجقة، خاصة بعد أن احتل خراسان سنة ١١٩٠م ، وزادت قوته واتسع نفوذه [٨] ، فطلب من الخليفة العباسى أن يعترف به سلطاناً في بغداد، وأن تجرى له الخطبة فيها، وأن يتنازل له الخليفة الناصر لدين الله عن السلطة الزمنية، مثلما حدث زمن البويهيين والسلاجقة، ولكن الخليفة لم يستجب لذلك، بل

(٦) العرينى : المغول ص ٨٢ — ٨٣

(7) Morgan : op. cit. p. 52

(٨) عن الإمبراطورية الخوارزمية انظر :
Barthold :Turkestan down to the Mongol invasion chapter3.

عول على مساعدة الإسماعيلية للتخلص من أعوان خوارزمشاه في العراق وفي جهات أخرى من أراض الخلافة، فتذرع خوارزمشاه ببعض الذرائع وأعلن عزل الخليفة الناصر، وأسقط اسمه من الخطبة ومن النقود[٩] وتصاعد العداء بين تكش هذا والخليفة العباسي، وأضحى تكش عدوا للخليفة ولرعاياه المسلمين من أهل السنة، وكان في نيته الزحف إلى بغداد لولا أن توفى تكش فجأة سنة ١١٩٩م / ٥٩٦هـ تاركاً الحكم لابنه من بعده، وتركة مثقلة بالمتاعب[١٠].

اعتلى عرش خوارزم سنة ١١٩٩م علاء الدين محمد خلفاً لأبيه تكش، فسار على نهجه في محاولة توسيع رقعة بلاده، ودعم نفوذها فيما حولها، حتى بلغت أقصى اتساع لها في عهده، رغم أنه ورث تركة مثقلة بالمتاعب، وواجه مشكلات كثيرة في الداخل وعداء من بعض القوى المحيطة في الخارج[١١]، إلا أن الظروف ساعدته بتداعي دولة الخطا نتيجة للضغط عليها من قبل المغول من الشرق والمسلمين من جهة الغرب، فاستطاع خوارزمشاه أن ينتزع منها إقليم ما وراء النهر بعد أن أنزل بالقرة خطائيين هزيمة ساحقة[١٢]، وأجبرهم على التخلي عن الإقليم، غير أن سياسته لم تلبث أن ساءت في ذلك الإقليم، فخرج عليه سكانه وكذلك أمير سمرقند، فاشتد خوارزمشاه في قمع هذه الفتنة، واستولى على سمرقند وأباحها لجنوده ثلاثة أيام، أعملوا فيها السلب والنهب والقتل، حتى دانت له سائر مدن ما وراء النهر بالطاعة، فعهد بحكم كل مدينة فيها لحاكم من قبله من الخوارزمية[١٣].

(٩) العريني : المغول ص ١١١

(10) Morgan : op. cit. p. 52

(١١) عبد السلام فهمي : تاريخ الدولة المغولية ص ٤١

(١٢) الذهبي : العبر في خبر من غبر ج٥ ص ١٥

(١٣) ابن الأثير : الكامل ج١٢ ص ١٢٥

ويعلق المؤرخون على تلك الأحداث التى أسفرت عن ظهور الإمبراطورية الخوارزمية التى ضمت خوارزم وخراسان وبلاد ما وراء النهر وأقاليم أخرى والتى لم يرجع تاريخها إلى أبعد من سنة ١١٩٤م ، وما حققته من انتصارات أدت إلى امتداد ملكها تحت سلطان رجل يفتقر إلى التجربة ، لأنه على الرغم مما اتصف به علاء الدين محمد خوارزمشاه من الشجاعة والإقدام، فقد اشتهر أيضاً بالخفة والطيش والرعونة، ولم يكن لدولته دعائم اجتماعية أو قانونية تستند إليها[١٤] ، وحتى الناحية العنصرية لم تستند هذه الإمبراطورية إلى عشيرة تركية واحدة مثلما استند السلاجقة إلى عشيرة تركية واحدة اعتنقت الإسلام، ولم تكن العلاقة وثيقة بين الذين يسكنون المدن وبين الترك الذين يتألف منهم الجيش، وحتى الأسرة الخوارزمية ذاتها كانت تنتمى إلى بيت كان يعمل في خدمة السلاجقة ، وليس لها عشيرة قوية تساندها، وظهرت الاختلافات العنصرية في أقاليم هذه الإمبراطورية في إقليم ما وراء النهر وفي خراسان وأفغانستان وفي العراق العجمى[١٥] .

وبامتداد ملك خوارزمشاه علاء الدين محمد إلى سمرقند وبلاد ما وراء النهر صار مجاوراً لأعدائه الخطا (القرة خطائيين) ، إلا أن قوة هؤلاء كانت قد أصيبت بتصدع أودى بها في النهاية، وأسهم أحد اللاجئين إليها وهو كوجلك زعيم طائفة النايمان، الذى فر إليها هرباً من بطش جنكيزخان، وأضحى بها كلاجئ هارب من المغول، فأسهم في

(١٤) استندت دولة جنكيزخان مثلاً على دعامة قانونية هى الياسا . انظر
Howorth : Hist. of the Mongols . 1V, p. 79

(١٥) العرينى : المغول ص ١١٢

النهاية في القضاء عليها[١٦] ، بعد أن حمته ومكنته من تأسيس قوة عسكرية من فلول طائفته الفارة من سيوف المغول، لكنه ما لبث أن بيت النية على حربها وتصفية أملاكها ووراثتها، وتذكر الروايات أن طرفي هذا الصراع وهما ملك الخطا وزعيم النايمان قد أخذا يتوددان لخوارزمشاه، والتمس كل منهما انضمامه إلى صفه، فقاد خوارزمشاه جيشه فعلاً، ووصل إلى مكان قريب من أرض المعركة بحيث يراه كلا الفريقين، وكل منهما يظن أن الجيوش الخوارزمية إنما جاءت لمؤازرته[١٧] ، ولكنه في حقيقة الأمر كان ينتظر رجحان كفة أحدهما على الآخر لينضم إلى المنتصر ويجهز على الخاسر، فلما دارت الدائرة على الخطا، وجرى أسر ملكهم، انضم خوارزمشاه إلى كوجلك زعيم النايمان وأعمل جيشه السيف في رقاب البقية من جنود الخطا المنهزمين والفارين من أرض المعركة، وأسفرت هذه الأحداث عن تصفية قوة من القوى الثلاثة وبقي كل من الخوارزمية ودولة النايمان بزعامة خانهم كوجلك[١٨].

ترتب على تدمير قوة الخطا (القرة خطائيين) نتائج بالغة الأهمية بالنسبة للعالم الإسلامي كله والدولة الخوارزمية والشرق الإسلامى بصفة خاصة، ذلك أن أملاك كوجلك خان أصبحت مجاورة لأملاك الدولة الخوارزمية بعد القضاء على دولة الخطا، ونظراً لأن كوجلك هذا كان قد فر من وجه جنكيزخان، فقد أصبح خوارزمشاه في وضع خطير، وموقف لا يحسد عليه لأن جنكيزخان بدأ يتجه ببصره

---

(16) Morgan : op. cit. p. 60

(١٧) الذهبي : المصدر السابق جـ٥ ص ١٦

(١٨) العريني : المغول ص ٨٤

نحو الأقاليم الغربية من آسيا، ويرصد دولة كوجلك عدوه القديم، ويفكر في شن الحرب عليه، خاصة بعد أن أخضع هذا عدداً كبيراً من القبائل بعضها كان تابعاً للمغول، فكان لابد من أن ينشب القتال بينهما وتجرى معركة مصيرية[١٩] سيكون لها أثر كبير على مستقبل الدولة الخوارزمية والشرق الإسلامى كله، ولابد وأن يجئ الدور على دولة خوارزمشاه .

وإذا كانت الأحداث قد تطورت فوضعت كوجلك في مواجهة جنكيزخان وقوة التتار ، مع استمرار العداء والأحقاد بين الرجلين من ناحية، وفي نفس الوقت وضعت قوة كوجلك مجاورة للدولة الخوارزمية المسلمة، مع احتمال الصدام معها من ناحية ثانية ، فإن سياسة كوجلك زعيم النايمان — الذى تحول من المسيحية إلى البوذية الوثنية[٢٠] — تجاه المسلمين من رعاياه واضطهادهم ومحاولة إجبارهم على الارتداد عن دينهم واعتناق المسيحية أو الدخول في البوذية، فضلاً عن منعهم من أداء شعائرهم والتنكيل ببعض أئمتهم [٢١] كانت سبباً في دخوله في صدام مع خوارزمشاه باعتباره حامى الإسلام في تلك الجهات، غير أن تهديد المغول لكوجلك شغل هذا عن الالتفات إلى خوارزمشاه في الوقت الذى اكتفى فيه خوارزمشاه بشن بعض الهجمات الخاطفة على الأراضى التابعة لكوجلك[٢٢] .

وفعلاً لم يكد كوجلك يقضى على قوة الخطا ويجلس على عرش هذه الدولة إلا ودهمه التتار قبل أن ينعم بانتصاره وقبل أن يجنى ثمار

(19) Morgan : op. cit. p. 67
(20) Ibid. p. 60

(٢١) العرينى : المرجع السابق ص ١٠٩
عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ٤٥

(22) Morgan : op. cit. p. 67

هذا الانتصار، فبمجرد أن فرغ جنكيزخان من حروبه في الصين أرسل جيوشه لمحاربة كوجلك وإحضاره حياً أو ميتا، وإخضاع القبائل التى أسهمت في إقامة دولته وإعادتها إلى حظيرة دولة التتار ، ونجحت جيوش هؤلاء في إنهاء دولة كوجلك وإجباره على الفرار، ثم قبضوا عليه وقتلوه وبعثوا برأسه إلى جنكيزخان[٢٣] ،وأجهزوا على طائفة النايمان سنة ١٢١٨م / ٦١٥هـ ، وتمكنت جيوش جنكيزخان من إخضاع كل القبائل التى خضعت من قبل لدولة الخطا، وأصبح جنكيزخان بذلك مجاوراً لأملاك الخوارزمية، فاقتربت الكارثة من هذه الدولة وهددت الشرق الإسلامى بأسره .

ويذكر المؤرخون أن الحرب بين المغول وخوارزمشاه لم تتأخر كثيراً، فبعد قضاء المغول على دولة كوجلك زعيم النايمان، وربما قبل ذلك بقليل أي سنة ١٢١٦ م / ٦١٢هـ [٢٥] حدثت اشتباكات حربية بين فرقة المغول يقودها أحد أبناء جنكيزخان[٢٦] والسلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه لم تسفر عن نتيجة محددة، على الرغم من أن جيش الخوارزمشاه كان يبلغ ثلاثة أضعاف هذه الفرقة التترية، وعلى الرغم أيضاً من أن الخوارزمشاه هو الذى سعى إلى القتال وأصر على انتهاز الفرصة مع ميل المغول لتجنب ذلك، وعدم رغبتهم في القتال لأنهم لم يتلقوا الأوامر بقتال الخوارزمية من جنكيزخان [٢٧] .

---

(٢٣) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ٤٦
(٢٤) العرينى : المغول ص ١٠٩

(25) Barthold : op. cit. p. 369

(٢٦) هو جوجى (جوش) بن جنكيزخان، وكان يقود فرقة بلغ عدد جنودها نحو عشرين ألف جندى انظر النسوى: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ص٤٦-٤٧
(٢٧) العرينى : المرجع السابق ص ١١٠

فلما اضطرهم الخوارزمية إلى الحرب وأمر الخوارزمشاه جنوده بالهجوم على المغول، أظهر هؤلاء شجاعة فائقة وجرأة نادرة، ولجأوا إلى استخدام أساليبهم الجديدة في الحرب وقدراتهم القتالية العالية[٢٨]، الأمر الذى أدهش الخوارزمية وجعلهم في ذهول تام، فلم يستطع الخوارزمية تحقيق أهدافهم ولم تكن تلك الحرب حرباً بالمعنى المعروف، وإنما كانت عجما لعود هؤلاء التتار واختباراً لقوتهم وما تمتعوا به من ميزات قتالية، الأمر الذى ترك أثراً سيئاً في نفوس الخوارزمشاه وجعله يتحاشى بعد ذلك مواجهتهم، وتفضيل الفرار من أمامهم في أى مكان[٢٩]. ويذكر المؤرخون المعاصرون أنه منذ ذلك اللقاء تمكن الرعب من قلب الخوارزمشاه من هؤلاء المغول وسيطر الخوف عليه لإيمانه بما اتصفوا به من البسالة والإقدام والخبرة بفنون القتال، بعد أن خبرهم من خلال هذا اللقاء[٣٠].

وتذكر الروايات أيضاً أنه على الرغم مما كان يضمره جنكيزخان من عداء للدولة الخوارزمية ورغبة في تصفيتها والاستيلاء على أملاكها، فإنه تظاهر في هذه الفترة التى أعقبت القضاء على كوجلك بالمودة تجاه خوارزمشاه، والرغبة في التعاهد معه لمصلحة التجارة والتجار. ويبدو ن جنكيزخان كان يعتقد أن للتجارة مع الشعوب المستقرة أهمية بالغة باعتبار دولته من البدو، فضلاً عن أن حملاته في شمال الصين ترتب عليها الخراب والدمار، حتى أن الحبوب كانت ترد إلى منغوليا من الغرب يحملها تجار أغلبهم من المسلمين[٣١] ، لذلك تحمس جنكيزخان

(28) Morgan : op. cit. p. 68

(٢٩) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ٤٧

(٣٠) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ص ٤٨

(٣١) العرينى : المغول ص ١١٦

لتعزيز العلاقات التجارية وكذلك السياسية مع جوارزمشاه، فأرسل إليه رسائل تحمل هذا المعنى وتحمل في نفس الوقت التهديد والوعيد مستتراً، واستقبل في نفس الوقت رسل وسفراء خوارزمشاه، وبالغ في إكرامهم وحملهم هدايا قيمة ونفيسة للخوارزمشاه، ورسائل دارت حول الأمور التى أشرنا إليها، وحملت في نفس الوقت ما كان يضمره من تهديد ووعيد وإن كان مستتراً [٣٢] .

كما تعمد جنكيزخان أن يخبر خوارزمشاه أنه يعتبره كأحد أبنائه[٣٣] "وأنت عندى مثل أعز أولادى" ومعروف عند أمراء الشرق الأقصى والأمراء المسلمين من أن الإبن أو الولد تدل على العلاقة بين التابع والسيد[٣٤] ،وحرص جنكيزخان أيضاً أن يعلمه أنه فتح الصين وأخضع كافة القبائل والطوائف التركية هادفاً من ذلك تهديداً صريحاً للخوارزمشاه باعتباره تركياً، وأنه ليس أفضل أو أقوى ممن دانوا بالطاعة لجنكيز خان من الترك . وعلى الرغم من ذلك فقد مال خوارزمشاه للاستجابة إلى طلب المودة والموادعة وعقد المعاهدة التجارية بين الدولتين والتغاضى عما استتر من تهديد ووعيد واعتبار الهدايا وحسن استقبال السفراء والرسل من قبل جنكيزخان سبباً ومبرراً لهذه الاستجابة وعقد المعاهدة التجارية، فترتب على هذه المعاهدة أن نشط التجار من المسلمين والصينيين في تبادل المتاجر وفي التعامل التجارى بين الدولتين[٣٥] .

---

(٣٢) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ص ٨٣– ٨٤

(33) Morgan : op. cit. p. 68

(٣٤) العرينى : المغول ص ١١٨

(35) Morgan : op. cit. p. 68 – 9

ولم يمض سوى وقت قصير على توقيع المعاهدة التجارية بين الدولتين، إلا وقام جنكيزخان بإخضاع القبائل التركية المنتشرة في أواسط آسيا، متذرعاً برغبته في تأمين الطرق التجارية والضرب بيد من حديد على أيدى اللصوص وقطاع الطرق، لينتقل التجار في أمن وسلام، وتأمين الطرق التجارية بل زود الطرق الرئيسية بحراس من المغول وأمرهم بأن يرافقوا كل تاجر أجنبى يحمل تجارة إلى معسكرات المغول[٣٦] ،ورد ذكر هؤلاء الحراس في بعض المصادر المعاصرة على أنهم جماعة يسموا "قراقجية" أى مستحفظين كما يذكر ابن العبرى [٣٧] .

وكان لذلك رد فعل سئ على السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه، الذى اعتبر ذلك عدواناً على بلاده، وإظهاراً لروح عدائية ضده، لكنه مع ذلك حاول احتواء الأمر واستمر في التعامل مع دولة المغول ليتجنب نشوب الحرب معها، إلا أن جنكيزخان واصل أعماله العدوانية ضد الخوارزمية فصادر تجارة بعض التجار، ثم ما لبث أن تراجع عن ذلك بل أمطر هؤلاء التجار ذهباً وفضة وأعادهم على بلادهم معززين مكرمين مصحوبين بوفد مكون من نحو أربعمائة وخمسين رجلاً[٣٨] مسلحين ويحملون في نفس الوقت متاجر مغولية حملت على خمسمائة جمل كل منها يحمل سلعاً تجارية من الذهب والفضة والمنسوجات الحريرية وفراء السمور وغيرها من المتاجر الغالية الثمن[٣٩]،

---

(٣٦) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ٥٠ ،
D'ohsson : Histoire des Mongols, Tom 1, p. 204

(٣٧) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٤٠٠ (تصحيح الأب أنطون صالحانى اليسوعى — بيروت)

(٣٨) ذكر ابن العبرى أنهم كانوا مائة وخمسين رجلاً . نفس المصدر ص ٤٠٠

(٣٩) العرينى : المغول ص ١١٨

لبيعها في الأسواق الخوارزمية ولشراء بعض السلع التى يحتاج إليها المغول. وواضح أن هذا الوفد لم تكن له علاقة بالتجارة، بل كان وفداً عسكرياً تخصص أفراده في التجسس والاستطلاع وجمع المعلومات، يرافقهم مبعوث مغولى يحمل رسالة إلى الخوارزمشاه من جنكيزخان يقول فيها أنه أعاد التجار الخوارزمية سالمين غانمين، ويطلب أن يعود غلمانه إليه أيضاً سالمين " بعد أن يحصلوا على طرائف تلك الأطراف" ليتأكد الوفاق بين الجانبين " (٤٠) .

وصل هذا الوفد إلى أوترار — على نهر سيحون — وهى مفتاح التجارة بين شرق آسيا وغربها ويحكمها أحد أقارب خوارزمشاه، وتحت إمرته نحو عشرين ألف فارس(٤١) ، فأدرك هذا الحاكم منذ البداية هدف هؤلاء المتظاهرين بالعمل في التجارة، وغرضهم الحقيقى هو التجسس والاستطلاع، فأرسل إلى خوارزمشاه وأعلمه بذلك، فأمر هذا بمصادرة ما معهم من متاجر وبيعها في بخارى وسمرقند(٤٢) ، كما أمر بقتلهم جميعاً، فنفذ حاكم أوترار الأمر. ويذكر النسوى أن أفراد هذا الوفد انكشف أمرهم لأنهم كانوا إذا خلو بواحد من العامة هددوه قائلين : " إنكم لفى غفلة مما وراءكم وسيأتيكم مالا قبل لكم به " (٤٣) .

ويشير المؤرخون إلى أن محصلة مصادرة ما كان مع هذا الوفد من بضائع وسلع درت أرباحاً وافرة على الخوارزمية، لا سيما وأن هذا الوفد

---

(٤٠) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٤٠٠ — ٤٠١
(٤١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣١١
النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ص ٨٥
عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ٥٢
(٤٢) ابن الأثير : الكامل ج١٢ ص ١١٦
(٤٣) النسوى : المصدر السابق ص ٨٦

تكون من نحو أربعمائة وخمسين رجلاً وربما خمسمائة رجل [٤٤] ، وعلق المؤرخ النسوى المعاصر لهذه الأحداث على ما فعله حاكم أوترار بقتل أفراد هذا الوفد ومصادرة ما معه من بضائع ومتاجر بأنه كان خطأ جسيماً [٤٥] ، إذ كان بإمكانه إعادتهم إلى جنكيزخان كما هم وبما معهم من متاجر ، بما يوضح أنه فهم الغرض من إرسالهم، وحتى لا يعطوا جنكيزخان ذريعة لإعلان الحرب على الدولة الخوارزمية ، لأنه على حد قول أحد المؤرخين، كل قطرة أريقت من دماء هؤلاء كلفت المسلمين سيلاً من الدماء، وكل شعرة من رءوسهم كلفت المسلمين مائة ألف من الأرواح [٤٦] .

أراد جنكيزخان أن يتأكد ما إذا كان خوارزمشاه نفسه هو الذى أصدر الأمر بقتل التجار المغول أم أن حاكم أوترار هو الذى قام بذلك من تلقاء نفسه فأرسل إلى السلطان يطلب تسليم حاكم أوترار إذا لم يكن السلطان هو الذى أصدر الأمر بقتل المغول، فإذا تم تسليم حاكم أوترار أمكن جنكيزخان احتواء المشكلة منعاً لتفاقم الأمور " وإلا فاذن بحرب ترخص فيها غوالى الأرواح " [٤٧] ، إلا أن خوارزمشاه أخطأ مرة ثانية ، فأمر بقتل هؤلاء الرسل أيضاً وذلك سنة ١٢١٨م / ٦١٥هـ ، أو قتل الرسول في رواية أخرى وأعاد اثنين كانا معه بعد حلق لحاهما إمعاناً في

---

(44) Barthold : op. cit. p. 398

(٤٥) النسوى : نفس المصدر ص ٨٦

(٤٦) الديار بكرى : تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس ج١٢ ص ٣٨٦
Vambery : Hist. of Bokhara , p. 116

عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ٥٣

الساداتى : المرجع السابق ص ١٨٧

(٤٧) النسوى : المصدر السابق ص ٨٧

التحقير والازدراء، وحتى يرويا لجنكيزخان قصة مصرع الرسول كما شاهداها [٤٨] .

ويعلل المؤرخون المحدثون تصرف خوارزمشاه على هذا النحو، أنه لابد كان تحت ضغوط سياسية داخلية، فضلاً عن أن حاكم أوترار كانت تربطه به أواصر قرابة وصداقة وطيدة، وله وزن سياسى ووضع اجتماعى مميز، وينتمى إلى عشيرة لها نفوذها في الدولة، بالإضافة إلى أن تسليم هذا الحاكم للمغول سيفسر من قبل هؤلاء بأنه ضعف واستسلام، ولهذا فضل خوارزمشاه قتل الرسول وتحديد العلاقة بينه وبين المغول[٤٩].

لم يعد أمام جنكيزخان إلا أن يوجه حملة لقتال خوارزمشاه، ويبدو أن ما فعله خوارزمشاه برسل جنكيزخان والتجار المغول لم يكن السبب الوحيد الذى دفع جنكيزخان لقتال الدولة الخوارزمية، بل إن من أسباب ذلك أيضاً دعوة الخليفة الناصر لدين الله جنكيزخان لقتال خوارزمشاه لما كان بين هذا وبين الخليفة من عداء[٥٠] ، بل وصف المؤرخون المعاصرون هذا الخليفة بالظلم والاستبداد وسوء السيرة، وحمّله آخرون مسئولية إطماع التتار في البلاد الإسلامية ومراسلتهم في ذلك[٥١]، فضلاً عن أن المغول وقفوا على ما غدت تعانيه الدولة الخوارزمية من ضعف واضمحلال داخلى بعد أن استقروا في الجهات المتاخمة لها، وحفزتهم في ذلك ما كان للشعوب البدوية من رغبة في غزو الشعوب المتمدينة النازلة بالأراضى الخصبة[٥٢] .

---

(48) Douglas : The life of jenghiz khan, p. 15

عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ٥٤

(٤٩) عبد السلام فهمى : نفسه ص ٥٥

(50) Morgan : op. cit. p. 53

(٥١) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج١ ص ٢١٨

(52) Barthold : op. cit. p. 400

حرص جنكيزخان على أن يتولى بنفسه قيادة الحملة ضد الدولة الخوارومية وبصحبته أبناؤه وكل جيوشه، لما توافر لديه من أن خوارزمشاه قد حشد قوات كبيرة، وأعد خططه لقتال المغول وفى خريف سنة ١٢١٩م / ٦١٦ هـ [٥٣] تقدم جنكيزخان على رأس جيوشه التى بلغت — على حد قول المؤرخين — ما بين مائة وخمسين ألف رجل ومائتى الف رجل، فضلاً عما انحاز إليه من قوات الأمراء المجاورين والتجار ومعظمهم من المسلمين الذين خطط لاستخدامهم وسطاء بينه وبين السكان الأصليين في الأراضى الخوارزمية[٥٤] .

وتذكر الروايات أن جيوش خوارزمشاه كانت تفوق في العدد قوات جنكيزخان إذ بلغ جيش خوارزمشاه نحو أربعمائة الف مقاتل، وعلى الرغم من ذلك فإنه لم يفد من هذه الميزه لأسباب متعددة أشار إليها المؤرخون منها: ما كان بينه وبين قادته من علاقات عدائية[٥٥] فضلاً عن أنه وزع فرقه العسكرية في أماكن ومواضع لم تكن بحاجة إلى ما حشد بها من جنود، خاصة تلك المواقع الحصينة داخل إقليم ما وراء النهر[٥٦]، بالإضافة إلى أنه لم يعهد بقيادة الجيش إلى قائد كفء يثق فيه الجند والقادة بل ترك الأمر لأمراء الجيش الذين لم يستحسنوا الفكرة التى عرضت عليهم بالتصدى للمغول قبل أن يدخلوا إقليم ما وراء النهر ومنعهم من عبور نهر سيحون، ورأوا أن الأفضل ترك المغول يعبرون نهر سيحون لاصطيادهم في بلاد لا يعرفون مسالكها ويمكن قطع الإمدادات

---

(٥٣) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٤٠٢

(٥٤) العرينى : المغول ص ١٢١

(55) Morgan : op. cit. p. 69

(٥٦) وضع عشرين ألف فارس في بخارى وخمسين ألفا في سمرقند، كما أمر بتشييد سور حول سمرقند وأرباضها وأعد فرقاً من الجيش في بلخ .

عـنهم وإهلاكهـم في النهايـة[٥٧] ،ووافقهـم السـلطان علـى ذلـك. ولهـذه الأسباب كلها لم تكن الأمور في صالح الخوارزمية، لا سيما أن قـواتهم لم يجتمع شملها إلا في ربيع سنة ١٢٢٠م .

وتشير الدلائل إلى أن جنكيزخان قد أفاد كثيراً من بعض العناصر الساخطة علـى خوارزمشـاه في التعـرف علـى الأحـوال السياسـية للدولـة الخوارزمية، وما كان جارياً من عداء بين السلطان والحزب العسـكرى في بلاده[٥٨]، أما الأحوال الداخلية فقد وقـف عليهـا ممـن صـحبهم في هـذه الحملة من التجـار، فضـلاً عمـا ظهـر خـلال حملتـه مـن درايتـه التامـة بالظروف الجغرافيـة[٥٩] ، ومـا أعـده مـن خطـط اسـتراتيجية، إذ خطـط لمهاجمة الخوارزمشاه ليس من جهة واحـدة، وإنمـا مـن اربـع جهـات، وقسم قواته إلى أربعـة أقسـام لهـذا الغـرض، عهـد إلى كـل قسـم بمهمـة الإستيلاء على جزء من إقليم ما وراء النهر ومفاجأة أعدائه وأخـذهم علـى غـرة دون أن يـترك لهـم فرصـة الاسـتعداد لمواجهتـه[٦٠] ، كمـا خطـط للاستفادة من سكان القرى العزل وبأعداد ضخمة فيما أزمـع حصـاره مـن مدن حصينة كعادة المغول في حروبهم التى خاضوها في الصين وفي جهات أخرى من آسيا، والاستفادة من هؤلاء أيضاً عند مهاجمـة الاسـتحكامات حيث يساق هؤلاء التعساء في المقدمة لتلقى ما ينهمر من السـهام، ولرفـع الأعلام المغولية حتى يعتقد الأعداء أن أعداد المغول لا تحصى[٦١] .

---

(٥٧) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ٥٧ — ٥٨

(58) Morgan : op. cit. p. 69

(٥٩) العرينى : المغول ص ١٢٢

(٦٠) عبد السلام فهمى : نفس المرجع ص ٥٨

(٦١) العرينى : المرجع السابق ص ١٢٢ – ١٢٣

كانت مدينة أوترار مفتاح إقليم ما وراء النهر، وهى المدينة التى قتل فيها التجار المغول، ولذلك اتجه إليها القسم الأول من الجيوش المغولية أو المجموعة الأولى من جيوش جنكيزخان ويقود هذه المجموعة جغتاى وأوكتاى أبناء جنكيزخان لمحاصرتها، واستمر حصارها نحو خمسة أشهر، ثم استسلمت المدينة بسبب ضربات المغول سنة ١٢١٩م / ٦١٦ هـ ، وقبضوا على حكامها إينال خان وأرسلوه إلى جنكيزخان[٦٢] الذى أمر بصب كمية من الفضة السائلة في عينيه وأذنيه[٦٣] ، كما نهبوا المدينة ونكلوا بأهلها .

أما مدينة بخارى فكانت أول مدينة يصل إليها جنكيزخان بنفسه وعلى رأس القسم الرابع من الجيوش المغولية أو المجموعة الرابعة ومعه ابنه تولوى وذلك في فبراير سنة ١٢٢٠م / ذى الحجة سنة ٦١٧هـ، فلم يسع قادة حامية بخارى التى بلغت نحو عشرين الف جندى إلا أن يتخلوا عنها فخرجوا منها بعد غروب الشمس " فأدركهم المغول على نهر جيحون فأوقعوا فيهم وقتلوهم كافة ولم يبق منهم أثراً "[٦٤] ، فاضطر أهل المدينة إلى الإستسلام للمغول، وتعهدوا بأن يسلموا لجنكيزخان كل ما كان في المدينة من مؤن وزاد أعد لحامية المدينة، وأن يطموا الخندق المحفور حول القلعة [٦٥] .وعلى الرغم من ذلك أمر جنكيزخان بقتل من بقى من المدافعين وكانوا نحو أربعمائة فارس، كما أمر بإجلاء السكان عن المدينة وأن يخرجوا دون أن يحملوا معهم شيئاً وبما يرتدونه فقط من ملابس، واستباح المغول المدينة وارتكبوا كل

---

(٦٢) ابن العبري : المصدر السابق ص ٤٠٢ – ٤٠٣
(٦٣) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ٥٩
(٦٤) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٤٠٧
(٦٥) العرينى : المغول ص ١٢٣

الجرائم وانتهكوا الحرمات " ورمو ما في الصناديق من الكتب وجعلوها أوارى للخيل" (٦٦) الأمر الذى حتم على كثير من سكان المدينة المقاومة وإظهار البطولة وطلب الشهادة، خاصة فئة من الفقهاء راعها ما ارتكبه المغول من فظائع مع الأسرى ومع النساء فاستشهدوا وتعرض الكثير للقتل وجرى نهب المدينة وإحراقها " فاحترقت المدينة بأسرها لأن جل عمائرها من خشب " (٦٧) ، فلم يبق من سكانها إلا من نزح منها إلى إقليم خراسان .

ساق المغول أمامهم من بقى من أهل بخارى مشاة إلى سمرقند حاضرة إقليم ما وراء النهر وقتلوا كل من عجز عن المشى، كما ساقوا سكان القرى، وكل من صادفهم في الطريق حتى وصلوا إلى سمرقند في مارس من نفس العام، فاستولوا عليها أيضاً واستباحوها ونكلوا بأهلها وقتلوا المدافعين عنها(٦٨) ، ثم وصل ولدا جنكيزخان: جغتاى وأوكتاى وانحازا إلى والدهما بعد دخول سمرقند، وأعمل المغول السيف فيمن طلب الأمان ومن سلموا أسلحتهم، وحتى من بقى من حامية المدينة ولجأ إلى المسجد الجامع تقرر قتلهم وإحراق الجامع، ويذكر المؤرخون المعاصرون أن حامية المدينة بلغت ما بين خمسين ألفاً، ومائة وعشرة آلاف فارس، وأشار مؤرخ محدث إلى أنه كان بالمدينة عشرون موضعاً أعدت للدفاع(٦٩)، فلم يبق جنكيزخان على أحد سوى بعض الصناع المهرة الذين أرسلهم إلى منغوليا، وبعض الرجال الذين أراد الاستفادة بهم فيما أزمع القيام

---

(٦٦) ابن العبرى : المصدر السابق ص ٤٠٨

(٦٧) ابن العبرى : نفسه ص ٤٠٨

(68) Morgan : op. cit. p. 69

هارولد لام : جنكيزخان ص ١٠٤ — ١٠٦

(69) Howorth : Hist. of the Mongols. Part 1, p. 79

به من حصار المدن الأخرى، وقبل أن يغادر جنكيزخان سمرقند فرض على أهلها جزية سنوية قدرها ثلاثمائة ألف دينار. وبدخول المغول سمرقند التي اعتبرها الخوارزميون خط الدفاع الأول انهارت خططهم الدفاعية وتحطمت معنوياتهم مما سهل على المغول الاستيلاء على أقاليم الدولة الخوارزمية الباقية دون كبير عناء[٧٠] .

وفي إبريل من نفس العام سير جنكيزخان جيشاً بقيادة جوجي (جوش) ويمثل المجموعة الثانية من الجيوش الأربعة، سيره إلى مدينة جند فاستولى عليها ونهبها المغول، ثم سير المجموعة الثالثة من الجيوش المغولية إلى إقليم خوارزم للسيطرة على بقية المدن في ذلك الإقليم الذى يعتبر أهم أقاليم الدولة الخوارزمية فحاصروا مدينة بناكت أربعة أيام حتى استسلمت فقتلوا حاميتها وساقوا بعض رجالها للإفادة منهم في أعمال الحصار، وجرى على خوقنده الواقعة أيضاً على نهر سيحون ما جرى على المدن الأخرى من قتل وتخريب وتدمير حتى ساقوا أمامهم من الأسرى أكثر من خمسين ألف أسير[٧١] ، وفر حاكمها إلى مدينة خوارزم التى كان يرابط فيها جلال الدين منكبرتى الابن الأكبر للسلطان الخوارزمى[٧٢] .

ويفسر المؤرخون المحدثون ما حققه المغول من انتصارات وتقدم في أملاك الإمبراطورية الخوارزمية بأنه لم يكن بسبب بطولات أظهرها المغول أو نماذج للشجاعة والاقدام من قبلهم، وإنما بسبب ما امتاز به قادتهم من مهارة وطاعة لسيدهم جنكيزخان، وما خضع له الجند المغول

(٧٠) عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص ٦٣ — ٦٤
(٧١) العرينى : المغول ص ١٢٥
(٧٢) عبد السلام فهمى : نفس المرجع ص ٦٠

من نظام صارم(٧٣) ، وما التزم به هؤلاء من تنفيذ أوامر سيدهم وقادتهم الكبار، بل إن البطولات الشخصية ونماذج الشجاعة والإقدام أظهرها كثير من المسلمين في حربهم مع المغول، إذ أشار المؤرخون المعاصرون إلى أن أهل المدن التى استولى عليها المغول " كانوا يمتنعون فيها اشد امتناع" فصار المغول " يملكون محلة محلة"(٧٤) ، فكلما اضطر الأهالى إلى إخلاء محلة ملكها المغول بعد عناء أى أظهر المسلمون كثيراً من الشجاعة والإقدام، قابلها عجز السلطان عن إعداد الجيوش إعداداً جيداً، والزام قادته بالطاعة والنظام بل والتعويل على الارتداد المستمر(٧٥) ، وإخلاء المدن ونقط الارتكاز أمام قوات جنكيزخان(٧٦) ، فضلاً عما أظهره جنكيزخان من مكر ودهاء بوقوفه على ما كان من ارتياب السلطان في قادته والحزب العسكرى في بلاده، فضاعف من هذا الارتياب وزور رسائل ادعى أنها وصلت إليه من قادة السلطان، وبعث بهذه الرسائل إلى خوارزمشاه، فازداد هذا ارتياباً في قادته(٧٧) ، وقرر الانسحاب إلى بلخ بعد فشله في منع المغول من اجتياز نهر جيحون، ثم قرر المسير إلى نيسابور في إبريل سنة ١٢٢٠م معتقداً أن المغول سوف يعودون إلى بلادهم بعد أن امتلأت أيديهم بالغنائم وما أصبح معهم من أسرى(٧٨) .

وفي الوقت الذى أرسل فيه جنكيزخان ثلاثة جيوش اجتاز أحدها نهر جيحون لمطاردة خوارزمشاه، بينما أتجه الآخران إلى إقليمين من

(٧٣) هارولد لام : جنكيزخان ص ١١٤
(٧٤) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٤١٠
(٧٥) هارولد لام : المرجع السابق ص ١٠٤
(76) Morgan : op. cit. p. 69
(77) Ibid. p. 69
(٧٨) العرينى : المغول ص ١٢٥

أقاليم الدولة الخوارزمية للاستيلاء على المدن الهامة. فكان السلطان الخوارزمى ينتقل من مدينة إلى أخرى، بعد أن استبد به الخوف واضطربت أحواله[٧٩] ، وعلى الرغم مما تهيأ له من فرصة إعداد جيش كبير للقاء المغول عندما وصل إلى بحر قزوين، إلا أنه ما لبث أن اختلف مع قادته، فتبدد أمر هذا الجيش وتفرق قادته وجد المغول في أثر السلطان دون أن يمهلوه حتى يجمع لهم الجند، فما لبثوا أن فقدوا أثره تماماً عند همدان، في الوقت الذى غادرها هو سراً في نفر قليل متجهاً إلى جزيرة آبسكون[٨٠] ، فمضى المغول فأغاروا على آذربيجان ونهبوا إردبيل، ثم انسحبوا إلى شاطئ بحر قزوين، واشتبكوا في قتال مع الكرج، على حين إلتجأ السلطان إلى تلك الجزيرة في بحر قزوين (آبسكون) بمساعدة أهالى المنطقة، إلا أنه حزن كثيراً على وجوده في جزيرة نائية بعيدة عن العمران، فمرض مرضاً شديداً، ولما علم أن والدته تركان خاتون قد وقعت في أيدى المغول، كما أسر أيضاً بعض أطفاله ونسائه وقتلهم المغول عن آخرهم، اشتد عليه المرض[٨١] ، وما لبث أن جاز إلى ربه، فلم يجدوا ما يكفنونه به إلا ثوبه الذى كان يرتديه[٨٢] ، وذلك في ديسمبر سنة ١٢٢٠م/ شوال سنة ٦١٧هـ ، بعد أن عهد بالحكم من بعده لابنه جلال الدين منكبرتى وقد أمل في قدرته على الثأر من أعدائه كما يذكر المؤرخون المعاصرون[٨٣] .

---

(٧٩) هارولد لام : جنكيزخان ص ١٠٨

(٨٠) الذهبى : العبر في خبر من غبر جـ٥ ص ٧٠، وجزيرة آبسكون في بحر قزوين لا تبعد كثيراً عن ساحل مازندران .

(٨١) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ٧٣

(٨٢) الساداتى : المرجع السابق ص ١٩١

(٨٣) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ص ١٢٠

ويشير المؤرخون إلى هذه النهاية بأنها كانت نهاية مأسوية لسلطان حكم معظم ما كان خاضعاً للدولة السلجوقية، وكان تحت إمرته قوات ضخمة من ورائها قوى بشرية عظيمة، ولكنه مع ذلك لم يستطع الإفادة من ذلك في صد التتار، على الرغم مما أظهرته قواته الإسلامية من الشجاعة والإقدام، وما قدمته من تضحيات وبطولة[٨٤] ، فقد أفاد المغول من عوامل الضعف التى بدت في كيان هذه الإمبراطورية، وما كان من نزاع بين السلطان وقادته العسكريين [٨٥] ، وما كان من اختلاف بين عناصر ذلك الجيش، وما حدث من انضمام بعض فرق الجيش من الأتراك إلى المغول، أو العزوف عن قتالهم، فضلاً عما اشتهر به خوارزمشاه من قسوة وعنف مع بعض طوائف شعبه خاصة رجال الدين[٨٦] ، وعدائه أيضاً للخليفة العباسى[٨٧] ، الأمر الذى دفع الخليفة العباسى لمراسلة جنكيزخان[٨٨] ، وحثه على غزو الدولة الخوارزمية، كل ذلك كان له إسهام فيما لحق به من هزائم والنهاية المأسوية التى انتهى إليها .

وأسفرت هجمات المغول هذه عن استيلائهم على بلاد ما وراء النهر، حيث عين جنكيزخان حاكماً على بخارى، وعهد إليه بإقرار الأمور في الإقليم كله، وإعادة الهدوء والسلام إلى تلك الجهات، في الوقت الذى استأنف فيه جنكيزخان التقدم، فهاجم مدينة ترمذ بعد أن ألقى الحصار عليها أحد عشر يوماً، استسلمت بعدها فقرر قتل سكانها

---

(٨٤) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٤١٠

(85) Morgan : op. cit. p. 69

(٨٦) العرينى : المغول ص ١٢٧

(87) Morgan : op. cit. p. 69

(٨٨) هارولد لام : جنكيزخان ص ٩٥

وتدميرها تماماً ثم اتجه جنكيزخان ليعسكر على شاطئ نهر جيحون، وعلى هذا اقتصرت هجمات المغول على الأقاليم التابعة لخوارزم، والتى انضمت إلى مملكة خوارزم زمن السلطانين تكش وعلاء الدين محمد، ولم تمس حتى الآن إقليم خوارزم نفسه [٨٩] .

ثم جاء الدور على عاصمة خوارزم جرجانية، إذ حشد جنكيزخان نحو مائة ألف جندى للهجوم على خوارزم أسهم ولداه جغتاى وأوكتاى بجيشاهما في الهجوم على جرجانية، ومثلا الجناح الأيمن لجيش المغول في الوقت الذى اندفع فيه جوجى (جوشى) على رأس جيشه قادماً من الشمال الشرقى [٩٠] ، وحرص جنكيزخان على حشد كل ما يمكن حشده للهجوم على هذه العاصمة لما يعلمه من حصانتها من ناحية، وما امتازت به حاميتها من الأتراك من الشجاعة والإقدام من ناحية أخرى، ولهذا استمر حصارها نحو سبعة أشهر، أظهرت خلالها الحامية وأهل المدينة ضروباً من الشجاعة والإقدام، وسطرت قصصاً من البطولة والفداء فأحدثوا في المغول خسائر جسيمة [٩١]، وكلما امتلك التتار محلة قاتلهم الناس في المحلة التى تليها، وظل الأمر على ذلك حتى سقطت المدينة في أيدى التتار، فقتلوا من فيها ونهبوا كل ما كان فيها، ونقلوا أكثر من مائة ألف من الصناع المهرة وأرباب الحرف إلى المناطق الشرقية وسبوا النساء والأطفال [٩٢]، ثم ما لبثوا أن دمروا المدينة تدميراً تاماً وحطموا السد الذى يمنع ماء نهر جيحون عن المدينة فاندفعت المياه إلى داخل المدينة وغمرتها كلها وهدمت معالمها، وغرق في

---

(٨٩) العرينى : نفسه ص ١٢٩
(٩٠) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ٦٦
(٩١) عبد السرم فهمى : نفسه ص ٦٦
(٩٢) العرينى : المغول ص ١٢٩

الماء أو تحت الأنقاض كل من أفلت من القتل، وكان سقوط جرجانية في إبريل سنة ١٢٢١م / ربيع الأول ٦١٨هـ وعهد جنكيزخان بخوارزم إلى جوجى، فأصبح إقليم خوارزم المعبر إلى خراسان[٩٣] .

وفي الوقت الذى واصل فيه جنكيزخان غزو خراسان، كان السلطان الجديد جلال الدين منكبرتى خوارزمشاه قد اجتاز خراسان ومعه ثلاثمائة فارس فقط، وعلى الرغم من ذلك التقى بالمغول واشتبك معهم وقتل منهم عدداً كبيراً [٩٤] ، إلا أنه اضطر في نهاية الأمر إلى الفرار لقلة رجاله وكثرة عدد المغول[٩٥] ، فاتجه ناحية نيسابور ووصل فعلاً إليها، ثم اتجه إلى غزنة، بينما لقى أخواه مصرعهما على أيدى المغول بالقرب من نسا، وبعد وصول السلطان الجديد إلى غزنة، قرر اتخاذها قاعدة للنضال ضد المغول، ورحب به أهلها وانضوى تحت لوائه أعداد غفيرة من المتطوعين، فاستطاع تكوين جيش بلغ عدده على حد قول المؤرخين المعاصرين سبعين ألف فارس[٩٦] .

مضى جنكيزخان في استكمال فتح خراسان، فاجتاز نهر جيحون في ربيع سنة ١٢٢١م / ٦١٨هـ ، بعد استيلائه على ترمذ. اتجه إلى بلخ فاستسلمت المدينة " وخرج إليه أعيانها" وبذلوا الطاعة وحملوا الهدايا وأنواعاً من المأكل والمشرب، فلم يقبل عليهم ... بل أمر بخروجهم إلى الصحراء ... ورمى فيهم السيف " [٩٧] ، ثم جعل فيها حامية، واستولى على بعض المدن الأخرى بعد أن قتلوا من فيها، ثم عهد جنكيزخان إلى

---

(93) Morgan : op. cit. p. 69

(٩٤) هارولد لام : جنكيزخان ص ١١٨

(٩٥) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ٦٦

(٩٦) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ص ١٣٢ — ١٣٣

(٩٧) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٤١١

ولده تولوى المضى في إتمام فتح خراسان على رأس نحو عشرة آلاف من المغول بخلاف من ساقوه أمامهم من السكان التعساء، ونجح تولوى في إخضاع أهم مدن هذا الإقليم[98] ، ثم اتجه إلى مرو عاصمة خراسان، والتى اشتهرت بالثراء والغنى فحاصرها خمسة أيام ثم استسلمت وقبض على وجهائها، وأمر أن يخرج أهل المدينة منها فأمر بضرب أعناق الجند وعذب أرباب المال في طلب أموالهم، ثم حرقوا المدينة وقتلوا أهلها كلهم " وأحصوا القتلى فكانوا نحو سبعمائة ألف قتيل" [99] ، وأبقوا على نحو أربعمائة رجل من الصناع .

وكان تدمير مدينة مرو عاصمة خراسان والمقر القديم لسلاطين السلاجقة العظام والتى ضمت قبر السلطان سنجر، الذى نبشه التتار طلباً للمال ظناً منهم أنهم سيجدون فيه ذهباً وفضة، وجاء تدمير هذه المدينة كارثة مروعة وخسارة جسيمة للمسلمين في آسيا، فقد زخرت بالمكتبات وكتب التراث، وضمت العلماء والكتاب والمفكرين والأئمة، فأتى التتار على كل ذلك[100] ، ودمروا ما بها من قصور ودور ومكتبات ولم يتركوها إلا خرائب غدت موطناً للبوم والغربان، وعلى الرغم مما أبداه أهلها وشبابها من ضروب الشجاعة والاقدام أو كما قال ياقوت الحموى: " بأن أطفالهم كانوا رجالاً ، وأن شبابهم لأبطال وأن شيوخهم لأولياء الله"[101].

ثم اتجه تولوى على رأس جيشه إلى نيسابور في نفس السنة، فألقى الحصار عليها خمسة أيام ثم دخلها المغول بعد أيام من الاستيلاء

(98) Morgan : op. cit: p. 69

(٩٩) ابن الأثير : الكامل ج١٢ ص ١٨١
(١٠٠) العرينى : المغول ص ١٣١
(١٠١) ياقوت الحموى : معجم البلدان " مرو "

على مرو، أى في إبريل من نفس العام، وأمر تولوى بقتل أهلها فكانت مذبحة مروعة، حتى قدر عدد القتلى من سكان المدينة بنحو مليون ونصف مليون [١٠٢] ، وسبى حريمها وخربوا المدينة بحثاً عن الأموال، ولم يبقوا إلا على نحو أربعمائة من الصناع وأرباب الحرف كعادتهم، ثم لقيت مدينة هرات والتى كانت تعد آخر مدن خراسان الهامة نفس المصير، فقتل من أهلها اثنى عشر ألف شخص من السكان، ووضع المغول فيها حامية وعينوا حاكماً على المدينة، فأتم التتار بذلك الاستيلاء على إقليم ما وراء النهر وخراسان [١٠٣] .

وكان السلطان الجديد جلال الدين قد أفلت من المغول، ونجح في أن ينزل بهم هزيمة بالقرب من بروان شمالى كابل — كما سبق وأن أشرنا — ووصل إلى نيسابور ثم إلى غرنة، وفي غرنة أتيح له أن يستقبل عدداً كبيراً من المقاتلين الذين انضموا إليه، فشكل منهم جيشاً تولى بنفسه قيادته في نفس العام ١٢٢١م / ٦١٨هـ ، ثم اتجه على رأسه صوب الشمال، فوجه إليه جنكيزخان جيشاً ضم ثلاثين ألف مقاتل، فالتقى الطرفان في معركة ظلت مستعرة بين الجانبين مدة يومين، وانتهت آخر الأمر بانتصار جلال الدين انتصاراً باهراً على المغول، بعد أن سالت الدماء وغطت الأودية القريبة[١٠٤]، وانسحب قائد جيش المغول بفلول جيشه إلى جنكيزخان بعد أن منى بخسائر فادحة، أكدت أنه كان يمكن إلحاق الهزائم بالمغول ومنعهم من التقدم في أملاك الدولة

---

(١٠٢) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ٧٠

(103) Morgan : op. cit. pp. 75 – 6

العرينى : المغول ص ١٣٢

(١٠٤) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ص ١٣٤

الخوارزمية، وأتيح للخوارزمية الانتقام في تلك الموقعة من أسرى المغول انتقاماً شديداً إذ كانوا يدقون الأوتاد في آذان الأسرى (١٠٥).

لكن الروايات تذكر أنه بعد تحقيق هذا النصر، عاد قادة الجيش الخوارزمي للتنازع على اقتسام الغنائم، وظهرت من جديد العصبية بين عناصر ذلك الجيش(١٠٦) ، فسارع معظم القادة إلى التخلي عن جلال الدين، الأمر الذى أعطى للمغول من جديد فرصة استئناف عملياتهم، واجتياح ما بقى من هذه الدولة، والقضاء على ريحها، فقد استأنف جنكيزخان تقدمه لملاقاة جلال الدين لمحو آثار ما لحق بالمغول من هزيمة، فاضطر جلال الدين إلى الانسحاب، وإخلاء المواقع أمام المغول، بعد أن تخلى عنه قادته وتقلصت قواته(١٠٧) .

تقدم جنكيزخان من ناحية غزنة قاصداً اللحاق بالسلطان جلال الدين، إلا أن هذا كان قد تراجع عنها متجهاً إلى نهر السند، فاحتلها جنكيزخان في يسر وسهولة وعين حاكماً عليها، وأسرع للحاق بالسلطان، قبل أن يجتاز نهر السند، فلحق به ودارت معركة حامية، أظهر فيها السلطان جلال الدين شجاعة فائقة، رغم قلة قواته وسوء الظروف التي خاض فيها تلك الحرب، واشتد القتال في تلك المعركة التى دارت في ٢٤ نوفمبر سنة ١٢٢١م / رمضان سنة ٦١٨ هـ ، فشق السلطان طريقه بين جنود التتار بشجاعة نادرة إذ " حمل عليهم حملات وشق صفوفهم مرة بعد مرة " (١٠٨) حتى وصل إلى النهر، وألقى بنفسه فيه

---

(١٠٥) النسوي : المصدر السابق ص ١٣٤

(١٠٦) النسوى : نفس المصدر ص ١٥٥

(107) Morgan : op. cit. p. 71

(١٠٨) ابن العبرى : المصدر السابق ص ٤١٢

ممتطياً حصانه، الأمر الذى نال إعجاب جنكيزخان، فمنع رجاله من قذفه بالسهام، وأشاد بشجاعته وإقدامه، ولحق بجلال الدين نحو أربعة آلاف من رجاله(١٠٩) في الوقت الذى غرق فيه الباقون غير من وقع في أسر المغول ومن ضمنهم أحد أبناء السلطان وكان طفلاً دون الثامنة، فقتله جنكيزخان بيده، بينما غرقت والدة السلطان وأم ابنه وحريمه في النهر ولم يبادر أحد لإنقاذهم خوفاً من أن يقعوا في أسر المغول(١١٠) ، بينما ألقى السلطان بكنوزه من الذهب والفضة في نهر السند حتى لا تقع في أيدى المغول، فأمر جنكيزخان بعض رجاله الغواصين بإخراجها، فأخرجوا بعض هذه الكنوز (١١١) .

وأعقب ذلك ما أمر به جنكيزخان من تدمير غرنة، وقتل جميع سكانها باستثناء الصناع وأرباب الحرف، وكذلك أمر جنكيزخان بتخريب مدينة هرات، وقتل سكانها، ونهب ما فيها من أموال بعد سبى حريمها، ثم إحراقها في النهاية، وبلغ عدد سكانها القتلى نحو مليون ونصف مليون من الأنفس(١١٢) .

تقدم التتار نحو بلاد الكرج (جورجيا) فخربوها حتى بلغوا مدينة تفليس ثم عادوا إلى مراغة سنة ١٢٢٢ م / ٦١٨ هـ ، فألقوا الحصار عليها، ثم استولوا عليها وقتلوا من أهلها أعداداً كبيرة ونهبوا كل ما وقع في أيديهم، ثم وصلوا إلى إربل ، ثم عادوا إلى همدان التى

---

(١٠٩) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ٧٨
السادانى : المرجع السابق ص ١٩١
(١١٠) ابن الوردى : تتمة المختصر في أخبار البشر ص ١٥٥
النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ص ١٥٩
(١١١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٤١٢ — ٤١٣
(112) Morgan : op. cit. p. 76

قتلوا معظم أهلها ونهبوا ما فيها، وكذلك فعلوا في إردبيل وتبريز في نفس العام، ثم اجتازوا إلى بلاد القوقاز، فهزموا القفجاق فهرب بعضهم إلى بلاد الروس، فبعث الأمراء الروس جيشاً لقتال التتار إلا أنه لقى هزيمة " فلم يبق على قيد الحياة من أمراء كييف أو جنودهم الجسورين سوى القليل" (١١٣) وذلك عند بحر أزوف في مايو سنة ١٢٢٢ م / ٦١٩ هـ ، ثم ساروا شرقاً فاجتازوا نهر الفلجا، وهزموا جيشاً بلغارياً، ودانت لهم جميع المناطق الواقعة حول بحر قزوين .

ولم يمض على ذلك سوى عامان إلا وكان المغول قد اجتاحوا الرى وساوة وقم وقاشان وهمدان، وأنزلوا الهزائم بسكان هذه البلاد وأمعنوا في قتل أهلها(١١٤) ، ونهب كل ما يقع في أيديهم من أموال ومتاع . ويشير المؤرخون المعاصرون إلى أنه أينما صار المغول لقى السكان مصرعهم، وتحولت الأراضى إلى صحراوات، حتى ذهب أحد هؤلاء المؤرخين إلى القول من أنه لم يفلت من أيدى المغول سوى شخص واحد من كل ألف شخص، وفي ذلك تصوير لما حاق بالناس من بؤس وشقاء ثم القتل في النهاية بطرق غاية في الوحشية، إرضاء لجنكيزخان الذى أثر عنه أنه قال : " إن منتهى السعادة أن تسحق أعداءك وتراهم يركعون عند قدميك وأن تستولى على خيولهم ومهماتهم، وأن تسمع نحيب النساء وعويلهم"(١١٥) . وما حل بالبلاد التى وطأتها أقدام جنكيزخان وجنده من الخراب والدمار ظلت آثاره باقية قروناً عديدة (١١٦) .

---

(١١٣) هارولد لام : جنكيزخان ص ٩١
(١١٤) العرينى : المغول ص ١٣٧
(١١٥) هارولد لام : جنكيزخان ص ٩١
(١١٦) العرينى : المرجع السابق ص ١٣٨ — ١٣٩

لم يجد جنكيزخان مبرراً لعبور نهر السند لاقتفاء أثر السلطان جلال الدين خوارزمشاه بعد أن نجح في تحطيم جيشه، بل تشير الروايات إلى أنه تلقى أنباء ثورة وتمرد قام به ملك التانجوت، فقرر جنكيزخان العودة إلى بلاده عن طريق الهند وجبال الهملايا والتبت، إلا أنه وجد الطرق عبر هذه الجبال قد أغلقتها الثلوج فقرر العودة إلى بلاده من حيث أتى، في الوقت الذى تلقى فيه نبوءات من المنجمين بألا يسير إلى الهند، بل إنه في هذه المناسبة استدعى إليه أحد حكماء الصين، وطلب منه أن يمنحه دواء الخلود(١١٧) ، إلا أن هذا الحكيم أجابه بأنه لا دواء للخلود بل إن هناك من الوسائل ما يحفظ الصحة، فامتدح جنكيزخان ذلك الحكيم وأعاده معززاً مكرماً إلى بلاده(١١٨) .

بدأ جنكيزخان رحلة العودة إلى بلاده في مارس سنة ١٢٢٢م / صفر سنة ٦٢٠ هـ فاجتاز جبال باميان وأمضى الصيف في براري المنطقة في الصيد، ثم عبر نهر جيحون في خريف نفس العام وأمضى الشتاء في سمرقند، ثم استأنف سيره في ربيع العام التالى (١٢٢٣م) حتى نهر سيحون، حيث اجتمع بأولاده: جغتاى وأوكتاى وعقد مجلس الأعيان، ثم اجتمع مع ابنه الثالث جوجى (١١٩) ، ولم يعد جنكيزخان إلى منغوليا إلا في سنة ١٢٢٥م . والراجح أنه أمضى مدة على ضفاف نهر ارتش، بعد أن استقر حكم المغول تماماً في إقليم ما وراء النهر وفى خوارزم منذ ذلك التاريخ (١٢٢٣م) ، وأقام جوجى بن جنكيزخان على حكم خوارزم وخراسان ومازندران ومساحات شاسعة، وربما أغرته هذه الممتلكات

---

(١١٧) هارولد لام : جنكيزخان ص ١٢٤
(118) Barthold : op. cit. pp. 450 – 3
العريني : المغول ص ١٤٠ — ١٤١
(١١٩) هارولد لام : جنكيزخان ص ١٢٥

الواسعة بمحاولة الاستقلال عن دولة والده، وكانت في نفس الوقت سبباً فيما وقع بينه وبين والده من نزاع، إلا أنه ما لبث أن توفى فجأة[١٢٠] ، وقيل أن والده هو الذى أمر بدس السم له فمات لما بدا منه من محاولة امتلاك بلاد القفجاق وانقاذها من الدمار والخراب، وعدم موافقته على ما كان المغول يقومون به من تخريب وتدمير ورغبته في الاتفاق مع المسلمين، وقيل أيضاً أن موته حال دون اندلاع الحرب بينه وبين والده، الذى كان قد عزم على السير إليه لمحاربته[١٢١] ، فقد امتنع جوجى عن الحضور إلى مجلس والده، متعللاً بأنه مريض، ولكن جنكيزخان تأكد من أنه لم يكن مريضاً[١٢٢] .

وبعودة جنكيزخان إلى بلاده تمت مرحلة هامة من مراحل توسع التتار، فقد قضى شتاء سنة ١٢٢٥ — ١٢٢٦ م والصيف التالى له في معسكره على نهر التولا من روافد نهر أورخون حيث تجاوز عمره حينئذ سبعين سنة ، بعد أن أخضع البلاد والأقاليم الممتدة من بكين إلى نهر الفولجا، وأصر أيضاً على أن يخضع مملكة التانجوت بالصين بعد أن طرح ملكها طاعته ورفض المشاركة في قتال خوارزمشاه، وفى نفس الوقت أراد جنكيزخان إكمال فتوحاته في الصين بعد استيلائه على الصين الشمالية، فبدأ هذه الحرب في ربيع سنة ١٢٢٧م ، إلا أنه ما لبث أن توفى في ١٨ أغسطس سنة ١٢٢٧ م [١٢٣] ، بعد أن قتل في هذه الحرب ودمر وخرب على عادته حتى أن " جثث القتلى غطت الحقول" وأكمل

(120) Morgan : op. cit. p. 112

(١٢١) العرينى : المغول ص ١٤٢

(١٢٢) هارولدلام : جنكيزخان ص ١٣٧

(123) Morgan : op. cit. p. 72

التتار اجتياحهم لمملكة التانجوت استجابة لمشيئة الغازى الراحل[١٢٤]، وفي طريق عودة المغول ومعهم عربة الموت تحمل جثمان جنكيزخان كان المغول يقتلون كل من يقع أبصارهم علي عربة الموت المارة أمامهم، حتى لا يعرف أعداؤهم أن جنكيزخان قد انتهت حياته، أو لعلهم أرادوا أن تصحب أرواح هؤلاء القتلى الخان في رحلته إلى خارج العالم [١٢٥].

وفي سنة ١٢٢٩م احتفل خليفته بذكراه على الطريقة التترية بتقديم الضحايا إذ أمر بتقديم الطعام لروح والده (جنكيزخان) لمدة ثلاثة أيام، وجرى اختيار أربعين فتاة من أجمل بنات الأسرات النبيلة والقادة العسكريين، وقد ارتدين أفخر ما لديهن من الثياب وتزين بأثمن ما عندهن من الحلى وإرسالهن ليخدمن جنكيزخان في الآخرة يضافِ إلى ذلك التضحية بعدد من الجياد الأصيلة [١٢٦] .

وهكذا نجح المغول في اكتساح الدولة الخوارزمية في فترة قصيرة ربما لم تزد عن اربع سنوات لأن جنكيزخان بدأ حربه ضدها في خريف سنة ١٢١٩م / ٦١٦ هـ ، وتم له اخضاعها تماماً سنة ١٢٢٣م حين عاد إلى منغوليا عبر نهر سيحون، بعد أن تم له تخريب مدنها ومعالمها وقتل أعداد لا تحصى من سكانها في فترة قصيرة بالنسبة لمعظم المساحة التى استولى عليها من أراضى هذه الدولة، وخرب أعظم مراكز الثقافة الإسلامية هناك في سمرقند وبخارى وجرجان ومرو ونيسابور[١٢٧].

---

(١٢٤) العرينى : المرجع السابق ص ١٤٣
(١٢٥) هارولد لام : المرجع السابق ص ١٤٥ — ١٤٦
(١٢٦) العرينى : المغول ص ١٤٤
(١٢٧) الساداتى : المرجع السابق ص ١٩٢

الفصل العاشر

توسعات التتار بعد جنكيز خان في أوربا والشرق الادنى

- تقسيم إمبراطورية المغول بعد وفاة جنكيز خان .
- اعتلاء اوكتاى عرش الامبراطور خانا أعظم .
- ولاية كيوك بعد فترة وصاية والدته على العرش .
- انتقال الحكم إلى مونكو بن تولوى .
- قوبيلاي الخان الأعظم للمغول سنة ١٢٦١م .
  - تكليف هولاكو بحكم خانية فارس نائبا عن الخان الأعظم وتكليفه بالتوسع غربا .
  - موقف هولاكو من المسيحية والمسيحيين .
  - ابغا بن هولاكو يخلف والده في حكم فارس وموقفه ايضا من المسيحية والمسيحيين .
  - تكودار بن هولاكو يخلف أخاه في حكم فارس .
  - أرغون بن أبغا حفيد هولاكو يحكم خانية فارس حتى سنة ١٢٩١م.
- توسعات المغول بعد جنكيز خان .
  - مطاردة جلال الدين منكبرتى حتى مقتله سنة ١٢٣١م في جبال كردستان.
  - استيلاء المغول على آسيا الصغرى فضلا عن فارس وبلاد الكرج وأرمينيا وبلاد الجزيرة .
- توسعات المغول في أوربا .

• تـدمير مملكـة البلغـار • اجتيـاحهم لروسـيا وسـيطرتهم علـى الامارات الروسية .

• اجتياحهم لبولندا وقتلهم لدوقها وتخريبهم لمورافيًا .

• اجتيـاجهم لـبلاد المجـر واخضـاعهم الـبلاد حتـى نهـر الـدانوب وسهوب البلقان .

• وفاة الخان الاعظم أوكتاى سنة ١٢٤١م ينقذ غرب أُوربا من هجـوم التتار .

– توسعات المغول على حساب طائفة الاسماعيليـة الشـيعة جنـوب بحـر قزوين وفارس والعراق .

– اثر هجمات المغول على أُوربا حكاما وبابوات .

– اجتياح المغول للخلافة العباسية وتدمير بغداد سنة ١٢٥٨م.

– اجتياحهم لبلاد الشام واتجاههم نحو مصر.

– هزيمة المغول في عين جالوت سنة ١٢٦٠م ونهاية خطرهم على الشـرق الادنى وأوربا.

كان جنكيز خان قد قسم إمبراطوريته بين أبنائه قبل وفاته، طبقاً لنظم المغول وقانون الياسا ،فخص جوجى أكبر الأبناء بما جرى الاستيلاء عليه من البلاد النائيه صوب الغرب من فتوحات جنكيز خان، متضمنة منطقة القفجاق حتى حدود بلغار نهر الفولجا وكل الإمارات الروسية في شرق اوربا ،فضلا عن منطقة جنوب القوقاز وغرب بحر قزوين[١] ، ونظرا لوفاة جوجى في حياة أبيه ،فقد نال هذا القسم ابنه باتو حفيد جنكيز خان الذى اشتهر بعذوبة حديثة ورقة عاطفته وشدة تعقله ورزانته ،مما جعله يقوم بدور حاسم فيما نشب من نزاع على ولاية العرش المغولى بعد وفاة جنكيز خان[٢] ،وكانت المنطقة الواقعة بين نهر ارتش وسواحل بحر قزوين ،والتى حظى بها باتو هذا تسمى منطقة القفجاق او منطقة القبيلة الذهبية golden horde،نظرا لأن خيام المعسكرات في هذه المنطقة كان لونها ذهبى ، فأطلق عليها القبيلة الذهبية، وكان أغلب سكانها من الترك والتركمان[٣] .

ونال الابن الثانى جغتاى إقليم ما وراء النهر وكاشغر وبلخ وغزنة، فضلا عن منطقة البرارى التى كانت تحتلها دولة الخطا من قبل، وامتدت من بلاد الأويغور شرقا حتى بخارى وسمرقند في إقليم ما وراء النهر[٤] .

---

(1) Morgan : Op.cit.pp.112-113

(٢) العرينى : المغول ص١٥٧-١٥٨

(٣) المقريزى :السلوك لمعرفة دولة الملوك ج١ ص٣٩٤-٣٩٥(حاشية ٤)
عبد السلام فهمى :تاريخ الدولة المغولية ص١٠٠

(4) Morgan :Op.cit.p.113

أما الابن الثالث أوكتاى فقد اختص بالمنطقة الممتدة إلى غربى منغوليا والواقعة بين سلسلة جبلية وأطراف إحدى البحيرات وحوض نهر إيميل ، وهى المنطقة المتجهة صوب بلاد النايمان (٥) ، وكان نصيب هذل الابن أقل نصيب وزعه جنكيز خان على اولاده .

أما أصغر أبناء جنكيز خان وهو تولوى ،فكانت القواعد تقضى بأن يحظى بالوطن الأصلى أى منغوليا ، والتى تشمل وديان الأنهار الهامة :نهر كرولين ونهر أونون وأعلى نهر تولا، وتتضمن عاصمة إمبرطورية المغول وهى قرة قورم (٦) ، وقد ظل تولوى هذا يحكم الإمبراطورية بعد وفاة جنكيز خان مدة عامين ١٢٢٧ -١٢٢٩م ،طبقاً لقوانين المغول وتعليمات الياسا بوصفه وصياً على العرش المغولى حتى ينتخب الخان الجديد خلفاً للخان الراحل ،وطبقا لهذا اختص تولوى بما كان لوالده من المخيمات التى هى مقر الحكم ،فضلاً عن الجانب الأكبر من جيش المغول (٧) .

وكان جنكيز خان قد اختار ابنه الثالث أوكتاى ليخلفه في الحكم، نظراً لما امتاز به هذا الابن من الذكاء واتساع الأفق ونشاطه الوافر وشدة عاطفته وكذلك لصلابته ،كما اشتهر أوكتاى هذا بحبه للعدل والعطف على الرعية ، كما عرف عنه ميله للمسلمين وعطفه عليهم عكس ما أبداه أخوه جغتاى من غلظة وقسوة على الإسلام والمسلمين ،فضلاً عما اشتهر به أوكتاى من الكرم الشديد (٨) ، وبعد نحو سنتين من وصاية تولوى على

(٥) العرينى : المرجع السابق ص١٥٨

(٦) عبد السلام فهمى :المرجع السابق ص١٠١

(7) Morgan : Op.cit.p.113-114

(٨) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص١٠٣

العرش انعقد المجلس العام في ربيع سنة ١٢٢٩م لاختيار الخان الأعظم فعرض الأمراء على أوكتاى العرش المغولى ،فتردد طويلاً في قبول المنصب، ولكنه عاد في النهاية فنزل على رأى الأمراء وقبل المهمة ، وأعلن الأمراء الولاء له والمناداه به خانا أعظم في ١٣ سبتمبر سنة ١٢٢٩م، وقاده أخوه الأكبر جغتاى إلى العرش ليمتد حكمه من سنة ١٢٢٩ الى سنة ١٢٤٢م(٩).

ومن أهم أعمال أوكتاى الداخلية اهتمامه بالعاصمة قراقورم (١٠) ، التى أدار حولها سوراً ،وتقوية الصلة بين موطن المغول الأصلى وبين ما حازه أوكتاى من إقطاع على نهرى أرتش وإيميل وكذلك الاهتمام بالنظام الإدارى في الإمبراطورية بعد أن غلبت عليها الصفة العسكرية ،وتنظيم الدواوين تقليداً لما شهده المغول في الدول المتحضرة في الصين وبلاد ما وراء النهر ، وإنشاء نظام البريد والاهتمام بميزانية الدولة ومواردها من الضرائب نقداً ونوعاً، والاهتمام بالتعليم في المدارس على نسق ما كان جاريا في الصين(١١) .

توفي أوكتاى في ديسمبر سنى ١٢٤١ م ،فتولت الوصاية على العرش أرملته (١٢)، التى ظلت تدير شئون الإمبراطورية المغولية حتى سنة ١٢٤٦ م ،نظراً لما اشتهرت به من المهارة والنشاط ، وفي صيف سنة ١٢٤٦ م انعقد المجلس العام واختار الأمراء كيوك ابن أوكتاى وابن

---

(٩) العرينى : المغول ص١٥٩–١٦٠

(10) Morgan :Op.cit.p.114

(١١) العرينى : المرجع السابق ص ١٦١ –١٦٢

(١٢) اسمها توراكينا خاتون وكانت مسيحية انظر : عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ١٠٣

هذه الوصية خاناً أعظم على المغول، تولى العرش في أغسطس من نفس العام ،ولم يقبل هذا الولاية إلا بشرط أن يبقى الحكم وراثيا في سلالته ، ثم تلقي من الأمراء يمين الولاء والخضوع (١٣) ، وظل يحكم من سنة ١٢٤٦ الى سنة ١٢٤٨ م .

واشتهر كيوك هذا بالنشاط الوافر والاعتزاز بالنفس وحب الانضباط، فقرر منذ البداية أن يلتزم الجميع بما كان جارياً زمن جنكيز خان من قواعد ، فهيمن على شئون الإمبراطورية وأشرف بنفسه على كثير من شئون الأقاليم ، وتدخل بقراراته في إحلال وتبديل المناصب ، وحرص على أن يوقف الميل إلى الاستقلال عند سائر فروع بيت جنكيزخان فاصطدم بكبير بيت جوجى بن جنكيز خان وهو باتو خان القفجاق وحاكم أقاليم أوربا المسيحية ،وكادت تحدث الحرب بينهما لولا أن توفي كيوك فجاة سنة ١٢٤٨م (١٤) .

انتقل الحكم بعد ذلك الى أكبر أبناء تولوى (حفيد جنكيز خان) ويسمى مونكو بترشيح من باتو ،فاختير خاناً أعظم ،وأقر مجلس الأمراء هذا الانتخاب في يوليو سنة ١٢٥١م ،فانتقل عرش الإمبراطورية من بيت أوكتاى إلى بيت تولوى ،بعد فترة انتقالية صارت الوصاية فيها لأرملة الخان الراحل (كيوك) مدة تقترب من ثلاث سنوات (من إبريل سنة ١٢٤٨م إلى يوليو سنة ١٢٥١م) رغم المعارضة الشديدة التى أبداها بيت أوكتاى وبيت جغتاى لهذا الاختيار والتى تعرضا بسببها للانتقام الشديد بالقتل والنفي والتشريد والسجن (١٥)،ولكن الخان الجديد كان في

(١٣) العرينى : المرجع السابق ص١٨٩

(14) Morgan :Op.cit.p.116

(15) Grousset : L Empire des Steppes ,pp.340-41

وثام مع باتو الذى نقل مقر سلطته إلى الروافد السفلى لنهر الفولجا ، حتى يتسنى له السيطرة على أتباعه الأمراء في روسيا ،وأنشأ بتلك البلاد الخانية التى عرفت بدولة القفجاق ،والتى اشتهرت باسم دولة القبيلة الذهبية كما سبق أن أشرنا golden horde ، في الوقت الذى انتقل فيه حكم فارس إلى يد هولاكو ثالث إخوة مونكو [١٦].

ويعتبر مونكو أشهر خانات المغول بعد جنكيز خان ،وحكم فيما بين سنتى ١٢٥١ و ١٢٥٩م ، وحرص على التمسك بما أصدره جنكيزخان من قوانين ،وكان بارعاً في إدارة الإمبراطورية شديد التمسك بالعدالة ، كما كان جنديا باسلاً وسياسياً ماهراً فجعل الإمبراطورية المغولية دولة بالغة القوة[١٧]، خاصة بعد وفاة باتو سنة ١٢٥٥ م ،إذ انفرد مونكو بالحكم في الإمبراطورية المغولية ، ومنع ما كان جارياً من نزعة استقلالية لدى بعض الأمراء المقطعين ،ولو تمسك خلفاؤه بهذه السياسة لبقيت الإمبراطورية متحدة بدلاً من انقسامها إلى خانات في الشرق الأقصى وتركستان وفارس وروسيا .ولقد تأثر مونكو في نشأته بأمه المسيحية النسطورية ،ولذلك عطف على المسيحية النسطورية ،على الرغم من أنه أبدى نفس العطف والمحبة على البوذية ،بل أثر عنه تسامحه مع سائر الديانات[١٨] ، وتوفي مونكو في أغسطس سنة ١٢٥٩ م، بينما كان يقاتل بالصين ،وكان أبناؤه صغار السن لايصلح أحد منهم

---

(١٦) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص١٠٧

Grousset :Op.cit:pp.312-13,pp.364-66

(17) Morgan : Op.cit.p.117

(١٨) العرينى: المغول ص١٩٤-١٩٥

لاعتلاء عرش المغول ،فتطلع إخوتـه الثلاثـه للعـرش : أريـق بوكـا والأخ الثانى قوبيلاى أما الأخ الأصـغر الثالـث هولاكـو فكـان يرقـب الأحـداث الجارية من الطرف الشرقى لمتلكاتـه ،وقـد تجهـز للتحـرك إلى منغوليـا متى دعت الحاجة إلى ذلك ،فإذا جرى اختيار الخان الأعظم أعد هولاكو نفسه لتنفيذ ما يكلفه به الخان الجديد من مهام [١٩] .

نجح أريق بوكا أصـغر الإخـوة الثلاثـة في البدايـة في أن يفـرض سلطانه على الموطن الأصلى لأسـرة جنكيـز خـان ،حيـث تقـع قراقـورم وتوجد به الخزانة المركزية للإمبراطوريه ،وسعى جـاداً للفـوز بـالعرش ، وظل شهوراً يحاول كسب المؤيدين له من الأسرة الحاكمة ،وعقد المجلس العام للأمراء لهذا السبب في الوقت الذى سعى فيه قـوبيلاى الأخ الثـانى للفوز بالعرش أيضا،خاصة وقد حظى بتاييـد قـادة الجـيش وموافقـة الأخ الثالث هولاكو [٢٠] ، إلا أنه تقرر انتخاب أريق پوكا خاناً أعظـم بموافقـة المجلس العام الذى عقده في ربيـع سـنة ١٢٦٠م ،ومسـاندة معظـم أفـراد الأسرة الحاكمة في منغوليا ،على الرغم من عدم مشاركة كـل فـروع أسـرة جنكيزخان في ذلك المجلس ، فلم يجر إخطـار هولاكـو ولا قـادة القبيلـة الذهبية ولا بيت جغتاى ،لإرسال مندوبين عنهم أو القدوم بأنفسهم [٢١]، ولم يستطع قوبيلاى أن يقهر منافسه إلا في نهاية سنة ١٢٦١ م ، حيث أصبح خاناً أعظم للمغول ،في الوقت الذى لعب فيه هولاكـو دوراً هامـاً في الأحداث وفي تاريخ الإمبراطورية المغولية في ذلك الوقت .

---

(١٩) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص١٠٧
(٢٠) العرينى : المغول ص٢٥١
(٢١) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص١٠٦

مايهمنا من ذلك كله هو موقف هولاكو الذى كان مونكو قد عهد إليه - باعتباره الأخ الأصغر له -بإدارة حكومة فارس ،وأرسل إليه رسالة يطلب فيها التخلص نهائيا من السلطة الروحية الإسلامية ،سواء أكانت إسماعيلية في مازندران وجهات من فارس ،أو سنية في بغداد وما والاها إلى الشام ،وجاء ذلك في صالح القوى المسيحية في أرمينيا الصغرى والصليبيين في بلاد الشام ، خاصة في أنطاكية الذين ارتضوا السيادة المغولية وجعلوا من التتار حماه وحلفاء لهم (٢٢) ، كما نصحه مونكو أن يستأنس برأى زوجته الأولى طقز خاتون (٢٣) ويعمل بنصائحها في جميع القضايا والشئون (٢٤) ، وكانت هذه حفيدة ملك الكرايت في شرق منغوليا وتدين بالمسيحية النسطورية .

وعلى الرغم من أن هولاكو كان بوذياً ،إلا أنه حاول إرضاء هذه الزوجة فحرص على شمول المسيحيين بكرمه وأفضاله ،وأنه بسببها عامل المسيحيين من رعاياه معاملة حسنة (٢٥). فأنشأ الكنائس في أنحاء فارس ،واستقبل المسيحيين من كافة البقاع ،وعلى اختلاف لغاتهم، وغمرهم بالهدايا وبكل مظاهر التقدير، وأنشأ المدارس التى تردد عليها أطفال المسيحيين ، وأقيمت الصلوات والقداسات ، وقرعت أجراس الكنائس في مختلف الأنحاء ، ونعم رجال الكنيسة بالهدوء والأمن في ظل حكمه (٢٦) .

---

(٢٢) العرينى : المرجع السابق ص٢٠٧-٢٠٨

(٢٣) تكتب احيانا (دوقوز خاتون) او (دوكوز خاتون) انظر عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص١٠٩

(٢٤) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ ص٢٣٤ (نشر كاترمير -الترجمة العربية)

(٢٥) مصطفي طه بدر : مغول ايران بين المسيحية والاسلام ص١٠

(٢٦) العرينى : المغول ص٢٠٨

ولهذا السبب أيضا ازدادت العلاقات سوءاً بين هولاكو وبني عمومته خانات القبيلة الذهبية أو مغول القفجاق ،لأن بركة خان زعيم تلك القبيلة ،كان يميل الى المسلمين ويعطف عليهم (٢٧) ،وتواترت الأنباء باعتناقه الإسلام ،بينما حرص هولاكو على إرضاء المسيحيين والتقرب منهم ، فتعرض هولاكو للتأنيب والتقريع من قبل بركة خان، وزاد ذلك بعد ما أنزله هولاكو وحاشيته من دمار ببغداد وما تعرض له الخليفة العباسي من هوان ،ثم الاغتيال على يديه (٢٨)، ومن عوامل كراهية بركة خان لهولاكو أيضا أن بيت جوجي الذى ينتمى إليه بركة خان اعتبر سيطرة هولاكو على إقليم آذربيجان اغتصابا لجانب من أملاكهم التى اختص بها هذا البيت منذ أيام جنكيز خان ،ولهذا وقع الاحتكاك بين قوة هولاكو وقوى القبيلة الذهبية عند القوقاز، أى في المنطقة الفاصلة بين حدود كل منهما، ورد بركة خان وقادته على أفعال هولاكو ، فقاموا باضطهاد المسيحيين من رعاياهم ، وعندما حاول هولاكو أن يفرض سلطانه شمالى جبال القوقاز تعرض لهزيمة ساحقة على يد أحد قادة القبيلة الذهبية من بيت بركة خان(٢٩).

ولما توفي مونكو سنة ١٢٥٩ تاركا أطفالا صغارا لايصلحون للحكم -كما سبق أن أشرنا - وتنازع أخوته على العرش ففاز بالعرش في النهاية قوبيلاى سنة ١٢٦١م. خاصة وقد حظى بتأييد قادة الجيش ،فأصبح الخان الأعظم في الإمبراطورية المغولية ، فاعتبر أخاه الثالث هولاكو، وهو الأخ الأصغر ، نائبا عنه في حكم فارس والمناطق الغربية في الامبراطوري

(27) Morgan : Op.cit.p.124

(٢٨) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج١ص٤٦٥

(٢٩) العرينى : المغول ص ٢٥٢

فلعب هولاكو هذا دورا هاما في تاريخ الامبراطورية وخاض حروبه في الغرب في العراق والشرق الأدنى (٣٠).

ثم انشغل هولاكو في حروبه مع القبيلة الذهبية حتى توفي في النهاية في ٨ فبراير سنة ١٢٦٥م بالقرب من مراغة وخلفه في الحكم في فارس ابنه الأكبر أبغا كنائب عن عمه قوبيلاى وذلك في الفترة بين سنتى ١٢٦٥ و١٢٨٢ م فظل أبغا هذا يقيم في آذربيجان وتحولت حاضرته إلى تبريز ، والتى احتفظت بمكانتها حتى نهاية أسرة هولاكو ، وبقى أبغا هذا مثلما كان أبوه نائبا للخان الأعظم قوبيلاى الذى بعث إليه بمرسوم بتقليده الحكم خلفا لوالده هولاكو ،بعد نحو خمس سنوات من اعتلائه (٣١) .

وعلى الرغم من أن أبغا هذا كان بوذيا مثل والده هولاكو ،إلا أنه مائل أباه في عطفه على المسيحيين من النساطرة واليعاقبة والأرمن، وتحالف معهم ضد المسلمين في مصر والشام ، وتزوج في نفس العام الذى ولى فيه الحكم من ابنه الإمبراطور البيزنطى ميخائيل باليولوجس ، وكان نصيرا وحاميا لبطريق النساطرة وصديقا له (٣٢) .

ولقد حرص أبغا على تهدئة الأمور مع القبيلة الذهبية وإنهاء الحرب مع بركة خان القفجاق ،وكذلك إنهاء النزاع مع خانية تركستان التى كان يحكمها بيت جغتاى ابن جنكيز خان ،فانتهت الحرب مع هذه الخانية سنة ١٢٧٠ م، وجرى إحلال حاكم جديد في تركستان

---

(30) Morgan : Op.cit.p.117

(٣١) عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص١٥٣
Howorth : Op.cit,3,pp.208-11,p.223,227,231.2

(32) Grousset : L'empire des Steppes ,p.445

سنة ١٢٧٨ م ،ثم أخيرا توفي أبغا- نائب قوبيلاى- في إبريل سنة ١٢٨٢[٣٣] .

وتولى الحكم في ذلك الجزء من الإمبراطورية المغولية ،بعد أبغا أخوه تكودار (١٢٨٢-١٢٨٤م) ، فلم يكد يتولى حكم هذا الجانب من إمبراطورية المغول حتى أعلن إسلامه ،واتخذ لنفسه اسم أحمد ، ولقب بالسلطان على الرغم من أنهم كانوا قد نصروه على المذهب النسطورى باسم نقولا ،لكنه كان يميل إلى الإسلام ووجه اهتمامه إلى تحويل التتار الى الاسلام[٣٤] . ونظرا لأن أبغا هذا كان يحكم باعتباره نائبا للخان الاعظم -عمه قوبيلاى -في حكم فارس ،فقد احتج قدامى التتار من البوذيين والنساطرة المسيحيين لدى الخان الأعظم على تصرفات تكودار، فغضب الخان الأعظم من ذلك وهدد بالتدخل ،الأمر الذى جعل تكودار يحمل بطريرق الكنيسة النسطورية المسئولية عن هذا الاستعداء فأمر بإلقائه في السجن [٣٥] .

إلا أن الساخطين على تكودار نجحوا في تأليب أرغون بن أبغا وحاكم خراسان على أخيه ،فنشب نزاع بينهما واندلعت الحرب الأهلية بين الجانبين ،وزحف أرغون على العراق العجمى ولكنه تعرض للهزيمة في مايو سنة ١٢٨٤ م فأعلن الاستسلام لأخيه ومع ذلك تآمر كبار قادة تكودار للإطاحة به ونجحوا في ذلك ، فلم يلبث أن لقى مصرعه في نفس العام ، وتولى أرغون الحكم [٣٦] .

(٣٣) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص١٦٥

(34) D'Ohosson : Op.cit.3,pp.552-4

(٣٥) العرينى : المغول ص ٣٠٣

(٣٦) ابن خلدون : المصدر السابق ج٥ ص٥٤٦

القلشقندى : المصدر السابق ج٥ ص٤٢٠

تولى الحكم في ذلك الجزء من الإمبراطورية المغولية بعد تكودار أخوه أرغون بن أبغا (١٢٨٤-١٢٩١م) وكان بوذياً مثل والده أبغا وجده هولاكو، لكنه سلك نفس المسلك تجاه المسيحيين واليهود فشملهم برعايته وعطفه، وأسند إليهم الوظائف الهامة في الإدارة ، خاصة في النواحى المالية(٣٧)، وأعاد عمارة الكنائس التى دمرها تكودار ولقى المسيحيون بصفة خاصة منه عطفا ومحبة ،وشجعته زوجته المسيحية النسطورية ابنة أخت الملكة الراحلة طقزخاتون (زوجة هولاكو)على هذه السياسة وأنجبت له ابنا نصرته باسم نقولا ن وهو الذى أصبح الخان أولجايتو فيما بعد (٣٨) .

ويمكننا أن نستخلص من ذلك كله أن إمبراطورية المغول انقسمت بعد عهد جنكيز خان إلى أربعة أقسام ،ضم القسم الأول منها الموطن الأصلى في منغوليا وما حولها وامتد القسم الثانى في الشرق فشمل ما فتحه جنكيز خان وخلفاؤه في الصين وما حولها ،وضم القسم الثالث بلاد فارس وما استولى عليه جنكيز خان من الدولة الخوارزمية ،وشمل القسم الرابع والأخير بلاد القفجاق أو القبيلة الذهبية والأراضى الممتدة إلى الغرب والشمال الغربى للدولة تجاه القوقاز وبحر قزوين وبرارى روسيا وما كانت تشغله الإمارات الروسية ذاتها.

وبعد وفاة جنكيز خان ولى الخانية العظمى طبقا لنظم المغول وتعاليم الياسا في الفترة التى تعنينا على امتداد القرن الثالث عشر كل من: أوكتاى ثم كيوك ثم انتقل الحكم إلى مونكو بن تولوى ثم إلى أخيه

---

(37) Morgan : Op.cit.pp.164-5

(٣٨) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص١٧٢ -١٧٣

قوبيلاى بن تولوى .

وإذا كانت خانية القفجاق أو القبيلة الذهبية لها أهميتها بين هذه الأقسام باعتبار خاناتها قد أظهروا عطف علي الإسلام والمسلمين ، بل اعتنق بعضهم الإسلام ، وكانت لهم مواقفهم الطيبة تجاه المسلمين ، إلا أنه ما يهمنا في هذا الموضوع بالذات هو خانية فارس ،التى ولى أمرها هولاكو -ذائع الصيت -بتكليف من الخان الأعظم مونكو وقوبيلاى ،ومثل حكامها نوابا للخان الأعظم في هذه الخانية إذ توارث الحكم فيها أبناء هولاكو وأحفاده ،فاعتلى حكمها بعد هلاكو أبغا بن هولاكو ثم أخوه تكودار بن هولاكو ،ثم أرغون بن أبغا حفيد هولاكو حتى سنة ١٢٩١ م أى إلى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى ،وهى الفترة التى تهمنا في هذا الموضوع.

أما عن توسعات المغول في تلك الفترة أى بعد جنكيز خان وحتى نهاية القرن الثالث عشر الميلادى ، فقد سبقت الإشارة إلى أن جنكيز خان كان قد أرغم جلال الدين منكبرتى على الإلتجاء إلى الهند(٣٩) . إلا أن هذا ما لبث أن غادرها سنة ١٢٢٣م /٦٢٠ هـ إلى كرمان، بعد عودة جنكيزخان إلى بلاده ، ثم اتجه جلال الدين إلى فارس فوطد سلطانه في شمال فارس معتمدا على ماكان هناك من نفوذ للخوارزمية في تلك الجهات ،ووجود أحد إخوته الذى بادر بإعلان ولائه لأخيه ،كما أعلنت الفرق العسكرية في تلك الجهات ولاءها لجلال الدين، فقرر هذا المضى إلى بغداد لقتال الخليفة (٤٠) العباسى ،إلا

---

(٣٩) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص٤١٢-٤١٣

(٤٠) العرينى :المغول ص ١٦٦ -١٦٧

أنـه أظهـر قسـوة في معاملـة السـكان وارتكـب رجالـه كـثيرا مـن المظـالم والفسـوق ،فانفتح الطريق أمامه إلى بغـداد ، لكنـه مـا لبـث أن اتجـه إلى الشمال إلى آذربيجان فهرب أتابكها من تبريـز، فـأذعن سـكانها لجـلال الدين فدخل هذه المدينة سنة ١٢٢٥م ، واتخذ منها جلال الـدين قاعـدة للوثوب على بلاد الكرج أو مملكة جورجيا المسـيجية التـى درج حكامهـا علـى مسـاندة الفـرنج ضـد الأمـراء المسلمين[٤١] ، فتوجـه جـلال الـدين لقتالهم في نفس العام وأنـزل بهـم هزيمـة سـاحقة، وأردفهـا بنصـر آخـر عليهم في العام التالى ،ودخل رجاله عاصمتهم تفليـس واسـتباحوها ، ولم تفلح محاولات الكرج لاستعادة بلادهم ، وتوطد سلطان جـلال الـدين في آذربيجان [٤٢] .

صار جلال الدين منكبرتي بذلك سيداً على غرب إيران، فخضع له كرمان وفارس والعراق العجمى وآذربيجان، واتخذ عاصمته في أصفهان وتبريز، فاستعاد بذلك الجانـب الغربـى مـن الإمبراطوريـة الخوارزميـة . ويشير المؤرخـون إلى أن هـذا الفـارس افتقـر إلى الـروح السياسـية لأنـه لم يحاول أن يقيم مملكته الجديدة على نظام متين صلب، حتى يتسـنى لـه الاسـتعداد للقـاء التتـار والانتقـام مـنهم لـما أنزلـوه بوالـده وأسـرته مـن خسائر[٤٣]، بل أنه سرعان ما انزلق إلى عداء وخصام مع من يفترض أنهم حلفاؤه في غرب آسيا، واتجه بحملة لتهديد بغـداد سـنة ١٢٢٤م، وأفـاد من الخصومات التى وقعـت بـين أفـراد البيـت الأيـوبى في مصـر والشـام والجزيـرة [٤٤]، واسـتجاب لـدعوة المعظـم العيسـى صـاحب دمشـق

(٤١) ابن الاثير : الكامل ج٩ ص ٢٨٣

(42) Morgan :Op.cit.pp.69-71

(٤٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ١٣٨-١٣٩
العريني : المغول ص١٦٩

(44) Setton : A Hist. Of the Crusades,Vol.11,p.449

لمحاربة أخويه الأشرف والكامل ، فتقدم جلال الدين منكبرتى لمهاجمة أخلاط [٤٥] سنة ١٢٢٦ م وهاجمها ،فاستسلمت المدينة في إبريل سنة ١٢٣٠ ، وتعرض سكانها للقتل أو الأسر ، فترتب على ذلك تحالف سلطان سلاجقة الروم صاحب قونية والملك الأشرف حاكم الجزيرة وأخلاط ضد جلال الدين ، وهاجموا الخوارزمية بالقرب من آذربيجان . فحلت بالخوارزمية هزيمة ساحقة في أغسطس سنة ١٢٣٠ ولاذ جلال الدين بآذربيجان واستقر الصلح بين الجانبين[٤٦]

ولم يكد جلال الدين يعود إلى تبريز بآذربيجان ،حتى علم بتقدم المغول لمطاردته ، في الوقت الذى لم يبق فيه أحد من المسلمين حليفا له بل أظهر الجميع العداء له ، كصاحب آذربيجان وصاحب أخلاط وصاحب بلاد الروم وكذلك الاسماعيلية ، فضلا عن الخليفة العباسى ،لما شنه جلال الدين من حروب لانتزاع البلاد من أيديهم ، وتعويض ما فقده إلى أيدى جنكيز خان ، فتخلى الجميع عن مساعدته [٤٧] .

وكان أوكتاى الذى خلف جنكيز خان ، قد أنفذ جيشا من المغول بلغ عدده نحو ثلاثين ألف جندى لقتال جلال الدين ، وذلك سنة ١٢٣١م معتمدا على ما زرعه المغول من خوف في نفوس سكان البلاد الإسلامية في خراسان وماولاها غربا ، فلم يلق هذا الجيش أثناء تقدمه مقاومه تذكر ،فاستولى المغول على الرى وهمذان وما بينهما من أراضى، ثم مضوا إلى آذربيجان فدمروا وخربوا ونهبوا وقتلوا من ظفروا به من

---

(٤٥) ابوشامة : الذين على الروضتين في اخبار الدولتين ص١٤٨ (نشر العطارسنة١٩٤٧)
ابن الجوزى : مراة الزمان في تاريخ الأعيان ج٨ص٤٣٠ (نشر شيكاغو سنة١٩٠٧)
(٤٦) العرينى : المغول ص١٧٠-١٧١
(٤٧) ابن الاثير : الكامل ج٩ ص٢٨٣

أهلها (٤٨) ، في الوقت الذى لم يجرؤ فيه جلال الدين على لقائهم " فقد ملىء رعباً وخوفاً " ، فضلاً عن اختلاف عساكره معه، وخروج وزيره عن طاعته ،ففر إلى سهول مراغة ، ثم إلى أخلاط يلتمس الالتجاء ، حين أحس بتعقب المغول له ،وراح يطلب مساعدة الأمراء المسلمين والخليفة العباسى ويحذرهم عاقبة إهمالهم ، إلا أن الجميع تقاعس عن نصرته ، ولم ينهض أحد لمساعدته ، فاتجه إلى آمد فدهمه المغول وتفرق عساكره وتخطفهم الأمراء المسلمون انتقاما لما سبق وأن ارتكبوه من أعمال القتل والتخريب خاصة في أخلاط (٤٩) ، فاتجه المغول إلى ديار بكر بالجزيرة واربل وأخلاط ، فأنزلوا بأهلها كل قبيح ،ولم يجرؤ أحد على منعهم أو الوقوف في وجههم في الوقت الذى فر فيه جلال الدين إلى جبال كردستان وهام على وجهه ، حتى عثر عليه بعض الأكراد فقتلوه ،بعد الهزائم التى أنزلها به المغول في ميافارقين (٥٠) سنة ١٢٣١ /٦٢٨هـ،وجاء ذلك نذيراً وفألاً سيئا لمسلمى الشرق الأدنى أحس به حكامه وأمراؤه خاصة الأشرف موسى ،الذى أثر عنه قوله : "والله لتكونن هذه الكسرة سببا لدخول التتار إلى بلاد الإسلام" (٥١) في الوقت الذى تفرق فيه جيش جلال الدين ، وراح ينهب المناطق الواقعة على أطراف الجزيرة وإيران، وأحدثوا الخراب والدمار بسكان كثير من هذه المناطق وبعض مناطق أرمينيا ،وعرضوا خدماتهم على من هو في حاجة اليها طلباً للعيش كجند مرتزقة (٥٢) .

(48) Morgan :Op,cit.p.71

(٤٩) الذهبى : العبر في خبر من غبر ج ٥ ص ١١٠

(٥٠) الذهبى : المصدر السابق ج٥ص١١٤

(٥١) ابو المحاسن بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص٢٧٧

(52) Setton : Op.cit.11,p.663

ثم مضى المغول إلى ديار بكر بالجزيرة وإربل ، فأمعنوا في القتل والتخريب وأثاروا الخوف في قلوب الناس وارتكبوا الأعمال الوحشية حتى قيل أن الرجل الواحد منهم كان يدخل القرية فيجمع من بها من الناس ، فلا يزال يقتلهم واحداً بعد واحد فلا يتجاسر أحد على مد يده إلى ذلك التترى ، ويذكر ابن الأثير أن رجلا من هؤلاء التتار عزم على قتل رجل ولم يكن مع هذا التترى سلاحا يقتله به فقال له : ضع رأسك على الأرض ولاتبرح ،فوضع المسكين رأسه على الأرض فمضى التترى فأحضر سيفا فقتله به (٥٣) .

وهكذا سيطر المغول على الأقاليم التى كانت خاضعة للدولة الخوارزمية وبعض الأقاليم الأخرى ، ولم يكن نجاحهم في ذلك بسبب اختفاء آخر سلطان خوارزمى وقف في وجههم وحاول التصدى لهم ، وخلو الميدان ممن يمكن أن يواصل نفس الاتجاه ، لم يكن نجاحهم بسبب ذلك فحسب ، بل أيضا لتقاعس الأمراء والحكام المسلمين وشعوبهم عن نجدة الخوارزمية وترك آخر سلاطينهم يلقى مصيره المحتوم (٥٤) .

وبما زرعه المغول من خوف في نفوس الناس ،دون أن يجدوا مقاومة، سيطروا على فارس حتى سنة ١٢٤١م ، وعلى آذربيجان وأران وأرمينيا، ثم ظهروا في أعالي الفرات ، وأثاروا الرعب في بلاد الشام وأزمعوا على غزو بلاد الخلافة العباسية في العراق العربى وإقليم الجزيرة التابع للأيوبيين ، وآسيا الصغرى الخاضعة للسلاجقة (٥٥) ، وحين

---

(٥٣) ابن الأثير : الكامل ج٩ص٣٨٥

(٥٤) عبد السلام فهمى : المرجع السابق : ص٩٢

(55) Morgan : Op.cit.p.145

العرينى : المغول ص١٧٥

تأكد الخليفة المستنصر بالله العباسى أن المغول عازمين على قصد بغداد سنة ١٢٣٧م بعث إلى السلطان الكامل محمد الأيوبى يستنجد به، فأمر هذا بتجنيد عشرة آلاف جندى من مصر والشام لنجدة الخليفة [٥٦] .

ولم يؤد تهديد المغول للبلاد الإسلامية إلى اتحاد حكام وملوك وأمراء هذه البلاد ووحدتهم لصد هذا الخطر ، بل وقع التنازع والتناحر بينهم ، بين سلاجقة الروم في قونية والأيوبيين في الجزيرة وبلاد الشام، ووقعت الحرب بين الجانبين ، وأدخل سلطان سلاجقة الروم جموع الخوارزمية في جيش كجند مرتزقة بعد مقتل جلال الدين منكبرتى ، واستعان بهم في حروبه ضد الأيوبيين [٥٧] .

واصل المغول اجتياحهم للشرق ، فأخضعوا بلاد الكرج المسيحية ، فأعلن هؤلاء إذعانهم للمغول ،وأقروا بالخضوع لهم ، فعادت ملكتهم إلى العاصمة تفليس ، ولم يبالغ المغول في عدائهم للمسيحيين لأن بعض القادة المغول كان أجدادهم من النساطرة المسيحيين بل أن الخان الأعظم أوكتاى أوصى قادته بحماية الأرمن وبعث من تولى أمور المسيحيين [٥٨]، ثم واصل المغول الحروب مع سلاجقة الروم بآسيا الصغرى فسقطت في أيديهم أرزروم سنة ١٢٤٢م، ثم ألحقوا بالسلطان كيخسرو الثانى هزيمة ساحقة بالقرب من آرزنجان سنة ١٢٤٣م واستولوا على سيواس وخربوا قيصرية ونهبوها وفر كيخسرو الثانى إلى الحدود البيزنطية [٥٩] واستقرت

(٥٦) المقريزى : السلوك ج١ ص٢٥٧-٢٥٨

(٥٧) العرينى : المغول ص١٧٥-١٧٦

(58) D'Ohsson : Op.cit.2.pp.69,208-296,3.pp.469-97

Browne : The eclipse of Christianity in Asia pp.147-9

Howorth : Op.cit.111,pp.208-77

(59) Morgan :Op.cit.p.145

الأمور على أن تؤدى الدولة السلجوقية كل سنة أربعمائة ألف دينار كجزية، وترسل الإمدادات اللازمة للمغول كلما طلب منها ذلك، وكان ذلك إيذاناً بزوال دولة السلاجقة التى بدأ الضعف والاضمحلال ينخر في عظامها في الوقت الذى زاد فيه سلطان المغول ، حتى امتدت أملاك المغول إلى حدود الدولة البيزنطية ، وامتدت سيادة المغول على آسيا الصغرى، فضلا عن فارس وبلاد الكرج واعترف هيثوم ملك الأرمن بسيادة المغول سنة ١٢٤٤م (٦٠) .

وفي عهد أوكتاى أيضاً جرت توسعات المغول في أوربا ،وامتدت فتوحاتهم في جزء كبير من تلك القارة لاسيما في شرقها في الوقت الذى لم يحفل فيه حكام أوربا كثيراً بهؤلاء المغول في أول الأمر ،ولم ينتبهوا كثيراً لخطرهم القادم من أقصى الشرق ،فضلاً عن أن هذا الخطر جاء في وقت لم تكن فيه أوربا مستعدة للتصدى له ، حتى بعد أن اجتاز المغول جبال القوقاز لأول مرة سنة ١٢٢٢م زمن جنكيز خان (٦١) . واجتياحهم لأطراف روسيا ولهذا فقد بدأت مشروعات المغول لغزو أوربا في وقت مناسب لهم ، وبعد أن استقرت الأوضاع في الإمبراطورية المغولية ، واستولى الخان أوكتاى على عرش تلك الإمبراطورية (٦٢) .

فقد وجه هذا الخان جيشا تألف من نحو خمسة عشر ألف مقاتل لمواصلة الحرب في أوربا تحت قيادة باتو خان استبس الآرال والأورال ويشترك فيه ممثلون من كل فروع أسرة جنكيز خان من اولاد

---

(٦٠) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص١٠٨

(٦١) هارولد لام : جنكيز خان ص١١١

(٦٢) العرينى : المغول ص١٨٤

جـوجي ومـن أولاد وأحفـاد أوكتـاى ومـن أولاد وأحفـاد جغتـاى (٦٣).
واستهلت الحملة أعمالها في خريـف سـنة ١٢٣٦م بـالزحف إلى أوربـا ، فدمرت مملكة البلغار التركية وخربت ونهبت حاضرتها التجارية الواقعة بالقرب من نهر الفولجا ،ثم في ربيـع سـنة ١٢٣٧م هـاجم المغـول الـترك النازلين في البرارى الروسية ،والذين عرفهم المسلمون باسم القفجاق وأطلق عليهم المجريون والبيزنطيـون اسـم الكومـان ،فـأعلن جانـب مـن هـؤلاء القفجاق الخضوع والإذعان ،فأصبح العنصـر التركـى هـو أسـاس سـكان خانية المغول التى عرفت بخانية القفجاق والتـى اشـتهرت باسـم القبيلـة الذهبية التى حكمها أحد فروع بيت جوجي .ثم قاد بركة حملـة أخـرى سنة ١٢٣٨م فأتمت إخضاع القفجاق (٦٤) .

ولعل أهم توسعات المغول في أوربا ما حدث من اجتيـاحهم لروسـيا، فقد بدأوا بإخضاع منطقة البرارى في جنوب روسيا في شـتاء سـنة١٢٣٩-١٢٤٠م وسيطروا على المدينة التى اتخذها اللان حاضرة لهم (٦٥)، في تلك الجهات في الوقت الذى سارت فيه حملة مغولية أخرى لقتـال الإمـارات الروسية ذاتها مستغلين فرصة مـا كـان جاريـا في تلـك الـبلاد مـن نزعـة انفصالية بين الأمراء الروس ،وحرص على استقلال كل أمير عن الآخر ، ونجح المغول في السيطرة على تلك الإمارات واحدة تلو الأخرى ابتداءً من سـنة ١٢٣٧م ، حيـث أهلكـوا سـكانها وقتلـوا ونهبـوا وسـبوا

(63) Morgan : Op.cit.pp.173-4
(64) Morgan : Op.cit.p.174
(٦٥) عرفت بمدينة مغاص او منقاص .انظر العرينى : المغول ص١٨١

وأنزلوا الرعب والفزع في قلوب المسيحيين هناك [٦٦] ودمروا وخربوا على عادتهم فلم يبق -على حد قول أحد المؤرخين - "من يذرف الدمع على القتلى أو يروى خبر ما وقع من كارثة" ، وتقدم المغول نحو موسكو التي تعرضت للنهب والتدمير في فبراير سنة ١٢٣٨م ، واقتحموا عدداً من المدن الأخرى الهامة في بلاد الروس [٦٧]،فأشعلوا النيران في بعضها وأحدثوا مذبحة مروعة في مدينة فلاديمير وقتلوا كل السكان فيها ،حتى الذين لجأوا إلى الكنائس حيث أحرقتهم النيران ، وجرت آخر مقاومة للروس تحت قيادة أحد أمرائهم في مارس سنة ١٢٣٨م على ضفاف نهر سيتا أو سيتى فحلت الهزيمة فيها بالأمير الروسي ولقى مصرعه فيها[٦٨]، ولم ينقذ مدينة نوفجرود الشهيرة إلا ما حدث من ذوبان الثلوج المحيطة بها فحولت الأرض إلى مستنقعات تعذر على المغول الخوض فيها ،ثم واصل المغول زحفهم في نهاية سنة ١٢٤٠م إلى أوكرانيا فاستولوا على كييف ودمروها في ديسمبر سنة ١٢٤٠ م ثم نهبوا ما حولها من أراضي وإمارات وأجبروا الأمراء على الفرار إلى المجر [٦٩] .

ويأتي بعد ذلك الدور على كل من بولندا والمجر .فقد اتجه جيش مغولي لقتال بولندا في الوقت الذى مضى فيه جيش مغولي آخر للزحف على المجر ،ففي شتاء سنة ١٢٤٠-١٢٤١م انتهز المغول فرصة تجمد مياه نهر الستولا ، فاجتازوا النهر في فبراير سنة ١٢٤١ م

---

(٦٦) مصطفي طه بدر : مغول ايران ص٥

(67)Morgan : Op.cit.pp.143-4

(٦٨) المريني : المغول ص١٨١

(69)Morgan : Op.cit.pp.1[illegible]

واجتاحوا بولندا [٧٠] ، فاضطر الأمير البولندى بولسلاس الرابع إلى الهرب إلى مورافيا ، فأشعل المغول النار في أهم مدن بولندا ، واضطر السكان للهرب ،وهاموا على وجوههم ،ثم اجتاز المغول نهر الأودر ، واشتبكوا في قتال مع دوق بولندا هنرى الذى كان يقود جيشا تألف من نحو ثلاثين ألف مقاتل من البولنديين ،فضلا عمن التحق بهم من صليبي ألمانيا والفرسان التيوتيون ، إلا أن المغول نجحوا في إلحاق هزيمة ساحقة بهذا الجيش في إبريل سنة ١٢٤١م ولقى الدوق البولندى هنرى مصرعه في تلك المعركة [٧١] ، وترتب على ذلك أن عاث المغول الفساد في مورافيا، ونهبوا وخربوا وألحقوا كثيرا من النوازل بسكان هذه البلاد قبل أن يلحقوا بالجيش الآخر المتوجه لقتال المجريين [٧٢] .

وفي نفس الوقت اتجه القسم الثانى من جيش المغول تحت قيادة باتو ويضم ثلاث فرق عسكرية للتوغل في بلاد المجر، فنفذت الفرقة الأولى إليها من جهة الشمال بين بولونيا ومورافيا، واتجهت الفرقة الثانية نحو غاليسيا ،حيث أنزلت الهزيمة بحاكم هذه المقاطعة في مارس سنة ١٢٤١م، حين تصدى لهم محاولا الدفاع عن ممرات جبال الكربات. أما الفرقة الثالثة فقد اتجهت من مولدافيا توغلاً في أرض المجر، حيث اقتحمت بعض المدن ودمرتها وقتلت سكانها [٧٣] ثم عادت هذه الفرق للتجمع من جديد في إبريل سنة ١٢٤١م أمام مدينة بست التي اتخذها ملك المجر بيلا الرابع مركزا للمقاومة وحشد فيها

---

(٧٠) مصطفى طه بدر : مغول إيران ص٥٩

(٧١) العرينى : المغول ص١٨٢

(72) Morgan : Op.cit.p.139

(٧٣) العرينى : المغول ص١٨٢-١٨٣

جيشاً كبيراً إلا أن القوات المغولية نجحت في إنزال هزيمة قاسية بالقوات المجرية في إبريل سنة ١٢٤١ م ، واستولت على مدينة بست التى جعلها المغول طعمه للنيران ،بينما اضطر بيلا الرابع ملك المجر إلى الفرار نحو ساحل البحر الأدرياتي(٧٤) ، وأعمل المغول سيوفهم في سكان المدينة وما حولها ،فأحدثوا مذابح رهيبة بين سكان المجر ، فخضعت للمغول كل البلاد حتى نهر الدانوب ، باستثناء بعض القلاع الصغيرة التى جد المغول في اقتحامها ، واجتازوا نهر الدانوب في نهاية الأمر منتهزين فرصة تجمد مياهه في ديسمبر سنة ١٢٤١م (٧٥) .

أمضى المغول الصيف والخريف سنة ١٢٤١م في سهوب البلقان وبراريها التى تماثل سهوب بلادهم ، ولم يجر من القتال إلا ما حدث من مطاردة ملك المجر بيلا الرابع الذى كان قد لجأ إلى كرواتيا ، ثم إلى أرخبيل دالماشيا حين اقتربت منه قوات المغول فأنزل المغول الخراب والدمار في بعض المدن الواقعة على البحر الأدرياتى (٧٦) ، ثم انسحب المغول إلى بلاد المجر في مارس في العام التالى (١٢٤٢م) . وهكذا انساب المغول فوق رقعة أوربا الشرقية ، فلم تعد ثمة حدود للمنطقة التى انتشر فيها المغول ، ولم يتوافر الأمن لمدينة من المدن في تلك البقاع، فقد بدأت أوربا تستسلم لجحافل المغول حين اكتسحوا شرقها وأزمعوا التقدم إلى أبعد من ذلك (٧٧).

ويشير المؤرخون إلى أن غرب أوربا لم ينقذه في ذلك الوقت من هذه المحنة سوى وفاة الخان الأعظم أوكتاى سنة ١٢٤١م ،الأمر الذى

(74) Morgan : Op.cit.p.138

(٧٥) العرينى : نفسه ص١٨٣

(76) Morgan : Op.cit.p.138-9

(٧٧) العرينى : المغول ص١٨٣

استوجب عودة باتو قائد الجيوش الغازية في شرق أوربا إلى العاصمة المغولية قراقورم للاشتراك في اختيار الخان الأعظم الجديد [٧٨] ،فتوقفت التوسعات المغولية في أوربا ،ونجا الشطر الغربى من تلك القارة من خطر الغزو المغولى .

وهكذا اجتاح المغول شرق أوربا فبدأوا بمملكة البلغار التركية ودخلوا عاصمتها الواقعة بالقرب من نهر الفولجا ،ثم استولى المغول على برارى روسيا أو بلاد القفجاق ، وشكلوا خانية القفجاق التى اشتهرت باسم خانية القبيلة الذهبية التى حكمها أحد فروع بيت جوجى بن جنكيز خان ،وأتم بركة خان إخضاع بقية هذه المناطق وضمها ألى خانية القفجاق[٧٩] ، ثم اجتاحو روسيا وقضوا على إمارتها واحدة تلو الأخرى ودمروا مدنها الهامة ، ثم اتجهوا إلى بولندا فاجتاحوا وقتلوا دوقها هنرى وعاثوا الفساد في مورافيا ثم اتجهوا إلى المجر ،فاقتحموا مدنها وخربوا ودمروا أراضيها وقتلوا سكانها ، وأجبروا ملكها بيلا الرابع على الفرار نحو ساحل الأدرياتى[٨٠] ، فأخضعوا كل البلاد حتى نهر الدانوب، وأمضى المغول في هذه الحملات على أوربا الفترة فيما بين سنتى ١٢٣٦م وسنة ١٢٤٢م فسيطروا على مساحات شاسعة من أوربا صارت من أملاك باتو.

وإذا لم يكن حكام أوربا قد تنبهوا إلى خطر المغول في أول أمره منذ أن اجتاز هؤلاء جبال القوقاز لأول مرة سنة ١٢٢٢م زمن جنكيز خان، إلا أن الأمر تغير منذ سنة ١٢٣٨م حين اندفع المغول في

---

(٧٨) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص١٠٤

(79) Morgan : Op.cit.p.174

(٨٠) العرينى : المرجع السابق ١٨٣

فتوحـاتهم في تلـك القـارة فعـلا بشـيء مـن الجسـارة وكـثير مـن القتـل والتخريب والتدمير وإحداث المذابح الرهيبة والحرائق المدمرة حيث أنزلوا الرعب والفزع في قلوب المسيحيين هناك(٨١) ، هذا من ناحية ومـن ناحيـة أخرى لما أظهره الإسماعيلية الشيعة في قلعة ألموت جنوب بحر قـزوين ، الذين امتد سلطانهم إلى المناطق المجاورة في شبكة مـن المعاقـل والحصـون في فارس والعراق (٨٢) ، اهتماما متزايدا بالخطر المغولي ونبهوا حكام أوربـا إلى حقيقة هذا الخطر القادم من الشرق ،بإرسـال سـفارة إلى غـرب أوربـا سنة ١٢٣٨م تحمل هذا المعنى والإحساس المتزايد بهذا الخطـر ، خاصـة وقد أرسل هولاكو رسالة إلى حكام وأمراء إيران يقول فيهـا :" لقـد أتينـا إلى هنا بناء على أمر الخان الأعظم وعزمنا على تحطيم قلاع الإسماعيليـة والقضاء على تلك الطائفة ، فإذا ساهمتم معنا في تلـك الحملـة بـالجيوش والعدد والآلآت ، فسوف تبقى لكم ولاياتكم وجيوشكم ومسـاكنكم ...أمـا إذا تهاونتم ... فإننا... نتوجه إليكم فيجرى على ولاياتكم ومسـاكنكم مـا يكون قد جرى عليهم ." (٨٣).

ويشير المؤرخون إلى أن هؤلاء الإسماعيلية –طبقـا لهـذا – اعتـبروا أنفسهم الفريسة التالية للمغول ، وقد أثارهم مصـير جيرانهـم المسـلمين ، وأدركوا أنهم أحد الأهداف القادمة للمغول فتحركوا في اتجاهين، الاتجاه الأول حاولوا فيه أن يؤلفوا من الشعوب التى تعرضت لخطر المغول حلفـا لمواجهة هذا الخطر بما في ذلـك مـن كـانوا أعـداء الإسماعيليـة (٨٤) ، وفي

---

(٨١) مصطفي طه بدر : مغول ايران ص٥

Morgan :Op.cit.pp.174-7

(82) Setton: Hist. of the Crusades,Vol.1,pp.99-128

(٨٣) رشيد الدين : جامع التواريخ ص٣٤٠(الترجمة العربية)

(٨٤) العرينى : المغول ص١٨٤–١٨٥

نفس الوقت أنفذوا إلى أوربا سنة ١٢٣٨م م رسلاً إلى ملوك إنجلترا وفرنسا يعلمونهما بهذا الخطر ، ويطلبون في نفس الوقت المساعدة شارحين لهما ما اشتهر به المغول من قسوة وميل لإثارة الرعب والخوف وما قاموا به في البلاد التى غزوها من تدمير وتخريب وقتل بطرق غاية في الوحشية (٨٥) ، وتحمس الإسماعيلية لإثارة ملوك أوربا ضد المغول خاصة بعد أن هرع الحكام المجاورين، والقائمين بالحكم في آسيا الصغرى وما حولها على تقديم فروض الطاعة والولاء للمغول (٨٦) .

وإذا لم يكن كل من ملك إنجلترا وملك فرنسا قد أولى هذه الصرخة الاهتمام الكافي فإن الإمبراطور فردريك الثانى إمبراطور ألمانيا والصقليتين، قد أدرك فعلا خطورة الموقف وبادر بإرسال رسالة إلى ملك إنجلترا هنرى الثالث يطلب منه القيام بعمل مشترك ضد المغول ، لحماية أوربا من غزوهم (٨٧)، واستجابت الكنيسة الغربية ،فأسهمت في تنبيه الناس في أوربا بالخطر المغولى ، وألمحت إلى أنه يمكن أن يكون عقاباً من السماء إذا لم يلتمس الناس الرحمة والغفران . ويلجأون إلى الصوم وإعداد العدة لوقف هذا الخطر ، وتأثر أمراء آخرون في اوربا بدعوة الإمبراطور فردريك الثانى ، وساد الخوف من هذا الخطر في جهات كثيرة من

---

(85) Mathew Paris' s English Hist.Vol.1,p.131

ونص عبارة متى الباريسى:

" About this time ,special ambassadors were sent by the saracens ,chiefly on behalf of the old man of the mountain ,to French king,telling him that a monstrous and inhuman race of men had burst forth from the northern mountains and had taken possession of the extensive rich lands of the east"

(86) Grousset: L 'Empire des steppes ,p.247

(87) Morgan : Op.cit.p.179

القارة [٨٨] ، حتى أشار مؤرخ معاصر إلى أنه في نفس العام الذى بدأت فيه جحافل المغول تجتاح روسيا وشرق أوربا أى ابتداء من سنة ١٢٣٨م عم الخوف حتى بلاد الشمال ، وأقصى غرب أوربا حتى امتنع صيادو السمك في جوتلند وفريزلند من القدوم إلى إنجلترا جريا على عادتهم لصيد سمك التونة ، وأحجم آخرون عن مواصلة نشاطهم البحرى في تلك الجهات خوفا وتحسبا لهجمات المغول [٨٩] .

وعلى الرغم من كل ذلك لم تكن المواقف في أوربا على مستوى هذه الأحداث ،ولم يحصل سفراء الإسماعيلية إلا على وعود جوفاء وإجابات لاتشفي الغليل ،بل انشغل الناس في أوربا بما كان جاريا من صراع بين البابا والإمبرطور [٩٠] ، وفسر البعض دعوة الإمبراطور فردريك الثانى للتكاتف ضد المغول بأنها محاولة لشغل الجميع عما كان يجري بينه وبين البابا، واستغلال التكاتف الأوروبى لمساندة قضيته ضد البابا ، بينما ذهب فريق آخر من الناس إلى أنه من الأوفق ألا تتحرك أوربا لمحاربة التتار وتركهم يحاربون المسلمين فيضعف الجانبان ويتحطما ، فيتم النصر بذلك للمسيحيين [٩١] في الشرق وفي الغرب ،بينما لم يظهر فريق ثالث من الأوربيين اهتماما بهذا الخطر لأنه لايشغلهم سوى ما يتعلق بالحروب الصليبية وما كان يجرى بين الصليبيين والمسلمين في الشرق، ومدى صمود بقايا الكيان الصليبى في بلاد الشام وفلسطين في ظل عداء المسلمين [٩٢] .

(88) Matthew Paris's English Hist.Vol.1,pp.131-2

(٨٩) العرينى : المغول ص١٨٦

(90) Morgan : Op.cit.p.179

(91) Camb.Med.Hist.Vol.IV,p.639
Mathew Paris 's English Hist.Vol.1,P.132

(92) Morgan : Op.cit.p.176-7

في الوقت الذى تركز فيه فكر البابوية بدرجة كبيرة ،على ما كان جاريا بينها وبين الإمبراطورية من نزاع ، ولم تول أمرا آخر اهتماما كبيراً، على الرغم من أن البابا جريجورى التاسع أرسل قبل وفاته كتبا يعرب فيها عن عطفه على مملكة الكرج المسيحية مما أصابها على يد المغول ، وكذلك على ما جرى للملك المجر الذى تعرض لاجتياح المغول ، وجرت المذابح الرهيبة بين رعاياه ،على أيدى هؤلاء الغزاة الطغاة [٩٣]، ولكن فكر البابا وجهده انصرف حينئذ لمركته مع الإمبراطور ، حول ما سبق وأشرنا إليه من فكرة السمو والتفوق والتقليد العلمانى ورغبة البابا في إجبار الإمبراطور فردريك الثانى على الانصياع والطاعة ،ولم تتنفس أوربا الصعداء إلا بعد أن توفي خان المغول الأعظم أوكتاى وانسحاب المغول إلى روسيا سنة ١٢٤٢م[٩٤] .

وإذا كان البابا إنوسنت الرابع الذى خلف جريجورى التاسع، والذى اعتلى كرسي البابوية ابتداء من سنة ١٢٤٣م قد أدرك حقيقة الخطر المغولى ، وفكر فعلا في التصدى لهذا الخطر معولاً على خطة من شقين ،الشق الأول منها: الدعوة إلى حشد الجيوش لحربهم وإنقاذ العالم المسيحى من شرهم ، والشق الآخر هو محاولة تحويل هؤلاء المغول الى المسيحية حتى يكفوا عن مهاجمة أوربا المسيحية [٩٥] ، إلا أن الشق الأول من خطته قد فشل تماما ولم ينجح في حشد الجيوش لمحاربة المغول، والتصدى لهم على الرغم من أنه منح المحاربين المتطوعين في هذه الجيوش امتيازات روحية ودينية ماثلت ما منحته البابوية لمن

---

(٩٣) العرينى : المرجع السابق ص١٨٧

(94) Camb. Med.Hist.Vol. 6, p.135, p. 156

(95) Morgan : Op.cit.p.179-180

شاركوا في الحروب الصليبية في الشرق ، فضلاً عن أنه جعل للحملة المزمع إنفاذها لمحاربة المغول من المكانة والاحترام ما حظيت به الحملات الصليبية من الاحترام والتقدير من قبل[٩٦] ، أما الشق الثاني من خطته فلم يكن في الإمكان تحقيقه عمليا ، وإنما يمكن التفكير في تحقيقه على المدى الطويل ،وللأزمنة التالية ،لأن تحويل هؤلاء إلى المسيحية كان يحتاج إلى وقت وجهد كبير ، وذلك خلال اتصالات وعلاقات بين البابوية وهؤلاء المغول [٩٧] .

وكنا قد أشرنا من قبل إلى توسعات المغول في كل من فارس وبلاد الكرج وأرمينيا وآسيا الصغرى والجزيرة . وذكرنا أن سيادة المغول امتدت إلى حدود الدولة البيزنطية في الفترة بين سنتى ١٢٣١م و١٢٤٤م بعد اعتراف هيثوم ملك الأرمن بسيادة المغول سنة١٢٤٤ م[٩٨] .

وتبع ذلك توسعات المغول في أوربا بداءاً بمملكة البلغار وبرارى روسيا أو بلاد القفجاق ، ثم اجتياحهم لروسيا ذاتها ،وقضائهم على إمارتها الواحدة تلو الأخرى ، ثم اجتياحهم بولندا ، وأردفوا ذلك باجتياح المجر وأخضعوا كل البلاد حتى نهر الدانوب [٩٩] ،وذلك في الفترة ما بين ١٢٣٦ و١٢٤٢م . ومعنى ذلك أن المغول فيما بين سنتى ١٢٣١ و١٢٤٤ م أضافوا مساحات شاسعة لإمبراطوريتهم بالتوسع في آسيا وأوربا [١٠٠] ، ثم مضوا في التوسع بالسيطرة على ممتلكات الإسماعيلية في أطراف فارس وبلاد الشلم ،فاستولى هولاكو على قلعة الموت في ديسمبر

(٩٦) العرينى : المغول ص ١٨٧
(97) Matthew Paris´ s English Hist.Vol.1,pp.131-2
(٩٨) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص١٠٨
(99) Morgan : Op.cit.p.143-4
(١٠٠) العرينى : نفسه ص١٨٣

سنة ١٢٥٦م ،وصفي أملاك هذه الفئة [١٠١] ،وجرى التخلص من آلاف مؤلفة منهم بالقتل ولم يبق على قيد الحياة منهم إلا من اعتصم بجبال فارس ، في الوقت الذى لم تجد فيه استغاثات الإسماعيلية بملوك أوربا خاصة ملك فرنسا وملك إنجلترا [١٠٢].

ثم جاء الدور على الخلافة العباسية في العراق ، وكان يلي عرش هذه الخلافة عند قدوم هولاكو ،الخليفة المستعصم بالله العباسى ، الذى أجمعت المصادر على وصفه بالضعف وسوء التقدير " فلم يكن شديد الباس بل كان قليل الخبرة بأمور الملكة ،.... وكان أصحابه قد سيطروا عليه وكلهم جهال أراذل" ،وذكرت الروايات أن هذا الخليفة أحاط نفسه بكل مظاهر الأبهة والعظمة وحرص على أن يقضى أكثر وقته في سماع الأغانى والتفرج على الملاهى والمساخر [١٠٣]، بل إنه فشل في وقف اشتداد العداء داخل بلاطه ، بين وزيره الشيعى ابن العلقمى وكاتبه السنى أيبك الدوادار ، وعلى الرغم من أن بغداد كانت في ذلك الوقت بالغة التحصين والمناعة ، وفي وسع الخليفة أن يحشد نحو مائة وعشرين ألف مقاتل للدفاع عنها ، إلا أن ذلك كان رهنا بمشيئة الأمراء أصحاب الإقطاعات الحربية الذين لم يكونوا محل ثقة الخليفة لاهم ولاقادة الجيش العباسى، الأمر الذى جعل الخليفة يلجأ إلى تخفيض عدد الجيش بما يتيح له أن يحمل إلى المغول متحصل هذه الإقطاعات الحربية

---

(١٠١) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ ص٢٥٧-٢٥٨(الترجمة العربية)
الذهبى : العبر في خبر من غبر ج٥ص٢١٦
عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص١١٢-١١٣ .

(102) Matthew Paris's English Hist.Vol.1,p.131-2

(١٠٣) قال ابن العبرى :" انه كان صاحب لهو وشغف بلعب الطيور واستولت عليه النساء وكان ضعيف الراي قليل العزم كثير الغفلة عما يجب لتدبير الدول..." انظر : ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٤٤٥

فيتجنب خطر المغول (١٠٤) ،فانخفض عدد الجيش العباسى إلى نحو عشرين ألف مقاتل .

وإذا أضفنا إلى ذلك ما اندلع من حروب داخلية بين العناصر المختلفة خاصة من سكان بغداد من أهل السنة والشيعة والنصارى واليهود ، واندلاع الحرب بين السنة والشيعة في ضاحية الكرخ ، وبلوغ هذه الفتنة ذروتها في فبراير سنة ١٢٥٧م/٦٥٥هـ ، حين نزل بالشيعة من أهل الكرخ نوازل شديدة على أيدى أهل السنة ، الأمر الذى دفع وزير الخليفة "ابن العلقمى" الشيعى إلى مكاتبة التتار وإطماعهم في بغداد(١٠٥) ، كما تذهب أغلب الروايات التاريخية فساروا إلى بغداد قاصدين دار الخلافة العباسية .

تقدم جيش هولاكو إلى شرقى بغداد في المحرم سنة ٦٥٦هـ /يناير سنة ١٢٥٨م، ثم لحق به جيش مغولى آخر إلى غربى بغداد ، فأحكما الحصار عليها ،وشرع المغول في مهاجمة أسوار المدينة (١٠٦)، وكان هولاكو قد أرسل إلى الخليفة المستعصم يطلب أن تكون له السلطات الزمنية في بغداد مثل التى حازها من قبل أمراء بنى بويه وسلاطين السلاجقة وقد: "علمت أن الجيوش المغولية منذ زمن جنكيز خان قد أخضعت العالم بأسره.. وأنزلت ضربات الذلة والمهانة بأسرات الخوارزمية والسلاجقة وملوك الديلم وسائر الأتابكة..فهل تحب أن تخوض الحرب ضد

---

(١٠٤) العرينى : المغول ص٢١٤

(١٠٥) الذهبى : العبر في خبر من غبر جـ٥ ص٢٢٥-٢٢٦

(١٠٦) ابن القوطى : الحوادث الجامعة ص٣٢٤،
رشيد الدين فضل الله :جامع التواريخ ج١ ص ٢٨٦
مصطفي طه بدر : محنة الاسلام الكبرى ص١٣٢ ، فؤاد عبد المعطى الصياد : المغول ص٢٦١

لوائنا" [١٠٧]، وبلغ التهديد ذروته حين قال: " فسوف لاتنجو منى ولو صعدت إلى السماء أو اختفيت في باطن الأرض ، فإذا أردت أن تحفظ رأسك فاستمع لنصحى بمسمع العقل والذكاء" ، في الوقت الذى عجز فيه الخليفة عن إيجاد حل لمواجهة هذا التهديد [١٠٨] ، خاصة وأنه مال قبل ذلك لمسالمتهم ، وكان يردد "بغداد تكفيني ولايستكثرونها على إذا تنازلت لهم عن باقي البلاد ولايهجمون على" [١٠٩] فلما وصلوا فعلا وبعثوا بتهديدهم السافر استقر رأى الخليفة على رفض هذا الإنذار ، وتعرض رسل هولاكو للأذى من قبل سكان بغداد .

وكان رد الخليفة على هولاكو شديد اللهجة إذ دعاه إلى الإقلاع عن غيه والرجوع إلى خراسان [١١٠]، واعتمد الخليفة على أنه يستطيع استنفار ملوك وأمراء المشرق والمغرب وكل المؤمنين بالله ، معتقداً أن الأيوبيين في الشام والمماليك في مصر سيهرعون للدفاع عن الخلافة ويعلن المسلمون في إيران وتركستان وغيرها من الخاضعين للمغول التمرد على حكامهم، غير مدرك أن الأيوبيين والمماليك كان لديهم من المشاكل ما يحول بينهم وبين مساعدة الخلافة [١١١] وأنه لن يجرؤ أحد على التحرك ضد المغول بعد أن روع هؤلاء الناس وزرعوا الخوف في نفوس الجميع .

احتشدت جيوش المغول كلها في يناير سنة ١٢٥٨ م/ المحرم سنة ٦٥٦ هـ في ضاحية بشرق بغداد بقيادة هولاكو ووصل عدد هذه الجيوش نحو مائتى ألف مقاتل من الفرسان ،وعلى الرغم من ذلك حاول هولاكو

(١٠٧) العرينى : المغول ص٢١٥
(١٠٨) مصطفي طه بدر : محنة الاسلام الكبرى ص١١٨
محمد ماهر حمادة : وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولى ص٣٤٥-٣٤٦
(١٠٩) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص٤٤٥
(١١٠) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ ص٢٧٠
عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية ص١١٦-١١٧
(١١١) العرينى : المغول ص ٢١٦ - ٢١٧

مراوغة الخليفة كسبا للوقت ،فطلب منه أن يحضر إليه بنفسه إذا كان في نيته التسليم ، أما إذا عزم على الحرب فليرسل وزيره والدويدار ليعرفوا مطالب المغول [١١٢] ، فأرسل الخليفة وزيره ابن العلقمى ومعه عدد من حاشية الخليفة ،فلم يلتفت إليهم هولاكو ، ولم يعرهم أى اهتمام[١١٣]، في الوقت الذى كان قد أرسل فيه ثلاث فرق من جيوشه لمهاجمة بغداد من جهة الغرب في سرعة فائقة ، فلما علمت قوات الخلافة بهجوم المغول على بغداد من الجهة الغربية خرجت من بغداد لإعاقة احتشاد المغول ، إلا أن هؤلاء حطموا السدود والجسور ، فأغرقت المياه الأراضى الواقعة خلف جيوش الخلافة ، وبادر المغول بالاشتباك مع من أصبحوا محاصرين ، فقتلوا منهم نحو اثنى عشر ألف مقاتل ، ولاذ الباقون بالفرار إلى بلاد الشام ، وأحكمت قوات المغول الحصار حول بغداد[١١٤] ، من الضفة الغربية لنهر دجلة تحت إشراف القادة المغول ، ومن الجانب الآخر بقيادة هولاكو نفسه ومعه كتبغا ، وحرصوا على ألا تتهيأ الفرصة لأحد من المحاصرين للفرار عن طريق النهر ، ثم ما لبث المغول أن أجهزوا على بقية الحامية التى حاولت الفرار .

عندئذ اضطر الخليفة إلى الخروج لمقابلة هولاكو ، فطلب منه هولاكو أن يامر جميع سكان المدينة بالخروج منها رافعين أيديهم إلى أعلى ،فلما تكامل عددهم قتلهم المغول عن آخرهم ، وأجهزوا على من لم

---

(112) Quatremere : Histoire des Mongols ,p.279
(113) Howorth : Hist. Of the Mongols ,Vol.1,p.199
Morgan : Op.cit.p.145
(114) Glubb : The lost centuries ,p.252
عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص١٢٠

يخرج من المدينة وذلك في مذبحة رهيبة [١١٥] ، وأشعلوا الحرائق في بغداد في ١٣ فبراير سنة ١٢٥٨ ، ونهبوها واستباحوها سبعة أيام ، ولم يبق المغول على شيخ أو طفل أو أمراة ، ودام القتل والنهب أربعين يوما، حتى بلغ عدد ضحايا هذه المذابح من سكان المدينة مئات الألوف وخربت الجوامع ومشهد الإمام موسى الكاظم وقبور الخلفاء في الرصافة[١١٦] ، وقدر بعض المؤرخين أن عدد القتلى في بغداد بلغوا نحو مليون وثمانمائة ألف قتيل [١١٧].

ولما دخل هولاكو بغداد في ١٥ فبراير سنة ١٢٥٨م ،قدم له الخليفة كنوزه من الأحجار الكريمة والحلى بمختلف أنواعها وعشرة آلاف دينار، ونحو ألفين من الثياب ، وطلب هولاكو من الخليفة أن يدله على ما خفي من الثروة ، فأشار الخليفة إلى نافورة بداخل القصر امتلات بسبائك الذهب ، فراح المغول يكدسونها في شكل تلال حول خيمة الخان، ثم أمر هولاكو بأن يحصوا حرم الخليفة وحاشيته فوجدوها سبعمائة من النساء والسرايا [١١٨] ، وبعد أيام قليلة وفي ٢٠ فبراير سنة ١٢٥٨ م/ صفر ٦٥٦ هـ ، أمر هولاكو بقتل الخليفة المستعصم بالله وولده الأكبر وخمسة من كبار رجاله المخلصين [١١٩] ، وتعددت روايات المؤرخين عن الطريقة التى أعدم بها الخليفة العباسى [١٢٠] .

---

(115) Morgan : Op.cit.p.151

(١١٦) لاسترانج : بغداد في عهد الخلافة العباسية ص٢٩٢-٢٩٣ (ترجمة بشير فرنسيس)

(١١٧) الذهبى : العبر في خبر من غبر ج٥ص٢٢٦

(١١٨) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص٤٧٥

(١١٩) الذهبى : المصدر السابق ج٥ص٢٣١

(١٢٠) ابو الفدا : المختصر في أخبار البشر ج٢ص٢٠٣

ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات ج٢ص٢٣٧

كما أمر هولاكو بإشعال النيران في مبانى المدينة فاحترق المسجد الجامع وقصور العباسيين وقبورهم ، وطالت النيران أجساد القتلى في شوارع المدينة ، في الوقت الذى لم يتعرض فيه المغول للسكان المسيحيين الذين لجأوا للكنائس بأمر هولاكو وزوجه طقز خاتون ، وأفاء هولاكو على بطريق النساطرة بالأحباس ودور الخلافة حتى تراءى للبعض أن ما جرى كأنه من أعمال حملة صليبية نسطورية (١٢١) ، أو هى الحرب الصليبية المغولية أو الحرب النسطورية ، ولهذا طرب المسيحيون لسقوط بغداد ، وأشاد كتابهم بهولاكو وطقز خاتون وكبتغا ،ولكن هذا الارتياح لم يستمر طويلا ، فلم يلبث الإسلام أن قهر غزاته بعد فترة قصيرة وأعيد إعلان الخلافة العباسية في القاهرة على يد بيبرس (١٢٢) .

ثم جاء الدور على بلاد الشام التى كان يتقاسمها الأيوبيون والصليبيون ، فكان للصليبيين إمارتى أنطاكية وطرابلس في الشمال وساحل البحر المتوسط ، ومملكة بيت المقدس دون مدينة بيت المقدس ذاتها في الجنوب ، وملك الأيوبيون داخلية بلاد الشام بما فيها حلب ودمشق وأشهر أمرائهم هو الناصر يوسف ، وبعد إطلاق سراح الملك لويس التاسع من مصر ، توجه إلى بلاد الشام في مايو سنة ١٢٥٠ م ، فصار المسئول الأول عن الصليبيين في بلاد الشام وإدارة مملكة بيت المقدس الإسمية (١٢٣).

---

(١٢١) العرينى : المغول ص٢٢٠-٢٢١

(122) Morgan : Op. cit. p.152

(١٢٣) جان دى جوانفيل : القديس لويس حياته وحملاته على مصر والشام ص١٩٧ (ترجمة حَبشى)

King : The knights Hospitallers in the holy land ,p.249

Runciman : Hist. of the crusaders ,111,p.274

وعلى الرغم من ذلك فقد كانت أحوال الصليبيين في ذلك الوقت غاية في السوء فقد نزل بالصليبيين نوازل كثيرة في تلك الفترة ، وصرع كثير من مقاتليهم ومن الداوية والاسبتارية وأصيبت الإمارات الصليبية وقتذاك بالاضطراب والفوضى ونشبت فيها حروب داخلية ، وصراع بين الجنوية والبيازنة وتعرضت للضعف والاضمحلال (١٢٤) ، فكان وصول لويس التاسع تهدئة لأمورها ، وبقائه فيها نحو أربع سنوات عاملاً في حفظ ما بقى من الكيان الصليبى في الشرق وعد سقوطه في أيدى المماليك حكام مصر الجدد ، إذ جعل من كبار الأمراء أنصاراً له واهتم كثيرا برفع روح الصليبيين المعنوية ، وفض ما ينشأ بينهم من منازعات ، بعد أن أمست مصالحهم خليطاً من الأغراض الدينية والأطماع السياسية السافرة، مثلما أمست دماؤهم خليطاً من الصليبيين الجدد ودماء المستوطنين (١٢٥).

غير أن ثمة عامل جديد كان له تاثير شديد على مسار الأحداث في بلاد الشام وأعنى به النزاع الذى نشب بين الأيوبيين في الشام والمماليك في مصر، فقد أضحى للناصر يوسف الأيوبى في بلاد الشام وحلب ودمشق وبيت المقدس، وبقيت دولته مستقله عن دولة المماليك في مصر، واستمرت الأحقاد والكراهية بين الجانبين، وذلك كان في صالح الصليبيين، فتهيأت الفرصة للويس التاسع للإفادة من هذا الوضع (١٢٦) إذ حرص المماليك في مصر ألا تتاح الفرصة لتحالف

---

(١٢٤) جوانفيل : المصدر السابق ص١٩٧محمد الشيخ : عصر الحروب الصليبية في الشرق ص٥٣٠-٥٣١

(١٢٥) محمد مصطفي زيادة : حملة لويس التاسع ص٢٤٣-٢٤٤
Grousset : Histoire de Croisades,iii,p.496
Srevenson : The crusades in the East ,p.330

(126) Wiet : L Egypte Arabe ,P.405
Runciman :Op.cit.iii,p.276
المقريزى : السلوك ج ١ ص٢٧٤

لويس التاسع مع الأيوبيين في الشام ضدهم ،فعملوا على التقارب مع لويس التاسع بإطلاق سراح بقية الأسرى الفرنسيين في مصر سنة ١٢٥٢م، الذين كانوا لايزالون في الأسر منذ فشل حملة لويس التاسع على مصر[١٢٧] غير أنه ما لبث أن جرى صلح بين المماليك والأيوبيين، الأمر الذى حرم لويس التاسع من الاستفادة من الأوضاع واسترجاع بيت المقدس، وأخيرا قرر لويس التاسع العودة إلى فرنسا في إبريل سنة ١٢٥٤م، خاصة بعد أن فشل في التحالف مع المغول [١٢٨].

ولاشك في أن الخوف من المغول قد جعل طرفي الصراع في الشام ومصر يتجنبان الحرب مع الصليبيين في تلك الظروف ،فضلاً عن أن هذا الخوف قد حسم الأمور في مصر بانتزاع قطز السلطنة لنفسة من الصبى الملك المنصور على بن المعز أيبك إذ " لابد من سلطان قاهر يقاتل هذا العدو" وذلك في نوفمبر سنة ١٢٥٩م [١٢٩] ، ولم يستطع هولاكو أن يوقع بين قطز هذا والناصر يوسف الأيوبى في بلاد الشام ، وعلى الرغم من ذلك لم يصمد الناصر يوسف بحلب لمواجهة المغول بعد أن داهموا حران واجتازوا نهر الفرات في طريقهم إلى حلب فترك الناصر يوسف حلب واتجه إلى دمشق للإقامة بها وترك نائباً عنه في حلب [١٣٠]، ثم عسكر في ضاحية من ضواحى دمشق وأرسل يستنجد بالأمراء الأيوبيين وبالمماليك، لكنه عاد فلجأ للاحتماء بقلعة دمشق ،بعد أن دبر جماعه من الأمراء

(127) Grousset : Op. cit. III, p.500

(128) D'Ohosson : Histoire de Mongols,3,p.310

(١٢٩) ابو المحاسن بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج٧ص٧٣

(١٣٠) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص٤٨٧

المماليك ومنهم بيبرس مؤامرة لاغتياله لما لمسوه فيه من الاستكانة والتخاذل أمام المغول ،وفر بيبرس إلى غزة ثم لاذ هو ومجموعة من الأمراء المماليك إلى قطز بمصر ، فتم الوفاق بينهم لمحاربة التتار [١٣١].

تقدم جيش المغول تحت قيادة هولاكو ، الذى اصطحب معه زوجته المسيحية طقز خاتون وعلى مقدمة الجيش القائد كتبغا ومن قادته أيضا بايجو، فتقدموا إلى الجزيرة واستولوا على نصيبين ، وخضعت حران والرها، وأحدثوا مذبحة رهيبة في سروج لما أبدته هذه المدينة من مقاومة، ثم وصلوا إلى البيرة على نهر الفرات ، واستباحوا منبج ، ثم نزلوا على حلب ، فألحقوا بمن خرج من حاميتها لحربهم هزيمة كبيرة، وقتلوا أعداداً كبيرة منهم [١٣٢]، ثم اتجهوا إلى عزاز فتسلموها بالأمان، ثم وصل الجيش الرئيسى للمغول بقيادة هولاكو إلى حلب بعد أن انحاز إليه اعداداً كبيرة من الأرمن والصليبيين ببلاد الشام ، فألقى هولاكو الحصار على حلب في يناير سنة ١٢٦٠م فما لبثوا أن نفذوا إليها [١٣٣] فأعملوا سيوفهم في سكانها المسلمين بينما صمدت القلعة ولم تستسلم إلا بعد نحو شهر ، واستمر قتل السكان ونهب المدينة ستة أيام ، ومن سلم من القتل من المسلمين جرى بيعه في الأسواق خاصة في موانى الصليبيين بالشام ، واشعلوا الحرائق في المسجد الجامع الكبير فامتدت الحرائق الى سائر المساجد ، ولما استسلمت قلعة حلب أمر هولاكو بتدميرها ، وعين حاكما على حلب [١٣٤] .

---

(١٣١) أبو الفدا : المختصر في اخبار البشر ج٣ص١٩٩
(١٣٢) ابن العبرى : المصدر السابق ص٤٨٦-٤٨٧
(١٣٣) الذهبى : العبر في خبر من غبر ج٥ص٢٤١
(١٣٤) محمد كرد على : خطط الشام ج٢ ص١٠٥
عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص١٤١

وأحدث سقوط حلب التى كانت حصن المسلمين القوى والتى صمدت كثيرا أمام الصليبيين وأباطرة بيزنطة الفزع والخوف في نفوس المسلمين ببلاد الشام ، فبدأ يتوافد على هولاكو كثير من الأمراء المسلمين ليعلنوا ولاءهم وخضوعهم [١٣٥] ، ومنهم الأشرف موسى صاحب حمص ، بينما تحالف مع المغول -كما سبق أن أشرنا -امير أنطاكية الصليبى بوهيموند السادس وهيثوم ملك الأرمن ،وأفادا من هذا التحالف فحصلا على قدر من الغنائم التى نهبها المغول من حلب ، فضلا عما استرجعه كل منهما من أملاك سبق وأن استولى عليها المسلمون بالإضافة إلى ضم بعض الحصون الإسلامية المتاخمة لبلادهم [١٣٦] ، ثم أعلن أعيان حماة إذعانهم لهولاكو بعد هروب المنصور الايوبى إلى دمشق ، فجنبوا المدينة ما حدث في حلب من مذابح .

رحل الناصر يوسف من دمشق متجها إلى مصر ومعه المنصور صاحب حماة ،وبينما واصل المنصور صاحب حماه طريقه إلى مصر حيث استقبله السلطان قطز بترحاب ،كان الناصر يوسف متردداً إذ عاد فاتجه شمالا دون هدف فقبض عليه المغول [١٣٧] ، ثم جرى قتله بعد ذلك على أيديهم ، في الوقت الذى توجه فيه وفد من شيوخ دمشق وأعيانها للقاء كتبغا المغولى ،وأعلنوا الخضوع والاستسلام فقبل المغول خضوعهم وعينوا حاكما مغوليا على دمشق ،ثم استسلمت قلعة دمشق فنهب المغول كل ما

(١٣٥) العرينى : المغول ص ٢٤٤-٢٤٥

(136) Morgan :Op.cit.pp.154-5

Grousset : Histoire de Croisades,3,pp.525-30

عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص١٤١

(١٣٧) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ ص٣٠٨(الترجمة العربية)

فيها وقتلوا قائدها ونائبه وخربوا أسوار دمشق واستولوا على ما بها من أسلحة (١٣٨) ، ثم أتم كتبغا فتح بلاد الشام في الأسابيع القليلة التالية لدخولهم دمشق في مارس سنة ١٢٦٠م ، فاستولوا على نابلس ووصلوا إلى أطراف غزة وبيت جبريل والخليل وبعلبك وبانياس ، ولم يهاجموا بيت المقدس، واستتبع ذلك تدمير الأسوار والاستحكامات والقلاع بالبلاد التى استولوا عليها مثل حلب وحماه وحمص وبعلبك ودمشق وبانياس (١٣٩) .

ولاحظ المؤرخون أن كتبغا وكان من النايمان النساطرة قد اصطحب معه عند دخوله دمشق في مارس سنة ١٢٦٠م كل من ملك أرمينيا المسيحى وأمير أنطاكية الصليبى ،فاكتملت الكارثة على المسلمين بسقوط المدن الكبيرة الثلاث : بغداد وحلب ودمشق ، فأحدث ذلك دوياً هائلا في العالم الإسلامى ، وأشار المؤرخ المقريزى إلى أن النصارى بدمشق استطالوا على المسلمين وعاقروا الخمر في نهار رمضان ،وأخذوا في رشه على ثياب المسلمين في الطرقات وصبوه على أبواب المساجد ، وأخذوا يمرون بالصليب في شوارع المدينة صائحين "ظهر الدين الصحيح دين المسيح" في ظل تأييد وتشجيع نائب هولاكو (كتبغا) (١٤٠) .

وهكذا انتهت مرحلة هامة من مراحل توسعات المغول قضوا فيها على قلاع الإسماعيلية ودمروا بغداد ، وفرضوا سلطانهم على إقليم الجزيرة وآذربيجان ،حتى جبال القوقاز ،ثم انحدروا إلى بلاد الشام فاستولوا على حلب وحمص وحماه ودمشق ، فضلاً عن كثير من المدن،

---

(١٣٨) محمد كرد على : خطط الشام ج٢ص١٠٧

(١٣٩) المقريزى : السلوك ج١ص٤٢٥

أبو المحاسن بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج٧ص٨٠

(١٤٠) العرينى : المغول ص٢٤٩ ، Morgan :Op.cit.pp.154-6

Grousset : Op.cit.vol.3,pp.525-30

ولم يجرؤ الأمراء الأيوبيون على الوقوف في وجههم ،فكانت وجهتهم بعد ذلك مصر ودولة المماليك البحرية (١٤١) ، وفي أغسطس سنة ١٢٥٩م، توفي الخان الأعظم مونكو فاضطر هولاكو إلى العودة إلى مقر الخانية ليكون قريبا من الأحداث في منغوليا ،حتى يجرى اختيار الخان الجديد ،وصار كتبغا مسئولا عن حكومة الشام وفلسطين (١٤٢) .

وعلى الرغم من النوايا الحسنة التى أظهرها كتبغا تجاه المسيحيين، بحكم أنه كان مسيحياً نسطورياً وحرصه على محالفة ملك الأرمن المسيحى وأمير أنطاكية الصليبى وإدراكه لأهمية قيام تحالف بين المغول والفرنج ،إلا أن بارونات المملكة الصليبية بعكا كانوا يخالفون الآخرين في رأيهم في المغول ،إذ اعتبروا المغول متبربرين خاصة بعد أن قام المغول بنهب مدينة صيدا وقيامهم بأعمال وحشية فيها أضاع أى أمل في عقد محالفة بين المغول والفرنج (١٤٣) ، فأفاد المماليك في مصر من هذا النزاع وخططوا لإنزال الهزيمة أولا بالمغول ثم الالتفات إلى الصليبيين . ويشير المؤرخون إلى رسالة بعث بها الفرنج في الشام الى شارل دى انجو في إبريل سنة ١٢٦٠ م تظهر أسفهم وحزنهم على سقوط حلب وحمص وحماة ودمشق في أيدى المغول ، وعلى ما حل بالمسلمين من كارثة، وأظهرت هذه الرسالة ميل الفرنج للمسلمين وتفضيلهم للمسلمين على المغول (١٤٤) .

بعث هولاكو في يناير سنة ١٢٦٠ رسالة إلى مصر إلى السلطان

---

(١٤١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص٤٩١
(١٤٢) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ ج٢ص٣٠٦
(143) Morgan : Op.cit.155
(١٤٤) العرينى : المغول ص٢٥٤-٢٥٥

قطز يطلب منه التسليم وتضمنت هذه الرسالة تهديداً ووعيداً " إنا نحن جند الله... خلقنا من سخطه وسلطنا على من حل به غضبه ....فنحن ما نرحم من بكى ولانرق لمن شكى .... وقد فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد وقتلنا معظم العباد فعليكم بالهرب وعلينا الطلب ....فخيولنا سوابق وسهامنا خوارق وسيوفنا صواعق وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال، فالحصون لدينا لاتمنع والعساكر لقتالنا لاتنفع ودعاؤكم علينا لايسمع"[١٤٥]. ونظراً لعودة هولاكو إلى منغوليا بسبب وفاة الخان الأعظم مونكو ،فقد أفاد السلطان قطز ومماليك مصر من ذلك ، لأن من تبقى من عساكر المغول تحت قيادة كتبغا كان يتراوح عددهم بين عشرة آلاف وعشرين ألف مقاتل ، وزاد من صعوبة موقف كتبغا ما أظهره الفرنج من العداء للمغول [١٤٦] .

بادر قطز بالإعداد لقتال التتار يدفعه لذلك إيمانه وعزمه على الجهاد ،فتقرر قتل الرسل الموفدين من قبلهم ،فاصبحت الحرب واقعة لامحالة [١٤٧]وصرح قطز بأنه سيلقى التتار بنفسه ،وأظهر بيبرس حماسة وشجاعة لاتقل عن ذلك، فطلب منه قطز أن يتقدم الجيش ليستطلع أخبار العدو ،فسار إلى غزة على رأس المماليك ،فلم يستطع من كان بها من المغول إلا الرحيل فدخلها بيبرس في يوليو سنة ١٢٦٠م في الوقت الذى نجح فيه قطز في الحصول على موافقة الفرنج في عكا على السماح للجيوش الإسلامية باجتياز بلادهم وبشراء ما يحتاجون إليه من مؤن[١٤٨]

---

(١٤٥) القلشقندى : صبح الأعشى ج ٨ ص٦٣

(146) Morgan : Op.cit.p.155
Grousset : Op.cit.3,pp.525-30

(١٤٧) المقريزى : السلوك ج٤ص٤٢٨–٤٢٩

(١٤٨) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص١٤٥
Morgan : Op.cit.p.155

تقدم قطز عبر الساحل في أغسطس سنة ١٢٦٠ م ،واجتاز عكا فلقى ترحيبا من صليبى عكا ،وأفاد الجيش الإسلامى من الإقامة بقرب عكا وما توافر له من مؤن وفي نفس الوقت وقف على تحركات التتار الذين كانوا قد اجتازوا نهر الأردن ،ونزلوا بشرق الجليل في الوقت الذى تحرك فيه قطز من عكا مجتازا الناصرة حتى بلغ عين جالوت في ٢ سبتمبر سنة ١٢٦٠م (١٤٩) ، وأخفي قطز الجانب الأكبر من جيشه خلف التلال المجاورة فوقع كتبغا في الفخ الذى نصبه له المماليك ،ولما بادر كتبغا بالهجوم على المماليك راح هؤلاء يناوشونهم ويعملون على جذبهم الى التلال ،فاكتمل تطويقهم بقوات المماليك فاشتد القتال ، واضطرب نوعاً ما جناح السلطان قطز ،فألقى هذا بخوذته عن رأسه وصاح بأعلى صوته "واسلاماه" وحمل بنفسه وبمن معه على التتار حملة صادقة، فاعملوا القتل في التتار ولقى كتبغا مصرعه ،وإن تضاربت الروايات في كيفية مصرعه ،وهل صرع بعد أسره (١٥٠) أم أثناء القتال ،وانتهت بذلك معركة عين جالوت في ٢٥ رمضان سنة ٦٥٨هـ / سبتمبر سنة ١٢٦٠م.

وترتب على معركة عين جالوت نتائج بالغة الأهمية ،فقد لحق بالمغول لأول مرة هزيمة ساحقة ، وتعرض جيشهم للدمار والفناء التام. فتخلصت دمشق من تبعيتها للمغول ، وطارد المماليك فلول التتار القليلة حتى حلب وأسروهم ،فتخطفهم الناس وقاسوا من البلاء ما يستحقونه(١٥١) ، وأصبحت بلاد الشام حتى نهر الفرات تابعة للمماليك،

---

(١٤٩) العرينى : المغول ص٢٥٩-٢٦٠

عبد السلام فهمى : نفسه ص١٤٥-١٤٦

(150) Runciman : Hist.of the Crusades, III, p.313

(١٥١) العرينى : المغول ص٢٦٢

وحين حاول المغول مرة أخرى مهاجمة حلب تعرضوا للهزيمة بالقرب من حمص فانسحبت فلولهم إلى ما وراء نهر الفرات .

وأنقذ انتصار المماليك في عين جالوت العالم الإسلامى من شر التتار، وحمى الإسلام والحضارة الإسلامية من عسف هذه الشرذمة الطاغية ،فلو نفذ التتار إلى مصر لما بقى في العالم الإسلامى من يوقفهم(١٥٢) ، ولو انتصر المغول في تلك الموقعة لاسترد الفرنج مملكة بيت المقدس ، ومن النتائج أيضا أن صار لمصر الزعامة بعد إحياء الخلافة العباسية في القاهرة ، وأضحت القاهرة المركز الجديد للإسلام ، ومركز الإقامة الجديدة للحضارة الاسلامية.

وبعد انتصار المماليك في عين جالوت أضحت دولة المماليك أقوى دولة في الشرق الأدنى وعلى مدى نحو قرنين من الزمان (١٥٣) ، وترتب على انتصار المماليك في عين جالوت أن تداعى أمر المسيحيين، وارتفع شأن المسلمين، وعجلت وقعة عين جالوت بزوال ما بقى من الإمارات الصليبية في الشرق ، وكانت أهم نتائج هذه الموقعة أنها لم تنقذ مصر والعالم الإسلامى من شر التتار فحسب ، وإنما أنقذت أيضا أوربا من تهديد التتار (١٥٤) .

---

(152)Morgan : Op.cit.p.156

(١٥٣) العرينى : نفسه ص٢٦٤

(١٥٤) ابراهيم احمد العدوى : التاريخ الاسلامى ص٣

الباب الثالث

الاتصالات بين أوربا والتتار

الفصل الحادى عشر : سفارات أوربا إلى التتار للتبشير بالمسيحية بينهم ومحاولة تنصيرهم على المذهب الكاثوليكى .

الفصل الثانى عشر : مدى نجاح سفارات أوربا وبعثاتها التبشيرية إلى المغول فيما أرسلت من أجله .

الفصل الثالث عشر : الرسل والسفارات المتبادلة بين أوربا والتتار بغرض التحالف العسكرى ضد المسلمين .

الفصل الرابع عشر : تحالف مغول فارس مع الأرمن وفرنج الشرق ضد تحالف مغول القفجاق مع المماليك .



الفصل الحادى عشر

سفارات ورسل أوربا إلى التتار للتبشير بالمسيحية بينهم ومحاولة تنصيرهم على المذهب الكاثوليكى

- بداية معرفة أوربا بالمغول .
- خانات المغول والعقيدة المسيحية .
- أول سفارة للبابا إنوسنت الرابع إلى المغول برئاسة الراهب يوحنا أوف بلانوكاربينى سنة ١٢٤٥ م
- السفارة الثانية لهذا البابا إلى المغول برئاسة الراهب أندريه لونج جميو سنة ١٢٤٥ م .
- السفارة الثالثة لهذا البابا إلى المغول برئاسة الراهب أسكلين أوف لومباردى سنة ١٢٤٥م .
- سفارة الملك الفرنسى لويس التاسع إلى المغول سنة ١٢٤٩م برئاسة الراهب أندريه لونج جميو للتحالف معهم بشرط تحولهم أولاً إلى المسيحية.
- السفارة الثانية للملك الفرنسى لويس التاسع إلى المغول برئاسة وليم روبروق سنة ١٢٥٣ م
- جهود البابا أوربان الرابع لاجتذاب هولاكو إلى المسيحية وإدخاله فيها فيما بين سنتى ١٢٦٠ — ١٢٦٤م .
- محاولة البابا جريجورى العاشر (١٢٧١ — ١٢٧٦م) للتبشير بالمسيحية بين المغول على عهد الخان الأعظم قوبيلاى .
- رسالة الملك إدوارد الأول ملك انجلترا إلى الخان أبغا سنة ١٢٧٤م يوصيه فيها بالمسيحيين .

- سفارة البابا نيقولا الثالث سنة ١٢٧٨م إلى مغول فارس للتبشير بالمسيحية ومحاولة إعادة النساطرة واليعاقبة إلى حظيرة المسيحية الكاثوليكية .
- السفارة التى أرسلها البابا نيقولا الرابع للتبشير بالمسيحية بين المغول برئاسة رابان سوْما سنة ١٢٨٨م إلى الخان أرغون بن أبغا .
- السفارة الأخرى التى أرسلها نفس البابا إلى الخان قوبيلاى وإلى الخان أرغون برئاسة جون أوف مونت كورفينو سنة ١٢٨٩ م .

إذا لم يكن حكام أوربا والبابوية قد تنبهوا إلى خطر المغول في أول أمره. منذ أن اجتاز هؤلاء جبال القوقاز لأول مرة سنة ١١٢٢م زمن جنكيزخان[١] ، إلا أن الأمر تغير منذ أن اندفع المغول في فتوحاتهم في القارة الأوربية بشيء كبير من الجسارة وتعطش للقتل وسفك الدماء، وميل للتخريب والتدمير وإحداث المذابح البشرية الرهيبة، وإشعال الحرائق المدمرة، وإغراق المدن والحواضر، مما أثار الرعب والفزع في قلوب المسيحيين هناك[٢] ،فلما اندفعوا في شرق أوربا وحطموا مملكة البلغار واجتاحوا بولندا والمجر في الفترة ما بين سنتى ١٢٣٦ و ١٢٤٢م بعد اجتياحهم لبرارى روسيا وإماراتها الواحدة تلو الأخرى، أصبح الخطر يتهدد قلب أوربا وبقية أنحائها، وكان على أوربا حكاماً وبابوات أن يعملوا على وقف هذا الخطر وإنقاذ أوربا من شره[٣] .

وأسهمت السفارة التى بعث بها الإسماعيلية إلى ملكى انجلترا وفرنسا، لإحاطة هذين الملكين بحقيقة هذا الخطر، وطلب المساعدة للوقوف في وجهه، في تنبيه حكام أوربا وتوجيه نظرهم إلى هذا الخطر، بعد أن روع المغول الدنيا في ذلك الوقت بقسوتهم وأعمالهم الوحشية، وما أحدثوه في أوربا من خراب ودمار[٤] ، وقد أحس هؤلاء الإسماعيلية بأنهم الهدف القادم لهؤلاء التتار، والفريسة التالية لهم، وقد أثارهم مصير جيرانهم المسلمين [٥] .

---

(١) هارولدلام : جنكيزخان ص ١١١
(٢) مصطفى طه بدر : مغول إيران بين المسيحية والإسلام ص ٥
(3) Morgan : op. cit. p. 179
(4) Matthew Paris's English Hist. Vol. 1, p. 131
(٥) العرينى : المغول ص ١٨٤ – ١٨٥

وكنا قد عرضنا في الفصل السابق ، تسلسل حكم الخانات العظام في دولة المغول بدءاً من جنكيزخان ومن جاء بعده، وكذلك خانات فارس بدءاً من هولاكو ومن جاء بعده على مدى القرن الثالث عشر الميلادى كله، وهى الفترة التى تعنينا في بسط العلاقات بين أوربا ودولة المغول، فذكرنا من الخانات العظام في الإمبراطورية المغولية: جنكيزخان وأوكتاى ومونكو وقوبيلاى، وعددنا من خانات فارس هولاكو وأبغا وتكودار وأرغون حتى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى .

ويهمنا هنا أن نشير إلى علاقة المغول بالمسيحية وإلى الخانات الذين أظهروا ميلاً نحو المسيحية، أو عطفوا عليها وعلى المسيحيين، أو الذين اعتنقوا هذه العقيدة فعلاً(٦) ، وإلى أى مدى عرفت المسيحية طريقها إلى بعض رجال المغول، لأنه في ضوء ذلك يمكن عرض محاولات البابوية في أوربا لجذب هؤلاء المغول إلى المسيحية، ومحاولة إدخالهم فيها والتبشير بها بينهم، وإرسال السفارات المتتابعة، على رأسها الرهبان الفرنسسكان والدومنيكان لمحاولة إغراء خاناتهم وقادتهم بالدخول في المسيحية، ودعوتهم لاعتناقها ونشرها بين شعوبهم .

فلم يجهل المغول تماماً المسيحية، حتى قبل قيام دولتهم، فالمعروف أن المسيحية النسطورية عرفت طريقها إلى بعض قبائل المغول في فترة سابقة لقيام دولة المغول، واعتنقها بعض رجالاتهم، إذ نفدت إليهم المسيحية وكذلك الإسلام، لكنهم لم يولوا اليهودية أى اهتمام(٧) ، وإن لم يكن انتشار المسيحية ثم الإسلام بينهم أمراً سهلاً، إذ انتشرت المسيحية

---

(٦) فؤاد عبد المعطى الصياد : الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين ص ٥٤
عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ١٠٩
(٧) بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ٦٤

النسطورية بين بعضهم منذ فترة بعد صراع بينها وبين الوثنية، وعاش بينهم قساوسة المسيحية ورهبانها[٨] ، بل التحق بعضهم بخدمة كبار رجال المغول وخاناتهم وظهروا في بلاط بعضهم .

وانتشر الدعاة المسيحيون في منغوليا منذ زمن سبق ظهور التجار المسلمين فيها، ومن ثم فإن تأثيرهم خاصة على الحكام المغول كان أوضح، ولهذا سعوا إلى الاستفادة من صلتهم بهؤلاء الحكام، فحصلوا على إعفاء الكنائس من الضرائب بكافة أنواعها[٩] . ولهذا فقد أظهر بعض خاناتهم ميلاً وعطفاً على المسيحية والمسيحيين فقد روى أحد المؤرخين المعاصرين أن جنكيزخان نفسه " رأى في منامه راهباً عليه السواد وبيده عكازه وهو قائم على بابه يقول له : لا تخف إفعل ما شئت فإنك مؤيد، فانتبه جنكيزخان مذعوراً ذعراً مشوباً بالفرح وعاد إلى منزله وحكى حلمه لزوجته، فقالت له هذا زى أسقف كان يتردد إلى أبى ويدعو له، فطلب جنكيزخان ممن كان في خدمته من نصارى الأويغور أحدا من الأساقفة، فأدخلوا عليه الأسقف " ماردنجا" ، فلما دخل عليه بالبيرون الأسود قال : هذا زى من رأيت في منامى، لكن شخصه ليس ذاك، فقال الأسقف: " يكون الخان قد رأى بعض قديسينا" ، ومن ذلك الوقت " صار يميل إلى النصارى ويحسن الظن بهم ويكرمهم" [١٠] .

وأثر عن مونكو بن تولوى حفيد جنكيزخان الذى كان خاناً أعظم، أنه كان يحضر قداس الأحد، ويواظب على حضور المناظرات الدينية، التى جرت في عهده بين رجال الأديان وحين قدم إليه الراهب

---

(٨) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ١٩٠، Morgan : op. cit. pp. 25 – 6

(٩) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ١٠٨

(١٠) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٤٠١ – ٤٠٢

وليم روبروق مبعوث الكنيسة الكاثوليكية ورسول الملك الفرنسي لويس التاسع سمح له بالمشاركة في هذه المناظرات الدينية[١١] ، وحين وقع مونكو هذا اتفاقية مع هيثوم ملك أرمينيا الصغرى في شهر يوليو سنة ١٢٥٤م نص البند الرابع منها على إعفاء الكنائس في الإمبراطورية المغولية من الضرائب .

ولقد تأثر مونكو هذا في نشأته بأمه المسيحية النسطورية، ولذلك عطف على المسيحية النسطورية، على الرغم من أنه أبدى نفس العطف والمحبة على البوذية[١٢] ، وعهد مونكو هذا إلى أخيه الأصغر هولاكو بإدارة حكومة فارس، وأرسل إليه رسالة يطلب فيها أن يتخلص نهائياً — كما سبق أن أشرنا — من السلطة الروحية الإسلامية، وجاء ذلك في صالح القوى المسيحية في أرمينيا الصغرى والصليبيين في بلاد الشام، كما نصحه مونكو بأن يستأنس برأى زوجته الأولى طقز خاتون ويعمل بنصائحها في جميع القضايا والشئون[١٣] ، وكانت هذه حفيدة ملك الكرايت في شرق منغوليا، وتدين بالمسيحية النسطورية، فحاول هولاكو أن يسترضى هذه الزوجة، فشمل المسيحيين بكرمه وأفضاله، وعاملهم معاملة حسنة[١٤] ، فأنشأ الكنائس واستقبل المسيحيين وغمرهم بالهدايا، وأنشأ المدارس التى يتردد عليها أطفال المسيحيين، وأقيمت الصلوات والقداسات وقرعت أجراس الكنائس في مختلف الأنحاء، ونعم رجال الدين المسيحى بالهدوء والأمن في ظل حكمه[١٥] .

---

(١١) هارولد لام : جنكيزخان ص ١٥٢، Morgan : op. cit. pp. 25- 7
(١٢) العرينى : المغول ص ١٩٤ — ١٩٥
(١٣) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ١٠٩ .
رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ ص ٢٣٤
(١٤) مصطفى طه بدر : المرجع السابق ص ١٠ .
(١٥) العرينى : المغول ص ٢٠٨ .

أما قوبيلاى فقد أشار المؤرخون إلى أنه أرسل إلى البابا رسالة يطلب فيها مبشرين دينيين، وكمية من الزيت المقدس من السراج الذي يضيء ضريح السيد المسيح في بيت المقدس، فلبى البابا طلبه[١٦] ، ولما دخل عليه البندقيان نيكولو بولو وأخوه ومثلا في حضرته، استقبلهما ببشاشه وترحاب، وأسبغ عليهما كرمه وعطفه وتحدث إليهما بلطف وإيناس، فاستفسر منهما عن أحوال القسم الغربى من العالم، وعن إمبراطور الرومان، وعن الملوك والأمراء المسيحيين الآخرين، وعن البابا بصورة خاصة وأحوال الكنيسة وعقائدها " مبديا اهتماماً عظيماً لهذه الأمور " [١٧] .

ونظراً لأن هولاكو استمر يمارس سلطانه في فارس، بعد وفاة مونكو سنة ١٢٥٩م وفي عهد قوبيلاى كنائب لهذا الخان الجديد، فقد استمر هولاكو في عطفه على المسيحيين وشمولهم بكرمه[١٨] ، حتى قيل أن البابا اسكندر الرابع أرسل إلى هولاكو كتاباً سنة ١٢٦٠ م / ٦٥٨هـ يخبره فيه أنه علم برغبته في اعتناق المسيحية وبحاجته لمن يعلمه طقوسها، فراح البابا يعدد له المزايا التى تعود عليه باعتناقه المسيحية وما يمكن أن يحظى به من الخلاص وكيف ينال الخير في السماء . ثم وصلت إلى هولاكو سفارة من قبل بطريرق بيت المقدس بهدف إقامة تفاهم مع المغول ومعرفة خطط هولاكو تجاه صليبى الشام سنة ١٢٦٠م ، بعد أن نجح هولاكو في القضاء على الخلافة العباسية واستعد لاجتياح الشام، وكان على رأس تلك السفارة راهب دومنيكانى يدعى ديفيد أوف آشبى

(١٦) إيلين بور : .نماذج بشرية من العصور الوسطى ص ٧١
(١٧) إيلين بور : المرجع السابق ص ٧٠
(١٨) فؤاد عبد المعطى الصياد : المرجع السابق ص ٥٤
D'Ohsson : Histoire des Mongols, III, pp. 410 – 12

David of Ashby ، رأى هولاكو بعد أن استمع لهذا الراهب عن الدين المسيحى ومكانة الكرسى الرسولى، الذى يعتليه البابا فى روما، أن يبقى هذا الراهب فى بلاطه، ولا يعود إلى عكا التى قدم منها، فأتيح لهذا الراهب أن يمارس مهامه التبشيرية فى خانية المغول فى فارس لسنوات طويلة، ربما إلى مستهل الربع الأخير من القرن الثالث عشر الميلادى (١٢٧٤م) (١٩).

أما أبغا بن هولاكو فعلى الرغم من أنه كان بوذياً — كما سبق وأن أشرنا — إلا أنه ماثل أباه هولاكو فى عطفه على المسيحيين من النساطرة واليعاقبة والأرمن، وتزوج من ابنة الإمبراطور البيزنطى ميخائيل باليولوجس ، وكان صديقاً لبطريرق النساطرة وحامياً له(٢٠) ، فقد ارسل مبعوثاً إلى البابا كليمنت الرابع سنة ١٢٦٨م بغرض تكوين حلف عسكرى من الغرب الأوربى وصهره الإمبراطور البيزنطى ميخائيل الثامن ضد المسلمين فى الشرق(٢١) ويبدو أن مبعوث أبغا إلى البابا أراد إثارة حماس البابا والغرب الأوربى للتعاون مع أبغا ضد المسلمين، فأخبر البابا أن أبغا قد اعتنق المسيحية فعلاً، فى محاولة لكسب تأييد المسيحيين فى الغرب والبابوية ضد المسلمين فى الشرق(٢٢) .

وهكذا لم يكن المغول حتى قبل قيام دولتهم يجهلون المسيحية، بل عرفوها وتسللت إلى بعض قبائلهم وبعض رجالهم على مذهبها النسطورى بصفة خاصة، فأنشئت بعض الكنائس وقرعت أجراسها فى

---

(19) Sykes : A History of Persia . 11, pp. 98-9
(20) Grousset : L'Empire des Steppes, p. 445
(٢١) فؤاد عبد المعطى الصياد : المرجع السابق ص ٥٧
(22) Howorth: Hist. of the Mongols, III, p. 278

بقاع مختلفة من تلك الدولة، وظهرت مدارس مسيحية التحق بها أطفال هؤلاء المسيحيين، ومال بعض خانات المغول إلى تلك العقيدة، وأظهروا عطفهم على أتباعها، ونسب إلى بعضهم اعتناق المسيحية[٢٣] ، واعتنقها بعضهم فعلاً وربما لهذا أبدت البابوية حماسة طاغية لجذب هؤلاء المغول إلى العقيدة المسيحية والتبشير بها بينهم، وإرسال السفارات والرسل من أجل ذلك، حتى يقال أن أربعة من البابوات تبادلوا مع أبغا الذى اعتلى بعد أبيه هولاكو عرش فارس الرسل والرسائل وكانوا يشيرون في رسائلهم إلى اعتناقه المسيحية[٢٤] . وأسندت هذه السفارات إلى رهبان من الفرنسسكان والدومنيكان للقيام بذلك، وفي هذا الإطار جرت الاتصالات الأولى بين أوربا والمغول أو بين البابوية وخانات المغول في الشرق[٢٥]، خاصة بعد أن اجتاحوا روسيا وشرق أوربا وخربوا بولندا والمجر ومورافيا، وجاء الدور على قلب أوربا ذاتها، فكان لابد من تحرك البابوية والغرب لمحاولة صرفهم عن ذلك، وإن أمكن اجتذابهم إلى العقيدة المسيحية للقضاء على شرورهم ونواياهم ضد أوربا، وكذلك محاولة التحالف معهم ضد المسلمين [٢٦] .

ويذكر المؤرخون أن البابا إنوسنت الرابع الذى خلف جريجورى التاسع، والذى اعتلى كرسى البابوية اعتباراً من سنة ١٢٤٣م قد أدرك حقيقة الخطر المغولى، وفكر فعلاً في التصدى له، معولاً على خطة من شقين الشق الأول منها: الدعوة إلى حشد الجيوش لحربهم وإنقاذ أوربا

(٢٣) فؤاد عبد المعطى الصياد : المرجع السابق ص ٥٥ – ٥٦
(٢٤) مصطفى طه بدر : مغول إيران بين المسيحية والإسلام ص ٧
(25) Howorth : op. cit. III, pp. 278 – 81
(٢٦) فؤاد عبد المعطى الصياد : المرجع السابق ص ٦٠

من شرهم، والشق الآخر هو محاولة تحويل هؤلاء المغول إلى المسيحية حتى يكفوا عن مهاجمة أوربا المسيحية (٢٧) .

وإذا كان الشق الأول من خطة هذا البابا قد فشل — كما سبق أن أشرنا — فإن ما يهمنا هنا هو الشق الآخر من تلك الخطة، وإن كان من الصعوبة بمكان توقع نتائج سريعة ترجى من هذا الشق، وإنما يمكن ذلك على المدى الطويل تحويل هؤلاء المغول إلى المسيحية، وبشيء من الجهد، ومن خلال العلاقات بين البابوية وهؤلاء التتار(٢٨) ، ولهذا أنفذت البابوية سفارة إلى المغول من الرهبان الفرنسسكان على رأسها John of plano Carpini يوحنا أوف بلانو كاربيني (٢٩) ، أو كما كان ينطق اسمه في بعض أقطار أوربا جان دى بلان كاربينو (٣٠) ، ومعه بندكت البولندي وذلك سنة ١٢٤٥م .

وجاء اختيار البابا للرهبان الفرنسسكان لمعرفته التامة بقدرة رهبان هذه الجماعة على التبشير بالدين المسيحي على مذهبه الكاثوليكي، مع تزايد نشاط طوائف الرهبان بصفة عامة(٣١) ، ولخبرتهم التي اكتسبوها من هذا العمل في شرق أوربا وجهات أخرى في العالم، فضلاً عن قدرتهم على تحمل مشقة السفر إلى بلاد المغول عبر البراري والسهوب الآسيوية لتحقيق هذا الغرض، وتحركت هذه السفارة من ليون جنوب فرنسا في إبريل سنة ١٢٤٥م ، واستغرق وصولها إلى عاصمة المغول في قراقورم أكثر من سنة إذ وصلت إلى عاصمة المغول في يوليو سنة

(27) Morgan : op. cit. pp. 179 – 180

(28) Matthew Paris's English Hist. Vol. 1, pp. 131 – 2

(29) Morgan : op. cit. p. 24

(٣٠) إدوارد بروى : تاريخ الحضارات العام ج٣ ص ٣٧٠

(٣١) العريني : المغول ص ٣٣٠

١٢٤٦م ، بعد أن اجتازت روسيا وبرارى آسيا الوسطى، حتى بلغت معسكر الخان الأعظم بالقرب من قراقوم[٣٢] ، في أغسطس سنة ١٢٤٦م، ونظراً لأن هذا الخان قد أحاط نفسه بمستشارين من المسيحيين النساطرة، فقد استقبل مبعوث البابا استقبالاً طيباً [٣٣] .

وتعتبر هذه السفارة التى أرسلتها البابوية إلى المغول أول بعثة أوربية تصل إلى عاصمة المغول (قراقورم) في قلب منغوليا وعن طريقها حصلت البابوية والغرب الأوربى على أول معلومات ضافية ومكتوبة عن هؤلاء المغول وحقيقة أمرهم، فضلاً عن دقة تلك المعلومات التى تتعلق بحياة هؤلاء التتار ونظمهم ومعتقداتهم ونموذج حكمهم للأقاليم التى استولوا عليها، وجيوشهم وطرق غزوهم وتوسعهم، وكذلك عاداتهم وتقاليدهم[٣٤] .

وتذكر الروايات أن كاربينى هذا ورفاقه قد وصلوا إلى عاصمة التتار، والتقوا مع بعض رجالات التتار وكبار قادتهم، وتبادلوا معهم الحديث وشرحوا أهداف سفارتهم، ونقلوا إليهم حرص البابوية على الاتصال بدولة التتار، وإقامة علاقات المودة معها، واستمع إليهم التتار وتفهموا دوافع هذه السفارة، وحضر جون كاربينى ورفاقه مراسم تقليد كيوك خاناً أعظم للمغول في أغسطس سنة ١٢٤٦م [٣٥] ، ويبدو أن هذه السفارة قد أفصحت عن أهداف قدومها إلى دولة المغول ووضعت الناحية الدينية والتبشير بالمسيحية ضمن الأهداف التى كان من بينها إقامة

---

(32) Morgan : op. cit.p. 24

(٣٣) العرينى : نفسه ص ١٨٩

(34) Morgan : op. cit. p. 24

(٣٥) العرينى : المغول ص ١٨٩

علاقات سياسية بين أوربا والتتار[٣٦] ، فضلاً عن وضع أسس للعلاقات التجارية بين أوربا والمغول في الفترة التالية .

كما تذكر الروايات أن المبعوث البابوى قد نجح في بسط أهداف سفارته إلى المغول وأسباب قدومهم إلى تلك الدولة، فأوضح أنهم مكلفون من قبل البابا رأس العالم المسيحى في الغرب وسيد كل المسيحيين بدعوة التتار إلى اعتناق المسيحية[٣٧] ، ليحققوا مجداً في السماء كما حققوه في الأرض، وليصبحوا كباراً أمام الرب، مثلما هم أمام الناس، مع التلميح بسوء العاقبة في الآخرة إن هم أصموا آذانهم عن سماع كلام البابا[٣٨] ، وأوضح المبعوث البابوى أن البابا يزمع إرسال كثير من رجال الدين المسيحى والمبشرين إلى المغول، لو أدرك أن ذلك هو مطلب المغول ويلقى القبول لديهم .

ويبدو أن البابا ومبعوثيه الفرنسسكان لم يكونوا واثقين من استجابة هؤلاء التتار إلى دعوتهم للدخول في المسيحية، فكان لابد وأن تكون ثمة أهداف أخرى للسفارة يمكن تحقيق بعضها إذا لم تحقق السفارة نجاحاً في الجانب التبشيرى، فأوضح المبعوث البابوى لكبار رجال التتار عدم ارتياح البابا لما ارتكبه التتار من مذابح رهيبة بين الرعايا المسيحيين في بولندا والمجر ومورافيا وفي البلقان[٣٩] ، لأن هؤلاء المسيحيين لم يفعلوا ما يستوجب هذا العقاب الذى خرج عن نطاق

---

(36) Runcinian : A Hist. of the Crusades, 3, p. 259
(37) Browne : The Eclipse of Christianity in Asia, pp. 147-9
(38) D'Ohsson : Histoire des Mongols, 11 , p. 69, pp. 208-31
(39) Setton : The Papacy and the Levant (1204-1571), 1, p. 97

العرف، والذى آذى البابا إيذاءاً شديداً كما يلتمس البابا ألا يتكرر مثل هذا العمل بين رعاياه المسيحيين في المستقبل.

كما لم ينس المبعوث البابوى أن يتساءل عما يفكر فيه التتار، وما يزمعون القيام به، ونواياهم خاصة تجاه أوربا(٤٠)، كما لم يفت المبعوث البابوى أن يطلب من المغول أن يستجيبوا لطلب البابا بحسن معاملة السفراء وإعادتهم سالمين بعد تزويدهم بما يحتاجون إليه من مؤن وزاد في طريق عودتهم، وضمان سلامتهم خلال طريق العودة .

وقد لاحظ المبعوث البابوى ورفاقه الفرنسسكان خلال بقائهم لدى المغول، حتى انتهاء مراسم تقليد كيوك خاناً أعظم، أو حفل تتويج كيوك خاناً أعظم(٤١)، ما لفت أنظارهم من ناحية وآلمهم من ناحية أخرى، أما ما لفت أنظارهم فهى الخيام الكبيرة التى كانت المنازل الوحيدة التى تحدث عنها الراهب جون بلانو كاربينى، ومن قدم بعده إلى ديار المغول وكان أفخمها على وجه الخصوص هى الخيمة التى كان يجلس فيها الخان الأعظم أو كبار أتباعه، إذ كانت هائلة الحجم (٤٢)، ووصف أحد هؤلاء السفراء سرادق باتو خان بقوله : " ... كان باتو جالساً داخل السرادق على متكأ طويل عريض يشبه السرير، وعليه غطاء مموه بالذهب ويرتفع ثلاث درجات عن الأرض، وقد اتخذت إحدى زوجاته مكانها إلى جواره، على حين جلس حوله كبار رجاله، وإلى جوار المدخل أقيمت مائدة عليها كؤوس من ذهب وفضة محلاة بالجواهر، وبها لبن إناث

(٤٠) العرينى : المغول ص ١٨٩
(٤١) إدوارد بروى : تاريخ الحضارات العام ج٣ ص ٣٧٠
(٤٢) هامرتن : تاريخ العالم ج٥ ص ٢٣٧

الخيل ، وقد حذرنا الحراس ألا نتكلم قبل أن يبدأ باتو الحديث"[٤٣] ، وواضح أن هذه الخيام الكبيرة كانت هى المنازل الوحيدة التى وردت في تقارير الرهبان السفراء إلى المغول .

أما ما آلم هؤلاء السفراء من ناحية أخرى، فقد لاحظوا أن عدداً كبيراً من سفراء الأمم قد حضروا تلك المراسم وقدروا بآلالاف وقد أرغموا على تقديم كثير من الهدايا الثمينة للخان في تلك المناسبة. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى وجدوا كثيراً من الأسرى الروس والمجريين الذين استخدمهم التتار في خدمتهم وعهدوا إليهم ببعض الوظائف وعرفوا منهم الكثير عن أوربا وشعوبها وعقيدتها[٤٤] .

وعلق المؤرخون على ما بدا من أهداف هذه السفارة ومن حرص البابوية على ضمان سلامة الشعوب المسيحية في شرق أوربا، ومطالبة المغول بعدم تكرار وحشيتهم مع أى شعب مسيحى آخر، أن البابوية تخطت حدود مهامها الروحية والدينية، إلى مهام سياسية وزمنية مما كان يدخل في نطاق اهتمام الحكومات وسلطة الحكام والأباطرة والملوك[٤٥]، وعكس هذا مكانة البابوية في القرون الأخيرة من العصور الوسطى، وكيف طمحت إلى ممارسة دور سياسى وسلطة زمنية كانت في الحقيقة من مهام الحكام والملوك والأباطرة، وكيف حرصت على فتح محادثات تتعلق بأمور الحرب والسلام والسياسة وضمان سلامة الشعوب المسيحية في أطراف أوربا [٤٦] .

(٤٣) هارولد لام: جنكيزخان وجحافل المغول ص ١٥٢ – ١٥٤
(44) Morgan: op. cit. p. 174
(45) Camb. Med. Hist. Vol. 6, pp. 4 – 5 , p. 34
(46) Morgan : op. cit. p. 180

وتذكر الروايات أن الخان الأعظم المغولى لم يبد استحساناً لما حواه خطاب البابا من نقد عنيف لتصرفات المغول تجاه شعوب شرق أوربا إذ لم يكن المغول ليسمحوا لأحد بمثل هذه الانتقادات التى يعتبرونها تدخلاً في شئونهم وانتقاصاً من سيادتهم وحريتهم في التصرف بما يحلو لهم تجاه أعدائهم، ولهذا فقد استاء الخان الأعظم كثيراً من لهجة البابا التى اعتبرها تطاولاً على ما لإمبراطوريتهم العالمية من قانون علوى(٤٧) وما ساروا عليه من عرف وتقاليد، فقد كان المغول يتيهون فخراً بقوتهم واتساع إمبراطوريتهم وعظم سلطانهم في ذلك الوقت وتمنعهم كبرياؤهم حينئذ من مجرد الاستماع إلى نقد أو تجريح (٤٨) .

ويفهم من ذلك كله أن سفارة البابا إنوسنت الرابع إلى المغول في ذلك الوقت اقتصرت على محاولة إدخالهم في المسيحية من ناحية، والاحتجاج لديهم على ما قاموا به ضد المسيحيين في شرق أوربا: في بولندا وبلغاريا والمجر(٤٩) من مذابح رهيبة، وطلب عدم تكرار ذلك مع أى شعب مسيحى آخر من ناحية ثانية، فضلاً عن محاولة معرفة نوايا هؤلاء المغول تجاه أوربا من ناحية ثالثة، ولم تتضمن هذه السفارة طلب اشتراك المغول مع أوربا في إنفاذ حملة صليبية مشتركة لقتال المسلمين في الشرق الأدنى، وانتزاع بيت المقدس والأراضى المقدسة من أيدى المسلمين(٥٠) ، فلم يكن في فكر البابا أو مبعوثيه الاتفاق معهم على القيام بحملة مشتركة ضد المسلمين من أول لقاء أو من أول سفارة إليهم أو

(٤٧) العرينى : المغول ص ٢٠٢

(48) Morgan : op. cit. p. 180

(49) Setton :The Papacy and the Levant (1204-1571), Vol.1, p. 97

(50) D'Ohsson : op. cit. 111, pp. 410 - 412

جعلهم حلفاء لأوربا في يوم وليلة للقيام بعمل مشترك ضد المسلمين .

وحينما تبين للخان الأعظم أن البابا يدعوه إلى اعتناق المسيحية، أرسل الخان الأعظم رسالة إلى البابا إنوسنت الرابع في نوفمبر سنة ١٢٤٦م يأمره فيها بأن يحضر هو وجميع ملوك وحكام الغرب الأوربى لخدمته، ويعلنوا اعترافهم بسيادته، ويبذلوا له يمين الطاعة والولاء[٥١]، ولابد وأنه كان يقصد بالاعتراف بالسيادة وبذل الطاعة والولاء أن يظهروا خضوعهم له ويؤدوا الجزية عن أنفسهم ورعاياهم دون مناقشة[٥٢]، وفيما يختص بالتنصر والدخول في المسيحية فقد كان رفضه لذلك قاطعاً، وإن حاول مبعوث البابا أن يتعلق ولو ببعض الأمل في أن هذا الرفض لم يكن قاطعاً أو نهائياً، وأنه لازالت هناك فرصة للتغير واحتمالات لإعادة النظر، وبدا ذلك واضحاً في التقرير الذى قدمه هذا المبعوث إلى البابا سنة ١٢٤٧م [٥٣].

ولم يغب عن المبعوث البابوى أن الأفكار التى حواها هذا الخطاب جد خطيرة، لأن طلب الخان الأعظم حضور ملوك وحكام الغرب الأوربى لتقديم فروض الطاعة والولاء لا يعنى إلا شيئاً واحداً وهو أن هؤلاء الملوك والحكام سيخضعون حتماً لخان المغول، فليكن هذا الخضوع عن رضى وقبول بدلاً من أن يحدث عقب الانكسار في الحرب، لأن المغول آمنوا أنهم سادة الدنيا آجلاً أو عاجلاً[٥٤]، وطالما حكموا تلك

---

(٥١) وقد كتب هذا الخطاب بالفارسية، ولازالت نسخة محفوظة في أرشيفات الفاتيكان.

(52) Morgan : op. cit. p. 24

(٥٣) العرينى : المغول ص ١٩٠

(54) Morgan : op. cit. p. 180

المساحات الشاسعة من آسيا وشرق أوربا والشرق الأدنى، فكان الدور على قلب أوربا وغربها قادم لامحالة، كما لم يغب عن فكره أيضاً رفض الخان الأعظم الدخول في المسيحية، وبالتالى فهو لازال معادياً لأوربا المسيحية ولن يمنعه شيء من شن الحرب عليها، لاسيما وأن الخان المتوفى (أوكتاى) كان يعد العدة لاقتحام بقية العالم، واجتياح أوربا لولا أنه توفى فجأة [٥٥] .

وربما لهذا تضمن التقرير الذى قدمه جون بلانو كاربينى للبابا حول سفارته إلى المغول ضرورة تكاتف حكام القارة لمواجهة هذا الخطر، لأنه قادم لا محالة، فبدلاً من أن يشغل كل حاكم بالدفاع عن نفسه، فليكن تضافر الجهود لحرب هذا العدو الغاشم، وربما لهذا أيضاً رفض المبعوث البابوى اصطحاب سفراء المغول معه وهو عائد إلى الغرب الأوربى، رغم إلحاح المغول في ذلك، لأنه أدرك حتماً ما كان من روح عدائية ضد هؤلاء في أوربا بعد أعمالهم الوحشية في بولندا والمجر ومورافيا[٥٦] ، وتخريب المدن وهدم الكنائس وقتل الناس بطرق وحشية، ولهذا توقع المبعوث أن يتعرض هؤلاء الرسل لنفس المصير على أيدى المسيحيين في الغرب ، فضلاً عن أنه خشى ان يكون الهدف من إرسالهم هو مجرد التجسس على أوربا توطئة للهجوم عليها .

وعلى هذه الصورة انتهت سفارة البابا إنوسنت الرابع إلى المغول وعاد المبعوث البابوى ورفاقه الفرنسسكان من نفس الطريق الذى سلكوه إلى الشرق، فوصلوا إلى ليون في جنوب فرنسا حيث قدموا تقريرهم إلى البابا عن سفارتهم [٥٧] .

(55) Runciman: op. cit. 111, p. 252
(56) Setton : op. cit. 1, p. 97
(57) Morgan : op. cit. pp. 179 - 180

وفي نفس العام الذى أرسل فيه هذا البابا سفارته إلى المغول (١٢٤٥م) ، أرسل سفارة أخرى نهض بها هذه المرة بعض الرهبان الدومنيكان على رأسهم الراهب أندريه لونج جميو Andrew Longjumea إلى المغول عبر منطقة الشرق الأدنى، نظراً لأنها كلفت بمهام لدى بعض حكام الشرق الأدنى وشعوبه، تخرج عن نطاق اهتمامنا في هذا الموضوع(٥٨) إضافة إلى ما كلفوا به من مهام لدى المغول في فارس.

وتذكر الروايات أن هذه السفارة وصلت إلى منطقة تبريز في فارس وكان رئيسها يبغى لقاء القائد المغولى بايجو Baijo وتسليمه خطاباً من البابا إنوسنت الرابع ليسلمه إلى الخان الأعظم، إلا أن المبعوث البابوى لم ينجح في لقاء القائد المغولى واضطر إلى الانتظار فترة هناك التقى خلالها ببعض رجال الدين النساطرة في تبريز وشمال غرب فارس(٥٩) وحصل منهم على ما يفيد عزم المغول على غزو أوربا، وخططهم لنشر سلطانهم في العالم كله، ولما طال انتظار هذا المبعوث في تبريز قرر تسليم خطاب البابا لقائد فرقة من فرق بايجو في غرب آسيا، مؤملاً أن يصل هذا الخطاب للقائد بايجو ثم للخان الأعظم، وبعد تسليمه خطاب البابا اعتبر ذلك نهاية لسفارته إلى المغول، وبدأ رحلة العودة إلى الغرب، حيث وصل إلى مدينة ليون في جنوب فرنسا لمقابلة البابا وذلك عام ١٢٤٧م(٦٠) .

(58) Runciman : op. cit. 111, p. 232, p. 260

(59) Morgan : op. cit. p. 180 العرينى : المغول ص ١٩٠ – ١٩١

(60) Pelliot : "Les Mongols et la papautè". R. de L'Orient chrètien, 3rd ser. 111, pp. 3 - 30

ويشير كثير من المؤرخين المحدثين والدارسين إلى أن خطاب البابا إنوسنت الذى حملته هذه السفارة، لم يقدر له أن يصل إلى القائد بايجو أو الخان الأعظم، وأن هذه السفارة لم تنجح فيما بعثت من أجله، واقتصر دورها على ما حصلت عليه من معلومات من رجال الدين المسيحيين في تبريز، وبعض الأساقفة النساطرة هناك عن خطط المغول بغزو أوربا وإخضاع شعوب العالم بأسره لسلطانهم وإطلاع البابا على ذلك كله(٦١) .

أما السفارة الثالثة والتى بعث بها البابا إنوسنت الرابع وأسندها إلى راهب دومنيكانى آخر. هو أسكلين أوف لومباردى Ascelin of Lombardy إلى المغول(٦٢) ، فقد اتخذت نفس الطريق الذى سلكته السفارة السابقة، فاجتازت الشام ومضت إلى تبريز للقاء القائد المغولى بايجو، وخرجت هذه السفارة في ربيع سنة ١٢٤٥م أيضاً من مدينة ليون في جنوب فرنسا، وعادت بعد أكثر من ثلاثة أعوام أى في خريف سنة ١٢٤٨م (٦٣) .

وليس من شك في أن الهدف من هذه السفارة لا يخرج عن الأهداف التى أرسلت من أجله السفارات الأخرى من قبل، وإن زاد على ذلك محاولة البابوية التحالف مع المغول وإحداث التفاهم بين الغرب المسيحى والمغول في آسيا والشرق الأدنى(٦٤) ، ومحاولة الإتفاق مع المغول

(61) Ibid : pp. 28 – 30
(62) Runciman : op. cit. 111, p. 259
(٦٣) العرينى : المغول ص ١٩٠
(64) Morgan : op. cit. p. 180

حتى لا يجتاحوا الكيانات الصليبية في الشرق الأدنى، خاصة بعد أن أخضعوا بلاد الكرج (جورجيا) وأرمينيا الصغرى، وكلتاهما كانت مسيحية، في هذه الفترة بالذات، وكان يمكن أن يجيء الدور على الإمارات اللاتينية في بلاد الشام، وما بقى من الكيان الصليبى هناك[٦٥] .

ونحن ندين بما نعرفه عن سفارة أسكلين هذا لرفيق من رفقاء هذا الراهب الدومنيكانى هو سيمون أوف سانت كونتين Simon of St. Quentin [٦٦]، على الرغم من أن هذه السفارة ضمنت أيضاً رفقاء آخرين من الرهبان الدومنيكان من الشرق جرى ضمهم إلى هذه السفارة أثناء الطريق لتسهيل مهمتها، نظراً لأن بعضهم كان على دراية بلغات تلك المناطق وعادات الناس فيها وتقاليدهم [٦٧] .

ولقد أشار سيمون — رفيق الراهب أسكلين — إلى أن البابا كان قد طلب تسليم رسائله إلى القائد المغولى بايجو، نظراً لأنه القائد المناط به مد السيطرة المغولية على منطقة الجزيرة وأعالى الرافدين وآسيا الصغرى وأرمينيا، وما والاها غرباً، فالتقت السفارة فعلاً بهذا القائد في غرب آسيا[٦٨] ، وكادت تتعرض لمحنة في ذلك اللقاء حين رفض أعضاؤها الركوع للقائد المغولى، وعدم حملهم هدايا تعبيراً عن خضوعهم وولائهم للمغول، كما درج السفراء على ذلك في لقاءاتهم برجال المغول وخانهم الأعظم .

---

(65) Runciman : op. cit. 111, p. 259
(66) Morgan : op. cit. p. 180
(٦٧) العرينى : نفسه ص ١٩٠
(68) Runciman : op. cit. 111, p. 259

ويبدو أن رفض هؤلاء السفراء الركوع أمام بايجو استند إلى اقتناع هؤلاء الرهبان الدومنيكان بأنهم يمثلون البابا رأس العالم المسيحى كله، والذى يدين له الناس في كل العالم المسيحى بالطاعة الروحية والدينية، وأن ركوعهم لا ينبغى أن يحدث لحاكم مهما علا شأنه لأنه حتماً لا يدانى البابا في سلطانه ومكانته، وإذا كانت الهدايا التى ينتظرها المغول من السفراء تعتبر دليلاً على الخضوع والولاء، فلا حاجة لهم بها لأنهم لم يحضروا لتقديم فروض الطاعة والولاء، وإنما لمهام كلفوا بها من السيد الأعلى لكل المسيحيين بين هؤلاء المتبربرين (٦٩) .

ولهذا غضب بايجو كثيراً وكادت تحدث محنة لهؤلاء السفراء لولا أن تدخل بعض رجال المغول ممن كانوا على دراية بالسفارات السابقة ورد الخان الأعظم عليها، خاصة سفارة الراهب جون بلانو كاربينى قبل ذلك بعام واحد، فنصح هؤلاء بايجو بأن يبعث مع هؤلاء السفراء رسالة إلى البابا تحوى رداً يماثل ما حمله كاربينى من رد في العام السابق ويتضمن رفض بايجو ما طلبه البابا بأن يخضع المغول للسلطة الروحية للبابا، ويؤكد إصرار المغول على التمسك بما للإمبراطورية العالمية من قانون علوى(٧٠) . ويركز على أن يحضر البابا وملوك وحكام الغرب إلى مقر الخان الأعظم للإقرار بالتبعية والخضوع وتقديم فروض الطاعة والولاء، وتميزت هذه السفارة عن سابقتها بأنها ارتحلت عائدة إلى الغرب وفي معيتها اثنين من سفراء المغول إلى البابا يحملون رد المغول المشار إليه، ويعتقد أنهما كانا من المسيحيين

---

(69) Pelliot : op. cit. Vol. 28, pp. 112- 131

(٧٠) العرينى : المغول ص ٢٠٢

النساطرة[٧١].

وواضح أن هذه السفارة التى أسندها البابا إلى رهبان من الدومينيكان قد فشلت مثل سابقتها التى قام بها الرهبان الفرنسسكان في حمل المغول على الدخول في المسيحية أو إحداث تقارب معهم أو حتى إثنائهم عن إحداث المذابح بين المسيحيين، ولهذا نستطيع القول أن جهود البابوية للتبشير بالمسيحية بين المغول في تلك الفترة المتقدمة من تاريخ العلاقات بين الجانبين لم تسفر عن شيء، ولم تحقق الغرض منها[٧٢] ، وإن كانت قد أحاطت البابوية والغرب بمعلومات ضافية عن هؤلاء المغول وعقائدهم وعاداتهم وتقاليدهم وقوانينهم ونواياهم تجاه أوربا والغرب المسيحى [٧٣] .

ما يعنينا من ذلك أن سفارة أسكلين عادت إلى ليون في جنوب فرنسا في خريف سنة ١٢٤٨م ، وفي معيتها رسل بايجو إلى البابا اللذين استقبلهما البابا ووقف على فحوى ما حملاه من رسائل، وعرف مدى استعداد هؤلاء المغول للدخول في المسيحية، ثم سمح لهما بالعودة مزودين ببعض الهدايا، ويحملان بعض رسائل البابا للقادة المغول، كما يذكر المؤرخون المعاصرون[٧٤] .

ولقد واصل البابا محاولاته لتنصير المغول وإدخالهم في المسيحية، فما حمله سفراء بايجو إلى قادتهم دار حول رغبة البابا في تحقيق

(71) Runciman : op. cit. 111, p. 259

وذكر بعض المؤرخين أن أحدهما هو أيبك الأيغورى، والآخر هو سركيس النسطورى انظر العرينى : المرجع السابق ص ٢٠٢

(72) Morgan : op. cit. p. 180

(73) Ibid . p. 24

(74) Runciman : op. cit. 111, p. 259

الخلاص لأرواح كل البشر من الذنوب قبل الموت، وتحقيق الوحدة بينهم جميعاً أمام الرب، وأنه يرى أن المغول أولى بهذا الخلاص من غيرهم لما ارتكبوه من آثام وخطايا في حروبهم خاصة ضد المسيحيين، وأنه على استعداد لإرسال رجال الدين للرد على استفسارات المغول عن كل ما يتعلق بالعقيدة المسيحية ومبادئها، وأن يفوزوا بالخير في الأرض وكذلك في السماء بدخولهم في المسيحية (٧٥) .

وعلى الرغم من كل ذلك، لم يستجب المغول لطلبات البابا إنوسنت الرابع للدخول في المسيحية، كما لم يلب البابا وحكام الغرب دعوة المغول للمثول أمام الخان الأعظم لتقديم فروض الطاعة والولاء، ولهذا فشلت سفارات البابا إلى المغول(٧٦) ، كما لم تبد البابوية والغرب الأوربى أى اهتمام بمطالب المغول، ولهذا لم تحقق البابوية أهدافها في تلك الفترة، لأن الظروف لم تكن مواتية(٧٧) ، ولأن المغول كانوا يختالون فخراً بتوسعاتهم، وامتداد إمبراطوريتهم، وسلطانهم في العالم في ذلك الوقت، وتمنعهم كبرياؤهم حينئذ من مجرد الاستماع إلى مطالب البابوية، كما تزين لهم قوتهم فكرة السمو والتفوق على كل قوى الدنيا في ذلك الوقت (٧٨) .

وفي إطار الهدف الذى سعت إلى تحقيقه البابوية في اجتذاب المغول إلى العقيدة المسيحية والتبشير بها لمحاولة صرفهم عن حرب أوربا أو غزو أراضيها جاءت محاولة رابعة قام بها الملك الفرنسى لويس

---

(75) Pelliot : op. cit. Vol. 28, pp. 121 – 131
(76) Runciman : op. cit. 111, p. 259
(٧٧) العرينى : المغول ص ١٩٠
(78) Morgan : op. cit. p. 180

التاسع فترة وجوده بالشرق، عله ينجح فيما فشلت فيه البابوية[٧٩]، ويجتذب هؤلاء المغول إلى المسيحية مدفوعاً في ذلك بما عرف عنه من تقوى وورع وحماسه للعقيدة المسيحية .

وكان الراهب الدومنيكانى لونج جميو قد عاد من سفارته الفاشلة إلى المغول وقدم تقريره إلى البابا إنوسنت سنة ١٢٤٧م ، فلما أبحر الملك لويس التاسع قاصداً الشرق على رأس حملته الصليبية التى عرفت بالحملة الصليبية السابعة في أغسطس سنة ١٢٤٨م . صحبه الراهب الدومنيكانى المشار إليه هو وأخوه. وعرج الملك لويس التاسع في طريقه على جزيرة قبرص، حيث قضى بالجزيرة نحو تسعة أشهر استقبل خلالها سفيرين نسطوريين من قبل المغول[٨٠] ، وفي قبرص فكر الملك لويس التاسع في إنفاذ سفارة إلى المغول لمحاولة اجتذابهم إلى المسيحية وإحداث تقارب معهم[٨١] ، لاسيما وأنه كان في طريقه على رأس حملة صليبية ضد المسلمين، وفي حاجة إلى محالفة المغول لمنع اجتياحهم بلاد الشام وهدم بقايا الكيان الصليبى هناك من ناحية، والاستفادة بهم في صراعه المنتظر مع المسلمين في مصر والشام من ناحية أخرى، خاصة بعد أن علم بما أظهره المغول حينئذ من ميل نحو المسيحية وعطف على المسيحيين النساطرة، وما وضعوه من خطط لمهاجمة المسلمين في الشرق الأدنى، وكلها مبررات لقيام تحالف معهم بشرط أن يتحول المغول أولاً للمسيحية [٨٢] .

---

(79) Ibid. p. 181
(80) Morgan : op. cit. p. 181
(81) Matthew paris's English History, Vol. 11, p. 319
(82) Setton : Hist. of the Crusades, Vol. 11, p. 507

فلما فكر لويس التاسع في إنفاذ سفارة إلى المغول لم يجد أنسب من الراهب لونج جميو وأخاه لتكليفهما بهذه السفارة. خاصة وأن لونج جميو قد أصبحت له خبرة كبيرة بمثل هذه السفارات، فضلاً عن أنه وأخوه يجيدان اللغة العربية[٨٣] ولغات أخرى لأهل البلاد التى سيجتازنها في طريقهم إلى بلاد المغول، وحمّلها الملك لويس التاسع هدية تليق بخان المغول، عند اعتناقه المسيحية، وهى كنيسة صغير يمكن حملها ونقلها من مكان إلى مكان وأمر "بأن تكون جميعها قرمزية، وحملته رغبته في اجتذاب التتار إلى ملتنا على إصدار أمره بتصوير جميع تعاليم ديننا على تلك الكنيسة .... بشارة الملائكة بالولادة والميلاد والتعميد وجميع الأحزان ونزول الروح القدس" [٨٤] ، وأرسل معه كذلك بعض المقدسات الدينية اللازمة لهيكل الكنيسة، فضلاً عن بعض الهدايا والتحف " ومجموعة من الأكواب والكتب ... اللازمة لترتيل القداس، واثنين من الأخوان المبشرين لتلاوة القداس أمام التتار" [٨٥] ، فغادرت هذه السفارة قبرص في يناير سنة ١٢٤٩م في طريقها إلى منغوليا لمقابلة الخان الأعظم كيوك[٨٦] .

وصلت هذه السفارة أولاً إلى ميناء أنطاكية على الساحل الشامى، ثم اتجهت نحو الشرق نحو منغوليا " فاستغرق سفرهم إلى ملك التتار العظيم مدة عام كامل" [٨٧] ، وحينما وصلت إلى قراقورم — عاصمة المغول

---

(83) Runciman : op. cit. 111, p. 260

(٨٤) جوانفيل : القديس لويس — حياته وحملاته على مصر والشام ص ٢١١ (ترجمة د. حبشى)

(٨٥) جوانفيل : المصدر السابق ص ٢١١

(86) Morgan : op. cit. p. 182, العرينى : المغول ص ١٩١

(٨٧) جوانفيل : المصدر السابق ص ٢١١

— علم أفرادها أن كيوك قد مات وأن أرملته أصبحت تسير دفة الحكم كوصية على العرش واستمرت في وصايتها على العرش أكثر من ثلاث سنوات (١٢٤٨ — ١٢٥١م) فاستقبلت السفارة بالترحاب، ولكنها كعادة المغول اعتبرت الهدايا التى أرسلها الملك لويس التاسع جزية يؤديها التابع للسيد [٨٨] ، في الوقت الذى سخر فيه المغول من دعوة الملك لهم لاعتناق المسيحية، ولم يبدوا أى استجابة لهذه الدعوة، بل أرسلت الوصية مع تلك السفارة عند عودتها بعد نحو ثلاث سنوات رسالة وجهتها إلى الملك لويس التاسع باعتباره تابعاً لها وطلبت فيها أن يواظب على إرسال الهدايا والأموال كل سنة [٨٩] ، " لذلك ننصحك أن تبعث إلينا — عاما بعد عام — بشيء من ذهبك وفضتك، وبذلك تبقينا أصدقاءك، فإن لم تفعل هذا دمرناك أنت وشعبك" [٩٠] ، بل وطلبت منه أيضاً الحضور لتقديم فروض الطاعة والولاء، فارتاع لويس التاسع لهذا الرد وساءه كثيراً ما حاوله المغول اعتباره من أتباعهم بينما أثار المغول حرص لويس على الاستقلال[٩١] ، فلما وصله رد المغول ندم كثيراً على أنه أرسل إلى هؤلاء التتار سفارة[٩٢] ، مؤملاً تحقيق ما فشلت فيه البابوية معهم .

وعلى الرغم من ذلك لم ييأس لويس التاسع في محاولته اجتذاب المغول إلى المسيحية وإدخالهم فيها، وشجعه على ذلك ما سمعه من أن أحد خانات القفجاق في جنوب روسيا كان يقدر المسيحية ويعطف على

---

(88) Morgan : op. cit. p. 182

(٨٩) العرينى : المغول ص ١٩١

(٩٠) جوانفيل : المصدر السابق ص ٢١٩

(91) Setton : op. cit. 111, p. 507

(٩٢) جوانفيل : المصدر السابق ص ٢١٩

المسيحيين فقرر الملك لويس التاسع أن يرسل سفارة أخرى على رأسها الراهب الفرنسسكانى وليم روبروق[٩٣] ، ومعه راهب آخر هو بارثلميو أوف كريمونا فخرجت هذه السفارة من فلسطين في أوائل سنة ١٢٥٣م متجهة إلى القسطنطينية ومنها اتجهت إلى شبه جزيرة القرم في مايو سنة ١٢٥٣م ، ثم اجتازت جنوب روسيا، إلى معسكر أحد أبناء باتو خان القفجاق ويدعى " سارتاق" على مقربة من نهر الفولجا الذى كان يحيط نفسه بمجموعة من المسيحيين النساطرة، وفي حاشيته أحد الداوية يعمل مترجماً له، فسير روبروق ورفاقه إلى معسكر والده باتو [٩٤] على الضفة الشرقية لنهر الفولجا، فسيره هذا إلى العاصمة المغولية قراقورم لمقابلة مونكو، الذى كان قد اعتلى العرش في ذلك الوقت، بعد فترة وصاية زوجة الخان كيوك[٩٥] .

استقبل مونكو مبعوث الملك لويس التاسع روبروق في يناير سنة ١٢٥٤ م ، ورأى روبروق في بلاط المغول بقراقورم عدداً كبيراً من ممثلى الديانات المختلفة المسيحية والشامانية والبوذية والإسلامية، والتقى ببعض ممثلى العالم المسيحى منهم سفراء من لدن الإمبراطور البيزنطى[٩٦]، وراهب أرمنى قدم من فلسطين ورجل آخر جاء من اللورين، كان في خدمة زوجة نسطورية لمونكو ومبعوث آخر مسيحى سريانى وغيرهم من المسيحيين من مختلف الأقوام من المجريين والروس والكرج والأرمن [٩٧] ، إذ بقى روبروق في البلاط المغولى نحو خمسة

(٩٣) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ١٠٩

(٩٤) العرينى : المغول ص ١٩٥

(95) Morgan : op. cit. p. 182

(96) Runciman : op. cit. 111, p. 295

(٩٧) العرينى : المغول ص ١٩٦ – ١٩٧

شهور، أدرك خلالها أن مونكو يكن عداءً للدول الإسلامية، ويرغب في محاربتها، وليس ثمة ما يمنعه من القيام بعمل مشترك مع الأوربيين ضد المسلمين إلا اقتناعه الكامل بأنه ليس في العالم سوى سلطان واحد لاحاكم سواه هو الخان الأعظم للتار(٩٨) .

وتذكر الروايات أن وليم روبروق كان يأمل أن يسمح له مونكو بالبقاء لديهم لدعوة المغول إلى المسيحية والتبشير بها بينهم، إلا أن الخان الأعظم لم يوافق على ذلك، بل طلب منه العودة إلى مليكه لويس التاسع حاملاً خطاباً يطلب منه القدوم إلى بلاطه لتقديم فروض الطاعة والولاء ويحمل أسلوب التعالى الذى أرسلت به رسائل المغول للبابوية والغرب من قبل وطلب قدومهم لإعلان الخضوع لسيد العالم خان المغول الأعظم والإقرار بدفع ما هو مقرر على التابع نحو سيده من أموال وهدايا في كل عام (٩٩) .

أما فيما يختص بتقديم المساعدة للمسيحيين في صراعهم مع المسلمين في الشرق الأدنى وهو أحد أهداف السفارات المرسلة إلى خان المغول، فقد وعد مونكو ببذل هذه المساعدة إذا قدم أمراء وحكام المسيحيين إلى بلاطه لأداء يمين الولاء والتبعية له باعتباره سيد العالم وأن سياسته الخارجية تستند إلى أن أصدقاءه وحلفاءه هم الذين يدينون له بالتبعية والطاعة، وليس ثمة عمل مشترك إلا بعد أن يقر هؤلاء بالخضوع لسيد العالم (١٠٠) .

---

(٩٨) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ١٠٨ — ١٠٩

(٩٩) العرينى : المغول ص ٣٣٠

(100) Runcman : op. cit. 111, p. 297

فلما استمع وليم روبروق إلى هذه المطالب، وأدرك أن ملك فرنسا لن يقبل شيئاً منها بادر بمغادرة عاصمة التتار[١٠١] في أغسطس سنة ١٢٥٤م متجهاً إلى عاصمة خان القفجاق باتو، على المجرى الأدنى لنهر الفولجا، ثم اجتاز جبال القوقاز، فوصل إلى أرمينيا ومنها إلى أراضى سلطنة السلاجقة التى كانت تحت حماية المغول، ثم أبحر من ميناء إياس بأرمينيا الصغرى إلى قبرص، ثم منها إلى عكا فوصل في أغسطس سنة ١٢٥٥م ، فعلم أن الملك لويس التاسع قد عاد إلى فرنسا، أى أن وصوله بعد أن كان لويس التاسع قد غادر بلاد الشام إلى فرنسا قبل نحو عام وعندئذ أرسل وليم روبروق إليه تقريراً عن سفارته إلى بلاد المغول مرفقاً به رسالة الخان الأعظم مونكو [١٠٢] .

لم تتوقف البابوية والغرب الأوربى عن محاولات اجتذاب المغول إلى العقيدة المسيحية وبذل الجهد للتبشير بها بينهم، فيشير المؤرخون إلى أن البابا أوربان الرابع الذى اعتلى كرسى البابوية فيما بين سنتى ١٢٦١ و ١٢٦٤م أظهر حدباً وحماسة لمواصلة الجهود للتبشير بين المغول وإدخال هولاكو نفسه في العقيدة وتعميده وفق مبادىء المسيحية، حين أحس بعطف هذا على المسيحيين وتقديره لهم[١٠٣] .

ويبدو أن البابوية وحكام الغرب الأوربى لم يدركوا كثيراً أن ما أظهره خانات المغول من عطف على المسيحية ورعاية المسيحيين، وشمول هؤلاء بكرمهم، لم يكن يستند إلى العاطفة ومجاملة بعض

---

(١٠١) جوانفيل : المصدر السابق ص ٢١٨ — ٢١٩
Setton : op. cit. 111, p. 507

(١٠٢) العرينى : المغول ص ١٩٨

(١٠٣) فؤاد عبد المعطى الصياد : المرجع السابق ص ٥٤

الزوجات المسيحيات والمساعدين النساطرة والعاملين في بلاطات المغول من قساوسة ورهبان ومترجمين وغيرهم فحسب، وإنما أيضاً أملته المصالح السياسية[١٠٤]، ولهذا حين تعارض هذا السلوك مع المصالح السياسية، كانت هذه المجاملات تنتهى مباشرة، ولا يقيم لها الايلخانات أى وزن.

ونظراً لأن البابا أوربان الرابع لم يدرك ذلك جيداً، بل لفت نظره سلوك هولاكو تجاه المسيحيين، وعطفه عليهم حتى زين له بعض القادمين من لدن هذا الخان ميل هولاكو نفسه إلى المسيحية واستعداده للدخول فيها [١٠٥] ، وحاجته إلى من يقوم بتعميده وفق تقاليد هذه العقيدة، بادر البابا بالاستجابة لهولاكو مباركاً هذه الخطوة متحمساً لتلبية هذا الطلب واعداً هولاكو ورعاياه الذين سيدخلون في العقيدة المسيحية الفوز في الدنيا وفي الآخرة، إذا هم أقدموا جادين على التعميد عن رضى واطمئنان[١٠٦] ، غير أن آمال البابا أوربان الرابع ذهبت أدراج الرياح لأن هولاكو لم يفعل ما ينبئ عن أنه كان راغباً فعلاً في ذلك التعميد أو منجذباً نحو العقيدة المسيحية، وأن الأمر لم يخرج عن كونه انعكاساً للمصالح السياسية للمغول ومجاملة البعض — كما سبق أن أشرنا[١٠٧] .

ونفس الشيء حدث في عهد البابا جريجورى العاشر (١٢٧١-١٢٧٦م) ، الذى علم بمجرد اعتلائه كرسى البابوية سنة ١٢٧١م أن الخان الأعظم المغولى قوبيلاى كان قد أرسل سفارة على رأسها أحد

---

(104) Morgan : op. cit. p. 183

(١٠٥) العرينى : المرجع السابق ص ٣٠٥ - ٣٠٦

(106) Howorth : op. cit. 111, p. 210

(١٠٧) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ١٥٥

رجاله(١٠٨)، وفي صحبته اثنين من المشاهير أحدهما والد الرحالة ذائع الصيت ماركو بولو وعمه نيقولا بولو ومافيو بولو الذين كانا في خدمة الخان الأعظم فترة طويلة أرسلهم إلى البابوية يطلب إرسال بعض رجال الدين المسيحى للقيام بمهمة شرح المسيحية وتوضيح مبائدئها لشعبه والتبشير بالمسيحية في بلاده، فلم يتردد البابا جريجورى العاشر في أعادة الرجلين إلى بلاد المغول ومعهما رسائل من لدنه إلى الخان الأعظم وفي صحبتهما راهبين من الفرنسسكان مشهود لهما بالكفاءة والعلم بالعقيدة للقيام بالمهمة أحدهما هو وليم الطرابلسى (١٠٩) والآخر نيقولو دى فيكترا ومنحهما تفويضاً برسم القساوسة والدعوة للعقيدة والتبشير بها بين المغول، كما أرسل معهما بعض الهدايا الثمينة للخان الأعظم.

ولم يقدر لهذين الراهبين أن يكملا الرحلة إلى بلاد المغول في الوقت الذى مضى فيه نيقولا بولو ومافيو بولو إلى منغوليا لمقابلة قوبيلاى حيث بقيا هناك فترة طويلة في خدمته، أما الراهبان المذكوران فقد أحجما عن مواصلة السفر إلى الشرق، بل بقيا في أرمينيا وقد خافا على نفسيهما بعد أن شاهدا أثر الخراب والدمار الذى أحدثته قوات المماليك بآسيا الصغرى(١١٠) ، وخشى كل منهما أن يعلم المماليك بوجهة كل منهما وقصدهما من تلك الرحلة فيأمروا بقتلهما، لهذا أحجما عن مواصلة الرحلة، وانتهت بذلك محاولة البابا جريجورى العاشر اجتذاب المغول إلى المسيحية والتبشير بها بينهم (١١١) .

(108) D'Ohsson : op. cit. 111, pp. 540-9
(109) Runcman : op. cit. 111, p. 340
(110) Setton : op. cit. 11, p. 625
(111) Setton : The Papacy and the Levant (1204-1571), Vol. 1, pp. 133 - 1

وحين أشار الرحالة الشهير ماركو بولو إلى هذه السفارة أنحى باللائمة على البابا في ضياع هذه الفرصة، وأن البابوية لم توفق في اختيار الأشخاص الذين يمكن أن ينهضوا بالمهمة، وإنما اختارت رجلين من الضعاف آثارا العافية، ولم يكن لديهما الإصرار الكافى على إنجاز ما كلفا به وتحمل أعباء السفر والاستعداد للتضحية بنفسيهما في سبيل ما خرجا من أجله . ومن ناحية أخرى تشير الدلائل إلى أن الخان الأعظم قوبيلاى لم يكن يعنى بهذه السفارة إلى الغرب الأوربى، وطلب بعض رجال الدين المسيحيين رغبته في أن يعتنق المسيحية[(١١٢)] ، على أيدى هؤلاء الرجال أو يسمح لشعبه باعتناقها على أيدى هؤلاء الرجال، بقدر ما كان يعنى بها إشعار الغرب الأوربى والبابوية اهتمامه بالعقيدة المسيحية وعطفه على المسيحيين ليكون ذلك مواكباً لاهتمامه بكل العقائد والأديان كالإسلام واليهودية والبوذية، فالمعروف أن هذا الخان أظهر اهتماماً بكل هذه العقائد والأديان على الرغم من أنه عاش بوذياً ومات بوذياً أيضاً إذ استخدم خانات المغول كل الديانات لتحقيق سياستهم[(١١٣)]، ورجح كثير من المؤرخين أن يكون قد قصد بهذه السفارة بجانب ما أشرنا إليه الحصول على بعض المسيحيين ليعملوا لديه بعد أن ألف خدمتهم في بلاطه وفي أنحاء دولته في مختلف الشئون .

ولم يكن حكام أوربا أقل حماسة من البابوات في محاولة إدخال التتار في المسيحية والتبشير بها بينهم، فبالإضافة إلى محاولات لويس التاسع ملك فرنسا في هذا الشأن، أظهر الملك إدوارد الأول ملك انجلترا

---

(112) Morgan : op. cit. p. 183

(١١٣) العرينى: المغول ص ١٩٥

حماسة أيضاً في هذا الشأن[١١٤] ، إذ يقال أنه أرسل رسالة إلى أبغا خان فارس مؤرخة في يناير سنة ١٢٧٤م / رجب سنة ٦٧٣هـ رداً على رسالة تلقاها من هذا الخان في نفس العام، شكره فيها على حبه للمسيحية وعطفه على أتباعها وأوصاه خيراً بجميع المسيحيين في بلاده[١١٥] .

وفي سنة ١٢٧٨م تكررت محاولات البابوية للتبشير بالمسيحية بين مغول فارس حين أرسل البابا نيقولا الثالث (١٢٧٧ — ١٢٨١م) خمسة من الرهبان الفرنسسكان لهذا الغرض وأرسل معهم رسائل للخان أبغا باعتباره نائباً عن عمه قوبيلاى في فارس[١١٦] ، وخطابات للخان الأعظم قوبيلاى نفسه في منغوليا، وأوضح البابا في رسائله أنه أناب عنه هؤلاء الرهبان لتعميد كل من أبغا وعمه قوبيلاى بعد أن علمت البابوية برغبة كل منهما في دخول المسيحية وطلب التعميد[١١٧] من ناحية وطلب السماح لهم كذلك بالتبشير بالمسيحية بين الرعايا المغول من ناحية أخرى، ولم ينس البابا التلويح للخانين المغوليين بأنهما إذا عمدا وفق تقاليد المسيحية فسوف يفوزان بالخلاص في الدنيا وفي الآخرة، وينالا الثواب الأكبر في السماء، فقد كان البابا نيقولا الثالث معنياً بتحقيق هذا الغرض فضلاً عن رغبته في تحقيق التحالف المسيحى المغولى ضد الإسلام[١١٨] .

---

(١١٤) مصطفى طه بدر : مغول إيران بين المسيحية والإسلام ص ٩

(115) Howorth: op. cit. Vol. 111, p. 280

D'Ohsson : op. cit. Vol. 111, pp. 543 – 44

فؤاد عبد المعطى الصياد : المرجع السابق ص ٦٢ – ٦٣

(١١٦) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ١٥٥ ، ص ١٦١

(117) Setton : op. cit. Vol. 1, p. 133

إيلين بور : نماذج بشرية من العصور الوسطى ص ٧١

(118) setton : op. cit. Vol. 1, p. 133

وتميزت هذه السفارة عما سبقتها بأن البابا وضع في اعتباره إعادة أولئك الذين يخدمون الخانات، من المسيحيين النساطرة واليعاقبة وأهل المذاهب الخارجة على مذهب روما والغرب الأوربى إلى حظيرة المذهب الكاثوليكى وسيادة البابوية في الغرب، فقد أظهرت بابوية روما حدباً وحرصاً على إقناع هؤلاء المسيحيين الشرقيين بالانضواء تحت مظلة المذهب الكاثوليكى وسيادة بابوية روما [١١٩] ، فخول جميع السلطات للرهبان المبعوثين في هذه السفارة لإعادة أولئك النساطرة واليعاقبة إلى صدر الكنيسة الأم والعفو عمن قطع منهم من رحمة الكنيسة أو من العاملين في خدمة دولة التتار، وقبول توبة المذنبين منهم والمعترفين بأخطائهم، وحلهم من ذنوبهم وخطاياهم طالما وافقوا على ترضية الكنيسة أو الأشخاص المضارين منهم، تحقيقاً للغرض الذى سعت البابوية حثيثاً لتحقيقه[١٢٠] .

كما أوصى البابا مبعوثيه بإنشاء الكنائس في أنحاء دولة المغول والحرص على إقامة القداسات والتراتيل وطقوس العقيدة وخدماتها الدينية والاجتماعية، وكل ما يساعد على نشر المسيحية بين رعايا المغول.

وعلى الرغم من كل ذلك لم تسفر هذه السفارة عن شيء[١٢١] . بل لم يثبت أصلاً أنها وصلت إلى أهدافها، كما لم يعمّد خان المغول الأعظم أو ابن أخيه خان فارس، وأن البابوية أسرفت كعادتها في آمالها في اجتذاب هؤلاء التتار إلى المسيحية وتعميدهم، وأن مصالح المغول السياسية

---

(119) Morgan : op. cit. p. 180

(120) Runciman : op. cit. 111, p. 397

(١٢١) مصطفى طه بدر : المرجع السابق ص ٩

— كما قلنا — هى المسئولة عن كثير من هذه العلاقات والرسائل ولكنها لم تكن قط تهدف إلى اعتناق المسيحية أو السماح لمبشرى البابوية بنشرها في دولة المغول[١٢٢] .

استمرت محاولات البابوية للتبشير بين المغول بالمسيحية، ولم تيأس البابوية في محاولاتها لاجتذاب المغول إلى العقيدة ونشر المسيحية بينهم، فحين اعتلى كرسى البابوية البابا نيقولا الرابع Nicholas IV (١٢٨٨ — ١٢٩٢م) ، وكان مقدماً للرهبان الفرنسسكان قبل اعتلائه الكرسى البابوى[١٢٣]، أظهر حماسة كبيرة لنشر المسيحية بين المغول والتبشير بها بينهم، فانتهز فرصة وصول مبعوث أرغون بن أبغا خان فارس إلى الغرب الأوربى. وكان هذا الخان بالذات حاقداً على الإسلام والمسلمين بسبب الهزائم المتكررة التى منى بها المغول في عصر والده أبغا على يد المماليك حكام مصر والشام ، ولهذا سعى هذا الخان للتحالف مع المسيحيين فقد كان ميله للمسيحية والمسيحيين من رعاياه معروفاً[١٢٤] حتى عد عصره بحق عصر الصداقة والتحالف مع البابوية في روما، وملوك وحكام أوربا، فأرسل أربعة سفارات إلى المقر البابوى في السنوات ١٢٨٥، ١٢٨٧، ١٢٨٩، ١٢٩٠م يعرض فيها استعداده للقيام بحملة مشتركة مع المقر البابوى لحرب المماليك[١٢٥] .

---

(122) Morgan : op. cit. p. 183
(123) Setton : op. cit. Vol. 1, p. 112
(١٢٤) فؤاد عبد المعطى الصياد : المرجع السابق ص ١٦٠ — ١٦١
(١٢٥) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ١٥٥-١٥٦، ١٧٧ — ١٧٨
Budge : The Monks of Kublai Khan, introduction, pp. 42-61 , pp. 72 – 75
Runcman : op. cit. 111, pp. 398 - 402

وفي السفارة التى رأسها رابان سوْما [١٢٦] ١٢٨٧ — ١٢٨٨م بالذات والتى أراد بها أرغون التقارب مع الغرب الأوربى والتحالف السياسى مع أوربا [١٢٧] ، انتهز البابا الفرصة لمحاولة اجتذاب مغول فارس إلى المسيحية والتبشير بالعقيدة بينهم هناك، فأرسل رداً على هذه السفارة مع رابان سوْما في أواخر سنة ١٢٨٨م وبعض الهدايا إلى الخان الأعظم وبعض كبار أعوانه وشملت هذه الهدايا بعض المقدسات الدينية[١٢٨] ، كما أرسل معه رسالتين لأرغون أشاد في الأولى منها بعطف هذا الخان على جميع المسيحيين من رعاياه وكرمه معهم، وشكره على ذلك كما دعاه للتنصر والدخول في المسيحية، لأن في ذلك خلاصه وخلاص شعبه وفوزه في الدنيا والآخرة، لو عمل على نشر العقيده بين رعاياه . وفي الرسالة الثانية ألح البابا على هذا الخان للإسراع لنيل المعمودية والفوز بالخلاص، وركز البابا على ما سبق وأن طلبه من هذا الخان، لتعم فرحة الكنيسة في روما والشعوب الغربية بذلك، دون أن يعد البابا باتخاذ إجراء محدد في هذا الأمر [١٢٩] .

ويبدو أن البابا نيقولا الرابع، كان على علم بأن ثمة شخصيات في بلاط هذا الخان ممن اعتنقوا المسيحية، يمكن أن يكون لهم تأثير على هذا الخان، فأرسل إليهم رسائل وبعض الهدايا[١٣٠] ، ومن هؤلاء والدة

---

(١٢٦) من أصل تركى وكان صديقاً لبطريرق المسيحيين النساطرة " ماريا بها لا" وقدم معه من بلاد الصين ثم بدأ رحلته إلى الغرب أوائل سنة ١٢٨٧م .
انظر عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ١٧٨
وانظر العرينى : المغول ص ٢٧٧ (حاشية ١)
(127) Budge : op. cit. pp. 42 – 61 , pp. 72 – 5
(١٢٨) العرينى : المغول ص ٣١٨
(١٢٩) رنسمان: تاريخ الحروب الصليبية ج٣ ص٦٧٣ –٦٧٦(ترجمة العرينى)
(130) Budge : op. cit. pp. 164 - 197

الخان التى بعث لها برسالة يشيد فيها باعتناقها المسيحية ويهنئها على ذلك ويحثها على محاولة نشر العقيدة بين رعاياها وأتباعها، وحث ولدها الخان على اعتناقها والسماح لرعاياه باعتناقها ونشرها بين المغول، كما أرسل رسالة أخرى إلى أميرة ثانية في البلاط المغولى تدور حول نفس المعنى(١٣١) ، فضلاً عما أرسله من الكتب إلى الأمراء والأميرات المغول والرسائل التى يدعوهم فيها إلى اعتناق المسيحية(١٣٢) ، فضلاً عما بعث به البابا إلى عدد من العاملين في خدمة هذا الخان من الأوربيين المسيحيين يحثهم على أن يكونوا نموذجاً طيباً أمام غيرهم من الرعايا ليجتذبوا المغول إلى العقيدة المسيحية، ويساعدوا على نشرها بين أولئك المغول، كما أرسل رسالة أخرى إلى دنيس أسقف اليعاقبة في تبريز(١٣٣) .

وإذ أسقطت البابوية من حساباتها الأهداف السياسية لسفارة رابان سوّما، ولم تعر هذه الأهداف أى اهتمام ركزت كل اهتمامها على محاولة إغراء أرغون ابن أبغا بالدخول في المسيحية والسماح لرعاياه باعتناقها(١٣٤) ، الأمر الذى يؤكد أن البابوية تبنت فكرة تحويل هذا الشعب إلى العقيدة المسيحية وإدخاله فيها والتبشير بها بين رعاياه ولم تيأس في كل محاولاتها، في الوقت الذى كان فيه هذا الخان يعد العدة لإرسال بعض رجاله إلى الغرب الأوربى بهدف إقامة حلف عسكرى وتعاون مشترك بين المغول وأوربا ضد المماليك المسلمين في الشرق

---

(١٣١) العرينى : المغول ص ٣٠٨
(١٣٢) مصطفى طه بدر : المرجع السابق ص ٨
(١٣٣) العرينى : المغول ص ٣٠٨
(١٣٤) فؤاد عبد المعطى الصياد : المرجع السابق ص ١٩٤
مصطفى طه بدر : المرجع السابق ص ٨

الأدنى[١٣٥] .

لهذا أراد هذا الخان جذب اهتمام الغرب والبابوية وحثهم على إقامة هذا الحلف والمشاركة في مشروعه العسكرى ضد المماليك بأن جمع المسيحيين العاملين لديه، وكذلك المسيحيين الأوربيين الموفدين من الغرب، وطلب من كبير الرهبان تعميد ابنه وكان طفلاً وسط هذا الحشد من المسيحيين، وهذا الطفل هو الذى اعتلى عرش الخانية فيما بعد باسم أولجايتو، وهى محاولة لإفهام الغرب الأوربى حرص الخان على المسيحية وتعميد ابنه وولى عهده على أيدى راهب كاثوليكى، ليقتنع الغرب برسوخ المسيحية بين المغول، ليقوموا بمحالفتهم ضد المماليك في الشرق الأدنى[١٣٦] .

ومضى أرغون ابن أبغا في هذه المحاولة للتأثير على المسيحيين وكسب ثقتهم بأن طلب كنيسة متنقلة على هيئة خيمة تلحق ببلاطه، ويتولى أمرها سوما المسيحى، ثم شمل المسيحيين في ذلك الحفل بكرمه وسخائه، فمنحهم أعطيات سخية ووزع عليهم هداياه، وعرض على الأوربيين من ضيوفه الرجال العاملين في بلاطه ممن أقنعهم باعتناق المسيحية، ليكون ذلك دليلاً هلى حبه للمسيحية والمسيحيين، واستعداده للمضى في التبشير بها بين رعاياه لو تعاون الغرب الأوربى معه وحالفوه ضد المماليك المسلمين[١٣٧] .

---

(135) Howorth : op. cit. 111, pp. 348-53
Aziz Surial Atiya : The Crusades in the Later Middle Ages, pp. 249 – 50

(136) D'Ohsson : op. cit. Vol. IV, pp. 67-79

(١٣٧) فؤاد عبد المعطى الصياد : المرجع السابق ص ١٩٢ – ١٩٣

ويعلق المؤرخون على ذلك، بأنه جرى في إطار سياسة المغول تجاه القوى الأخرى وأن المصالح السياسية أملت عليهم أحياناً التظاهر بالرغبة في دخول المسيحية والسماح بالتبشير بها بين رعاياهم لتحقيق مصالحهم السياسية لاسيما وأنهم أدركوا حماسة البابوية وبعض حكام أوربا لاجتذاب المغول إلى العقيدة المسيحية وبذل الجهود للتبشير بها بين رعاياهم، وكلما رغبوا في تحالف سياسى ومشاركة عسكرية ضد المسلمين كلما تظاهروا بالرغبة في الدخول في المسيحية وطلب المعمودية، ليكون ذلك وسيلة للحصول على تأييد الغرب السياسى للمغول[١٣٨] .

وتدل السفارة الأخرى التى أرسلها البابا نيقولا الرابع إلى المغول أن هذا البابا كان أكثر حماسة ممن سبقوه لنشر المسيحية والتبشير بها بين المغول، إذ لم يكد يمر عام على سفر رابان سوْما إلى الشرق حتى ارسل البابا بعثة تبشيرية أخرى مكونة من خمسة من الرهبان الفرنسسكان على رأسهم جون أوف مونت كور فينو John of Monte Corvino [١٣٩] الذى حاز شهرة كبيرة بجهوده التبشيرية بين المغول، والذى قضى سنوات في بلاد الصين ومنغوليا وتبريز، أسفرت عن إدخال أعداد من الناس في العقيدة المسيحية، إذ بنى الكنائس وعمد أطفالاً صغاراً صاروا مساعدين له في التبشير، وأنجز كثيراً من الأهداف التى ذهب من أجلها إلى الشرق[١٤٠] ، خاصة الأهداف التبشيرية ومحاولة نشر المسيحية بين المغول إذ لم تكن له أهداف سياسية وكان البابا قد بعث معه رسائل للخان الأعظم قوبيلاى في الصين، ولخان فارس أرغون،

---

(138) Morgan : op. cit. p. 183

(١٣٩) مصطفى طه بدر المرجع السابق ص ٨

(140) Atiya :The Crusades in the Later Middle Ages, pp. 248-52

وبعض كبار رجال الدولة المغولية، وخرجت هذه السفارة في صيف سنة ١٢٨٩م من أجل التبشير لأن الخان الأعظم لم يكن قد أبدى اهتماماً سياسياً بشئون الشرق الأدنى [١٤١] .

وليس ثمة شك في أن هذه السفارة قصد بها البابا نيقولا الرابع إدخال المغول في المسيحية وحثهم على سرعة التنصر ومحاولة التبشير بينهم بالعقيدة، فلقد دارت رسائله إلى خانات المغول كلها حول هذا المعنى، ولم يكن لها أهداف أخرى أو رغبة في تحالف أو تدعيماً لكيان الصليبيين في الشام لأن هذا الكيان الصليبي كان يلفظ أنفاسه الأخيرة في ذلك الوقت ويوشك أن يزول تماماً على أيدى المماليك[١٤٢] ، ولهذا اقتصرت سفارة جون هذا على ما كان البابا يهدف إليه من التبشير بالمسيحية ومحاولة اجتذاب المغول إلى هذه العقيدة.

قام جون أوف مونت كورفينو بتسليم ما معه من الرسائل الخاصة برجال خانية فارس[١٤٣] ، وأمضى عده شهور في تبريز يبشر بالمسيحية بين المغول متخذاً من أحد الأديرة مركزاً له وسط مجموعة من الرهبان الفرنسسكان والدومنيكان، ثم غادر تبريز في عام ١٢٩١ م متجهاً نحو الصين لمقابلة الخان قوبيلاى وتسليمه ما معه من رسائل تخصه، فوصل جون وأحد رفاقه إلى بكين سنة ١٢٩٤م ، بعد أن كان قوبيلاى قد توفى قبل وصوله بشهور قليلة، فقام بتسليم رسالة البابا لخليفة قوبيلاى في

---

(١٤١) العرينى : المغول ص ٣٠٩ ،

Runciman : op. cit. 111, p. 429

(142) Grousset : L'Epire Mongol. Vol. 111. p. 727

(143) D'Ohsson : op. Cit. Vol. IV , pp. 67-79

Howorth : op. Cit. Vol. 111 , pp. 348 – 353

الحكم وهو حفيده أولجاتيو (١٢٩٤ — ١٣٠٧م) الذى استقبل جون استقبالاً حافلاً وسمح له بالتبشير بالمسيحية[١٤٤] .

أظهر جون دأباً وحدباً في التبشير بالمسيحية في بلاد الصين فأدرك أن تنصير العاملين في جيوش المغول من الأرمن والكرج وغيرهم من الجنسيات، الذين أسرهم المغول في حروبهم أو دخلوا في خدمة المغول بمحض إرادتهم، أسهل كثيراً من التبشير بالمسيحية بين المغول أنفسهم[١٤٥] ، فإذا نجحت جهوده بين هذه الجنسيات ساعده هؤلاء على توفير المناخ اللازم لبذل الجهد بين المغول، خاصة وأن مخاطبته هؤلاء الأرمن والكرج أسهل كثيراً من مخاطبة المغول، إذ أنه أجاد اللغتين الفارسية والأرمينية فترة وجوده في الشرق، فضلاً عن تعلمه أيضاً اللغتين التركية والمغولية خلال وجوده بالصين[١٤٦] .

ونحا جون هذا نحواً غاير به طرق من سبقه للتبشير بالمسيحية في الشرق، إذ حاول أن يضع بذور التبشير بالمسيحية في تلك البلاد، التى تحتاج إلى جهود الآلاف من المبشرين، فاشترى مائة وخمسين طفلاً في عمر السابعة والحادية عشر من الأرقاء وقام بتعميدهم وتنشئتهم تنشئة مسيحية، فأسهم هؤلاء معه في التبشير بالمسيحية بين الآلاف من السكان، ليخط جون هذا خطا واضحاً في قصة التبشير بالمسيحية في بلاد الصين ووسط آسيا، ويصبح هذا الرجل من أشهر المبشرين بالمسيحية في تلك الديار[١٤٧] .

(144) Browne: The Eclipse of Christianty in Asia, pp. 149– 150, p. 155, p. 158
Howorth : op. cit. 111, pp. 208 – 11 , p. 223 , p. 277, pp. 331 – 2, pp. 340 – 1 , pp. 385 – 7.
(145) Atiya : op. cit. pp. 248 – 52
(146) Runciman : op. cit. 111, p. 401
(147) Rubciman : op. cit. 111, p. 401

ونظراً للجهود التى بذلها هذا المبشر في بلاد المغول، أصدر البابا كليمنت الخامس (١٣٠٥ — ١٣١٤م) مراسيم بابوية بتقليد جون هذا منصب رئيس أساقفة بكين وأعطاه صلاحيات البطريرق في كل أنحاء دولة المغول وبخانية فارس تحت زعامة رئيس أساقفة أيضاً[١٤٨] ، وأرسل له معاونين من الرهبان الفرنسسكان، فتواصلت جهوده وزملاؤه في إنشاء الكنائس والأديرة في أنحاء مختلفة من بلاد المغول وتحويل بعض السكان إلى العقيدة المسيحية، على مذهبها الكاثوليكى، وتوفى جون سنة ١٣٢٨م وترك عدداً كبيراً من الرهبان والأساقفة يواصلون ما بدأه في بلاد المغول وعلى مدى فترة طويلة[١٤٩] .

وواضح أن هذه السفارة قصد بها التبشير بالمسيحية، ولم يكن لها أهداف أخرى، ولم يقصد بها الرغبة في التحالف أو طلباً لتأييد الصليبيين في الشرق الأدنى لأن هذه السفارات والرسل المتبادلة التى أرسلها أو استقبلها أرغون حدثت في الوقت الذى انهارت فيه بقايا الكيان الصليبى في الشرق على أيدى المماليك[١٥٠] كما سبق وأن أشرنا.

(١٤٨) العرينى : المغول ص ٣٣١
(١٤٩) العرينى : نفسه ص ٣٣١
(150) Grousset : L'Empire Mongol, Vol. 111, p. 727□

الفصل الثاني عشر

مدى نجاح سفارات أوربا وبعثاتها التبشيرية إلي المغول فيما أرسلت من أجله

– الدوافع المختلفة للبعثات التبشيرية الى المغول

- منع غزوهم لأوربا واتقاء شرهم
- التحالف معهم ضد المسلمين في الشرق الأدنى
- محاولة تنصيرهم وإدخالهم في المسيحية الكاثوليكية
- إقناع المسيحيين الشرقيين بالانضواء تحت مظلة المذهب الكاثوليكي وسيادة البابوية
- مد نفوذ البابوية إلي قلب آسيا ومنح البابوية فرصة التباهي بذلك .

– أوجه القصور لدى هذه البعثات مما تسبب في عدم نجاحها فيما خرجت من اجله

- لم يلق رهبانها معاونة تذكر من دولة مسيحية قوية أو قوة مسيحية
- أعداد رهبانها كانت قليلة لا تتناسب مع الأهداف المرجوة
- إمكاناتها المادية كانت قليلة لا تكفى لتحقيق أهدافها
- عدم إلمام بعض رهبانها باللغات المحلية للرعايا المغول الذين ذهبوا لتنصيرهم
- التباعد بين رهبانها والمسيحيين الشرقيين في فهم جوهر العقيدة المسيحية وما كان بين الجانبين من حواجز .

– المحصلة النهائية لإنجازات هذه البعثات

- مجرد تظاهر بعض الخانات بالتنصر دون الدخول في العقيدة فعلا
- تنصير أعداد قليلة من الرعايا المغول
- الإسهام في سد ثغرة في معارف أوربا عن سكان آسيا
- الإسهام في تعليم وتثقيف بعض الرعايا المغول
- كان رهبان البعثات أداة تقارب وتفاهم مع بعض المسيحيين الشرقيين .



لم تكن جهود أوربا التبشيرية بين المغول وبعثاتها وسفاراتها إلى هؤلاء لجذبهم إلى المسيحية الكاثوليكية ، وليدة الحماسة الدينية والورع الديني فحسب ، بل كانت لأسباب كثيرة أيضا ولدوافع متعددة ، بما في ذلك البعثات التي أرسلتها البابوية وحكام الغرب الأوربي الى هؤلاء المغول والسفارات التي حرصت على تتابعها الى تلك الدولة في الشرق [١].

فبداية لم تكن أوربا تعرف المغول أصلا لتفكر في تحويلهم إلى المسيحية ، حتى بعد أن اجتازوا جبال القوقاز لأول مرة سنة ١٢٢٢م زمن جنكيز خان [٢]، غير انه حين اندفع المغول في توسعاتهم في القارة الأوربية مخربين مدمرين ما يصادفهم ،مع تعطش للقتل وسفك الدماء ، في مذابح بشرية رهيبة .وإشعال للحرائق وإغراق المدن والحواضر ، مما أثار الرعب والفزع في قلوب المسيحيين هناك [٣] ، بدأ الأوربيون يفكرون في كيفية مواجهة هذا الخطر الداهم ، خاصة وقد اندفع المغول في شرق أوربا فقضوا على مملكة البلغار و اجتاحوا بولندا والمجر في الفترة ما بين سنتي ١٢٣٦-١٢٤٢م،بعد اجتياحهم لبراري روسيا ، وقضائهم على إماراتها الواحدة تلو الأخرى، فأدرك الأوربيون ان هذا الخطر غدا يهدد قلب أوربا ذاتها ، فكان على حكام أوربا وبابواتها التفكير في كيفية وقف هذا الخطر وإنقاذ بقية أوربا من شرور هذا الشعب[٤].

إذن لم تكن فكرة إرسال البعثات التبشرية والسفارات الدينية وليدة الرغبة في نشر المسيحية بين رعايا المغول ، لتوسيع النطاق الذي

(١) فؤاد عبد المعطى الصياد : المرجع السابق ص٦٥
(٢) هارولد لام : جنكيز خان ص ١١١
(٣) مصطفي طه بدر : مغول إيران بين المسيحية و الإسلام ص ٥
(4) Morgan : Op,cit.p.179

انتشرت فيه المسيحية والإكثار من اتباعها ، وكسب شعوب جديدة تضاف إلى الشعوب المسيحية في أوربا فحسب، بقدر ما كانت فكرة تحويل المغول إلي المسيحية لاتقاء شرهم ومنع غزوهم لأوربا ، وإيقاف زحفهم إلى الغرب أيضا ، فقد كان الأوربيون يعتقدون أن المغول سوف يهاجمون أوربا (٥) إن آجلا أو عاجلا ،وربما لهذا كانت تلك البعثات التبشيرية والسفارات الدينية مكلفة بمحاولة إغراء خانات المغول وكبار رجالاتهم وقادتهم بالدخول في العقيدة ، وهم الذين بيدهم الحل والعقد وهم الذين يقررون الزحف والتوسع أو الإحجام عن ذلك (٦).

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فكرت البابوية وحكام غرب أوربا المهتمين بالفكرة الصليبية والحملات الصليبية إلى الشرق والعاملين على دعم بقايا الكيان الصليبي المترنح في الشرق ومحاولة تقويته في مواجهة المسلمين ، ومنع انهياره ، فكروا في حليف يساعد في ذلك وقوة يمكن أن تضغط على المسلمين ليخف ضغط هؤلاء على بقاياهم في الشرق الأدنى ، ومشاركة هذه القوة في عمل عسكري ضد المسلمين لتحقيق الغرض (٧)، وطالما برزت قوة المغول في ذلك الوقت ، وفرضت نفسها على أحداث المنطقة ، فقد أصبحوا أنسب القوى للتحالف مع أوربا ضد المسلمين ، خاصة وأنهم بدءوا تاريخهم بعدائهم للمسلمين والإسلام ، و اجتاحوا القوى الإسلامية في وسط آسيا و غربها ، وتطرقوا إلى الشرق الأدنى ، وأصبحوا أنسب القوى للعمل المشترك ، وقد غدوا بقرب الكيان الصليبي المترنح في بلاد الشام فليس ثمة ما يمنع من

(٥) فؤاد عبد المعطي الصياد : نفس المرجع ص ٦٠

(6) Morgan : Op.cit.pp.179-180

(7) D'ohsson : Histoire des Mongols ,iii,p.442

التحالف معهم للقيام بعمل مشترك ضد المسلمين ، وليس ثمة ما يمنع البابوية أيضا من ان تطلب اعتناق الخان المغولي الديانة المسيحية كشرط أساسي لقيام هذا التحالف السياسي بين أوربا و التتار (٨).

بل أن خانات المغول سعوا أحيانا للتحالف مع ملوك وحكام أوربا ضد المسلمين خاصة أبغا بن هولاكو ،بعد هزيمة المغول في عين جالوت ،إذ قام بالاتصال مرارا ببعض حكام أوربا للقيام بعمل مشترك ضد المسلمين في الشرق الأدنى (٩) ، فتبودلت المراسلات بين البابوات الأربعة : كليمنت الرابع وجريجورى العاشر ويوحنا السادس والعشرين ونيقولا الثالث ، وبين أبغا هذا بن هولاكو ، تتضمن طلب العمل المشترك ضد المماليك (١٠) ، وكذلك بين البابا نيقولا الرابع والخان أرغون بهدف انتزاع الأرض المقدسة من المماليك المسلمين(١١) ، وقد نظر بعض ملوك أوربا إلى المماليك المسلمين على أنهم أخطر على المسيحية في الأراضي المقدسة من التتار ، و صار لزاما عليهم التفكير في القيام بعمل مشترك مع المغول ضد المماليك (١٢) .

ونظراً لأن هؤلاء المغول كانوا وثنيين يعتنقون البوذية و الشامانية وديانات آسيا، ولا يعرفون عن المسيحية إلا القليل عن طريق العاملين

---

(٨) فؤاد عبد المعطي الصياد : نفس المرجع ص ٦٠

(9) Prawdin : The Mongol Empire,its Rise and Legacy ,pp.370-371 (New York 1967)

(10) Sykes : A History of Persia , 11 , pp.62-3 1921

عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص١٥٥

(11) Howorth : Op. cit.111, pp. 348-53

D'Ohsson : Op. cit.1V, pp. 67-79

(12) Howorth : Hist. Of the Mongols ,111,pp.275-280

D'Ohsson : Histoire des Mongols ,111,pp.539-542

لديهم من النساطرة والدياقبة و أسرى الحروب ، ومن اعتنق المسيحية من قبل مع قلتهم [١٣] ، فكان لابد من التفكير في جذبهم إلي العقيدة المسيحية ، وإدخالهم فيها لإزالة ما قد يكون من حواجز بينهم وبين رعايا أوربا لإنجاز ما فكر فيه الأوربيون أصحاب الأفكار الصليبية . ومن أظهروا ميلاً واضحا لإنجاز الحملات الصليبية ودعم الكيان المترنح في الشرق[١٤].

فلم تكن البعثات التبشيرية وسفارات أوربا إلي المغول بغرض جذبهم إلي المسيحية وإدخالهم فيها تخلو من أغراض أخرى سياسية وعسكرية ، فضلا عن أهداف صليبية ، إذ أراد حكام الغرب محالفة التتار ومصادقتهم ، ثم أصبح التتار يسعون سعيا جادا لتكوين حلف مع الغرب ضد أعدائهم المماليك في مصر والشام[١٥] ، فلم يخل الأمر من أغراض سياسية وعسكرية و أهداف صليبية ، كما هو واضح ، ونضيف إلي ذلك غرضا ثالثا أو هدفا ثالثا وهو أن هذه البعثات التبشيرية والسفارات الدينية ، وضع مرسلوها في خططهم أيضا صرف المسيحيين في دولة المغول من النساطرة واليعاقبة والعاملين في دولة المغول وبلاط الخانات وأسرى الحروب وخدم المغول وبعض طوائفهم الذين اعتنقوا المسيحية على مذاهبها الشرقية في فترة سابقة على قيام دولة التتار ، صرف هؤلاء جميعا عن مذاهبهم المناهضة للكنيسة الكاثولكية والسيادة العالمية للبابوية ، فكان من بين أهداف من ذهبوا إلي الشرق في تلك البعثات محاولة إدخال هؤلاء المسيحيين النساطرة واليعاقبة في نطاق

(١٣) عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص١٥٤-١٥٥

(14) Runciman : Op.cit.iii,p.429

(١٥) فؤاد عبد المعطى الصياد : المرجع السابق ص ٥٩ — ٦٠
عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ١٦١
* Grousset : L'Empire Mongol, 111 , pp.

التبعية للكنيسة العالمية والسيادة البابوية في روما ، والإقرار بسيادة البابا على كل الكنائس في الغرب وفى الشرق (١٦) ،لاسيما وقد قطعت البابوية شوطا كبيرا في إقرار هذه السيادة على كثير من الكنائس ، وفازت بهذه والرياسة في نفس الفترة تقريبا ، فلا بأس أن يكون من بين أهداف هذه السفارات والبعثات التبشيرية تحقيق هذا الغرض ، وتحويل النساطرة واليعاقبة إلي الكاثولكية والإقرار بسيادة الكنيسة العالمية في روما تحت سلطة البابا (١٧)، خاصة وقد تزايد عدد المسيحيين النساطرة واليعاقبة في بلاط بعض خانات المغول(*) .

كما لا يخلو الأمر من بعض أهداف يمكن أن تتفاخر البابوية بتحقيقها أو تتباهى بإنجازها من أن سيادتها قد وصلت إلى قلب الصين وأطراف آسيا في الشرق لتسترد لمعانها وتستعيد بريقها أمام رجال الدين ورجال الدنيا في أنحاء أوربا ، بعد أن تدنت صورتها بعد صراعها مع الإمبراطورية فترة ، ثم وقوعها في الأسر البابلي في أفينون فترة أخرى ، حين حوصرت وفقدت كثيرا من مجدها (١٨).

في ضوء ذلك يمكن الحكم على نتائج تلك البعثات التبشيرية والسفارات الدينية التي رأسها غالبا الرهبان من الفرنسيسكان والدومنيكان ، ومدى نجاحها فيما ذهبت من أجله إلي دولة المغول ، فلم تكن أغراضها وأهدافها قط تبشيرية خالصة أو دينية فقط ، بل حملت معها أهدافا أخري سياسية وعسكرية وصليبية(١٩) ، ومن أجل

---

(16) Morgan : Op.cit.p.180
(17) Camb.Med.Hist.Vol.6,pp.4-5,p.34
(*) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص٤٥٠
(18) Stephenson : Med.Hist.p.503
(١٩) فؤاد عبد المعطي الصياد : المرجع السابق ص٦٥

سيادة الكنيسة الكاثوليكية و عالميتها ، كما أن البعثات التي أرسلها ملوك وحكام أوربا إلي التتار بصفة خاصة لم يكن هدفها ديني ينصب على نشر المسيحية بين رعايا التتار، لأن اهتمام هؤلاء الحكام والملوك بالمسيحية كان أقل من اهتمام البابوات ، خصوصا وأن الروح الدينية في أوربا عامة كانت قد ضعفت منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادي ، كما أن هؤلاء الملوك والحكام كانوا مشغولين بأمورهم الخاصة [٢٠] .أي أن أهداف هذه السفارات والبعثات لم تكن دينية بحتة ، و إنما حملت معها أهدافا أخرى كبيرة ، كان من الصعب على رهبان هذه البعثات إنجازها.

في الوقت الذي لم تلق فيه هذه البعثات التبشيرية معاونة من قوة كبيرة قريبة في آسيا أو دولة قريبة تدين بالمسيحية الكاثوليكية ، أو ترعى حتى هذا المذهب وكانت اقرب دولة مسيحية هي أرمينيا الصغرى، التي كان أغلب سكانها يعتنقون المذاهب الشرقية [٢١] ولا يدين بالمذهب الكاثوليكي فيها إلا القليل، ولم يكن متوقعا أن تقدم لتلك البعثات مساعدة أو تأييدا للتبشير بالمسيحية على المذهب الكاثوليكي من ناحية فضلا عن أنها ما لبثت أن أذعنت للمغول وسارت وفق سياسة المغول من ناحية أخرى ثم ما لبث المماليك أن اجتاحوها وخربوا معالمها في نهاية الأمر من ناحية ثالثة[٢٢] .

(20) King : Knights Hospitallers in the holy land p.265

مصطفى طه بدر : مغول إيران بين المسيحية و الإسلام ص ٨-٩

(21) Setton : The papacy and the Levant.1,p.97

(22) Ibide.p.97

Runciman :Op.cit.111,p.401

وبالإضافة إلي ذلك كله لم تكن الإمكانات البشرية والمادية لهذه البعثات يمكن أن تساعدها على تحقيق ما كلفت به على الوجه الأمثل ، لأن اجتذاب المغول إلى المسيحية الكاثوليكية كان يحتاج لجهود أكبر من ذلك كثيرا و أعداد أكثر من الرهبان والمبشرين يفوق عدد من أرسلوا فعلا مئات المرات ،بل آلاف المرات ،فدولة المغول بأقسامها المتعددة كانت بحاجة إلى إعداد كثيرة من الرهبان المبشرين ،إذا أرادت أوربا فعلا تحويل رعاياها إلي المسيحية وتحقيق الغرض الذي أرسلت من أجله السفارات والبعثات ،إذ كثيرا ما أرسلت البابوية بعثة أو سفارة من رسول واحد(٢٣) .

بل لم يزد عدد الرهبان الذين خرجوا في بعض هذه البعثات عن أصابع اليد الواحدة ، وعن اثنين في بعض البعثات الأخرى ،وكان عليهم أن يصلوا إلى عاصمة المغول لمقابلة الخان الأعظم وتسليمه رسائل البابا أو من بعثهم من حكام أوربا من اجل التبشير ،و أحيانا كانوا مكلفين بالانتقال إلي خانية فارس لمقابلة حاكمها الذي ينوب عن الخان الأعظم (٢٤) ، فضلا عن أن بعض رهبان هذه البعثات تطلع إلي الوصول إلى بكين وقلب الصين من أجل تحقيق الهدف ، فكانت محاولاتهم مجرد قطرة وسط محيط من الوثنيين من الشامانيين والبوذيين في تلك المجاهل الواسعة المترامية الأطراف في قلب آسيا ووسطها (٢٥) ، إذا قدر لهم الوصول سالمين .

---

(23) Budge : The Monks of Kublai,pp.164-197

عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص١٨٠

(24) Setton : Op.cit.1,p.133

ايلين بور : نماذج بشرية ص٧١

(25) Browne : Op.cit.pp.149-58

Howorth : Op.cit.111,pp.208-23,pp.331-2

فالواقع أن حصول هذه الأعداد القليلة من الرهبان إلى أطراف دولة المغول كان رهنا بظروف كثيرة ، لعل أهمها استتباب الأمن والسلام وتوقف الحروب وقدرة السلطات على توفير الحماية و الأمان للمسافرين والتجار وغيرهم ، فالواقع أن اندلاع الحروب بين بعض أقسام الدولة المغولية كثيرا ما تسبب في تعطيل الطرق وعدم كفالة الأمن عبر هذه الأقسام فقد اندلعت الحروب بين خانية فارس وخانية القبيلة الذهبية أو مغول القفجاق [٢٦] ، في أطراف روسيا وبراريها ، وكذلك الحروب التي نشبت بين المغول والقوى الإسلامية كالمماليك كان لها أثر في توقف الرحلات وتهديد طرق المسافرين والتجار ، ولم يكن رهبان البعثات التبشيرية يمكن أن يصلوا في سهولة إلى البقاع التي خططوا للوصول إليها ، بل أن بعضهم أحجم أحيانا عن مواصلة السفر بسبب عدم كفالة الأمن [٢٧] ، والبعض الآخر تعرض أثناء سفره لمحن فقد حياته بسببها ، وجرد البعض الآخر مما كان معهم من زاد و أموال وتركوا في الصحارى والفيافي وعبر سلاسل الجبال والوهاد ، ومن كان يصل منهم إلى هدفه كان يعتبر نفسه محظوظا ، وقضى بعضهم نحو ثلاث سنوات لكي يصل إلى عاصمة الخان الأعظم في قراقورم في منغوليا[٢٨] ومنهم من تعرض للأمراض والأوبئة وقضى نحبه قبل أن يصل إلى هدفه [٢٩] .

---

(٢٦) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ ج٢ص١٤ (الترجمة العربية)
فؤاد عبد المعطي الصياد : الشرق الإسلامي في عهد الايلخانيين ص٤١-٤٣

(27) Setton : Op.cit.1,p.625

(28) Browne : The Eclipse of Christianity in Asia,pp.149-158

(29) Grousset : L´Empire des Steppse,p.445

فإذا أدركنا أن قلة عدد هؤلاء الرهبان وضخامة الأهداف التي خرجوا من أجلها تأكدنا أن تلك الأعداد القليلة من الرهبان ، لم تكن تكفى للتبشير في تلك المجاهل الواسعة والبراري الممتدة والأقاليم المترامية الأطراف في دولة المغول وأقسامها المتعددة .

من أجل ذلك فكر أحد الرهبان المبعوثين في التغلب على هذه المشكلة بمحاولة تنشئة أعداد من الأطفال وتعميدهم وتدريبهم على المعاونة في التبشير في دولة المغول ، إحساسا من هؤلاء الرهبان بضعف الإمكانات البشرية لهذه البعثات التبشيرية والسفارات الدينية (٣٠) ، فضلا عن أنهم كانوا بحاجة ماسة لمن يسهم معهم في إنشاء الكنائس والأديرة ، وينهض بدور في الواجبات الدينية والروحية لتلك الكنائس ، لذلك وقفت الإمكانات البشرية وضعف هذه الإمكانات حائلا أمام إنجاز الرهبان ما خرجوا من اجله في دولة المغول .

أما عن الإمكانات المادية لهذه البعثات التبشرية ، فكانت لا تتناسب مع الأهداف الكبيرة التي خرجت هذه البعثات لتحقيقها ، فكيف نتصور أن بعثة من اثنين من الرهبان أو ثلاثة أو حتى خمسة (٣١) يمكن أن تحمل معها أموالا تكفى أو تغطى التزامات هذه البعثات على مدى سنوات طويلة ، ولم يكن من السهل على هؤلاء المبعوثين الاتصال بالبابوية أو بحكام أوربا في عواصمهم أو بمراكز الأديرة التي يتبعونها لطلب المعونة، لبعد المسافة من ناحية وصعوبة الاتصال من ناحية أخرى

---

(30) Runciman : Op.cit.111,p.401

(٣١) العريني : المغول ص ١٩٠-١٩١

فكان المسافر إلى بلاد المغول يقطع المسافة من غرب أوربا إلى عاصمة المغول أو بكين في سنوات [٣٢] ، بل أن بعض هؤلاء المبعوثين ماتوا خلال رحلاتهم ، وتعرض البعض الآخر لمحن ومخاطر أثناء الطريق ، ومن كان يصل منهم إلى هناك يكون قد أنهك في الطريق وفقد كثيراً مما كان يحمله وما خطط لاستخدامه في بعثته التبشيرية من مال أو زاد أو هدايا حملها إلى أصحاب السلطة والنفوذ ، ولم تكن ثمة وسائل لتعويضه عما فقده أو مده بالمال أو الزاد أو الحماية خلال الطريق إلي آسيا [٣٣] ، أو مده بالمال الذي يوجه لأقامة الكنائس والأديرة واستقطاب الأعوان والمساعدين وتغطية مصاريف القداسات والتراتيل وخدم الكنائس والشمامسة ، والتصدق على الفقراء والقيام بالواجبات الاجتماعية ، التي درجت الكنيسة على القيام بها ، فضلا عن الواجبات الدينية والروحية ، ولهذا كثيرا ما لجأت هذه البعثات إلى طلب المعونات والهبات من بعض الخيرين المسيحيين على قلتهم ، في محاولة لإكمال ما حملوه معهم من أموال لا تكفى لإنجاز مهامهم أو تحقيق أهدافهم [٣٤].

فإذا أضفنا إلى ذلك أن هذه البعثات كان عليها تقديم الهدايا الثمينة والذهب والفضة لخانات المغول في محاولة للتأثير عليهم واستقطاب تدخلهم ومعاونتهم فيما قام به رهبان هذه البعثات ، أدركنا أن ثمة قصور مادي وإمكانات مادية قليلة ، حالت دون تحقيق ما هدفت إليه هذه البعثات [٣٥] ، وقرأنا أن بعثة من هذه البعثات تقدمت

---

(32) Runciman : Op.cit.111,p.429

(٣٣) مصطفي طه بدر : المرجع السابق ص٥٦-٥٧
Howorth : Op.cit.111,p.356

(34) Pelliot : Les Mongols et la Papautè,p.198

(35) Budge : The Monks of Kublai Khan Emperor of China, p.195 (1928)

إلى الخان الأعظم تطلب منه التنصر والتعميد واعتناق المسيحية ، وتطلب منه السماح لها بالبقاء للتبشير بالعقيدة وتعترف صراحة أنها لا تحمل أموالا أو ذهبا أو فضة ، يمكن أن تقدمه للخان ، و إنما حملت معها وعودا بأن يرى الخير كل الخير في السماء ، إذا هو عمد وتنصر ودخل في العقيدة بدعائهم وسمح لهم بالبقاء للتبشير [٣٦].

وضحت هذه المعاني فيما قاله الراهب الفرنسيسكاني وليم روبروق أثناء بعثته فيما بين سنتي ١٢٥٣، ١٢٥٥م لمونكو خان المغول الأعظم في عاصمته: "نحن لا نحمل ذهبا أو فضة أو معادن نفيسة يمكن أن نقدمها لك هدية .... ولكننا نملك فقط أنفسنا التي نقدمها لخدمة الرب والدعاء له من أجلك ..." فلم يكن لهذه الكلمات صدى في نفس الخان الأعظم ، ولا كان الدعاء له كافيا أو مقنعا ليسمح لهم بالتبشير في بلاده " وتعميد الناس وفقا لشريعة الرب" . ويشير المؤرخون إلى أن وليم ربروق صدم بما رآه في بلاط الخان من طقوس نسطورية تتسم بالجهل والتخلف [٣٧] ، كما صدم برفض الخان السماح له بالبقاء أو بالتبشير بالمسيحية و أمرهم بالعودة إلى بلادهم ، فلم تتمكن البعثة من تحقيق ما خرجت من أجله[٣٨].

فليس ثمة شك إذن في أن الإمكانات المادية ،حالت أحيانا دون تحقيق الأهداف التي سعت إلى تحقيقها هذه البعثات التبشيرية ، وأحس بذلك رهبان هذه البعثات ، وتصرفوا في حدود الصلاحيات التي

---

(36) William of Rubruck ,p.165,pp.176-7 (Trans.Rockhill)
(37) William of Rubruck ,pp. 184-6
(38) Runciman :Op. cit. 111, p.296

خولت لهم من البابوية والغرب، وفي حدود ما حملوه معهم من أموال وهدايا ومؤن وزاد ، خاصة وان بعضهم قضى سنوات طويلة إما في محاولة الوصول إلي قلب الإمبراطورية المغولية أو التنقل بين ربوعها للاستكشاف والاستطلاع ،ورسم الخطط لتحقيق الأهداف التي كلفوا بها من قبل البابوية والغرب الأوربي [٣٩].

وثمة عامل آخر أسهم لاشك في فشل هذه البعثات التبشيرية، وفى عدم تحقيقها للأهداف التي بعثت من اجلها ،وهو عدم معرفة كثير من رهبان تلك البعثات للغات المحلية للرعايا الذين تجولوا بين ظهرانيهم ،و عدم إلمامهم بلهجات كثير من السكان ، كان يمكن أن يقتربوا بواسطتها من الرعايا المغول وينجحوا في إقناعهم بما جاءوا من اجله [٤٠] ، فضلا عن افتقار هؤلاء الرهبان بالتالي لترجمات الكتاب المقدس بلغات أولئك الرعايا خاصة ،الصينية والفارسية والهندية ،ومن ثم فقدوا عاملا مؤثرا كان يمكن أن يساعدهم على تحقيق أهدافهم.

حقيقة أتقن بعضهم بعض اللغات الأخرى مثل العربية والمغولية[٤١]، والأرمينية والسريانية ،ولكن هذه اللغات لم تكن تكفى لكسب كل الرعايا المغول لأن هناك من الرعايا من لا يتحدثون سوى بالفارسية أو بالهندية أو بالصينية ، ولهذا عد ذلك عاملا معوقا لكثير من تلك البعثات ورهبانها الذين اقتصرت معرفتهم على لغات أخري لا تمكنهم من الوصول إلى كل الناس [٤٢] .

(39) William of Rubruck .pp.184-6

(40)Grousset : L´ Empire des Steppes,p.445

(٤١) العريني : المغول ص ٣٣١

(42) Runciman : Op.cit.111,p.297

فممارسة طقوس المسيحية ، و إقامة قداساتها وتراتيلها باللغة اللاتينية أو السريانية أو حتى المغولية في الصين لم يكن يحقق الهدف من إقامتها ،نظراً لأن تلك اللغات لا يعرفها جموع السكان في جهات كثيرة من الإمبراطورية المغولية ،التي اتسعت وتشعبت وغصت بكثير من اللغات التي يتحدث بها الناس وتفهمها جموع الرعايا [٤٣] ونظرا لأن كثيرا من هؤلاء الرهبان كانوا في سن متقدمة ، فلم يكن لديهم الاستعداد أو الوقت لتعلم لغات الناس أو لهجات الرعايا ، فمثّل ذلك حاجزا في التفاهم بين الجانبين ، و بالتالي لم تكن الجهود التبشيرية للرهبان الفرنسيسكان أو الدومنيكان تحقق الكثير ، واقتصر الأمر على حالات فردية لعدم استجابة الجموع لهذه الجهود التبشيرية ومحاولة التنصير وفق تعاليم المذهب الكاثوليكي [٤٤] .

من العوامل التي أعاقت جهود الرهبان التبشيريين في بلاد المغول ما كان حادثا من تباعد في فهم جوهر العقيدة المسيحية ،بين هؤلاء الرهبان الكاثوليك،و أولئك المسيحيين الشرقيين في ديار المغول من النساطرة واليعاقبة ، و ما كان بين الجانبين من خلافات دينية [٤٥] ، حقيقة بذل الرهبان التبشيريين جهودا في التقارب مع أولئك النساطرة واليعاقبة وإزالة كثير من الحواجز في التعامل معهم ، بل و دعوا أولئك المسيحيين الشرقيين إلي الانضواء تحت سيادة المذهب الكاثوليكي و سلطة البابوية، ولكن الخلافات بين الجانبين حالت أحيانا دون تقديم هؤلاء المسيحيين الشرقيين معونتهم الصادقة للرهبان التبشريين في جهودهم لتنصير رعايا

(43) Atiya : Op.cit.pp.248-52
Runciman : Op.cit.111,p.401
(44) Morgan : Op.cit.p.180
(45) Browne : Op.cit.pp.104-165

المغول (٤٦).

فـلا زالـت المسـافات بعيـدة تفصـلهم عـن الكاثوليـك ، ولازال اقتناعهم بمذاهبهم و ما بينهم وبين الكاثوليك من فروق تبعدهم كثيرا عن التعاون الصادق مع أولئك الرهبان الكاثوليك و لا تسمح بتقـديم مـا كـان يأمل فيه هؤلاء الرهبان من معونـات (٤٧) ، بـل ان المبعـوث ولـيم روبـروق صدم -كما سبق أن أشرنا -بما كان يحدث في بلاط الخان الأعظم مونكـو مـن طقوس نسطورية اعتبرها تتسم بالجهل والتخلف ولا تزيد كثيرا عن الطقـوس البدائية(٤٨).

ولعل ذلك كان أحد أسباب إخفاق هـؤلاء الرهبـان في تحقيـق مـا خرجوا من أجله، حتى ذهب أحد هؤلاء الرهبان إلـي أنـه لـولا مواقـف النسـاطرة ومـا كـانوا يلقونـه في مسـامع خانـات المغـول مـن سـذاجات وترهات، وتحريضهم الناس على عـدم الاسـتجابة لجهـود المبشـرين مـن الرهبان ، لاستطاع هذا الراهـب تنصـير الآلاف بـدلا مـن المئات ، وفـق تعـاليم المـذهب الكـاثوليكي فضـلا عمـا حـدث أحيانـا بـين الرهبـان الفرنسيسكان والدومنيكان من خلافات كان لها تأثيرها أيضا على جهـود الجميـع إضـافة إلى مـا كـان مـن خـلاف بـين الكاثوليـك والنسـاطرة والمسيحيين الشرقيين (٤٩).

---

(46) Morgan : Op.cit.p.180

(47) D'Ohsson : Op.cit.1V,p.147

(٤٨) عبر عن ذلك المؤرخ رنسمان قائلا :

" Willam of Rubruck professed himself much shocked by the ignorance and debauchery of the Nestorian ecclesiastics and considered their services to be little more than drunken orgies " .

Runciman : Op. cit.111 , p. 296

(49) William of Rubruck , pp. 184 - 6

أما المحصلة النهائية لإنجازات هذه البعثات ، فلا شك أنها لم تكن تتواءم مع الجهد الذي بذل من قبل رهبان هذه البعثات والسفارات في الوصول إلى أرض المغول والتنقل بين أقسام إمبراطوريتهم ، و السعي للقاء حكامهم ومبرزيهم وقادتهم ،ثم بعد ذلك الجهد في التبشير بالمسيحية ومحاولة تنصير هؤلاء المغول وإدخالهم في المسيحية و تعميدهم " وفق مشيئة الرب" وطبقا "لشريعة الرب"(٥٠).

وتشير الدلائل إلى أن معظم جهود هؤلاء الرهبان تركزت في خانية فارس بصفة خاصة ، وبين مغول فارس على وجه الخصوص ، وعلى مدى فترة طويلة وصلت إلى نحو قرن كامل من الزمان ، وإن لم تحرم بقية الأنحاء من جهود أخرى ، إذ بذل بعضهم الجهد في بلاد الصين وفي خانية القبيلة الذهبية وفي بعض جهات روسيا . وإذ اختصت فارس بالذات بكثير من الجهود قامت فيها هيئة للأساقفة تحت زعامة رئيس أساقفة، في الوقت الذي استقرت فيه أسقفية لاتينية في الصين زمن المغول (٥١).

وعلى الرغم من ذلك لم تسفر هذه الجهود كلها -كما يذكر المؤرخون -عن اقتناع خان مغولي أو حاكم من حكامهم باعتناق المسيحية أو الدخول فيها باقتناع و إيمان إذ كانت آمال المبشرين عريضة ولكنها لم تكن إلا سرابا خادعا(٥٢). حقيقة تظاهر بعض خانات المغول بهذا الاقتناع ومثلوا الدور بإتقان أمام سفراء أوربا ، ولكن لم يحدث ذلك إلا

---

(50) Morgan : Op.cit.p.183

(٥١) العريني : المغول ص ٣٣١

(٥٢) فؤاد عبد المعطي الصياد : المرجع السابق ص٦٤

إذا كان الخان ، سواء أكان الخان الأعظم أو خاناً أقل عظمة في قسم من أقسام إمبراطورية المغول ، له أهداف سياسية ويقصد رسم صورة خادعة أمام رسل أوربا تكسبه عطفا في الغرب ومحبة وتمنحه فرصة التأثير على حكام أوربا و بابواتها ، خاصة إذا كان يرغب في محالفة سياسية أو المشاركة في عمل عسكري ضد المسلمين(٥٣)، أو كان يطلب مثول حكام الغرب الأوربي أمامه لتقديم فروض الطاعة والولاء حاملين معهم الأموال والذهب والفضة دليل هذا الولاء والخضوع(٥٤) . فلا باس أذن بالتظاهر باعتناق المسيحية ، وطلب المعمودية "وفق شريعة الرب" ، ولا باس بتعميد طفله وولى عهده على يد اكبر رهبان البعثة الكاثوليكية الموفدة ، وتوزيع الهدايا على الحاضرين من المسيحيين سواء أكانوا كاثوليك أم نساطرة أم يعاقبة أو غيرهم (٥٥) .

إذ لم يكن من السهل علي خانات المغول أن يتحولو عن دين رعاياهم ، فقد كان الخان الأعظم في الصين عادة بوذيا ، لأن جل الرعايا هناك كانوا بوذيين ، وتحول خانات القبيلة الذهبية في جنوب روسيا إلى الإسلام عادة لأن جل رعاياهم كانوا مسلمين ، كما اعتنق عدد من خانات فارس الإسلام لأن معظم سكان فارس والتركستان كانوا مسلمين(٥٦) ولم يكن المغول يمثلون أغلبية في المناطق التي احتلوها ، وإنما كانوا أقلية بالنسبة للرعايا الذين دانوا لهم ، فلم يرد حكام المغول أن يعتنقوا ديانة بعيدة عن ديانة رعاياهم فذلك يعرضهم لمشاكل مع شعوبهم ويخلخل الثقة بين الحاكم والمحكوم .

---

(٥٣) عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص ١٥٥-١٥٦ . ص ١٧٧-١٧٨

(54) Runciman : Op. cit.111, p. 259

(55) D´ Ohsson : Op. cit. vol.1V, pp. 67-79

(٥٦) مصطفي طه بدر : المرجع السابق ص١٢

Howorth : Op.cit.111, pp. 285-87, pp. 296, 407

لهذه الأسباب فشلت جهود البابوات وحكام الغرب الأوربي في تنصير خانات المغول وإن نجحت أحياناً في جعل بعض الخانات في فارس خاصة الأول منهم يظهرون سياسة العطف على رعاياهم المسيحيين. وإساءة معاملة رعاياهم المسلمين ، حتى لا يكاد المؤرخون يجمعون على أن أحدا من هؤلاء الخانات ، قد اعتنق المسيحية أو تنصر، وإن اعتقد معظم بابوات أوربا وحكامها أن كل هؤلاء الخانات ، أو على الأقل معظمهم كانوا مسيحيين [٥٧].

اقتصر الأمر إذن على ما أظهره بعض الخانات خاصة في إيران من عطف على المسيحيين من رعاياهم ، فأظهر هولاكو هذا العطف بتأثير زوجته طقزخاتون ، ووضح هذا جيداً عند دخوله بغداد، وعند دخول المغول دمشق، وأظهر ابنه أبغا نفس الشعور بالعطف على المسيحيين بتأثير زوجته ماريا البيزنطية ، ولم يكن أرغون بن أبغا أقل عطفاً على المسيحيين من أبيه وجده ، وكذلك بعض من جاء بعدهم من خانات المغول في إيران[٥٨].

إذن لم تسفر هذه البعثات التبشيرية عن تحويل أحد من خانات المغول إلى المسيحية ، ولم تنجح بالتالي في إقناعهم بفكرة التبشير ، كما خطط هؤلاء الرهبان ومن بعثهم إلي الشرق ، وإذا سمح لبعضهم بالتبشير ففي نطاق ضيق وبإمكانات ضئيلة ، وبالتالي لم تسفر هذه المحاولات عن شيء مؤثر [٥٩]. واقتصر الأمر على تحويل مئات قليلة من الناس على أيدي هؤلاء المبعوثين، من معتنقي البوذية أو النسطورية إلي المسيحية

(٥٧) مصطفى طه بدر : مغول ايران بين المسيحية و الاسلام ص٩
(58) Browne : The Eclipse of Christianity in Asia, pp.149-50,p.158
(59) Morgan : Op.cit.p.185

الكاثوليكية ، بما لا يتفق مع الجهود التي بذلت في ذلك ، وبما لا يتوافق مع الاهتمام الذي أبداه الغرب الأوربي والبابوية بهذا التبشير ، والرغبة المحمومة في كسب أرض جديدة إلى المسيحية الكاثوليكية (٦٠) .

وإذا قارنا بين الأعداد القليلة التي تنصرت على أيدي هؤلاء الرهبان المبشرين بالإنجيل في آسيا ، وبين من اعتنق الإسلام في نفس الفترة وجدنا أن من تنصر لا يعدو مئات قليلة بينما الذين تحولوا إلي الإسلام في نفس الفترة بلغوا مئات الألوف في مختلف أنحاء تلك القارة ، و دون جهود كبيرة (٦١) ، و إنما بحسن الاقتداء وبالموعظة الحسنة . أي أنه لا وجه للمقارنة بين من اعتنق المسيحية الكاثوليكية ، وبين من تحول إلى الإسلام في تلك الفترة فالمقارنة في صالح الإسلام دون جدال وبشهادة المؤرخين المعاصرين ، الذين تابعوا بدقة هذا التحول . وحتى خانات المغول أنفسهم انتهى الأمر باعتناقهم الإسلام والدعوة إليه بين شعوبهم (٦٢) .

ويكفي هذا في تلك المقارنة ، من دليل علي أن بعثات أوربا التبشيرية لم تسفر عن شئ ذي بال ،وأن المئات القليلة التي تنصرت على أيديهم لا تقارن بمئات الألوف التي أسلمت دون جهود تذكر ، وإنما بالقدوة الطيبة والموعظة الحسنة ، وبعض النوايا الطيبة ، وحين تحول الخان غازان إلى الإسلام تبعه في نطق الشهادة قرابة مائة ألف نفر من المغول دخلوا في الدين الإسلامي (٦٣).

(٦٠) فؤاد عبد المعطي الصياد : المرحع السابق ص٦٤

(٦١) أرنولد : الدعوة الي الاسلام ص ٢٦١ (مترجم -الطبعة الثانية)

(٦٢) فؤاد عبد المعطي الصياد : المرجع السابق ص ١٢٥

(٦٣) ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ج٣ ص٢١٢
عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص ١٩١-١٩٢

وما دامت هذه البعثات والسفارات الأوربية التى أرسلت للتبشير بالمسيحية بين المغول لم تسفر عن شئ ذي بال ، ولم تحقق مكاسب تذكر في هذا المجال لدى المغول،فماذا حققت إذن هذه البعثات وما هي المحصلة النهائية لجهودها ؟

الواقع أن هذه البعثات التبشيرية لم تحقق الأهداف الدينية المخطط لها سواء من قبل البابوية أو حكام الغرب الأوربي ، وفشلت فعلا في تنصير الأعداد التي خطط الغرب لتنصيرها من رعايا المغول ، ولكنها مع ذلك لم تعدم وسيلة لتحقيق أهداف أخرى ومكاسب أخرى ربما تخرج عن نطاق التبشير بالمسيحية و النواحي الدينية ، ولكنها قطعا تحسب لهذه البعثات وتضاف إلى إنجازاتها في الشرق .

فقد أشار المؤرخون إلى أن هذه البعثات التبشيرية ورهبانها سدوا ثغرة هامة في معارف أوربا وثقافاتها من سكان آسيا [٦٤] ، وعن عاداتهم وتقاليدهم وعقائدهم واقتصاد تلك القارة وطرق معيشة أهلها بدقة وموضوعية ، ومن خلال معايشتهم لأولئك السكان وفى نفس الوقت بذل المبشرون الأوربيون جهودا مضنية في تشجيع رعايا المغول علي التعلم وطلب الثقافة ، فيشير المؤرخون إلى أن بعض المبشرين الدينيين صنفوا في إقليم القبيلة الذهبية قاموسا لغويا : لاتيني -تركي -تتري اشتهر باسم Codex Cumanicus[٦٥] .وواصل هؤلاء المبشرون كتاباتهم للبيانات التي قدموها للبابوات وحكام أوربا ، حتى جاءت هذه البيانات دقيقة و أمينة وتفصيلية لتسهم في التكوين الثقافي والعلمي للقارة الأوربية في أواخر

(64) Morgan : Op.cit.p.195

(٦٥) العريني : المغول ص ٣٣١

العصور الوسطي ، ومطلع العصور الحديثة ، حين نشطت الكشوف الجغرافية ، و تطلع الأوربيون إلى اكتشاف آسيا وضمها إلى خريطة القارات التي أزمعوا اكتشافها [٦٦].

فإذا لم يكن رهبان هذه البعثات التبشيرية -بوافر معارفهم ودأبهم علي التحصيل -قد نجحوا في تحقيق نتائج ملموسة في مجال التنصير والتبشير بالإنجيل ، فأن نجاحهم في مد أوربا ببيانات ومذكرات ورسائل تحوى معلومات تفصيلية عن آسيا وشعوبها وسكانها لا تقل أهمية عما كتبه بعد ذلك كبار الرحالة والجغرافيون ممن زاروا هذه القارة[٦٧] ودونوا معلوماتهم عنها وحصيلة تجوالهم فيها ، وقدموا لأوربا هذه المعلومات التي ساعدت رواد الكشوف الجغرافية في اكتشاف آسيا ووضعها علي خريطة القارات التي حققوا كشوفا جغرافية فيها [٦٨].

وساعد هؤلاء الرهبان على إنجاز ذلك ، وعلى سد تلك الثغرة في معارف أوربا عن قارة آسيا ، إجادة بعضهم اللغات المحلية في تلك القارة، ولغات أخرى لشعوب عمل بعض مواطنيها لدي المغول أو أسروا في حروبهم مع المغول و دخلوا في خدمة دولتهم ، فقد أجاد بعض هؤلاء الرهبان و السفراء السريانية و بعضهم أجاد الفارسية[٦٩] بجانب العربية لغة قطاعات عريضة من رعايا المغول في تلك الفترة، فضلا عن إجادتهم لغة المغول ذاتها .

(66) Morgan : Op. Cit. Pp.195-6

(٦٧) رحلات ماركو بولو ص ٦-٨ الترجمة العربية ،والمقدمة التي كتبها جون ميسفيلد للترجمة الإنجليزية للرحلات ، وأنظر أيضا : فؤاد عبد المعطي الصياد : المرجع السابق ص ١٩٧-١٩٩

(68) Morgan : Op.cit.pp.26-27

وانظر أيضا : فؤاد عبد المعطي الصياد : المرجع السابق ص ١٩٧ (حاشية)

(٦٩) فؤاد عبد المعطي الصياد : نفس المرجع ص١٩٣-١٩٥

وكانت إجادة بعض هؤلاء السفراء والرهبان للغة المغول عاملا هاما في الاقتراب من القادة والحكام وفهم اتجاهاتهم السياسية والدينية من ناحية ، والاقتراب في نفس الوقت من الشعوب المغولية وفهم أسلوب حياتهم وميولهم الدينية وحياتهم الاجتماعية من ناحية أخرى [٧٠] ، حتى بذل بعضهم جهدا في ترجمة الكتاب المقدس إلى لغات هذه الشعوب ولهجاتها المختلفة ، فأسهموا بذلك في توسيع مدارك هذه الشعوب وتوجيه أنظارهم إلى ثقافات أخرى وجديدة بالنسبة لهم ، أي أنهم كانوا أداة تعليمية و تثقيفية و حضارية بالنسبة لهذه الشعوب [٧١] .

فإذا أضفنا إلى ذلك أن هؤلاء المبعوثين التبشيريين كانوا أداة تقارب و تفاهم بين المسيحيين الشرقيين من النساطرة و اليعاقبة ، وبين الكاثوليك و كانوا عامل احتكاك بين هؤلاء و كاثوليك أوربا ، أدركنا أن بعثات هؤلاء التبشيرية لم تحرم من بعض الإسهامات الحضارية والثقافية، وكانت عامل جذب واقتراب حتى بين طوائف العقيدة المسيحية ذاتها،فقد خففوا ما كان واقعا من تباعد بين هؤلاء و بين الكاثوليك،و نجحوا في كسر ما كان من حواجز بين أتباع المسيحية في الشرق و في الغرب[٧٢] .

---

(70) Morgan : Op.cit.p.195
(71) Atiya : Op.cit.pp.248-52
(72) Runciman : Op.cit.111,p.397
Morgan : Op.cit.p.180

الفصل الثالث عشر

الرسل والسفارات المتبادلة بين أوربا والتتار بغرض التحالف العسكري ضد المسلمين

- سفارة الملك لويس التاسع الأولى إلى المغول سنة ١٢٤٩م بغرض التحالف العسكرى .
- السفارة الثانية للملك لويس التاسع إلى المغول سنة ١٢٥٣م بغرض التحالف العسكرى .
- سفارة ملك أراجون والبابا كليمنت الرابع إلى أبغا سنة ١٢٦٧م بغرض التحالف العسكرى .
- سفارة أبغا خان فارس إلى ملك أراجون سنة ١٢٦٩م وإلى الملك لويس التاسع ملك فرنسا بغرض التحالف العسكرى للقيام بعمل مشترك ضد المسلمين .
- سفارة إدوارد الأول — ولى عهد انجلترا — إلى أبغا سنة ١٢٧١م.
- سفرة أبغا إلى الملك إدوارد الأول ملك إنجلترا سنة ١٢٧٣م بغرض التحالف العسكرى ضد المسلمين .
- سفارة أخرى من أبغا إلى الملك إدوارد الأول سنة ١٢٧٦م لحثه على الإسراع بإعداد حملة صليبية ضد المسلمين .
- محاولات أرغون للتحالف مع مسيحى الغرب والشرق للقيام بهجوم مشترك على المسلمين وسفاراته إلى المقر البابوى فيما بين سنتى ١٢٨٥، ١٢٩٠ م لهذا الغرض .



إذا كانت البابوية وبعض حكام أوربا ، قد أرسلوا السفارات والبعثات إلى المغول بهدف التبشير بالمسيحية ، واجتذابهم إلى العقيدة المسيحية على مذهبها الكاثوليكى[١] ،كما وضح في الفصلين السابقين، فإن الأمر لم يقتصر على ذلك، بل تبودلت رسل وسفارات أخرى، كانت تهدف إلى إقامة تحالف عسكرى ضد المسلمين، والتماس القيام بعمل مشترك ضد مسلمى الشرق الأدنى خاصة وقد أبدى المغول رغبة في امتلاك أراضى المسلمين، وحماسة في القضاء على سلطانهم في آسيا والشرق الأدنى [٢] .

وفي نفس الوقت كان الأوربيون ينظرون إلى محاولات المسلمين لاسترداد أراضيهم في بلاد الشام وفلسطين، وهدم بقايا الكيان الصليبى في الشرق، نظرة ملؤها الكراهية والضيق والرغبة في كسب حليف يشاركهم حروبهم ضد المسلمين في التصدى لمشروعات هؤلاء لإنقاذ بقايا الكيان الصليبى المترنح ودعم هذا الكيان في الشرق [٣] .

ويذكر المؤرخون أن أولى السفارات التى أرسلت من أجل التحالف العسكرى، للقيام بعمل مشترك ضد المسلمين، هى السفارة التى بعث بها الملك الفرنسى لويس التاسع إلى المغول، والبعثة التى حرص على إيفادها إلى خان المغول الأعظم، وإن اشترط الملك لويس التاسع دخول المغول في المسيحية قبل القيام بعمل مشترك معهم، بوازع من ورعه وتقواه، ولكن الهدف من تلك السفارة، كان التحالف العسكرى معهم ضد المسلمين[٤]،

(1) Runciman : A Hist. of the Crusades, 3 , 259
(2) Atiya : The Crusades in the Later Middle Ages, pp. 238 – 46
(3) D'Ohsson : op. cit. 111, pp. 410 -12
(4) Morgan : op. cit. p. 181

خاصة وأنه أرسل هذه السفارة وهو في طريقه إلى مصر في الحملة الصليبية التى عرفت بالحملة السابعة، والتى بقى في الشرق بسببها نحو خمس سنوات أو يزيد، كان يحاول من خلالها الاستيلاء على بيت المقدس عن طريق السيطرة على مصر[٥] ، ولابد وأنه كان يبحث عن حليف يعاونه في مشروعاته الصليبية في الشرق، فأرسل تلك البعثة إلى المغول بغرض التحالف العسكرى، تحقيقاً لما كانت تبديه أوربا من رغبة في الاستعانة بالمغول لتسترد نفوذها الضائع في بلاد الشام[٦] .

وقد سبق أن أشرنا إلى هذه البعثة أو السفارة في جانبها الدينى، أو ما اشترطه لويس على المغول من التحول إلى المسيحية، قبل القيام بعمل مشترك معهم[٧] ، وهى البعثة التى رأسها أندريا لونج جميو وأخوه، التى غادرت جزيرة قبرص في يناير سنة ١٢٤٩م ، متجهة إلى شمال العراق لمقابلة قائد المغول هناك، الذى وجهها إلى منغوليا فلما وصلت إلى قراقوم تبين لها أن الخان الأعظم كيوك قد مات، وأن أرملته تقوم بالوصاية على العرش[٨] ، فاستقبلت السفارة واعتبرت الهدايا التى أرسلها الملك لويس التاسع جزية يؤديها التابع لسيده، ولم تسعفها الظروف بالتفكير في إرسال حملة لمعاونة الملك لويس التاسع ضد المسلمين، بسبب ما نشب من نزاع حول عرش الخان الأعظم في دولة المغول[٩] .

---

(٥) جوانفيل : القديس لويس ص ٩٥ (ترجمة حبشى)

(٦) مصطفى طه بدر : مغول إيران ص ٦

(7) Matthew Paris's English History V. 11 p. 319

(٨) العرينى : المغول ص ١٩١

(9) Morgan : op. cit. p. 182

ولقد فشلت هذه السفارة فيما أرسلت من أجله، على الرغم من أنها قضت ببلاد المغول نحو ثلاث سنوات، لأن لونج جميو حمل معه عند عودته رسالة الوصية تشكر فيها الملك لويس التاسع على اهتمامه، وتطلب منه أن يستمر في إرسال الهدايا والأموال كل سنة، كرمز للتبعية والخضوع، فارتاع لويس التاسع لهذا الرد[١٠]، وصدم صدمة شديدة، وإن أشار المؤرخون إلى أنه لم ييأس، بل توقع أنه سوف يجئ الوقت الذى يتم فيه التحالف مع المغول[١١].

ولقد اندرجت هذه السفارة ضمن السفارات الهادفة إلى إقامة تحالف عسكرى بين أوربا والتتار ضد المسلمين، إذ استقبل الملك لويس التاسع وهو في جزيرة قبرص في ديسمبر سنة ١٢٤٨م مبعوثي المغول المسيحيين: داود ومرقص اللذين حملا للملك لويس التاسع رسالة المغول التى أبانت عن عزم المغول على محاربة المسلمين[١٢]، وعلى حماية المسيحيين على اختلاف مذاهبهم وجنسياتهم من اللاتين أو اليونانيين أو الأرمن، وسواء أكانوا نساطرة أو يعاقبة أو كاثوليك أو أرثوذكس[١٣].

وفسر مستشاروا الملك الفرنسى محتويات الرسالة، بأن المغول في فارس يفكرون في الهجوم على بغداد، وهو نفس المشروع الذى نفذه هولاكو بعد ذلك بنحو عشر سنوات، وأن يجرى هذا الهجوم في الوقت الذى بدأ فيه الملك لويس التاسع في تنفيذ حملته الصليبية لمهاجمة مصر ومسلمى بلاد الشام، وإن لم تسفر هذه البعثة عن شيء كما سبق أن أشرنا[١٤].

(١٠) جوانفيل : المصدر السابق ص ٢١٩
(١١) العرينى : المغول ص ١٩١
(12) Setton : Hist. of the Crusades, Vol. 111, p. 507
(13) Morgan : op. cit. p. 181
(١٤) جوانفيل : المصدر السابق ص ٢١٩

وعلى الرغم من فشل هذه المحاولة، لم ييأس الملك لويس التاسع في مشروع التحالف العسكرى مع المغول، وشجعه على المضى في التماس مساعدة المغول العسكرية ما سمعه من ميل ابن باتو خان القبيلة الذهبية للمسيحية، وتقديره للمسيحيين ويدعى سارتاق[١٥] من ناحية، وحاجته إلى مساعدة المغول العسكرية من ناحية أخرى، بعد فشل حملته على مصر واتجاهه إلى بلاد الشام، وقيامه بمحاولة دعم الكيان الصليبى المترنح هناك، وشعوره بقصور إمكاناته الحربية عن حفظ هذا الكيان ودعمه أمام تهديد المماليك في مصر، فقرر الملك لويس التاسع أن يبعث سفارة ثانية إلى المغول برئاسة الراهب الفرنسسكانى وليم روبروق[١٦] وبصحبته الراهب بارثلميو أوف كريمونا .

وقد سبق أن أشرنا إلى هذه السفارة أيضاً في جانبها الدينى، ولهذا فسوف نقتصر في حديثنا عنها هنا على الجانب العسكرى ومحاولة التحالف مع المغول ضد المسلمين، فقد غادرت هذه السفارة أرض فلسطين في أوائل سنة ١٢٥٣م، واتجهت إلى القسطنطينية، ومنها أبحرت في البحر الأسود إلى شبه جزيرة القرم في مايو سنة ١٢٥٣م،ثم اجتازت جنوب روسيا حتى وصلت إلى معسكر سارتاق بن باتو في آخر شهر يوليو سنة ١٢٥٣م بالقرب من نهر الفولجا[١٧] .

وعلى الرغم من أن سارتاق هذا كان ميالاً للمسيحية، مقدراً للمسيحيين، محيطاً نفسه بعدد منهم من النساطرة، كما ضمت حاشيته أحد الداوية من قبرص، كان يعمل مترجماً له، وسارتاق هذا هو الذى

---

(١٥) العرينى : المغول ص ١٩٥
(١٦) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ١٠٩
(١٧) العرينى : المغول ص ١٩٥

خلف أباه بايو في حكم الخانية[١٨] إلا أنه أعلن أنه لا يستطيع التحدث إلى مبعوث الملك لويس التاسع وليم روبروق، وأنه سوف يرسله إلى أبيه باتو الذى ينزل على الضفة الشرقية لنهر الفولجا، فلما وصل وليم روبروق إلى منازل باتو على نهر الفولجا، لقى منه حفاوة بالغة، واستقبله باتو استقبالاً طيباً وأخبره أنه علم بخروج الملك لويس التاسع على رأس جيش لمحاربة المسلمين، وأن اهتمام هذا الملك بالحروب الصليبية، لا يقل عن اهتمام المغول بهذه الحروب، وأنه لهذا سيبعثه هو وصحبه إلى الخان الأعظم مونكو، الذى استقامت له الأمور في العاصمة مكان أرملة الخان الراحل[١٩] .

واصل وليم روبروق وصحبه طريقهم إلى عاصمة المغول، فبلغ معسكر مونكو بالقرب من العاصمة قراقورم في آخر ديسمبر سنة ١٢٥٣م، حيث استقبله مونكو في يناير سنة ١٢٥٤م ودار محاورات لطيفة وطريفة بين روبروق والخان المغولى تنبأ فيها روبروق أن مونكو سوف يحكم العالم[٢٠] والتقى وليم روبروق بعدد من سفراء العالم، منهم سفير من قبل الإمبراطور البيزنطى في نيقية ورأى مبعوثاً مسيحياً سريانياً في بلاط مونكو، قدم من قبل الملك الأيوبى المغيث عمر حاكم الكرك وشرق الأردن. كما التقى براهب أرمينى قدم من فلسطين، كما التقى أيضاً برجل من متز باللورين كان متزوجاً من امرأة روسية، دخل في خدمة زوجة نسطورية للخان الأعظم، ورأى روبروق في بلاط مونكو رجلاً فرنسياً[٢١] ، يشتغل بصناعة الحلى، كان من أقرب الناس إلى الخان

(18) Morgan : op. cit. p. 174
(19) Ibid. p. 182

(٢٠) عبد السلام فهمى : نفس المرجع ص ١٠٧ — ١٠٨
(٢١) اسمه وليم بوشيز . انظر العرينى : المغول ص ١٩٦

الأعظم مونكو، كانت زوجته هنغارية تجيد الحديث بالفرنسية وبعض اللغات الأخرى، فضلاً عمن التقى بهم روبروق من المسيحيين من المجريين واللان والروس والكرج والأرمن[٢٢] .

بقي وليم روبروق في بلاط مونكو نحو خمسة شهور أدرك خلالها معاداة مونكو لكل الدول الإسلامية، برغم استقباله لبعض سفرائهم[٢٣] ، وأنه عزم على توجيه شقيقه الأصغر هولاكو إلى فارس للقضاء على قوة الحشيشية، ثم إلى العراق للقضاء على الخلافة العباسية في بغداد، وعلى الرغم من استعداده لمناقشة القيام بعمل مشترك مع الملك لويس التاسع ضد المسلمين، إلا أن المشكلة التى تحول دون ذلك، هى أنه لا يقبل أن يكون بالعالم سلطان آخر سواه[٢٤] ، وأنه لا بد من استئصال شأفة خصومه، أو إلزامهم بقبول التبعية له وتقديم فروض الطاعة والولاء له، أما أصدقاءه فهم الذين يعلنون تبعيتهم له بمحض إرادتهم .

وتمخضت سفارة وليم روبروق من أجل التحالف العسكرى مع المغول، عن وعد من قبل مونكو ببذل المساعدة للمسيحيين في صراعهم مع المسلمين، إذا أقدم حكامهم على أداء يمين التبعية له باعتباره سيد العالم[٢٥] ، وتحاشى مونكو الالتزام بتبادل السفارات الرسمية في هذا الأمر ، ولم يشر أيضاً إلى موافقته على القيام بعمل مشترك مع هؤلاء لقتال العدو المشترك وهم المسلمون، خاصة في الشرق الأدنى. فكأن هذه السفارة لقيت فشلاً ذريعاً مثلما لقيته سفارة الملك لويس التاسع الأولى إلى

(٢٢) العرينى : المغول ص ١٩٦ — ٢١٩
(23) Runciman : op. cit. 111, p. 295
(٢٤) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ١٠٨
(25) Runciman : op. cit. 111, p. 297

بلاط المغول من قبل ، ولم تحقق ما خرجت من أجلـه ، فقـد أدرك ولـيم روبروق أن ملك فرنسا لن يقبل شيئاً من شروط المغول [٢٦] .

ولهذا اقتنع وليم روبروق بأن هذه الشروط لن يقبلها ملك فرنسـا ، ولهذا غادر عاصمة المغول قراقـورم في أغسـطس سـنة ١٢٥٤م إلى عاصـمة خان القفجاق باتو في سبتمبر من نفس العام، على المجرى الأدنـى لنهـر الفولجا، ثم اجتاز جبال القوقاز، حيث نـزل مقـر قيـادة المغـول في تلـك النواحي، والتي يتولاها القائد بايجو الذى استقبله في نـوفمبر مـن نفـس العام[٢٧] .ثم اجتاز روبروق أرمينيا وعبر سـلطنة سـلاجقة الـروم بقونيـة ، حتى وصل إلى ميناء إياس بأرمينيا الصغرى، ثم أبحر منهـا إلى قـبرص، ثم إلى عكا فوصل بعد مغادرة الملك لـويس التاسـع بـلاد الشـام في إبريـل سنة ١٢٥٤م ، لأن لويس التاسع كان قد أبحر من عكا عائداً إلى فرنسـا عند سماعه نبأ وفاة والدته حينئذ، فاضطر وليم روبروق إلى إرسال تقريره إليه عن رحلته إلى بلاط المغول مصحوباً برسالة الخان الأعظم مونكو[٢٨] .

انتقـل الحكـم في خانيـة فـارس، بعـد وفـاة هولاكـو إلى ابنـه أبغـا(١٢٦٥- ١٢٨٢م) الـذى بقـى كمـا كـان أبـوه نائبـاً للخـان الأعظـم قوبيلاى في حكم فارس[٢٩] ، فأظهر أبغا تقـديراً للمسـيحية وعطفـاً علـى المسـيحيين مـن الأرمـن والنسـاطرة واليعاقبـة ، ورغـب في التحـالف مـع مسيحي أوربا وبيزنطة ومسيحى الشرق ضد المسلمين، لاسيما وقـد تـزوج من ابنة الإمبراطور البيزنطى ميخائيل باليولوجس، وكان نصيراً لبطريـرق

(٢٦) جوانفيل : المصدر السابق ص ٢١٨ – ٢١٩
(٢٧) العرينى : المغول ص ١٩٧ – ١٩٨
(28) Runciman : op. cit. 111, p. 485
(29) Grousset : Histoire de L'Extrême Orient, p. 458

النساطرة، وصديقاً لمن تولى هذا الكرسى الدينى(٣٠) .

وفي إطار هذه الاهتمامات كان عليه أن يواصل الحرب التى شنها والده هولاكو على بركة خان القفجاق المسلم وحليف المسلمين، فاستؤنفت الحرب سنة ١٢٦٦م، وتعثر خلالها جيش القفجاق، مما اضطر بركة خان نفسه إلى الخروج على رأس جيش كثيف لتصفية هذه الحرب، إلا أنه ما لبث أن توفى أثناء الطريق في نفس السنة(١٢٦٦م) وارتدت عساكره(٣١) ، ووضح من ذلك كله أن أبغا كان راغباً في مواصلة العداء مع أقاربه المسلمين وحلفاء المسلمين إسهاماً في إكمال المحور العسكرى المضاد، الذى اعتبر نفسه على طرفه وعلى الطرف الآخر المسيحيين في الشرق وفي الغرب على حد سواء .

وإكمالاً لهذا الدور الذى بدأه أبغا، كان عليه أن يشن الحرب على خانية تركستان التى شاركت مغول القفجاق في تطويق خانية فارس على عهد هولاكو، فاندلعت الحرب مع هذه الخانية سنة ١٢٦٩ — ١٢٧٠م ، وانتهت كما أمل أبغا بهزيمة خانية تركستان وبيت جغتاى بالقرب من هرات في صيف سنة ١٢٧٠م(٣٢) ، ليستقر حكم أبغا في فارس من ناحية ويفكر جدياً في إخراج التحالف العسكرى مع المسيحيين إلى حيز الوجود من ناحية أخرى، إكمالاً لما بدأ والده هولاكو من سياسة التحالف مع القوى المضادة للمسلمين(٣٣) .

---

(30) Runciman : op. cit. 111, p. 331
Grousset : L'Empire des Steppes , p. 445

(٣١) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ٥٦.

(٣٢) فؤاد عبد المعطى الصياد : المرجع السابق ص ٥٧ — ٥٨

(33) Morgan : op. cit. p. 183

وكان حرص أبغا على أن يضم إلى حلفه الأرمن والكرج وفرنج الشرق، كما خطط أن ينحاز إلى هذا الحلف السلاجقة بآسيا الصغرى والبيزنطيون، فضلاً عمن يشترك من القوى الأوربية ومسيحى الغرب الأوربى إثر الاتصالات مع البابوية وحكام أوربا في الغرب[٣٤]، فقد أصبحت علاقاته هذه راسخة ومشهود لها، وتوثقت مع المقر البابوى في عهد كل من كليمنت الرابع وجريجورى العاشر ونيقولا الثالث ، ومع بعض حكام أوربا مثل لويس التاسع ملك فرنسا وإدوارد الأول ملك إنجلترا، وملك أراجون في أسبانيا، وكان يأمل من ذلك كله تنظيم حملة مشتركة ضد المماليك في مصر والشام، غير أن آماله لم تتحقق، إذ كانت الروح الدينية والمعنوية عند الصليبيين قد فترت، في الوقت الذى ضعفت فيه سلطة البابوات أمام قوة وسلطة الأباطرة والملوك[٣٥] ، وعلى الرغم من ذلك حاول أبغا أن يخرج هذا التحالف إلى حيز الوجود ويوجه هذا الحلف كله ضد المماليك في مصر والشام وحلفائهم مغول القفجاق والقوى المنلاوئة في تركستان وإيران[٣٦] .

ولا شك في أن دبلوماسية بيبرس قد أسهمت فيما تعرض له أبغا من متاعب من قبل جيرانه سواء مغول القفجاق أو مغول التركستان، فضلاً عما حققته هذه الدبلوماسية من حرمان أبغا من محالفة بيزنطة، التى اضطرت تحت ضغط مغول القفجاق، وضربات البلغار إلى تسوية أمورها مع هذين الحليفين[٣٧] ، فجاء ذلك خصماً من رصيد أبغا من ناحية، وإضافة إلى رصيد كل من مغول القفجاق والبلغار والمماليك من ناحية أخرى .

---

(34) Setton : The Papacy and the Levant (1204-1571), p. 106

(٣٥) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ١٥٥

(٣٦) العرينى : المغول ص ٢٧٦

(37) Morgan : op. cit. pp. 142 - 5

ونظراً لما أبداه أبغا من نوايا طيبة تجاه المسيحيين وما تواتر من أنباء في الغرب الأوربي من عطفه على المسيحيين وكراهيته للمسلمين مثل والده، أرسل إليه ملك أراجون والبابا كليمنت الرابع[٣٨] سنة ١٢٦٧م سفارة برئاسة جيمس ألريك برنجنان يخطره بما كان يعده هذا الملك هو والملك لويس التاسع من حملة صليبية إلى الشرق، وتطلب منه المساعدة والتحالف للقيام بعمل مشترك ضد المسلمين، لا سيما وقد بدأ السلطان الظاهر بيبرس يعد عدته في ذلك الوقت لتصفية الكيان الصليبي في بلاد الشام، وأنطاكية بصفة خاصة[٣٩]، إلا أن أبغا لم يستطع أن يبذل وعوداً أكيده في هذا الشأن لانشغاله بحرب مغول القفجاق من ناحية ومغول تركستان في إقليم ما وراء النهر الذين هاجموا الشطر الشرقي من ممتلكاته سنة ١٢٧٠م من ناحية أخرى، ولم يرتدوا إلا بعد معركة حاسمة نشبت بالقرب من هرات[٤٠]، ولهذا لم يستطع أبغا أن يقدم لفرنج الشرق اية معاونة حين نهض بيبرس لاستعادة أنطاكية سنة ١٢٦٨م، فسقطت أنطاكية فعلاً في أيدى المماليك[٤١].

وفي سنة ١٢٦٩م أرسل كل من أبغا والإمبراطور ميخائيل باليولوجس مندوبين قابلوا ملك أراجون Aragon[٤٢]، في أسبانيا، ونقلوا إليه رغبة أبغا في التحالف مع زعماء أوربا المسيحيين للقيام بعمل مشترك ضد المسلمين في الشرق الأدنى، تنفيذاً لما وعد به الملك والبابا كليمنت الرابع قبل ذلك بعامين، غير أن ملك أراجون عاد فعدل موقفه

---

(38) Sykes : A History of Persia. pp. 62-3
Browne: Persian Literature under Tartar Dominion. p.19
(39) Setton : The Papacy and the Levant, pp. 97 – 8
(٤٠) العريني : المغول ص ٢٩٢
(41) Runciman : op. cit. 111, p. 325
(٤٢) أرغونة : أنظر : فؤاد عبد المعطى الصياد : المرجع السابق ص ٥٧

بناء على نصيحة بعض أمراء أسبانيا الذين صوروا له فظاعة المغول وخطورة التحالف معهم، فلا زال كثير من الأوربيين لا يطمئنون إلى محالفة المغول لما اشتهر به هؤلاء من وحشية وتطرف وغدر(٤٣) ، على الرغم من أن ذلك لم يكن هو رأى غالبية حكام أوربا الذين اعتقدوا أن المماليك أخطر على المسيحية في الأراضى المقدسة من التتار، فصار تحطيم قوة المماليك هدفاً مشتركاً بين أوربا وخانات المغول(٤٤) .

وليس من شك أن أبغا كان حريصاً على محالفة أوربا مستعداً للقيام بعمل مشترك مع حكامها ضد المسلمين خاصة في الشرق الأدنى، فبعد هدوء الأمور لديه، وتصفية حربه مع مغول القفجاق سنة ١٢٦٦م ، وانتصاره في حربه مع خانية تركستان في إقليم ما وراء النهر(٤٥) ،عند هرات سنة ١٢٧٠م . أرسل إلى الملك لويس التاسع ملك فرنسا يعلمه أنه أصبح على استعداد لتقديم مساعدته له إذا أتيح له أن يقود الصليبيين إلى الشرق ويصل إلى فلسطين(٤٦) ، وأنه سيبذل هذه المساعدة الحربية لهم إذا ظهروا في فلسطين، إلا أن لويس التاسع توجه بحملته إلى تونس، فلم يكن بوسع أبغا النهوض لمساعدته هناك.

وعلى الرغم من ذلك لازال أبغا راغباً في محالفة أوربا ضد المسلمين، في الوقت الذى كان فيه حكام أوربا هم الآخرون يتوقون إلى تخليص الأراضى المقدسة من أيدى المسلمين، فدارت المفاوضات من جديد بين الخان وملوك وحكام أوربا المسيحيين حول هذا الهدف،

(٤٣) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ١٥٦

(44) D'Ohsson : op. cit. 111, pp. 539 – 42

Howorth : History of the Mongols, 111, pp. 275 – 280

(٤٥) فؤاد عبد المعطى الصياد : المرجع السابق ص ٥٩

(46) D'Ohsson : op. cit. 111, p. 442

وأصبح التتار هم الذين يطرقون كل باب في سبيل التقرب من حكام أوربا والتحالف معهم(٤٧) ، على الرغم من أن التحالف مع التتار لم يعد مقنعاً للكثير من حكام أوربا، خاصة بعد أن انحرفت حملة لويس التاسع عن هدفها، واتجهت نحو شمال إفريقيا، ثم كانت وفاة لويس التاسع هناك وفشل حملته مثبطاً لجهود كثير من حكام أوربا في سعيهم لتخليص الأراضي المقدسة(٤٨) ، باستثناء إنجلترا التى لا زالت مقتنعة بضرورة التحالف مع التتار، والتى خرج ولى عهدها إدوارد على رأس حملة صليبية إلى الشرق لمحاربة المماليك.

فلما وصل إدوارد على رأس حملته إلى بلاد الشام سنة ١٢٧١م ، لم يكن بوسعه أن يواجه المسلمين في بلاد الشام لقلة من كان معه من جند، ولذلك أمل في أن يحصل على مساعدة عسكرية يقدمها أبغا إليه. خاصة وقد انتهى أبغا من مشكلاته ومتاعبه مع أقاربه مغول القفجاق ومغول تركستان في بلاد ما وراء النهر(٤٩).

ولهذا بادر إدوارد الأول بمجرد وصوله إلى مدينة عكا بإرسال سفارة إلى أبغا خان فارس، يطلب فيها مساعدته، تحقيقاً لما وعد به من تحالف مع المسيحيين، واستمراراً لما كان يبديه من رعاية للمسيحيين، وفعلاً لم يكد أبغا يصفى حروبه مع أقاربه حتى أوفى بوعده في منتصف أكتوبر سنة ١٢٧١م ، وسحب من حامياته في آسيا الصغرى نحو عشرة آلاف فارس وبعث بهم إلى بلاد الشام(٥٠)، فأحدث هؤلاء تخريباً في

---

(٤٧) فؤاد عبد المعطى الصياد : المرجع السابق ص ٥٩

(48) Runciman : op. cit. 111, p. 332

(٤٩) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ١٥٥

(50) Runciman : op. cit. 111, p. 336

البلاد التى اجتازوها في طريقهم إلى الشام، وعاثوا الفساد فيما مروا به من قرى وحصون ومدن ونهبوا مدينة عينتاب، وأجبروا حامية حلب من التركمان على الفرار بعد أن أوقعوا بها هزيمة ساحقة، فهربت الحامية إلى مدينة حماة، فتقدموا من حلب إلى معرة النعمان وأفامية، وأحدثوا ذعراً بين سكان المدن والبلاد التى اجتازوها[٥١] .

وعلى الرغم من كل ذلك لم تسفر هذه المساعدة عن شيء ذي بال، لأنه بمجرد أن علم السلطان الظاهر بيبرس ، وكان حينئذ في دمشق بأنباء تقدم هؤلاء المغول طلب الإمدادات من مصر، وحينما شرع في التحرك لمواجهتهم، لم يسع المغول إلا التراجع، لأنهم أدركوا ألا قبل لهم بمواجهة الجيش المملوكى، فكان النصر حليفاً للسلطان بيبرس وكانت كفة المماليك هى الراجحة على كل من المغول والصليبيين في وقت واحد[٥٢] ، فضلاً عما حدث بين أتباع المغول من التمرد، خاصة أولئك القادمين من آسيا الصغرى ، فاكتفى المغول بما حصلوا عليه من غنائم، وارتدوا إلى ما وراء نهر الفرات[٥٣] ، الأمر الذى يؤكد أن ما قدمه أبغا من مساعدة للفرنج ببلاد الشام وللأمير الإنجليزى إدوارد الذى قدم على رأس الحملة الصليبية الإنجليزية سنة ١٢٧١م ، لم تكن ترقى إلى المستوى الذى أمل فيه الطرفان المغول وأوربا، وبالتالى لم تسفر عن شيء، وكانت الغلبة في النهاية للمسلمين[٥٤] .

---

(٥١) فؤاد عبد المعطى الصياد : المرجع السابق ص ٦٠

(٥٢) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ١٥٧

(٥٣) العرينى : المغول ص ٢٩٥

(54) Morgan : op. cit. pp. 187 - 8

بـل انتهـى الأمـر بتـدخل شـارل دانجـو بالوسـاطة بـين إدوارد وبيبرس، إذ كان شارل دانجو حريصاً على أن تبقى الأمور في بلاد الشام على ما هي عليه، ليتمكن من تحقيق ما راوده من أحلام، حتى يكون له حكم عكا أى حكـم مملكـة بيـت المقـدس الإسمية، أى أن يحـل محـل حاكمها، ويضم هـذه المملكـة إلى مملكـة صـقلية، فضـلاً عـن أحلامـه في الاستيلاء على القسطنطينية(٥٥) ، ولهذا سعى شارل دانجو إلى عقد صـلح بين حكومة عكا وبيبرس في مايو سنة ١٢٧٢ م ، فعقدت هدنة فعلاً كان أمدها عشر سنوات وعشرة شهور. لم يلبث إدوارد أن رحل بعدها عائـداً إلى إنجلترا ليتوج ملكاً بعد وفاة والـده باسـم إدوارد الأول، وترتـب علـى ذلك اطمئنان بيبرس وتفرغه لمواجهة المغول لو فكروا في إعادة الكره(٥٦) .

في الوقت الذى واصل فيه أبغـا محاولاتـه للتحـالف مـع الغـرب الأوربى، خاصة وقد بدأ يشعر بالخطر من قبل المماليك، فأرسـل أبغـا في سنة ١٢٧٣م رسـالة إلى الملـك إدوارد الأول ، ملـك إنجلـترا، وأرسـل إلى البابا جريجورى العاشر وفداً، تكون من سـتة عشـر سـفيراً، علـى رأسـه الراهب الدومنيكاني ديفيـد آشـبى D David Ashby الـذى أمضـى نحـو خمسة عشر عاماً في بـلاد فـارس(٥٧) ، ومعهـم رسـل مـن المغـول، وكـان البابا قد عقد المجلس الكنسـى الرابـع عشـر في مدينـة ليـون في جنـوب فرنسا لبحث بعض القضايا من بينها موضوع تحرير الأراضى المقدسة مـن أيدى المسلمين، فقرئت في المجلس رسالة الخان أبغا التى تضمنت رغبـة

---

(55) Setton : The papacy and the Levant, p. 98

(٥٦) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٤٩٢

(٥٧) ارنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٢٦٠ (الترجمة العربية ط٢)

فؤاد عبد المعطى الصياد : المرجع السابق ص ٦١

الخان في توطيد أواصر الصداقة بين المغول وأوربا المسيحية لمحاربة المسلمين، ويسأل فيها أيضاً عن الموعد الذى ستخرج فيه الحملة الصليبية القادمة (٥٨) .

وفي نهاية جلساته تعهد المجلس الكنسى بالإعداد لحملة صليبية جديدة ، ووعد بإنفاذ جيش صليبى ليستفيد من عروض المغول للتحالف والقيام بعمل مشترك، واقترح سفراء المغول إرسال رسل إلى أبغا للاتفاق على خطة للتعاون العسكرى لتحرير الأراضى المقدسة، دون أن تتضح خطوة عملية في هذا الشأن(٥٩) ، على الرغم من أن البابا استمر في سعيه لحمل حكام أوربا على تنفيذ ما أصدره المجمع من قرارات في الوقت الذى حاول فيه أن يهيء الأرض المقدسة لقدوم حملة صليبية جديدة(٦٠) .

غير أن سعى هذا البابا لم يكلل بالنجاح، ولم تؤد تحركاته إلى أى نتيجة. ثم توفى في النهاية في يناير سنة ١٢٧٦م ، فتوقفت مشروعات أوربا الصليبية ولم تتوجه حملة صليبية إلى الشرق، للعمل المشترك مع المغول من ناحية وتحرير الأراضى المقدسة من ناحية أخرى، بل لم يكن في الأفق ما يدل على إرسال حملات صليبية إلى الشرق، فكأن أبغا لم يتلق من أوربا إلا الوعود(٦١) .

كرر أبغا المحاولة سنة ١٢٧٦م ، حين أرسل رسله إلى البابا وبعض حكام أوربا خاصة ملك إنجلترا إدوارد الأول، يحثه على الإسراع بإعداد حملة صليبية حتى يتسنى لأبغا المشاركة في حرب المسلمين(٦٢).

(٥٨) العرينى : المغول ص ٢٩٦

(59) Runciman : op. cit. 111, pp. 346 – 7

(٦٠) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ١٥٥–١٥٦

(٦١) عبد السلام فهمى : نفس المرجع ص ١٥٥ – ١٥٦

(62) Grousset : L'Empire Mongol, 111 , p. 693 (Paris 1945)

فرد الملك إدوارد الأول على هذه الرسالة يعتذر عن إمكان إرسال حملة صليبية إلى الشرق في ذلك الوقت " ولكننا لا نستطيع الآن أن نعطيكم أخباراً مؤكدة عن وقت مجيئنا إلى الأراضي المقدسة، ولا عن تحرك المسيحيين، ذلك لأنه لم يتقرر شيء بخصوص هذا الموضوع من قبل البابا الأعظم" (٦٣) ، فلم تسفر هذه المحاولة أيضاً عن شيء، ولم تحقق ما كان يبتغيه أبغا من مشاركة أوربا في حرب المسلمين .

ويشير بعض المؤرخين إلى أنه يحتمل أن يكون البابا قد وقع تحت تأثير شارل دانجو الذى أقام سياسته على الوفاق مع السلطان الظاهر بيبرس سلطان المماليك وعلى إقامة علاقات المودة والصداقة مع دولة المماليك(٦٤) وهى السياسة التى اتبعها لتحقيق أحلامه التى أشرنا إليها فيما سبق.

وثمة عامل آخر كان له دون شك تأثير على موقف شارل دانجو والبابوية والغرب الأوربى من محاولات التحالف مع المغول، فلا شك أن شارل دانجو كان ينظر إلى المغول باعتبارهم حلفاء خصومه البيزنطيين أيضاً، ولهذا لم يتحمس شارل دانجو للتحالف معهم أو حث الغرب على ذلك(٦٥) ، في الوقت الذى رأى فيه البابا أن محاولات التبشير بالمسيحية بينهم لم تؤت ثمارها، وما كان يأمله في ذلك ذهب هباء، ولهذا جاءت محاولات أبغا للتحالف مع أوربا ضد المسلمين محاولات فاشلة لم تؤد إلى نتائج في هذا الشأن (٦٦) .

(٦٣) فؤاد عبد المعطى الصياد : المرجع السابق ص ٦٣
D'Ohsson : op. cit. 111, pp. 543 – 4
Howorth : op. cit. 111, p. 280

(٦٤) العرينى : المغول ص ٢٩٧

(65) Setton : The Papacy and the Levant, p. 98

(٦٦) فؤاد عبد المعطى الصياد : نفس المرجع ص ٥٩ – ٦٠

عاد أبغا من جديد ليتفق مع ليـو الثالث ملك أرمينيـا الصـغرى علـى القيـام بحملـة مشـتركة علـى الشـام لطـرد المماليـك مـن ناحيـة واسـتخلاص بيـت المقـدس مـن المسـلمين مـن ناحيـة أخـرى وتسـليمها للمسيحيين، واتفقا على إرسال رسل جديدة إلى المقر البابوى وملوك أوربا لإخبارهم بهذا التحالف،وطلب منهم الانضـمام إلى هـذا الحلـف وإرسـال حملة صليبية إلى بلاد الشام للمشاركة في القضاء على المماليـك[٦٧] ، غـير أن أبغا لم يتلق رداً على ذلك من الأوربـيين، نظـراً لفتـور حماسـة أوربـا الصليبية في ذلك الوقت وانشغال حكامها بشئون أخرى، في الوقت الـذى شغل فيه أبغا نفسه بإخماد اضطرا بات في فارس[٦٨] .

وخلال الفترة التى تولى فيها تكودار بعد أخيه أبغـا حكـم خانيـة فارس لم تجر محاولات تحالف بين أوربا والتتار بسـبب تحـول تكـودار هذا إلى الإسلام وتحمسه لدينه الجديد، إذ تسمى بأحمـد، ولقـب نفسـه بالسلطان، وأرسل إلى المماليك في مصر والشام يعلمهم بإسلامه، ويخطـب ودهم ويحالفهم ضد صليبي الشام ومسـيحى أرمينيـا ضـد تطلعـات أوربـا والبابوية لاسترداد الأراضى المقدسة المسيحية من أيدى المسلمين[٦٩] .

وإذ تعرض تكودار هذا لغضب المغـول بسـبب إسـلامه، ومحاولـة تحالفه مع المماليك، اعتلى العرش المغولى في فارس أرغون بن أبغا، الذى تزعم الثورة التـى أطاحـت بتكـودار، وأنهـت عهـد عمـه هـذا، وأنهـت

---

(67) Grousset : L'Empire Mongol, 111, p. 695-6

(٦٨) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ ج٢ م٢ ص ٦٣ — ٧٠

(٦٩) مصطفى طه بدر : مغول إيران بين المسيحية والإسلام ص ١٢

حياته أيضاً في صيف سنة ١٢٨٤م، بعد أن حكم نحو ثلاث سنوات[٧٠] فقط، فنهج أرغون ابن أبغا (١٢٨٤– ١٢٩١م) نهجاً خالف به سياسة تكودار، فأظهر حماسة لخدمة المسيحية والمسيحيين، وحاول التحالف مع البابوية والغرب الأوربى، رغم أنه كان بوذياً مثل والده وجده، ولكن حقده على المسلمين كان واضحاً بسبب الهزائم المتكرره التى تعرض لها المغول في عهد أبغا على أيدى المماليك في مصر والشام[٧١] .

لهذا حاول أرغون التحالف مع كل القوى المعادية للمسلمين، فعرض صداقته وتحالفه على المسيحيين في كل مكان، وأظهر عطفاً شديداً وميلاً لرعاياه المسيحيين، حتى يعد عهده عهد الصداقة والتحالف بين المغول والبابا وملوك أوربا وحكامها[٧٢] ، إذ اقترح القيام بهجوم مشترك في وقت واحد على المسلمين، فيغير المغول على بلاد الشام في حين ينزل الصليبيون في عكا أو دمياط، فيتعرض المماليك بذلك لهجوم من جهتين في وقت واحد، فإذا تم النصر عليهم يقتسم الجانبان (المغول والصليبى) أملاك المماليك في بلاد الشام، فيحوز المغول حلب ودمشق، بينما يفوز الصليبيون ببيت المقدس[٧٣] .

وكان أول اتفاق وقعه هذا الخان هو الاتفاق مع ملك أرمينيا الصغرى، ويتضمن استرداد الأراضى المقدسة من أيدى المسلمين، وأرسل أربع سفارات إلى المقر البابوى في السنوات ١٢٨٥، ١٢٨٧، ١٢٨٩،

---

(٧٠) ابن خلدون : العبر جـ٥ ص ٥٤٦
القلقشندى : صبح الأعشى جـ٥ ص ٤٣٠
D'Ohsson : op. cit. 111, pp. 552-4, p. 608
(٧١) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ١٧٢
(72) Setton : The Papacy and the Levant, p. 146
(٧٣) العرينى : المغول ص ٣٠٥

١٢٩٠م يقترح فيها اقتراحه المشار إليه واستعداده للقيام بحملة مشتركة مع أوربا لحرب المماليك، ويفضل أن يقوم المسيحيون الغربيون بغزو مصر في الوقت الذى يقوم هو فيه بغزو بلاد الشام[٧٤] ،وأصر دائماً على أنه لن يبدأ هذا المشروع إلا إذا تأكد أن ملوك أوربا المسيحيين سيبذلون المساعدة والتعاون العسكرى وينفذون التزاماتهم في ذلك التحالف العسكرى[٧٥] .

فقد بدأ أرغون الكتابة إلى البابوية سنة ١٢٨٥م ، حين أرسل إلى البابا هنوريوس الرابع، يقترح مشاركته في القيام بحملة ضد المسلمين بمصر والشام، لتدمير قوة المماليك العسكرية واسترجاع الأراضى المقدسة من أيديهم، وذكر أرغون في رسالته أن أمه كانت مسيحية واشتهر جده هولاكو وأبوه أبغا بعطفهما على المسيحيين وتقديرهما للمسيحية[٧٦] ، وتعهد بأنه سوف يستخلص الأراضى المقدسة من أيدى المسلمين، ويجعلها تحت حمايته حتى يتم تنفيذ بنود الاتفاق أو المشروع المتفق عليه[٧٧] ، ومما ذكره في هذه الرسالة " وإذ تقع بلاد المسلمين (الشام ومصر) بيننا وبينكم، فسوف نطوقهما ونفصلهما الواحدة عن الأخرى.... فإذا قدمتم من جهة وجيئنا من الجهة الأخرى، استطعنا بفضل عساكرنا الأصحاء الأشداء أن نستولى على هذه البلاد" [٧٨] .

إلا أن محاولاته باءت بالفشل، إذ لم يتلق رداً على هذا

(74) Runciman : op. cit. 111, pp. 398- 402

(75) Budge : The Monks of Kublai Khan , pp. 42 – 61, 72 –5

(٧٦) مصطفى طه بدر : مغول إيران بين المسيحية والإسلام ص ١٠ ،
Grousset : L'Empire des Steppes, p. 445

(٧٧) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ١٧٨

(٧٨) فؤاد عبد المعطى الصياد : المرجع السابق ص ١٩١ — ١٩٢

الاقتراح[٧٩] ، إذ لم يكن بوسع البابا أن يحقق هذا المشروع، الذى يهدف إلى إجراء تحالف عسكرى بين المغول والصليبيين فكرر أرغون المحاولة مرة أخرى بعد نحو سنتين، حين أوفد سفارة إلى الغرب، على رأسها رابان سوْما، الذى أشرنا إليه فيما سبق، فبدأ رابان سوْما هذا رحلته في أوائل سنة ١٢٨٧م، فأبحر إلى القسطنطينية، حيث لقى استقبالاً وديـاً حافلاً من الإمبراطور أندرو نيقوس، الذى ربطته علاقات طيبة بالمغول، وربما لهذا أبدى الإمبراطور البيزنطى الاستعداد لأن يبذل المساعدة للمغول بقدر ما تسمح به موارده الضئيلة، وما يمكن أن تتحمله هذه الموارد[٨٠] .

ثم توجه رابان سوْما إلى نابولى. ويشير المؤرخون إلى أن سوْما حين وصل إلى نابلى في يونيو سنة ١٢٨٧م، صدم صدمة كبيرة حين رأى في ميناء نابلى ما نشب من معركة بحرية بين أسطول نابلى وأسطول أراجون (أرغونة) الأسبانى، الأمر الذى جعله يتأكد من أن الغرب الأوربى إنما شغلته المنازعات والحروب المختلفة، وألا أمل في جمع هؤلاء على هدف التحالف مع المغول[٨١] .

ثم واصل سوْما سيره إلى روما، فوصل بعد وفاة البابا هنوريوس الرابع فاستقبله الكرادلة في روما استقبالاً فاتراً، باعتباره يخدم سيداً وثنياً، وتأكد سوْما أن هؤلاء ليس لديهم صورة واضحة عن المغول[٨٢] ، وكيف أن المغول أظهروا استعداداً طيباً لتلقى المسيحية ومحالفة البابوية

(٧٩) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ١٧٨
(٨٠) العرينى : المغول ص ٣٠٦
(٨١) العرينى : نفس المرجع ص ٣٠٦
(٨٢) فؤاد عبد المعطى الصياد : المرجع السابق ص ١٩٤

والغرب الأوربى، والتعاون معهم لإنقاذ الأراضى المقدسة من أيدى المسلمين في الشرق، كما تأكد من جهل هؤلاء الكرادلة، وأنهم لا ترجى منهم مساعدة، وألا أمل في عرض مشروعات سياسية أو عسكرية عليهم، وضاق بهم صدره في آخر الأمر(٨٣) .

ولهذا ترك سوْما مدينة روما، بعد فشل مهمته وبعد أن تشكك الكرادلة في صدق عقيدته، على الرغم من أنه كان مسيحياً نسطورياً، وكان قسيساً وصديقاً لبطريرق النساطرة في الشرق، فاتجه إلى جنوه، وفى أغسطس سنة ١٢٨٧م، عبر إلى فرنسا فوصل إلى باريس حيث استقبل استقبالاً حافلاً من الملك فيليب الرابع المعروف بفيليب الجميل(٨٤) ،الذى وعده بأنه سوف يخرج إلى الشرق على رأس حملة صليبية لتخليص بيت المقدس من أيدى المسلمين، وأنه حريص على محالفة المغول، وأنه سوف يرسل معه سفيراً من قبله إلى بلاط الخان المغولى للإتفاق على تفاصيل التحالف العسكرى، وأرسل معه فعلاً جوبرت هيلفيل Gobert of Halville (٨٥) .

انتقل سوْما بعد ذلك إلى إقليم بوردو، حيث التقى بملك انجلترا إدوارد الأول، وكان إدوارد الأول قد حارب في الشرق، وآمن كثيراً بضرورة التحالف العسكرى مع المغول كما كان من أكثر ملوك أوربا تحمساً لهذا التحالف وتوجيه هذا التحالف ضد المسلمين خاصة المماليك. وعلى الرغم من ذلك لم يقدم لسوْما تأكيداً على إخراج هذا التحالف إلى حيز الوجود بل راوغه كثيراً، ولم يضع جدولاً زمنياً لتلك

---

(٨٣) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ١٧٩

(84) Morgan : op. cit. pp. 155 – 6

(٨٥) العرينى : المغول ص ٣٠٧

الحرب المزمع شنها على المسلمين[٨٦] ، لأنه يبدو أنه لم يكن مستعداً في ذلك الوقت للخروج في تلك الحملة الصليبية، ولذلك لم يعرف منه سوْما — كما حدث أيضاً مع ملك فرنسا — متى يجرى توجيه تلك الحملة الصليبية.

وبعد اختيار البابا نيقولا الرابع في أوائل سنة ١٢٨٨م ، استقبل السفير المغولى سوْما، الذى كانت تربطه به علاقات صداقة ومودة، والذى عظم البابا كثيراً وخاصة باعتباره سيد العالم المسيحى، وذلك قبل أن يغادر سوْما مدينة روما في طريقه إلى الشرق، وفي صحبته السفير الفرنسى "جوبرت هيلفيل" دون أن يعد البابا باتخاذ إجراء محدد في أمر التحالف العسكرى[٨٧] ، وانما بعث معه بعض الهدايا الدينية للمغول، وبعض الرسائل لبعض الأشخاص هناك، في الوقت الذى لم تنطو فيه هذه الرسائل إلا على عبارات غامضة، دون أن يعدْ البابا بإجراء معين، أو بتاريخ محدد للتعاون والتحالف مع المغول[٨٨] .

ويفسر المؤرخون المحدثون فشل هذه السفارة التى عول على نجاحها كثيراً الخان أرغون لمحاربة المسلمين بالاشتراك مع الغرب المسيحى، بأن ملوك أوربا وحكامها انصرفوا في ذلك الوقت إلى مشاكلهم الخاصة، فقد أبدى شارل دانجو أطماعاً كثيرة بعد استحواذه على جزيرة صقلية، وأسهمت البابوية في هذا الاستحواذ، ولكن أهل صقلية خرجوا عن طاعة الأنجويين فانغمست فرنسا والبابوية في هذه المشكلة[٨٩] ، ولم

---

(86) Setton : The Papacy and the Levant, pp. 146 – 7

(٨٧) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ١٨٠،
Budge : op. cit. pp. 164 – 197

(٨٨) العرينى : المغول ص ٣٠٨

(89) Setton : The Papacy and the Levant, p. 98

يعد ثمة تفكير في إرسال حملة صليبية إلى الشرق، إلا بعد تسوية هذه المشكلة، بينما انشغل إدوارد ملك إنجلترا بفتح ويلز وتصفية متاعبه في الجزيرة، والاستيلاء على اسكتلندا، ولم يكن الاستيلاء على بيت المقدس يمثل أهمية له في ذلك الوقت تفوق أهمية ويلز واسكتلندا وتصفية مشاكله هناك[٩٠] ، كما لم يكن للرأى العام حينئذ من القوة ما يحمله على الخروج إلى الشرق خاصة بعد أن فترت الروح الصليبية، وخمدت الحماسة الصليبية كثيراً بين الناس[٩١] .

وعند استقبال أرغون لسوْما وجوبرت هيلفيل لم يصدق أن حكام الغرب الأوربى لا يحفلون كثيراً بما تتعرض له الأراضى المقدسة المسيحية في الشرق من خطر، لأن ما عرضه هيلفيل من تفاصيل لم يقنع أرغون، فاعتبر سفارته إلى الغرب فاشلة وأن سوْما لم يحقق شيئاً مما خرج من أجله[٩٢] ، ولهذا كرر المحاولة للمرة الثالثة سنة ١٢٨٩م ، حين ارسل رسولاً جنوى الأصل يدعى " بوسكاريل جيزولف" Buscarel of Gisolf، الذى أقام زمناً طويلاً في بلاد المغول وله خبرة بمثل هذه السفارات[٩٣] .

وأرسل أرغون معه رسائل إلى البابا وإلى ملكى فرنسا وانجلترا، وكانت الرسالة التى حملها هذا المبعوث إلى ملك فرنسا فيليب الجميل قد كتبت باللغة المغولية بحروف أويغورية أعلمه فيها أرغون أنه سوف

---

(٩٠) فؤاد عبد المعطى الصياد : المرجع السابق ص ٦٣،
D'Ohsson : op. cit. 111, pp. 543 – 4
Howorth : op. cit. 111, p. 280

(٩١) العرينى : المغول ص ٣٠٩

(92) Runciman : op. cit. 111, p. 401

(٩٣) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ١٨٠

يخرج على رأس جيش إلى بلاد الشام في أوائل سنة ١٢٩١م ليصل إلى دمشق في ربيع من نفس العام، فإذا أرسل الملك فيليب قوات لتشارك في هذه الحملة فسوف يستولى المغول على بيت المقدس وسوف يسلمها أرغون للملك فيليب[٩٤] ، أما إذا تقاعس الملك عن إرسال الحملة المساعدة وتمويل حملة المغول، فسوف تتبدد الجهود كلها ولا يتحقق الغرض، وأخبره أيضاً أنه سوف يصحب معه ملك الكرج المسيحى على رأس قواته وسوف يتراوح عدد جنود هذه الحملة ما بين عشرين وثلاثين ألف فارس[٩٥] .

ولابد وأن الرسالة الأخرى التى كتبها أرغون لملك إنجلترا، لم تختلف كثيراً عن هذه الرسالة، أما رد ملك إنجلترا فلم يتضمن أيضاً تاريخاً معيناً أو يحدد خطوات بعينها في هذا التحالف، بل ينصح الخان المغولى بالرجوع إلى البابا الذى بوسعه أن يناقش الأمر مع الملكين المعنيين[٩٦] .

وهكذا لم يظفر بوسكارد إلا بوعود مشكوك في أمر تحقيقها، وعاد أدراجه بإجابات لا تبشر كثيراً بخير أو بتعاون مثمر، ولهذا أرسله أرغون مرة أخرى ومعه اثنين من المغول المسيحيين إلى روما أى إلى البابا نيقولا الرابع، ومنها يتجهون إلى إنجلترا لمقابلة الملك إدوارد الأول، إلا أن هذا الملك كان مشغولاً بمشاكله الداخلية في اسكتلندا — كما سبق أن اشرنا — فلم يستطع أن يعد بشيء هذه المرة أيضاً، ولهذا عاد الرسل

---

(94) Morgan : op. cit. pp. 185 – 8

(٩٥) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ١٨٠

(٩٦) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ١٨٠

الثلاثة إلى روما من جديد[٩٧] ، في طريق عودتهم إلى الشرق، وقد اشتد بهم الضيق لعدم حصولهم على ما يفيد مشاركة أوربا في التحالف العسكرى مع سيدهم أرغون، وما أن وصلوا إلى روما توطئة لمغادرتها إلى بلادهم، حتى بلغهم نبأ وفاة الخان أرغون في سنة ١٢٩١م[٩٨] .

انتهى عهد هذا الخان إذن دون أن يتحقق التحالف العسكرى بين المغول وأوربا، وبالتالى لم يحدث قتال مع المماليك في عهد هذا الخان. ولم تمض على وفاة أرغون أربع سنوات حتى دخل مغول فارس في الإسلام[٩٩] ، ولا زال المؤرخون المحدثون يفسرون السبب في عدم إخراج التحالف العسكرى من أوربا وأرغون إلى حيز الوجود بانشغال حكام أوربا المسيحيين بمشاكلهم الخاصة وحروبهم الإقليمية، وجدير بالتنويه أن سفارة أرغون الأخيرة إلى أوربا قد جاءت في الوقت الذى سقطت فيه عكا آخر بقايا الكيان الصليبى ببلاد لاشام في أيدى المماليك[١٠٠] ، ثم توفى أرغون في مارس سنة ١٢٩١م/ ٦٩٠هـ[١٠١] فانتهت هذه الصفحة من صفحات محاولة التحالف بين المغول وأوربا ضد المسلمين في الشرق الأدنى .

---

(٩٧) فؤاد عبد المعطى الصياد : المرجع السابق ص ١٩٦ .
(98) Setton : The Papacy and the Levant, pp. 1.16-7
(٩٩) العرينى : المغول ص ٣١١
(100) Grousset : L' Empire Mongol, Vol, 111 , p. 727
(١٠١) الحافظ الذهبى: العبر في خبر من غبر جـ٥ ص ٣٦٦



الفصل الرابع عشر

تحالف مغول فارس مع الأرمن وفرنج الشرق ضد تحالف مغول القفجاق مع المماليك

- محاولات هيثوم الأول ملك أرمينيا الصغرى للتحالف مـع المغـول ضـد المسلمين.
  - سفارته الأولى سنة ١٢٤٧م إلى بلاط الخان الأعظم المغولى
  - زيارته بنفسه لبلاط الخان الأعظم سنة ١٢٥٣م .
  - تباين مواقف فرنج الشرق من التحالف مع المغول .
  - نتائج نحالف أرمينيا مع المغول في عهد هيثوم الأول .
- محاولات هيثوم الثانى التحالف مع المغول .
- نتائج هذا التحالف .
- تحالف مغول القفجاق مع المماليك .
  - سفارات الظاهر بيبرس إلى بركة خان القفجاق .
  - النتائج التى ترتبت علي هذا التحالف .

ومثلما سعت أوربا كثيراً والمغول أحياناً إلى التحالف العسكرى لتوجيه هذا التحالف ضد مسلمى الشرق بصفة خاصة سعى أيضاً الأرمن وفرنج الشرق لهذا التحالف لنفس الغرض لا سيما وأن وطأة المماليك على الأرمن وعلى الكيان الصليبى في الشرق كانت شديدة في كثير من الأحيان وأحس الأرمن وفرنج الشرق بالحاجة للتحالف مع المغول للوقوف في وجه المسلمين والتصدى لهجماتهم التى أصبحت تؤرق هذه الكيانات المسيحية خاصة في الأوقات التى شغلت فيها أوربا عنهم وعن تدعيمهم بإرسال الحملات الصليبية إلى الشرق .

لهذا تكررت محاولات هيثوم الأول ملك أرمينيا الصغرى للتحالف مع المغول باعتبار مملكته مملكة مسيحية، أسهمت في مشروعات الصليبيين الأوربيين في الشرق ، وكانت على عداء شديد مع مسلمى الشرق الأدنى فالتمست مساعدة المغول العسكرية باعتبارها واجهة صليبية أو واجهة مسيحية في الشرق بعد أن تداخلت علاقات هذا الملك الاجتماعية والسياسية مع الكيان الصليبى في بلاد الشام وفلسطين [١] .

فقد أقدم الملك هيثوم الأول هذا على مصاهرات سياسية مع أمراء الفرنج وبعض الحكام المسيحيين،فزوج إحدى أخواته من هنرى الأول ملك قبرص، وزوج أخته الثانية من يوحنا إبلين كونت يافا الصليبى، كما أن بناته تزوجن من أمراء لاتين، فتزوجت سبيل من بوهيموند السادس أمير أنطاكية الصليبى، بينما زوج الأخرى من يوليان كونت

□

(1) Setton : Hist. of the Crusades, Vol 11, p. 652, Note 3

صيدا الصليبى، والثالثة ماريا من جاى إبلين بن بلدوين[٢] ، وأكد هيثوم الأول بذلك أن مملكته غدت واجهة مسيحية في الشرق لها مصالح صليبية وعداء سافر مع المسلمين، لاسيما المماليك في مصر والشام،ولذلك سعى هيثوم الأول للتحالف مع المغول لتحقيق مكاسب لمملكته من ناحية وللكيان الصليبى في بلاد الشام من ناحية أخرى[٣] .

ففي سنة ١٢٤٧م أرسل هيثوم الأول ملك أرمينيا الصغرى أخاه سمباد الأرمنى إلى خان المغول الأعظم كيوك من أجل التحالف، واستغرقت رحلة سمباد الفترة بين سنتى ١٢٤٧ و ١٢٥٠م . ويشير المؤرخون إلى أن سمباد هذا فاق غيره من مبعوثى أوربا في إدراك ما يمكن أن يعود على المسيحية من مزايا، إذا تم التحالف مع المغول ، واستقبله كيوك بحفاوة بالغة، ومنحه براءة تكفل للملك هيثوم الأول الحماية والمحبة [٤] .

ولقد أرسل سمباد هذا وهو في سمرقند رسالة في فبراير سنة ١٢٤٨م إلى صهره هنرى الأول ملك قبرص أوضح فيها مدى ما يتمتع به المسيحيون النساطرة في بلاط كيوك وفي دولة المغول من مزايا، فقد عاشوا في حماية الخان الأعظم، وحظوا منه بالتشاريف وجعل لهم امتيازات، وأضفى عليهم الحماية من كل ما يتهددهم ، ووعده الخان الأعظم ببذل المساعدة لاسترجاع ما استولى عليه السلاجقة من أملاكهم[٥] .

(2) Cahen : La Syrie du nord, pp. 650 -2
Setton : op. cit. 11, p. 652 n. 3

(٣) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ١٠٨

(٤) العرينى : المغول ص ١٩١ ،
Runciman : op. cit. 111, p. 295

(5) Runciman : op. cit. 111, p. 295

وإذا كانت هذه السفارة الأولى لملك أرمينيا، إلى بلاط الخان الأعظم، قد حصلت على هذه الوعود بالمساعدة، ووحدة المملكة الأرمينية، واسترجاع ما فقدته إلى أيدى السلاجقة، دون خطوات عملية للمحالفة أو التحالف ضد المسلمين[٦] ، فقد رأى الملك هيثوم الأول في سنة ١٢٥٣م ، أن يقوم بنفسه بزيارة الخان الأعظم مونكو في عاصمته قراقورم، فكان أول ملك يقوم بزيارة عاصمة المغول من تلقاء نفسه، وبمحض إرادته، فقد جرت العادة على أن يكون زوار البلاط المغولى من الملوك أو الحكام أو الأمراء أتباعاً للخان، ودون ذلك ينوب عن الملوك ممثلين أو مبعوثين يستقبلهم الخان باعتبارهم نواباً عن ملوكهم وأمرائهم أو ممثلين لهم، وبمجرد وصول الملك هيثوم الأول إلى بلاط مونكو في أوائل سنة ١٢٥٤م أعلن ولاءه للخان الأعظم وانتماءه إليه[٧] .

وتذكر الروايات أن الخان الأعظم مونكو قد استقبل الملك هيثوم الأول بحفاوة بالغة، وجدد له الضمانات التى بذلها من قبل الخان السابق كيوك، ووسع نطاق هذه الضمانات، فقد وعد بألا تحصل ضرائب من الكنائس والأديرة الأرمينية في أملاك المغول[٨] وشمول مملكة أرمينيا بالحماية وضمان الأمن، وحصل من مونكو على وعد بألا يتعرض هو للأذى أو الضرر، وألا تنتهك حرمة مملكته، واعتبره الخان الأعظم كبير مستشاريه المسيحيين فيما يتعلق بأمور غرب آسيا[٩] .

---

(6) Saunders : The History of the mongol Conquests, p. 113 (1971)

(٧) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٤٥٩ – ٤٦٠

(٨) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ١٠٨

(٩) العرينى : المغول ص ٢٣٨

ويبدو أن ذلك لم يكن هو كل ما أمل فيه الملك هيثوم الأول، فلم يكن يعنيه فقط الحفاظ على وحدة مملكته وحمايتها من قبل المغول، وشمول المسيحيين الخاضعين لسلطان المغول بالأمن والأمان، بل كان يعنيه أيضاً الحصول على مساعدة المغول لاستعادة بيت المقدس من أيدى المسلمين، وإعادتها إلى الفرنج الصليبيين باعتبار مملكته واجهى مسيحية صليبية في الشرق [١٠] وأتيح له التحدث باسم الفرنج اللاتين في بلاد الشام وفلسطين وباسم كافة ملوك وحكام أوربا المسيحيين[١١] ، لتحقيق آمال أوربا حكاماً وبابوات في الحصول على المساعدة العسكرية للمغول ضد المسلمين في الشرق الأدنى، ولهذا فقد أخبره مونكو أنه لو تعاونت معه الدول المسيحية فسوف يسترجع لهم بيت المقدس [١٢] .

ويبدو أيضاً أن شمول الخان الأعظم مونكو الملك هيثوم الأول برعايته وحفاوته وغمره بالهدايا وبذل الوعود الكثيرة، قد جعل هذا الملك يعتقد بأن جهوده قد تكللت بالنجاح وأنه حقق ما لم تحققه البعثات الأخرى التى أرسلت إلى بلاط الخان الأعظم من أجل مساعدة المغول العسكرية، والقيام بعمل مشترك ضد مسلمي الشرق الأدنى، ولهذا بدأ هيثوم الأول في العودة إلى بلاده في نوفمبر سنة ١٢٥٤م / ٦٥١هـ[١٣] ، متخذاً طريق تركستان وفارس ليزور هولاكو في فارس، بعد أن علم أن أخاه مونكو قد عهد إليه بالقضاء على الخلافة العباسية، والاستيلاء على

---

(10) saunders : op. cit. p. 113

(١١) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ١٠٨

(12) Cahen : op. cit. pp. 694 – 6
Runciman : op. cit. 111, p. 253

(١٣) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٤٦٢

بغداد. بعد تحطيمه معاقل الحشيشة في إيران وغربى آسيا ووصل هيثوم الأول إلى بلاده (أرمينيا) في يوليو سنة ١٢٥٥م [١٤] .

ولا شك أن الملك هيثوم الأول قد جاوز الحدود في تفاؤله بمساعدة المغول وقيامهم بعمل مشترك مع المسيحيين، إذ لم تزد الأمور عن وعود وبذل للوعود. حقيقة عزم المغول على إزالة الخلافة العباسية والاستيلاء على بغداد، ولكن ذلك لم يكن وفاء لوعودهم مع مسيحى الغرب أو الشرق، وإنما في إطار سياسة خاصة بالمغول وامتداد إمبراطوريتهم وسيطرتهم على الجهات المجاورة[١٥] ، ولم يكن لمصلحة أحد، وعلى الرغم من أنهم شملوا المسيحيين بعطفهم ورعايتهم، وقدروا المسيحية كعقيدة، إلا أن ذلك لم يكن يعنى أنهم يكنون العداء للدين الإسلامى، وإن خططوا للسيطرة على بلاد المسلمين، فضلاً عن أنهم لا يوافقون على قيام دولة مسيحية مستقلة، فإذا عادت بيت المقدس للمسيحيين فلا يمكن قبول استقلالها، بل لا بد من خضوعها للمغول وإقرارها بالتبعية لدولتهم[١٦] .

حقيقة إن انتصار المغول على المسلمين قد يفيد مصالح العالم المسيحى بوجه عام ولكن الدلائل كلها تشير إلى أن الصليبيين في الشرق الأدنى ومعهم حكام أوربا، كانوا يؤثرون المسلمين على المغول، فقد عرفوا المسلمين وتعاملوا معهم وخبروا قدرهم وحضارتهم في الوقت الذى نظروا

---

(١٤) فؤاد عبد المعطى الصياد : المرجع السابق ص ٢٦ — ٢٧
Runciman : op. cit. 111, p. 298

(١٥) العرينى : المغول ص ١٩٩ ،
Morgan: op. cit. p. 81

(١٦) العرينى : نفس المرجع ص ١٩٩

فيه للمغول على أنهم شعب غريب قدم من الصحارى والبرارى النائية واتصف بصفات البرابرة والهمجية[١٧] . ولم ينس هؤلاء ما فعله المغول في شرق أوربا وما ارتكبوه من جرائم وما أحدثوه من مذابح رهيبة وحرائق وقتل وتدمير وتخريب، وما أظهروه من جبروت وغطرسة في البلاد التى اجتاحوها خاصة بولندا والمجر ومورافيا وروسيا، ولهذا لم يتحمس الكثير من مسيحى أوربا للتحالف مع ذلك الشعب المتبربر [١٨] .

ولم يشترك كل المسيحيين. خاصة في الشرق في هذا الفهم. وفي تفضيل التعامل مع المسلمين على التعامل مع المغول، خاصة وقد حاول الملك هيثوم الأول أن يحمل الأمراء اللاتين على قبول فكرة التحالف المسيحى المغولى، فلم تلق محاولات هيثوم الأول للتحالف مع المغول للقيام بعمل مشترك ضد المسلمين القبول عند أمراء الفرنج في الشرق باستثناء بوهيموند السادس، كونت أنطاكية وصهر هيثوم الأول [١٩] ، الذى أعلن موافقته على هذا التحالف وتحمسه للمشاركة في أى عمل مشترك، وظل بجانب هيثوم حريصاً على التفاهم مع المغول. وكوفيء بوهيموند السادس هذا من قبل المغول بعد انتصاراتهم في بلاد الشام[٢٠] ، فاسترد بمعونة المغول ما سبق وأن استولى عليه صلاح الدين من قلاع وحصون، وكانت فيما سبق تابعة لأنطاكية ومن أهمها اللاذقية، في مقابل أن يعيد بوهيموند إلى الكرسى الدينى في أنطاكية البطريرق اليونانى " إيثميوس" أى بطريرقاً أرثوذكسياً على مذهب الكنيسة الشرقية كشرط

---

(17) Morgan : op. cit. p. 155
(18) Setton : The Papacy and the Levant, p. 97 (N. 52)
(19) Morgan : op. cit. p. 154
(٢٠) العرينى : المغول ص ٢٤٥

للمغول لاستعادة اللاذقية[٢١]

غير أن الفرنج بسائر جهات آسيا نفروا من ذلك. ونظروا للمغول نظرة ملؤها الازدراء والاحتقار. ولم يتحمسوا كثيراً لما تحمس له الغرب الأوربى في هذا التحالف والعمل العسكرى المشترك ضد المسلمين[٢٢]. فأنكر الفرنج بعكا ما جرى من صداقة بين بوهيموند السادس. أمير أنطاكية والمغول. فلم يكن استرداد اللاذقية في نظرهم له أهمية التى تضارع الإهانة التى لحقت بالكنيسة اللاتينية. حين أعيد البطريرق اليونانى إلى مقره في أنطاكية، ولهذا بادر البابا بحرمان بوهيموند من رحمة الكنيسة[٢٣].

ولهذا لم يمض وقت طويل على تنصيب هذا البطريرق الأرثوذكسى في أنطاكية بأمر المغول. إلا وقام هيثوم الأول ومعه بوهيموند السادس أمير أنطاكية سنة ١٢٦٣م باختطاف هذا البطريرق ونقله إلى إرمينيا الصغرى. وإعادة الكرسى الدينى في أنطاكية إلى بطريرق لاتينى كاثوليكى. ولكن ذلك كله لم يمح صورة تعاون كونت أنطاكية مع هيثوم في خدمة المغول[٢٤]. بل يذكر المؤرخون أن بارونات أنطاكية وجهوا رسالة إلى شارل كونت أنجو شقيق الملك لويس التاسع في إبريل سنة ١٢٦٠م يعربون فيها عن تخوفهم مما قد يحدث عند زحف المغول على الشرق الأدنى من أخطار. ويطلبون مساعدة أوربا ومساعدته هو بصفة

---

(21) saunders : op. cit. p. 113
Runciman : op. cit. p. 319

(22) Grousset Histoire des Croisades, Vol. 3 , pp. 525-30 , pp. 580 - 606

(٢٣) العرينى المغول ص ٢٤٥

(24) Runciman op. cit 111, p 319

خاصة، وشارك بارونات أنطاكية في اللجوء إلى شارل دانجو أيضاً حكام عكا الذين تطلعوا هم أيضاً إلى من يساعدهم في تلك المشكلة، فأيدوا الاتصال بشارل دانجو بالذات، نظراً لما سبق أن أبداه من مطامع في البحر المتوسط ومحاولاته انتزاع عرش صقلية(٢٥) .

ولم يكن بارونات أنطاكية وحكام عكا، هم فقط الرافضين التحالف مع المغول وكارهين للصداقة مع المغول، بل إن تجار المدن الإيطالية لاسيما البنادقة، كانوا أيضاً كارهين لهذا التحالف رافضين لتلك الصداقة بسبب علاقاتهم التجارية الوثيقة مع المسلمين خاصة في مصر، والذين تركز اهتمامهم على التجارة الواردة من الشرق الأقصى، والتى تتخذ الطريق إلى الخليج العربى أو البحر الأحمر(٢٦) .

في الوقت الذى نظر فيه كثير من الفرنج الصليبيين في الشرق وفي الغرب أيضاً إلى المغول على أنهم قوم ملأت الغطرسة قلوبهم، وليس الحلفاء والأصدقاء عندهم سوى أتباع، فعلى الرغم من أن بينهم عدداً لا بأس به من المسيحيين الشرقيين ، فليس هؤلاء إلا ملاحده من النساطرة أو اليعاقبة، الذين لا يكنون الاحترام للكنيسة الأم في العالم المسيحى، وما جرى في بغداد من قتل وتخريب وتشريد، لا يدل إلا على همجية المغول وافتقارهم لأى قدر من الحضارة والمدنية والرحمة(٢٧) ، وتوقع كثير من فرنج الشرق والغرب أنه إذا جرى صدام بين المغول والمماليك،

---

(25) Runciman : op. cit. 111, pp. 290 – 2
(26) Ibid. p. 324
(27) Morgan : op. cit. p. 155

فـالراجح أن أهـواء الفـرنج وعـاطفتهم سـوف تتجـه ناحيـة المماليـك المسلمين[٢٨] .

وظل الملك هيثوم الأول مخلصاً لما تم الاتفاق عليه مع المغول، فتردد كثيراً على بلاط خانات المغول، وبذل لهم المساعدة العسكرية كلما طلبوا ذلك، وشارك جند الأرمن جنباً إلى جنب مع عساكر المغول في آسيا الصغرى وبلاد الشام[٢٩] ، وكافأه المغول على ذلك فردوا إليه ما سبق أن استولى عليه السلاجقة من أرمينيا من حصون وقلاع ، وذلك بعد أن حقق المغول انتصاراتهم في أعالي الرافدين وآسيا الصغرى وبلاد الشام، بل منحوه بعض الأملاك الأخرى مكافأة على مشاركته معهم في بعض المعارك خاصة في بلاد الشام[٣٠] .

ولاشك أن الأرمن قد أفادوا من تحالفهم مع المغول، فأحرز هيثوم الأول بعض الانتصارات على قلج أرسلان الرابع، سلطان سلاجقة الروم سنة ١٢٥٩م وعلى التركمان في الأطراف الغربية لقليقية سنة ١٢٦٣م، وتحمل الأرمن نتائج هذا التحالف، خاصة بعد انكسار المغول في عين جالوت سنة ١٢٦٠م[٣١] .

وكان هولاكو قد أبقى في بلاد الشام وفلسطين قوة عسكرية تراوح عددها بين عشرين ألف جندى وعشرة آلاف جندى، تحت قيادة كتبغا، ثم عاد هولاكو إلى فارس فصار كتبغا مسئولاً عن حكم بلاد الشام

(٢٨) العرينى : المغول ص ٢٤٦
(٢٩) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٢٩٨– ٤٩٩
عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ١٤٣
(٣٠) العرينى : المغول ص ١٩٩ – ٢٠٠
(٣١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٤٩٨ – ٤٩٩

وفلسطين[٣٢] ، وكان كتبغا مسيحياً نسطورياً أبدى مشاعر طيبة تجاه المسيحيين، وأدرك أهمية التحالف بين المغول والفرنج في بلاد الشام وفلسطين، وشجعه على ذلك ما أبداه كل من أمير أنطاكية بوهيموند السادس والملك هيثوم الأول من مشاركته الرأى في هذا الإتجاه[٣٣] .

بل إن الملك هيثوم الأول ومعه بوهيموند السادس أمير أنطاكية، حضرا مجلس الحكماء، الذى انعقد في يوليو سنة ١٢٦٤م في مقر حكم هولاكو بالقرب من تبريز، حيث حضر بعض حلفاء هولاكو وأتباعه، ومنهم ملك الكرج، على الرغم من شعور كل من هيثوم الأول ملك أرمينيا وبوهيموند السادس أمير أنطاكية بالخزى والخجل لما فعلاه في العام السابق على ذلك الاجتماع من اختطاف البطريرق الأرثوذكسى من أنطاكية ونقله إلى أرمينيا، وإخلاء مكانه لبطريرق لاتينى كاثوليكى[٣٤] ، ويدل ذلك على رغبة محمومة من هذين التابعين في مواصلة التحالف مع هولاكو ضد المسلمين من ناحية، وإصرار هولاكو على التجاوز عما حدث لمصلحة ما كان يؤمن به من تحالف مع القوى المناهضة للمسلمين في الشرق الأدنى ، فقد اكتفى هولاكو بأن يعتذر بوهيموند عما جرى في أنطاكية دون أن يكون لهذا الحادث أثر في تغيير السياسة العامة التى جرى عليها المغول[٣٥] .

أما العقاب فقد أتى من جهة المماليك فقد أراد السلطان الظاهر بيبرس معاقبة هيثوم الأول ملك أرمينيا حليف المغول ومستشارهم

---

(٣٢) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ١٤٣
(33) Richard :"The Mongols and the franks" J. A. H.3 pp.51-2
(34) Ranciman : op. cit. 111, p. 319
(٣٥) العرينى : المغول ص ٢٧٨

ومحرضهم الأكبر على قتال المسلمين، فضلاً عن قيامه بمنع تصدير الأخشاب والحديد من آسيا الصغرى إلى مصر، كل ذلك جعل بيبرس يحاول معاقبة هذا الملك، فأرسل جيشاً مملوكيا في صيف سنة ١٢٦٦م لمهاجمة أرمينيا الصغرى(٣٦) ، فأوقع المسلمون الهزيمة بالأرمن وحلفائهم الصليبيين والمغول في أغسطس سنة ١٢٦٦م عند دربساك قرب أنطاكية، وقتل في المعركة أحد أبناء الملك هيثوم الأول، وأسر ابن ثان له في الوقت الذى كان فيه هيثوم نفسه في تبريز يستجدى معونة المغول(٣٧)

وما لبث المماليك أن أغاروا على المدن الرئيسية في قليقية : المصيصة وأدنة وطرطوس، فضلاً عن ميناء إياس، في الوقت الذى اتجه فيه شق آخر من جيش المماليك إلى مدينة سيس عاصمة أرمينيا الصغرى، واستولى عليها، وأشعل فيها النار(٣٨) ، وأسر المسلمون في هذه الحملة نحو أربعين ألف أسير، وحازوا مغانم كثيرة " حتى بيع رأس البقر بدرهمين " (٣٩) .

ثم ما لبث بيبرس أن اجتاح أرمينيا الصغرى للمرة الثانية في مارس سنة ١٢٧٥م ، فأغار المسلمون على مدنها براً وبحراً، ولم يجرؤ " ليو الثالث" ملك أرمينيا الصغرى الذى خلف والده هيثوم الأول على العرش الأرمينى على الوقوف في وجه بيبرس(٤٠) ، ثم غزا بيبرس سلطنة سلاجقة الروم في الأناضول، الواقعة تحت الحماية المغولية، وفيها حامية

---

(٣٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٧ ص ١٤٠

(٣٧) أبو الفدا : المختصر — حوادث سنة ٦٦٤ هـ .

عبد السلام فهمى : نفس المرجع ص ١٥٨

(٣٨) مفضل بن أبى الفضل : النهج السديد ص ١٥٢

(٣٩) المقريزى : السلوك ج١ ص ٥٥٢

(٤٠) المقريزى : السلوك ج ص ٦١٧ — ٦١٨

مغولية قوية، فاستطاع بيبرس أن ينزل بهذه الحامية هزيمة ساحقة في البستان في إبريل سنة ١٢٧٧م [٤١] ، ثم دخل بيبرس مدينة قيصرية، فخطب له على منابرها، ثم قفل راجعاً إلى بلاد الشام[٤٢] ، فاستشاط أبغا غضباً لما لحق بقواته من هزيمة، فانتهز فرصة عودة بيبرس إلى الشام، وقاد أبغا جيشاً كثيفاً، اخترق به آسيا الصغرى، واستعاد سلطنة سلاجقة الروم، وقتل أعداداً غفيرة من المسلمين في تلك البلاد[٤٣] ، في الوقت الذى كان فيه بيبرس قد جاز إلى ربه في يوليو سنة ١٢٧٧م .

وإذا كان الملك هيثوم الأول ملك أرمينيا الصغرى قد أظهر هذه الحماسة الطاغية للتحالف مع المغول والتى عوقب من أجلها من قبل المماليك، وشاركه الرأى أمير أنطاكية الصليبى فإن بقية بارونات المملكة الصليبية بعكا لم يشاركوهما الرأى في هذا الاتجاه، فلا زال هؤلاء البارونات يعتبرون المغول متبربرين، لا يمكن التحالف معهم، لقسوتهم المتناهية وميلهم للقتل والتخريب[٤٤] ، ويؤثرون عليهم المسلمين، فضلاً عما حدث من قيامهم بنهب صيدا رداً على قيام أمير صيدا الصليبى بالاعتداء على المغول المجاورين له، كل هذا أضاع الأمل تماماً في عقد تحالف بين المغول والفرنج[٤٥] .

---

(٤١) مفضل بن أبى الفضائل : المصدر السابق ص ٢٥٩

(٤٢) المقريزى : السلوك ج١ ص ٦٣١

(٤٣) الذهبى : العبر ج٥ ص ٣٠٥

(44) Morgan : op. cit. p. 155

(٤٥) العرينى : المغول ص ٢٥٠ — ٢٥١

عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ١٥٦

وحين أرسل الفرنج إلى شارل دانجو رسالة في إبريل سنة ١٢٦٠م يستنجدون به، وضح فيها ميلهم إلى المسلمين، وتفضيلهم التعامل معهم، بل انطوت هذه الرسالة على حزن وأسى لسقوط حلب وحمص وحماه في أيدى المغول، وعلى ما حل بالأيوبيين في بلاد الشام من كوارث على أيدى المغول، وكان متوقعاً أن يلتمس الفرنج مساندة المماليك ضد المغول، وطلب معاونتهم ضد ذلك الشعب المتبربر ، فلا شك أن غالبية فرنج الشام كانوا يرفضون التحالف مع المغول، أو الاعتماد على مساعدة المغول ضد المسلمين[٤٦] .

وحين اعتلى عرش أرمينيا الصغرى الملك هيثوم الثانى، الذى خلف والده ليو الثالث سنة ١٢٨٩م ، انتهز هذا الملك فرصة مصرع السلطان خليل بن قلاون سلطان المماليك في أواخر سنة ١٢٩٣م ، وما حدث من اضطرابات داخلية في مصر والشام، وأوبئة ومجاعات، فراح يوطد صلاته بمملكة قبرص التى أضحت البقية الباقية من مملكة بيت المقدس الصليبية[٤٧] ، ثم توجه لزيارة خان المغول في فارس لتجديد التحالف مع المغول، وكان غازان قد نجح في انتزاع السلطة هناك، فتوجه إليه هيثوم الثانى، وبذل يمين التبعية، وحصل منه على وعد ببذل المساعدة الحربية لأرمينيا الصغرى، وتعهد بألا تضار الكنائس المسيحية أو تتعرض للتدمير[٤٨] .

والراجح أن تبخر آمال المغول في التحالف مع غرب أوربا، لم

---

(46) Runciman : op. cit. 111, p. 408

(٤٧) العرينى : المغول ص ٣١٩

(48) Runciman : op. cit. 111, p. 428

يحرك ملك أرمينيا المسيحى فقط، وإنما أحيا أيضاً آمال من ارتبطوا بصداقة المغول من قبل، فقد التمس الملك هيثوم الثانى عند عودته من الشرق سنة ١٢٩٥م صداقة البيزنطيين، ربما مؤملاً ضمهم إلى حلفه ضد المسلمين(٤٩) ، فتوجه إلى القسطنطينية لعقد محالفة مع بيزنطة ودعم هذه المحالفة بمصاهرات سياسية معهم، وإذا كان هيثوم الثانى هذا قد تعرض لبعض المتاعب في بلاده من قبل أخيه الذى نجح في اغتصاب السلطة في أرمينيا الصغرى لسنوات، إلا أن هيثوم الثانى عاد مرة أخرى إلى العرش سنة ١٢٩٩م ، بعد أن كان المماليك قد غزوا بلاده، واستولوا على كثير من مدنها وقلاعها(٥٠) .

ويشير المؤرخون إلى أن المغول نهضوا لمساعدة حليفهم هيثوم هذا، فوجهوا ثلاث حملات لمهاجمة بلاد الشام في السنوات ١٢٩٩، ١٣٠١، ١٣٠٣ م ، إلا أن هذه الحملات كلها انتهت بالفشل الذريع، وتراجع المغول إلى بلادهم، بل نجح المسلمون في إنزال هزائم ساحقة بالمغول والقوات الأرمينية سنتى ١٣٠٢، ١٣٠٤م (٥١) ، فدفعت أرمينيا ثمن اندفاعها في التحالف مع المغول، فأدوا الإتاوة للمغول وتعرضت بلادهم للتخريب من قبل المماليك، فضلاً عما نشب في قليقية من حروب داخلية، ومن خطورة من قبل الأتراك بآسيا الصغرى، وانتهى الأمر بأن فقدت استقلالها تماماً في مستهل الربع الأخير من القرن الرابع عشر الميلادى(٥٢) .

---

(49) Morgan : op. cit. p. 185

(50) Ibid. p. 185

(٥١) العرينى : المغول ص ٣١٩

(٥٢) العرينى : نفسه ص ٣٢٠

وإذا كان فرنج الشام قد مالوا ناحية المسلمين، وعزفوا عن محالفة المغول للأسباب التى عرضناها، إكمالاً لما سبق أن أشرنا إليه، من فشل أوربا في التحالف العسكرى مع المغول، واقتصار الأمر على وعود من قبل خانات المغول، بتقديم المساعدة والمشاركة في أعمال عسكرية مع مسيحى أوربا، إذا أقدم حكام أوربا وأمرائها على تقديم فروض الطاعة والولاء للخان الأعظم المغولى، واعتبروا أنفسهم أتباعاً للخان الأعظم سيد العالم الأوحد[٥٣] ،فقد قابل ذلك ما أظهره مغول القفجاق، خاصة بركة خان الذى اعتنق الإسلام، من عطف على المسلمين وميل لهم ورغبة في التحالف معهم، بعد أن أزعجه ما فعله هولاكو بالمسلمين من قتل وتخريب وقتله الخليفة العباسى وتدميره بغداد[٥٤] .

فقد أعلن بركة خان القبيلة الذهبية أو مغول القفجاق، أن هولاكو فعل ما فعله بالمسلمين، وأطاح بعروش ملوكهم، دون أن يستشير أقاربه أو يأخذ رأيهم في قتله الخليفة العباسى، وقام بركة خان بالدعاء أن ينتقم الله من هولاكو للدماء البريئة التى سفكها، فأبان بركة خان بهذا عن استعداده التحالف مع المماليك في مصر والشام ضد عدوهم المشترك مغول فارس، وأظهر رغبة أكيدة في التقارب مع المسلمين ضد خانية فارس المغولية [٥٥] .

ويذكر المؤرخون أنه جرت سفارات ومراسلات بين السلطان المملوكى الظاهر بيبرس، وبين هذا الخان وذلك سنة ١٢٦٢ — ١٢٦٣/

---

(53) Runciman : op. cit. 111, p. 296

(٥٤) القلقشندى : صبح الأعشى ص ٤٧٣
فؤاد عبد المعطى الصياد : المرجع السابق ص ٤١ (حاشية ٤)

(55) Morgan : op. cit. pp. 143 - 4

٦٦١هـ ، حين وجه بيبرس الفقيه مجد الدين والأمير سيف الدين كشتك إلى بلاط بركة خان(٥٦) ، ومعهما رسائل وكتب تضمنت أحوال المسلمين والإسلام، ومبايعة الخليفة العباسي في القاهرة، ووصف جند الإسلام ومدى كثرتهم، وعدد أجناسهم من أتراك وتركمان وأكراد وغير ذلك، وتضمنت أيضاً التودد إلى بركة خان، ومحاولة استمالته، وحثه على الجهاد للقيام بعمل مشترك ضد مغول فارس، خاصة وقد بلغت قوة المسلمين شأواً بعيداً وجنودهم سامعين طائعين(٥٧) .

وسار مع هذه السفارة رجلان من التتار من رجال بركة خان ليقودا هذه السفارة عبر الطرق والمسالك إلى مضارب القبيلة الذهبية أو مغول القفجاق واستمرت الاتصالات والتقارب مع مغول القفجاق والمماليك في مصر جارية فترة طويلة(٥٨) .

غير أن هذه المراسلات جرت في الوقت الذى نشبت فيه الحرب فعلاً بين بركة خان وهولاكو خان فارس، لاسيما وقد سارت الحرب في أول الأمر في صالح هولاكو الذى استطاع في أواخر سنة ١٢٦٢م ، أن يجتاز دربند، وأن يتقدم إلى شمال القوقاز، وأن يتقدم في مضارب القبيلة الذهبية أو مغول القفجاق، قبل أن تتحول الحرب في صالح بركة خان، الذى نجح في شن هجوم مفاجيء على قوات هولاكو على شاطيء نهر تريك Terek أجبرها على الارتداد تجاه آذربيجان(٥٩) .

---

(٥٦) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج١ ص ٤٧٩ — ٤٨٠
(٥٧) العرينى : المغول ص ٢٦٨ — ٢٦٩
المقريزى : المصدر السابق ج١ ص ٤٨٠
(58) Halperin : Russia in the Mongol Empire, pp. 250-1
(٥٩) العرينى : المغول ص ٢٦٩

وإذا لم تتح الفرصة لظهور تعاون عسكرى بين مغول القفجاق والمماليك في مصر والشام، وخروج تحالفهما إلى حيز الوجود، في ذلك الوقت، فذلك لأن موقف مغول فارس بدا يزداد حرجاً بسبب موالاتهم للمسيحية والمسيحيين ومناهضتهم للإسلام(٦٠) ، فقد اعتنق الإسلام مغول القفجاق في جنوب روسيا، ثم مغول التركستان في الوقت الذى استقرت فيه الأمور للمماليك في مصر والشام، فأضحى بيت هولاكو، بين شقى الرحا، يطوقه المسلمون من جهتين: مغول القفجاق والتركستان من جهة، والمماليك بمصر والشام من جهة أخرى(٦١) ، فأحاط بهولاكو ومغول فارس الأعداء من وراء الأنهار الهامة: نهر جيحون من ناحية والقوقاز من ناحية ثانية ونهر الفرات من الناحية الثالثة .

وترتب على ذلك أنه لم يعد بوسع هولاكو وخلفاؤه، أن يقدموا المعاونة العسكرية لكل من الأرمن وفرنج أنطاكية، دون أن يتعرضوا لهجمات مغول القفجاق في جنوب روسيا ومغول تركستان من ناحية، ودون أن يكون لذلك رد فعل من قبل المماليك في بلاد الشام ومصر من ناحية أخرى(٦٢) ، فترك الباب مفتوحاً أمام المماليك لمهاجمة الأرمن والفرنج — كما رأينا — الأمر الذى كان له أثر سيء على وضع هذين الكيانين المسيحيين اللذين طالما تمتعا بتأييد ومساندة مغول فارس(٦٣) ، قبل أن تلحق بهؤلاء هزيمة عين جالوت، وتطوقهم قوات المسلمين من جهات متعددة، بما في ذلك قوة أقاربهم مغول القفجاق في جنوب روسيا.

---

(60) Cahen : Introduction á l'histoire de L'Asie, pp. 423 – 4
, p. 426 – 31

(61) Runciman : op. cit. 111, p. 319

(62) Howorth : Hist. of the Mongols, pp. 218 – 25

(٦٣) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٤٩٨ – ٤٩٩

فما جرى من علاقات مودة وتحالف بين خانات القفجاق والمماليك، ارتبط من جهة بإسلام بركة خان، وما أظهره من ميول طيبة نحو المسلمين، كما ارتبط من جهة أخرى بكراهيته وعداوته لأبناء عمومته بيت هولاكو في فارس[٦٤] ، الذين أمعنوا في كراهيتهم للمسلمين، على الرغم من أنهم كانوا حتى ذلك الوقت بوذيين، وكان اغتصابهم لبعض أملاك بيت جوجي الذى ينتمى إليه بركة خان عاملاً هاماً في ازدياد الكراهية بين هذين الفرعين من فروع المغول[٦٥] .

ويبدو أن بيبرس أدرك تعذر الاتصال بينه وبين مغول القفجاق بسبب وقوع قوى معادية في الطريق تمنع هذا الاتصال، من القوى التابعة لمغول فارس أو الدائرة في فلكهم، كمملكة الكرج ومملكة أرمينيا الصغرى، فضلاً عن فرنج أنطاكية، وبقية الكيان الصليبى في بلاد الشام[٦٦] ، فكان عليه أن يفكر في طرق أخرى للاتصال بحلفائه مغول القفجاق في جنوب روسيا، فقرر أن تتخذ السفارات المتبادلة معهم طريق البحر، بعد السعى للحصول على موافقة القوى البحرية المتحكمة في هذا الطريق من ناحية، ومحاولة تأمين مسافات أخرى من هذا الطريق من

(64) Setton : The Papacy and the Levant, p. 97

(٦٥) القلقشندى : صبح الأعشى ص ٤٧٣
سعيد عاشور : العصر المملوكى في مصر والشام ص ٢٢٤ (ط٢ – القاهرة ١٩٧٦)
حياة ناصر الحجى : العلاقات بين دولة المماليك ودولة مغول القفجاق (حوليات كلية الآداب جامعة الكويت – الحولية الثانية . الرسالة الثانية ١٩٨١م)

(66) Cahen : op. cit. p. 650 – 2
Setton : Hist. of the Crusades, Vol. 11, p. 652 (N. 3)

ناحية أخرى(٦٧) .

وأثمرت العلاقات الطيبة بين السلطان الظاهر بيبرس وبركة خان عن نوع من التعاون والرؤي الواحدة للقضايا السياسية، إذ كان المغول قد نصبوا سلطانيين سلجوقيين، في حكم الأناضول، هما قلج أرسلان وأخيه كيكاوس، وخضع قلج أرسلان كلية لأوامر المغول، فضلاً عن تحالفه مع الإمبراطور البيزنطى ميخائيل لاسكارس، الأمر الذى شجعه على خلع أخيه كيكاوس من أملاكه، بأمر المغول(٦٨) ، فلجأ كيكاوس هذا سنة ١٢٦٣م / ٦٦٢هـ إلى بركة خان وبيبرس، فتلقى المساعدة منهما مما يؤكد أن رؤية كل من بركة خان والظاهر بيبرس تطابقت في هذه القضية من ناحية فضلاً عن وقوفهما معاً ضد مصالح مغول فارس من ناحية أخرى(٦٩) .

وفي سبيل تأمين طرق اتصال مغول القفجاق بالمماليك، خاصة الطرق البحرية التى أشرنا إليها من قبل، اتضحت أهمية بيزنطة وموقعها الذى يتحكم في طرق الاتصال بين مغول القفجاق والمماليك، خاصة وقد كانت أهواء بيزنطة مع مغول فارس، وتحالف ميخائيل الثامن باليولوجس مع هولاكو ثم مع ابنه أبغا(٧٠) ، غير أن مغول القفجاق تحالفوا مع البلغار، فأنزلوا هزيمة بالإمبراطور البيزنطى سنة ١٢٦٤م ، وكاد ميخائيل الثامن يلقى حتفه في تلك الحرب، ثم واصل

---

(٦٧) العرينى : المغول ص ٢٨٠

(٦٨) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ١٠٨

(69) Morgan: op. cit. : pp. 142 – 5

(٧٠) فؤاد عبد المعطى الصياد : المرجع السابق ص ٥٥
عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ١٥٥

مغول القفجاق هجماتهم على أملاك بيزنطة فضلاً عما سببه البلغار من متاعب لبيزنطة في ذلك الوقت(٧١) .

لهذا سعى الإمبراطور البيزنطى ميخائيل الثامن لتسوية الخلاف مع مغول القفجاق بجنوب روسيا، فأضحت العلاقات وثيقة بين بيزنطة ومغول القفجاق والمماليك، وتزايد تبادل السفارات بين مغول القفجاق وسلاطين المماليك، بعد أن أمنت الطرق، خاصة البحرية بين الجانبين، بتأييد بيزنطة فأضاف هذا أعباء جديدة على مغول فارس أعداء المسلمين ومغول القفجاق(٧٢) .

ولا شك أن وفاة هولاكو بعد ذلك سنة ١٢٦٥م ، أضعفت مركز المغول في مرحلة بالغة الحرج(٧٣) ، لاسيما وقد لحقت به بعد شهور قطز خاتون التى كان لها دور كبير فيما جرى من انحياز هولاكو للمسيحيين، وتحالفه معهم ووقوفه إلى جانب الأرمن والفرنج وتقريب النساطرة وغيرهم من المسيحيين الشرقيين(٧٤) ، فضلاً عن تهديد مغول القفجاق أملاك فارس كل ذلك أوقف إلى حد ما مشروعات مغول فارس العسكرية وتحالفهم ضد المسلمين .

وهكذا كان تحالف مغول القفجاق في جنوب روسيا مع المماليك في مصر والشام رداً على تحالف مغول فارس مع الأرمن وصليبى الشرق، وإذا كان الإمبراطور البيزنطى قد ارتبط بعلاقات المودة والصداقة

---

(٧١) العرينى : المغول ص ٢٨٢

(72) Morgan : op. cit. pp. 142 – 5

(٧٣) العرينى : نفسه ص ٢٧٩

(٧٤) عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ١٤٩

والمصاهرة مع المغول في فارس، فقد نجح مغول القفجاق والمماليك في إرغامه على تغيير مسار علاقاته السياسية، وتحويلها إلى الجانب الآخر، فتوثقت العلاقات بين بيزنطة ومغول القفجاق والمماليك، فأسهم ذلك في تسهيل الاتصال بين طرفى هذا التحالف [٧٥] ، أى بين مغول القفجاق والمماليك بتأمين طرق الاتصال البحرى بينهما وتسهيل هذه الاتصالات، فتبودلت السفارات بين الجانبين، لتلقى أعباء جديدة على مغول فارس وحلفائهم في الشرق[٧٦] .

وتكاثرت بمرور الأيام العراقيل أمام مغول فارس، لتحقيق ما أملوا في تحقيقه مع تحالفهم مع أوربا ومسيحى الشرق ضد المسلمين، ولم يظفروا بطائل في هذه الناحية، وفي الوقت نفسه تصاعدت بمرور الأيام قوة المماليك في مصر والشام، الذين استطاعوا تصفية الكيان الصليبى في الشرق[٧٧] ، واستردوا أنطاكية ثم طرابلس وهدموا بقايا مملكة بيت المقدس الاسمية في عكا، ولم يكن بوسع مغول فارس أن يقدموا لهم المساعدة أو ينهضوا لحمايتهم للأسباب التى أشرنا إليها، ثم كان تحول خانات فارس المغول إلى الإسلام وتزايد انتشار الإسلام بين رعاياهم[٧٨] نهاية لنشاط هذه الخانية ضد المسلمين في الشرق .

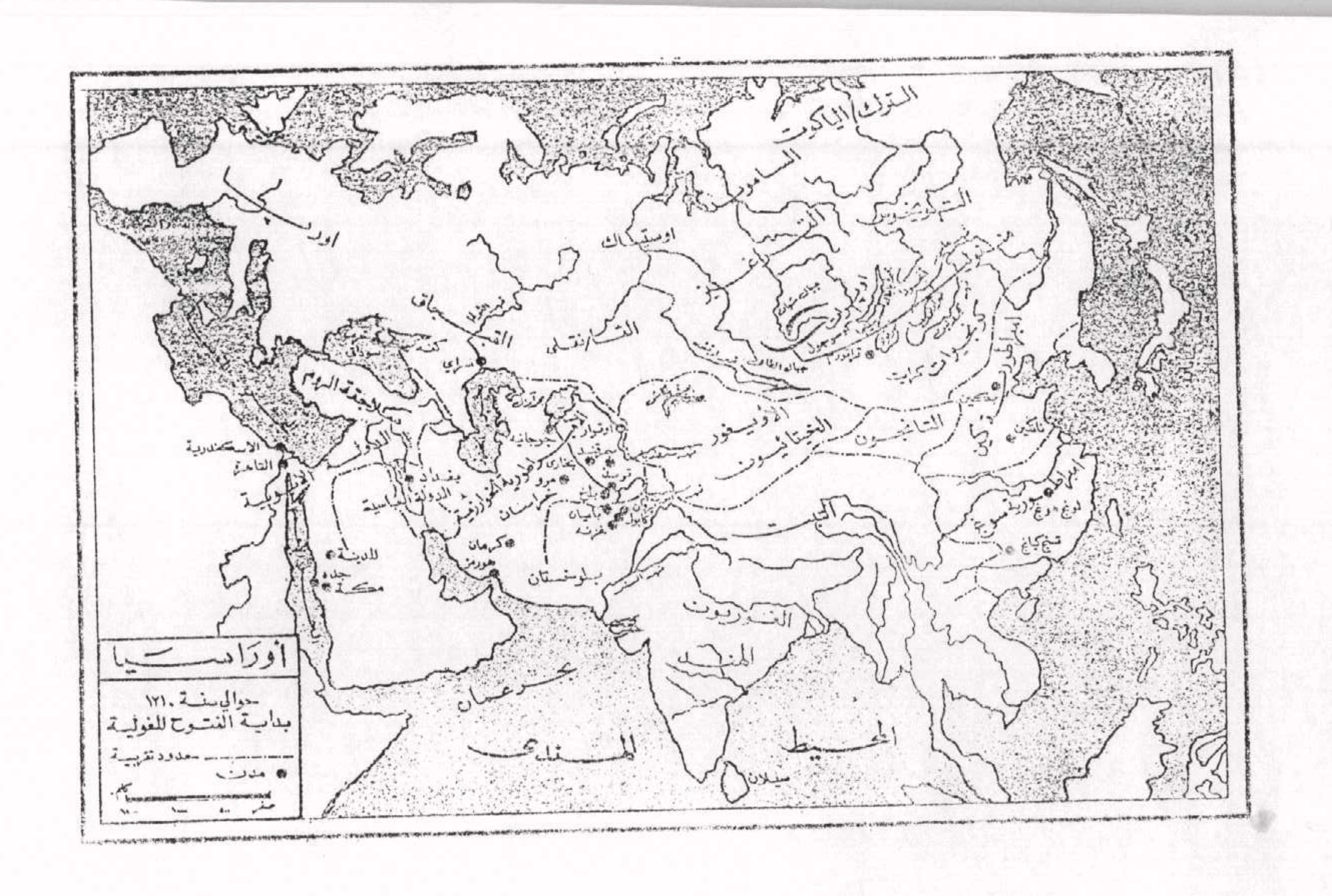
---

(75) Morgan : op. cit. p. 145

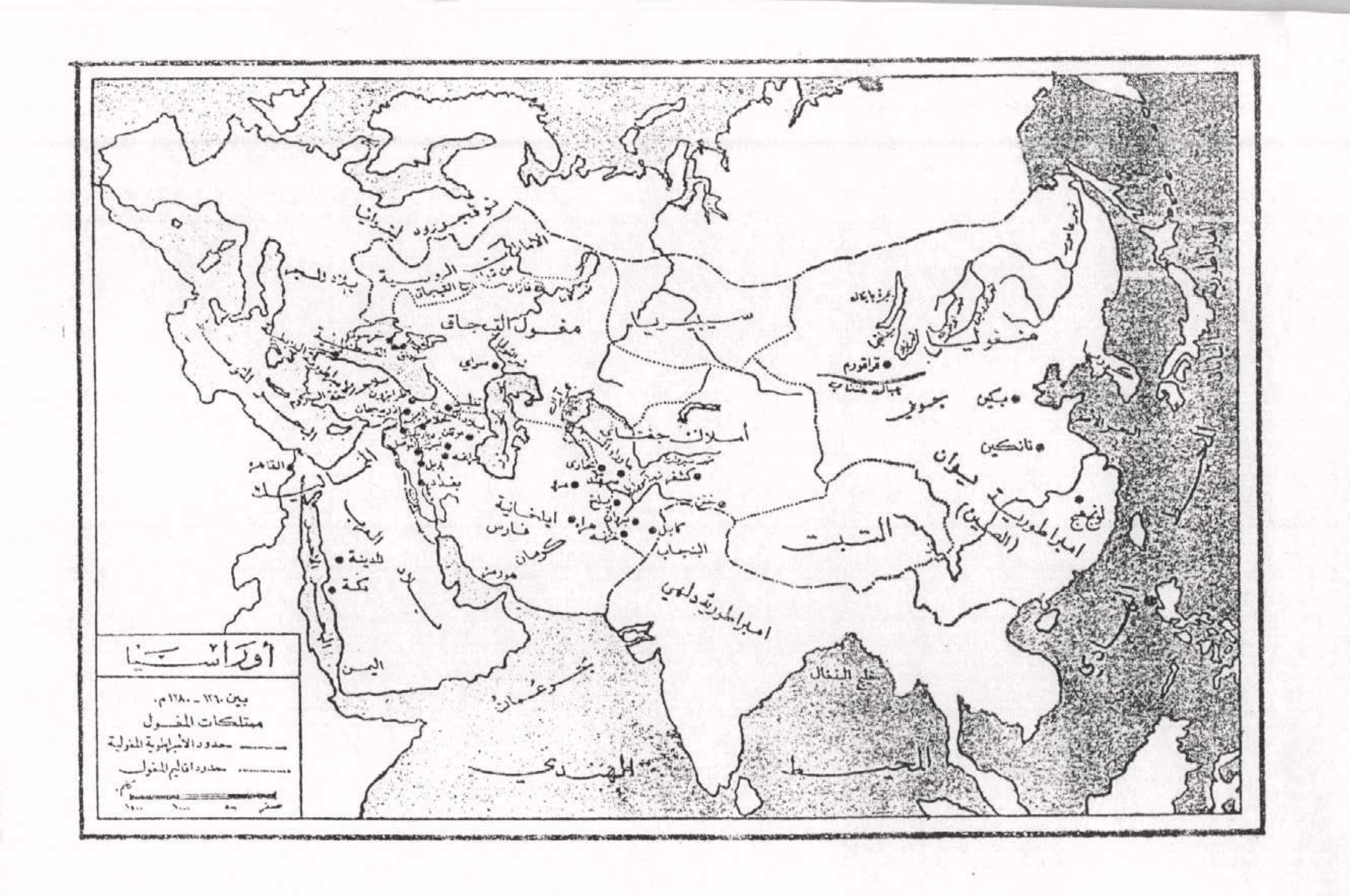
(٧٦) العرينى : المغول ص ٢٨٠

(77) Grousset : L'Empure Mongol. Vol. 111, p, 727

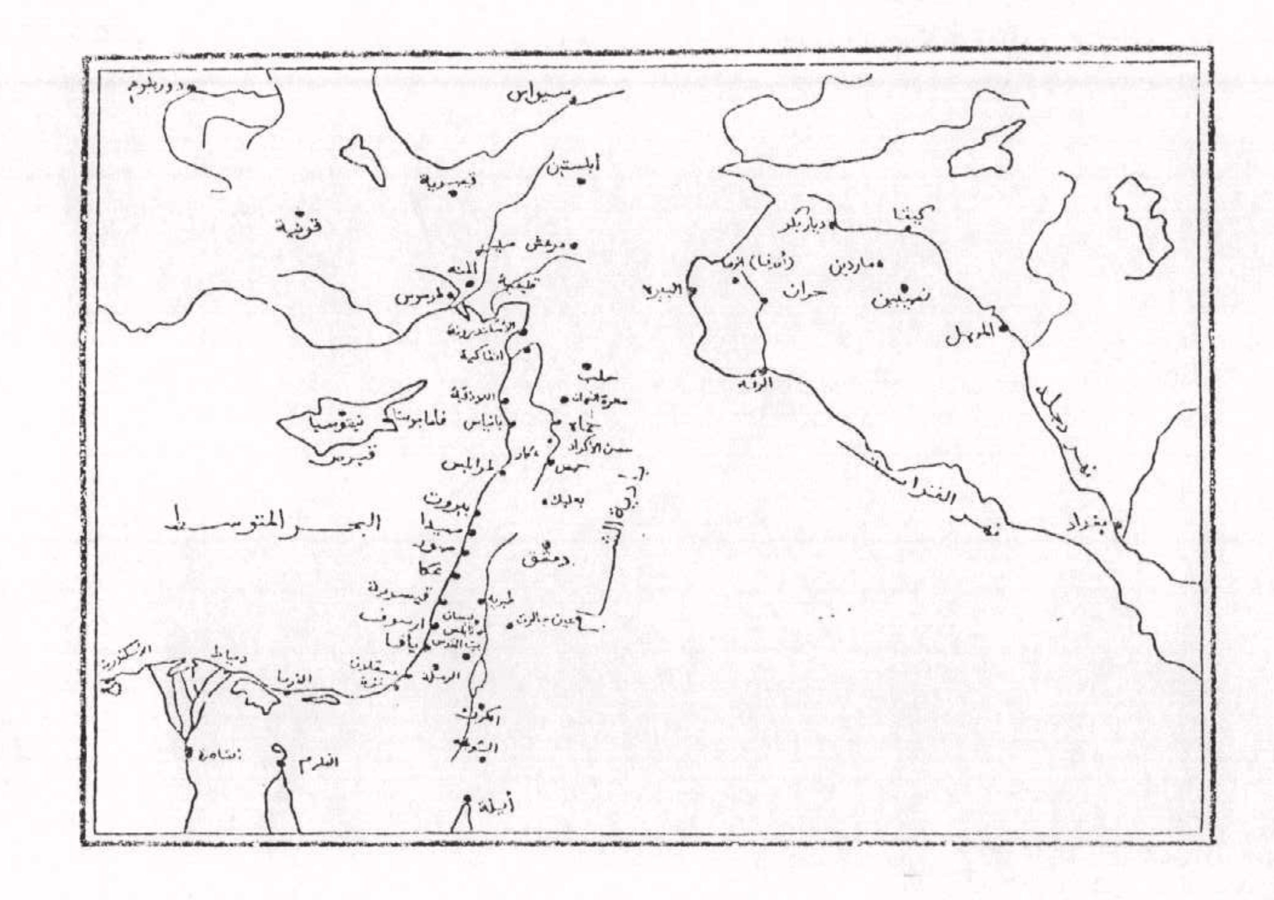
(٧٨) العرينى : المغول ص ٣١١



أوراسيا
حوالي سنة ١٢١٠
بداية الفتوح المغولية
حدود تقريبية
مدن
صفر
كم
الترك الياكوت
الساموي
التونغوز
أوستياك
القبجاق
سراي
الأويغور
الخيتائيون
التانغوت
التبت
بلاد الروم
الإسكندرية
القاهرة
بغداد
الدولة العباسية
خوارزم
بخارى
سمرقند
مرو
خراسان
بلخ
باميان
كابول
غزنة
كرمان
هرمز
بلوخستان
المدينة
جدة
مكة
الهند
بحر عمان
المحيط
سيلان



أوراسيا
بين ١٢٦٠ - ١٢٨٠م.
ممتلكات المغول
حدود الأمبراطورية المغولية
حدود اقاليم المغول
مغول القبجاق
سيبريا
منغوليا
قراقورم
بكين
نانكين
التبت
امبراطورية يوان (الصين)
امبراطورية دلهي
اسلان جغتاي
ايلخانية
فارس
كرمان
هرمز
البنجاب
كابل
بلخ
بخارى
سراي
تبريز
بغداد
المدينة
مكة
اليمن
القاهرة
خليج البنغال
المحيط الهندي


سيواس
أبلستين
قيسارية
قونية
مرعش
تل حمدون
طرسوس
الاسكندرونة
انطاكية
حلب
معرة النعمان
اللاذقية
بانياس
حماة
حصن الأكراد
حمص
طرابلس
بعلبك
بيروت
صيدا
صور
عكا
دمشق
قيسارية
ارسوف
يافا
بيت المقدس
عسقلان
غزة
الكرك
الشوبك
أيلة
القلزم
دمياط
الاسكندرية
قبرص
نيقوسيا
البحر المتوسط
بادية الشام
كيفا
ديار بكر
ماردين
حران
نصيبين
الموصل
البيرة
الرها
الفرات
دجلة
بغداد

المصادر العربية والأجنبية
المراجع العربية والمعربة والأجنبية

ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن على الجزرى) :

– الكامل في التاريخ (ط مصر ١٣٤٨ – ١٣٥٨ هـ)

ابن الجوزى (أبو المظفر شمس الدين) :

– مرآة الزمان في تاريخ الأعيان (نشر شيكاغو سنة ١٩٠٧م)

ابن حجر العسقلانى (شهاب الدين بن على) :

– الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (حيدر أباد سنة ١٣٤٩هـ)

ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) :

– العبر وديوان المبتدأ والخبر (القاهرة ١٨٦٧)

ابن شاكر الكبتى (محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن):

– فوات الوفيات (القاهرة ١٩٥١م)

ابن كثير (عماد الدين أبو الفدا اسماعيل ب عمر):

– البداية والنهاية في التاريخ (القاهرة ١٩٣٨ م / ١٣٥٧ هـ)

ابن العبرى (غريغوريوس الملطى):

– تاريخ مختصر الدول

(تصحيح الأب أنطون صالحانى اليسوعى – بيروت ١٩٨٣م)

ابن العماد الحنبلى (عبد الحى أبو الفلاح) :

– شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٨ أجزاء ١٣٥٠هـ)

ابن القوطى (كمال الدين عبد الرازق بن تاج الدين أحمد):

– الحوات الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة

(بغداد ١٩٣٢/ ١٣٥١هـ)

ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم):

– مفرج الكروب في أخبار بنى أيوب (تحقيق الشيال٤ج وربيع ج٥)

ابن الوردى (أبو حفص زين الدين عمر بن مظفر ابن عمر):
- تتمة المختصر في أخبار البشر (ط بولاق ١٢٨٥هـ)
أبو شامة (شهاب الدين محمد بن إسماعيل):
- الذيل على الروضتين في أخبار الدولتين (نشر العطار سنة ١٩٤٧)
أبو الفدا (الملك المؤيد إسماعيل):
- المختصر في أخبار البشر (ط مصر وط أوربا)
أبو المحاسن ابن تغرى بردى:
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (القاهرة سنة ١٩٣٣)
الديار بكرى (حسين بن محمد):
- تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس (ط ١٨٦٦م/ ١٢٨٣)
الذهبى (الحافظ – شمس الدين محمد ابن أحمد بن عثمان الذهبى):
- العبر في خبر من غبر (الكويت ١٩٦٦ / ١٣٨٦هـ)
رشيد الدين فضل الله
(فضل الله بن عماد الدولة أبى الخير بن موفق الدولة) :
- جامع التواريخ (نشر كاترمير سنة ١٨٣٦)
السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد) :
- تاريخ الحلفاء وأمراء المؤمنين بأمر الأمة .
القرمانى (أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد):
- أخبار الدولة وآثار الأول (ط١ بيروت)
القلقشندى (أبو الحسن العباس أحمد):
- صبح الأعشى في صناعة الانشا (مصر ١٩١٤ / ١٩١٥م)
مفضل بن أبى الفضائل :
- النهج السديد والدرر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد
(باريس ١٩١١- ١٩٣٠م)

المقريزى (تقى الدين أحمد بن على):

– السلوك لمعرفة دول الملوك (نشر د. زيادة ١٩٣٤ – ١٩٣٩م)

النسورى (نور الدين محمد بن أحمد بن على بن محمد المنشى):

– سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى

(نشر حافظ حمدى القاهرة سنة ١٩٥٣م)

ياقوت الحموى (شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى):

– معجم البلدان (ثمانية أجزاء ط دار السعادة ١٩٠٦م)

- Ammianus Marcelinus: The Huns
  (Trans. By yong in Medieval World by Cantor)
- Einhard : " Life of Charlemagne "
  In Medieval World by Cantor
- Mathew Paris's English History,
  (Vol. 1 from the year 1235 to 1244)
  (Vol. 2 from the year 1244 to 1252)
  (Vol. 3 from the year 1252 to 1273)
- Roger of Hoveden: The Annals of Roger pf Hovesen
  2 Vol.
- Roger of Wendover: Flowers of History, 2 Vol

ابراهيم أحمد العدوى (دكتور) :

- التاريخ الإسلامى آفاقه السياسية وأبعاده الحضارية

(ط١ القاهرة ١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م)

أحمد شلبى (دكتور) :

- موسوعة التاريخ والحضارة الإسلامية

(ط١ القاهرة ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٧م)

أحمد محمود الساداتى (دكتور) :

- تاريخ الدول الإسلامية بآسيا وحضارتها

(ط١ القاهرة ١٤٠٠هـ/ ١٩٧٩م)

- الدولة الإسلامية في شبه القارة الهندية وإيران وبلاد ما وراء النهر وأفغانستان.

السيد الباز العرينى (دكتور) :

- تاريخ أوربا في العصور الوسطى (بيروت لبنان ١٩٦٨)
- الدولة البيزنطية (القاهرة ١٩٦٥م)
- المغول (بيروت ١٩٨٦م/١٤٠٦هـ)

جمال حمدان (دكتور) :

- أنماط البيئات (ط١ القاهرة ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م)

حاطوم (نور الدين) :

- تاريخ العصر الوسيط في أوربا (لبنان ١٩٦٧م — ١٣٨٦هـ)

حافظ أحمد حمدى :

- الدولة الخوارزمية والمغول — القاهرة ١٩٤٩ م
- الشرق الإسلامى قبيل الغزو المغولى — القاهرة ١٩٥٠م

حسنين ربيع (دكتور) :

- دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية (القاهرة ١٩٨٣)

حياة ناصر الحجى (دكتورة) :

– العلاقات بين دولة المماليك ودولة مغول القفجاق
(حوليات كلية الآداب جامعة الكويت، الحولية الثامنة ١٩٨٠م)

سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) :

– أوربا العصور الوسطى جزءان (القاهرة ١٩٦٦م)
– العصر المماليكى في مصر والشام (ط٢ — القاهرة ١٩٧٦م)

عادل هلال (دكتور) :

– العلاقات بين المغول وأوربا وأثرها على العالم الإسلامى
(ط أولى ١٩٩٧م)

عبد السلام فهمى (دكتور) :

– تاريخ الدولة المغولية في إيران (القاهرة ١٩٨١م)

فايد حماد عاشور (دكتور) :

– العلاقات السياسية بين المماليك والمغول
(ط١ القاهرة ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م)

فؤاد عبد المعطى الصياد (دكتور) :

– الشرق الاسلامى في عهد الإيلخانيين (الدوحة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)

محمد السيد غلاب :

– تطور الجنس البشرى (ط١ الإسكندرية ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م)

محمد كرد على (دكتور) :

– خطط الشام (ط٢ بيروت ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢م)

محمد ماهر حمادة (دكتور) :

– وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولى للعالم الإسلامى
(بيروت ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م)

محمد مصطفى زيادة (دكتور) :

– حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة

(القاهرة ١٢٦١)

مصطفى ط بدر (دكتور) :

– مغول إيران بين المسيحية والإسلام (دار الفكر العربى — القاهرة)

وسام عبد العزيز فرج (دكتور) :

– دراسات في تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية

(الإسكندرية ١٩٨٣)

محمد محمد مرسى الشيخ (دكتور) :

– الممالك الجرمانية في أوربا في العصور الوسطى

(الإسكندرية ١٩٧٥)

– تاريخ أوربا في العصور الوسطى (الإسكندرية ١٩٩٠)

– النظم والحضارة الأوربية في العصور الوسطى

(الإسكندرية ١٩٩٧)

– تاريخ الإمبراطورية البيزنطية (الإسكندرية ١٩٩٨)

– عصر الحروب الصليبية في الشرق (الإسكندرية ١٩٩٨)

إدوارد بروى :

– تاريخ الحضارات العام (القرون الوسطى)

(ط١ لبنان ١٩٦٥ ترجمة يوسف أسعد)

أرنولد (توماس) :

– الدعوة إلى الإسلام

(ط٣ ترجمة حسن ابراهيم حسن وعبد المجيد عابدين القاهرة ١٩٧٤م)

إيلين بور :

- نماذج بشرية من العصور الوسطى

(ط١ ترجمة محمد توفيق حسن — بيروت ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٧م)

بارتولد (فلاديمير) :

- تاريخ الترك في آسيا الوسطى

(ترجمة د. أحمد السعيد سليمان — القاهرة ١٩٥٨م)

- تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى

(الكويت ١٤٠١هـ / ١٩٨١م)

براون (إدوارد) :

- تاريخ الأدب في إيران

(نقله إلى العربية أمين الشواربى — القاهرة ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م)

بروكلمان (كارل) :

- تاريخ الشعوب الإسلامية

(نقله إلى العربية نبيه أمين ومنير البعلبكى بيروت ١٩٤٩)

جوانفيل :

- القديس لويس حياته وحملاته على مصر والشام (ترجمة حبشى)

رالف لنتون :

- شجرة الحضارة ج٢ (ط١ ترجمة أحمد فخرى القاهرة)

ف بان (الصينى) :

- جنكيزخان سفاح الشعوب

(ط١ ترجمة صوفى عبد الله– القاهرة ١٣٧١/ ١٩٥١م)

فاز يلييف :

- العرب والروم (ترجمة محمد عبد الهادى سفيرة)

فشر:

– تاريخ أوربا في العصور الوسطى (ترجمة زيادة والعرينى والعدوى)

كانتور :

– التاريخ الوسيط (ترجمة قاسم عبده قاسم)

كرمب وجاكوب :

– تراث العصور الوسطى (ترجمة بدران وزيادة)

كولتون :

– عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة

(ترجمة جوزيف نسيم يوسف)

لاسترانج (كى) :

– بغداد في عهد الخلافة العباسية

(ترجمة بشير فرنسيس بغداد ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م)

موس :

– ميلاد العصور الوسطى

(ترجمة عبد العزيز جاويد ومراجعة العرينى)

ماركو بولو :

– رحلات ماركوبولو

(الترجمة العربية والمقدمة التى كتبها جون ميسفيلد للترجمة الإنجليزية للرحلات — القاهرة ١٩٧٧) ، (والترجمة التى قام بها الاستاذ عبد العزيز جاويد القاهرة — ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧م)

هارولد لام :

– جنكيزخان وجحافل المغول

(ترجمة مترى أمين القاهرة ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤م)

هامرتن (جون) :
- تاريخ العالم ج ٥ (ترجمة وزارة التربية والتعليم — القاهرة)
هلستر :
- أوربا في العصور الوسطى (مترجم)

Adams :
- The History of England .
- Medieval Church.

Altamira :
- A History of Spain from the beginning to the present Date (trans. By Muna lee , London 1952)

Aziz Surial Atiya :
- The Crusades in the Later Middle Ages. (London 1938)

Baldwin, M. W. :
- The Medieval Church (N.Y. 1960)

Barthold W.:
- Turkestan down to the Mongol invasion (London 1928)

Brèhier, L. :
- L'Eglise et L'Orient au Moyen age les croisades (Paris 1928)

Brooke, E.:
- A History of Europe 911- 1198 (London 1928)
- The Saxon and Norman Kings (London 1963)

Browne E.:
- The Eclipse of Christianity in Asia (Cambridge 1933)
- A Literary History of Persia 11, 111, (Cambridge 1928, 1965)

Bryce, W. C. :
- The Holly Roman Empire (London 1904)

Budge Wallis :
- The Monks of Kublia Khan, introduction.
- History of the life and Travels of Rabban Souma, in Asia 1928.

Bury, J. B:
- History of the Roman Empire (London 1923)
- A History of the eastern Roman Empire (London 1912)

Cahun, C. :
- La Syrie du Nord á l'epoque des Croisades (Paris 1940)
- Introduction á L'histaire de L'Asie (Paris 1896)
- Cambridge Medieval History 8 ols. (1924)

Cantor, N.F. :
- Medieval History (New York 1964)
- The Medieval World 300- 1300 (Ed. By Cantor N. Y. 1968)

Chadwick, H.:
- The early Church (London 1967)

Chapman, C.:
- Studies in the arly papacy

Coulton, g.:
- Life in the Middle Ages 2 Vol.
- England under the Normans and Angerins
- Medieval Village, Manor and Monastery (N.Y. 1960)

Davis, R.H.:
- Medieval Europe (London 1970)
- Medieval Empire .

Davis and Arther:
- " The British Isles " B. H. V11

Deanesly:
- A History of Early Medieval Europe

D'Ohsson, M.:
- Histoire des Mongols depuis Tchinguiz Khan jusqu' á Timur Bec. 2 Vols. Amsterdam 1834–1835, 1852 (Paris 1824)

Douglas :
- The life of Jenghiz Khan (London 1877)

Dunlop, D. M. :
- The History of the Jewish Khazar (Princeton University Press 1967)

Durant:
- The Age of the faith (N. Y. 1950)

Eyre, E, :
- European civilization Vol.3 the middle ages (London 1935)

Fisher :
- A History of Europe.

Fliche:
- L'Europe Occidentale du 888,á1125 (Paris 1930)

Ganshof :
- Feudalism (London 1952)

Glubb :
- The lost centuries

Grousser, R.:
- Histoire des Croisades et du Royaume de Jerusalem 3 Vol. (Paris 1936)
- L'Empire Mongol
- L'Empire des Steppes (paris 1948)
- Histoire de L'Extreme Orient (Paris 1929)
- Le Monde Mongol, Histoire de L'Asie, 111, (Paris 1922)

Halperin :

- Russia in the Mongol Empire

Haskins, H:

- The Normans in European History (N. Y. 1959)
- The growth of English Representative Government (London 1948)

Heer, F:

- The Medieval World. Europe from 1100 to 1350 (trans. From the German by j. Sondheimer (London 1924)

Hearder and Waley :

- A History of Italy (Cambridge 1963)

Heyck Edward :

- " The rising tide of teuton Power" B.H. V11

Hodgkin :

- The Moulding of the Nations B.H. V11

Hoyck :

- "Rise of the Germanic race and the Coming of the Barbarians" B.H.V. VII

Howorth, H:

- History of the Mongols 5 Vols (London 1876- 1888)

Hoyt and Chodrow :
- Europe in the Middle Ages (U.S.A. 1976)

Hussey, J. M. :
- The Byzantine world (London 1967)

Jinkins :
- Byzantium , The imperial centuries AD 610-1071 (London 1966)

Katz, S.:
- The Decline of Rome and the Rise of Medieval Europe. (New York 1955)

Keen , S. :
- A History of Medieval Europe (London 1961)

King E. J. :
- The Knights Hospitallers in the Holly land (London 1931)

La Monte :
- The world of the Middle Ages (London 1949, 1966)

Lodge :
- The close of the Middle Ages 1273 – 1494 (Londn 1963)

Lot, F.:
- The end of the Ancient world and the Beginning of thwe middle Ages (London 1966)

Mahrenholz, R:
- " France through the Middle Ages " B. H. V. 111
- " The last of the old Capet" B. H. Vol. VII.
- "Evolution of Medieval France" B. H. Vol. VII .
Maitland:
- The Constitutional History of England
Mawer :
- The Vikings
Miller :
- The Balkans
Morfill :
- Russia
Morgan (David):
- The Mongols (1985)
Moss :
- The Birth of the Middle Ages
Nicholas :
- The Evolution of Medieval world .
Oman SirCharles :
- The Dark Ages 476-918 (London 1962)
Ostrogorski :
- History of the Byzantine State (Oxford 1956)
Painter :
- A History of the Middle Ages (New York 1954)

Pelliot. P. :

- "Les Mongols et la Papautè" R. de l'Orient Chrètien 3rd ser 111.

Pirenne, H. :

- Mohamed and Charlemagne (London 1968)

Prawdin :

- The Mongol Empire , its Rise and Legacy (N. Y. 1967)

Quatremere :

- Histore des Mongols de la Perse (Paris 1836)

Rayne r, R. M. :

- Concise History of Britain (London 1939)

Robinson :

- An Introduction to the History of western Europe.

Runciman Steven :

- History of the Crusades Cambridge Vol. 111 1954, (London 1971)

Saunders :

- The History of the Mongol conquest (1971)

Schjoth, Hans:

- "Great days of the Northmen" B. H. V11.

Seidlmayer, M.:

- Cutrents of Medieval thought (trans. By barker Oxford 1960)

Setton :

- A History of the Crusades, 2 Vols. (Pennsylvania 1958)
- The Papacy and the Levant 1204 – 1571, Vol. 1, (The Thirteenth and Fourteenth centuries) Philadelphia 1976

Simpson :

- Everyday life in the Viking Age (London 1969)

Southern; RW.:

- The making of the middle Ages (London 1967)
- Western Society and the church in the Middle Ages. (1979)

Stenton :

- Anglo Saxon England

Stephen :

- Hildebrand and his times (London 1914)

Strayer, Munro :

- The middle Ages (N. Y. 1942)

Stephenson :

- Medieval History
- Medieval Feudalism (N. Y. 1942)

Stevenson :

- The Crusaders in the East (1968)

Sullivan, R.E. :

- Heirs of the Roman Empire. (N. Y. 1960)

Sykes Sir Percy :

- A History of Persia Vol. 11 London 1963, (Oxford 1922)
- History of Bokhara. (London 1873)

Tille :

- " France under the early Capet" B. H. V11

Trevelyan :

- History of England Part 1 (London 1959)

Vambery, G:

- History of Bokhara
- The Golden Horde, Egypt and Byzantium.

Vasiliev, A:

- The Byzantine Empire (Madison 1952), (W. P. 1973)

Walker :

- Jenghiz Khan

Warner and Marten :

- The Ground work of British History (London 1942)

Wiet :

- L'Egypte Arabe , Histoire de Nation Egyptienne, IV (Paris 1937)